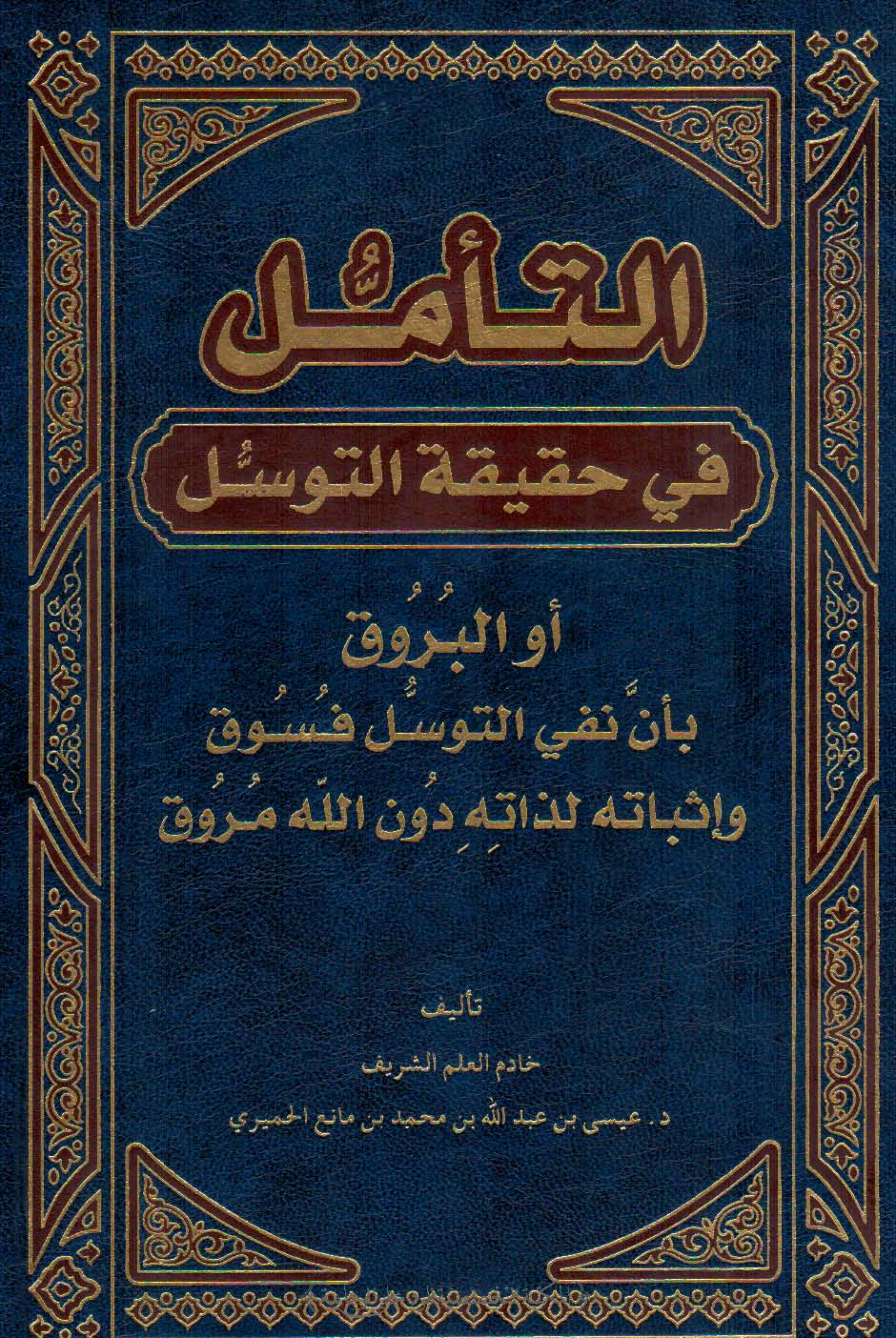
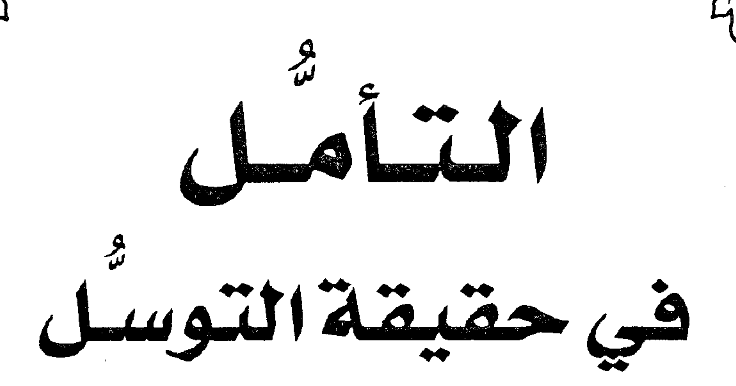

التأمُّل
في حقيقة التوسُّل
أو البُرُوق
بأنَّ نفي التوسُّل فُسُوق
وإثباته لذاتهِ دُون اللّه مُرُوق
تأليف
خادم العلم الشريف
د. عيسى بن عبد الله بن محمد بن مانع الحميري



التأمُّل في حقيقة التوسُّل

أو البُرُوق بأنَّ نفي التوسُّل فُسُوق وإثباته لذاتِهِ دُون اللّه مُرُوق

تأليف

خادم العلم الشريف

د. عيسى بن عبد الله بن محمد بن مانع الحميري

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة

(١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م)


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقريظ الحبيب العلامة سالم بن عبد الله بن عمر الشاطري

مدير رباط تريم الديني - حضرموت - اليمن

الحمد لله رفع بالعلم أناساً وأذل بالجهل آخرين، أحمده على نعمه التي شملت العالمين، وأسأله تبارك وتعالى أن يوفقنا لاتباع سيد المرسلين والسلف الصالحين، سلوكاً وعملاً وعقيدةً في كل وقت وحين، وأن يحفظنا من عقائد المضلّلين ويسلك بنا سبيل الهداة المهتدين، وأصلي وأُسلم على سيدنا محمد سيد المرسلين، وهو القائل: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد طلب مني الشيخ الفاضل العلامة الدكتور عيسي بن عبدالله بن محمد بن مانع الحميري حفظه الله تعالى، مؤلف كتاب «التأمل» المذكور أن أكتب تقريظاً على ذلك الكتاب حسن ظن منه، وإنني وإن كنت لست أهلاً لذلك ولكن نزولاً على حسن ظنه وتلبية لطلبه ورغبته بادرت إلى ذلك بعد مطالعتي وقراءتي للبعض من ذلك الكتاب واستدلالي بجزئه على كُلّه، فأقول: لقد وجدت ذلك الكتاب مفيداً في بابه وموضوعه، غزيراً في ما تضمنه من علم وأدلة، فإنه ناقش موضوع التوسل من أكثر جوانبه وأجاب عن أكثر الشبهات بأجوبة وردود تقنع المعترض إذا أنصف، وتلقمه حجراً إذا

لم ينصف، وقد دبّجه بعبارات جميلة فيها من البيان والبلاغة ما يجعلها تدخل إلى الجَنَان والآذان من غير استئذان، ولا شك أن موضوع الكتاب وهو التوسل موضوع مهم في الدِّين افترق الناس بسببه إلى فرق شتى، وأصبح بعضهم بسببه يكفر أو يفسق أو يخطئ بعضاً، لذلك اهتم العلماء قديماً وحديثاً بتأليف الكتب الكثيرة عنه، فجاء هذا الكتاب والحمد لله فجمع في موضوعه بين القديم والحديث، وأبان فيه الحق للمنصفين والحائرين، فجزى الله مؤلفه خير الجزاء.

وأسال الله أن ينفع به الأمة، وأن يكون سبباً لرجوع الكثير ممن اعتنق أفكار مُضِلَّة، وأن يبقى مؤلفه ذخراً للأمة مع العافية والنصر والتأييد والحفظ من كل مدلهمة، وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، ولا يجعله مشتبهاً علينا فنتبع الهوى، وأن يوحد كلمة المسلمين على الحق والهدى إن شاء الله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

كتبه الفقير إلى الله /

السيد سالم بن عبد الله بن عمر الشاطري

مدير رباط تريم - حضرموت - اليمن

٢٣ / ٤ / ١٤٢٤هـ

٢٣ / ٦ / ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي حفظ الحامدين من الزيغ والضلال، وأشهد أن لا إله إلا الله،مرام الوسيلة الحق ومطلبها، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله حقيقة الدين الخالص، والسبب الموصول الموصل إلى حقائق الإيمان ومقامات الإحسان بتوحيد الديان، أرسله الله رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً، وجعله الواسطة العظمى في كل ما يصل منه إلى خلقه من نعيم الدنيا والآخرة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد واسطة عقد الوجود، والوسيلة العظمى في وصول الخير إلى كل موجود، وأقرب رسل الله إلى الله وسيلة، من لا مطمع لأحد في نيل رتبته وإدراك أوصافه الجليلة، وفيصل الحق المعرِّف على الوسيلة والعبادة الحقة بمنطوق قوله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾(١)، وقوله: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ**﴾(٢)، وعلى آله الأطهار مجلى الرسالة، ورضي الله تبارك وتعالى عن أصحابه البررة الكرام، والأجلَّة الأعلام وسائل الفضيلة وأئمة الاقتداء لنيل الرتب الجليلة، المعرِّفين على معاني القول المبين، المتلخص في أن كل عبادة وسيلة، وليس كل وسيلة عبادة.

---

(١) من سورة المائدة الآية (٣٥).

(٢) من سورة الإسراء الآية (٥٧).

ورضي الله عن أتباعه الذين أقاموا منار ملّته، ونصبوا أعلام محبته، وأقروا بالعجز عن بلوغ كنه حقيقته، فاستوجبوا من جميل الذكر درجات عالية، وأجوراً متتالية، أما بعد:

فإن مما دعاني إلى الكتابة في هذا الموضوع، ما رأيته من تخبط بعض الناس في فهم حقيقة التوسل، والقول بمنعه وتبديع من يفعله، واتهامه عند بعضهم بالشرك والتضليل، ونظراً لخطورة هذه القضية وتخبطهم فيها، رأيت من الواجب عليّ أن أبيّن وجه الحق في هذا الموضوع، وأن أرد الأمور إلى نصابها، وأكشف النقاب عن أسباب الارتياب في هذا الباب، فاستخرت الله تعالى لهذا الغرض، فمنّ علي برؤيا مباركة في المدينة المنورة ـ على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ فهمت من تعبيرها الإذن بالشروع في تحبير هذا المؤلَّف، الذي تحريت فيه الدقة والتحقيق والإنصاف، بعيداً عن التعصب والتعسف والهوى، مستنيراً بكتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ، ومنهج سلفنا الصالح الذين هم أئمة العلم والهدى والتُّقى، وسميته «**التأمل في حقيقة التوسل**».

وبعد طباعة هذا السِّفر الطبعة الأولى سألني أحد السَّادة الفضلاء من أهل العلم: ما الكتاب الذي ألفته أخيراً؟ فأخبرته بهذا الكتاب. فقلت له لماذا تسأل؟ فقال: إنّه رأى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في الفردوس الأعلى رأى بين يديه كتاباً يتصفَّحه، فسلَّم على جَدِّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسأله: ما هذا الكتاب الذي بين يديك؟ فقال فرحاً: هذا كتاب ألَّفَهُ الشيخ عيسى بن عبد الله بن مانع الحميري أو بما معناه.

فالحمد لله تعالى على هذه الرؤيا المبشرة، ونسأل الله تعالى أن يتقبَّل هذا العمل ويجعله خالصاً لوجهه الكريم.

خطة الكتاب

وقد جعلته على النحو الآتي:

الباب الأول

حقيقة التوسل

وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: في تعريف التوسل لغة واصطلاحاً.

الفصل الثاني: مفهوم التوسل.

الفصل الثالث: أنواع التوسل.

الفصل الرابع: حكم التوسل وارتباطه بالعقيدة.

الفصل الخامس: الدليل العقلي على إثبات التوسل.

الباب الثاني

مشروعية التوسل

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الأدلة النقلية من القرآن الكريم.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: السبب والمسبب.

المبحث الثاني: سرد الأدلة النقلية من القرآن الكريم.

الفصل الثاني: في ذكر الأدلة النقلية من الحديث والأثر.

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: التوسل بالنبي ﷺ قبل ولادته.

المبحث الثاني: التوسل بالنبي ﷺ في حياته.

المبحث الثالث: التوسل بالنبي ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: في بيان حياة الأنبياء عليهم السلام في قبورهم.

المطلب الثاني: في ذكر أدلة التوسل بالنبي ﷺ بعد انتقاله.

المطلب الثالث: الاستغاثة والتوسل بقبر النبي ﷺ.

المبحث الرابع: التوسل بالأنبياء والصالحين.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التوسل بذوات الأنبياء والصالحين.

المطلب الثاني: التوسل بأرواح وآثار الأنبياء والصالحين.

المطلب الثالث: التوسل ببركة الأماكن والبقاع.

الفصل الثالث: العلماء وموقفهم من التوسل.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: موقف السلف والخلف من التوسل.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: موقف الأئمة: مالك والشافعي وأحمد وغيرهم من التوسل.

المطلب الثاني: موقف جماعة من الأئمة: من المحدثين والفقهاء والأصوليين.

المبحث الثاني: شبهات وردود.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: آيات استدل بها المعارضون على نفي التوسل.

المطلب الثاني: رد على كتاب: «الواسطة بين الحق والخلق».

المبحث الثالث: من توسلات الصحابة رضي الله عنهم من خلال كتاب فتوح الشام للواقدي.

الباب الأول
حقيقة التوسل

وفيه خمسة فصول :

الفصل الأول : في تعريف التوسل لغة واصطلاحاً .

الفصل الثاني : مفهوم التوسل.

الفصل الثالث : أنواع التوسل .

الفصل الرابع : حكم التوسل وارتباط العقيدة به .

الفصل الخامس : الدليل العقلي على إثبات التوسل .

الفصل الأول

تعريف التوسل لغة واصطلاحاً

التوسل لغة: التقرب، يقال: توسل إليه بوسيلة، إذا تقرب إليه بعمل، وتوسل إليه بكذا: تقرب إليه بحرمة آصرةٍ تعطفه عليه.

قال الجوهري: الوسيلة مايتقرب به إلى الغير.

وقال ابن الأثير: هي في الأصل ما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به.

والوسيلة: هي التي يتوصل بها إلى تحصيل مقصود، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾[1].

ووسّل فلان إلى ربه وسيلة، وتوسّل إليه بوسيلة، أي تقرب إليه بعمل، والواسل: الراغب إلى الله[2].

وقال الراغب الأصفهاني: الوسيلة: التوصل إلى الشيء برغبة، وهي أخص من الوصيلة، لتضمنها لمعنى الرغبة، قال تعالى: ﴿**وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾[3].

وقال ابن سيده في «المخصص»: «قال صاحب العين: الوسيلة ما تقربتَ به، وقد توسلت به إليه، ومنه توسلَ إلى الله تعالى بعمل:

---

(١) من سورة المائدة الآية (٣٥).

(٢) انظر مادة «وسل» في لسان العرب (١١/ ٧٢٤)، وتاج العروس (٨/ ١٥٤)، والصحاح للجوهري (٥/ ١٨٤١)، وانظر تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (ص٨٧١).

تقرّبَ، وقال: متتُّ بالشيء أمتُّ متّاً: توسلتُ. والمتاتُ ما متتَّ به، وقد متتُّه: طلبتُ إليه المتات»[1]. ومنه قوله:

أمُتُّ بقربى الزينبين كليهما إليك وقربى خالد وسعيد

ويقول الحكيم الترمذي: «الوسيلة والوصيلة بمعنى واحد، إلا أن الوصيلة أن يوصل الشيء بالشيء، فلما صار الأمر إلى ذكر الله عَزَّ وجلَّ أخرجوه مخرج القربة، فقيل: وسيلة، بدل بالسين صاداً»[2].

والتوسل اصطلاحاً: جعلُ الشيء الذي له عند الله قدر ومنزلة وسيلةً لإجابة الدعاء، كالتوسل بأسماء الله وصفاته، وكالتوسل بالإيمان بالله وبرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، والأعمال الصالحة، وذوات الأنبياء والصالحين ودعائهم، فما له قدر ومنزلة عند الله فالتوسل به جائز وحسن، ذاتاً كان أو عملاً صالحاً، والذي أستخلصه هو:

أن الوسيلة هي: طريق الوصول إلى المأمول. أو هي: قنطرة موضوعة لمعانٍ مشروعة. أو هي: ظواهر ملموسة لمعانٍ نفيسة محسوسة. أو هي: سبل مشروعة لمطالب مخصوصة.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «الوسيلة هي ما يتقرب به إلى الكبير، يقال: توسلت أي: تقربت، وتطلق على المنزلة العليّة،

---

(١) المخصص لابن سيده (٣/ ٢٢٤).

(٢) الرياضة وأدب النفس للحكيم الترمذي (ص٦٦).

ووقع ذلك في حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم بلفظ « فإنها منزلة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله » الحديث[1]، ونحوه للبزار عن أبي هريرة، ويمكن ردّها إلى الأول، بأن الواصل قريب من الله، فتكون كالقربة التي يتوسل بها »[2].

والتوسل في الشريعة هو: تجاهل المُتوسل لقبول أعماله المبذولة والتماس رجائها من الله سبحانه بأعمال مقبولة لذوات موصولة.

والمعنى أن المتوسل عمل أعمالاً صالحة جهل حقيقة قبولها عند الله فالتمس رجاءها من فضل الله في قبول عمل أو زاد في التواضع والانكسار لمولاه فتلمس رجاءها من أعمال مقبولة لذوات مقربة موصولة أي بالنبيين والمرسلين وعباد الله الصالحين، كما فعل عمر رضي الله عنه حين توسل بالعباس لقربه من طاهر الأنفاس سيدنا رسول الله ﷺ ولشيبة العباس ومنزلته من رسول الله ﷺ مع تحقق مراد الوسيلة بتوسل بلال بن الحارث، وما ذلك إلا إظهار رغبة بصور متعددة لاستدرار رحمة محققة من الله سبحانه.

وملاك القول:

- أن الواسطة والوسيلة بمعنى واحد أي أن بينهما خصوصاً وعموماً، فهما يتفقان في المضمون وهي القربة، ويفترقان في

---

(١) رواه مسلم (٣٨٤)، والترمذي (٥/٥٨٦)، والنسائي (٦٧٨)، وأحمد (٢/١٦٨)، وغيرهم.

(٢) فتح الباري (٢/٩٥).

النوعية، فالواسطة حقيقتها ذاتية فالقرب يتم بها عن طريق الذوات، وتكون بالحوائج الدنيوية والأخروية ويدخل بها البر والفاجر، أما الوسيلة فحقيقتها معنوية وتتم للصادقين بالصادقين.

* * *

الفصل الثاني

مفهوم التوسل

قبل الدخول في الموضوع لابد من الوقوف مع القارئ على معنى المشيئة في حق الخالق وحق المخلوق. فقد اتفق المسلمون من خلال عقائدهم، على إثبات أن للحق سبحانه مشيئة ولخلقه مشيئة، ولكن مشيئة خلقه لا تتم إلا بمشيئته عز وجل كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[1].

قال الشيخ عبدالرحمن الجامي رحمه الله: إن المشيئة توجه الذات الإلهية نحو حقيقة الشيء ونفسه، اسماً كان الشيء أو صفة أو ذاتاً.

والإرادة ـ عند الإمام الجرجاني ـ: تعلق الذات الإلهية بتخصيص أحد الجائزين من طرفي الممكن، أعني وجوده أو عدمه، بخلاف المشيئة فإن متعلقها نفس الماهية من غير ترجح أحد جانبيها... فعلى هذا إذا توجهت الذات الإلهية نحو صفة الإرادة واقتضت تعلقها بأحد طرفي الممكن كما هو مقتضاها، لا يبعد أن يسمى ذلك التوجه مشيئة الإرادة، فهذا الذي ذكرناه من التقدم الذاتي للمشيئة على الإرادة، وإمكان الاختلاف في متعلق الإرادة دون

---

(١) من سورة التكوير: الآية (٢٩)

المشيئة هو الفرق بينهما، وأما من جهة اتحادها بالنسبة إلى الهوية الغيبية الذاتية فعينهما سواء.اهـ[1].

وبناء على ما قرره الإمامان الجامي والجرجاني فإن المشيئة أعم والإرادة أخص، فمشيئة المخلوق إرادة، وإرادة الحق مشيئة.

ويزيد الأمر وضوحاً العلامة المحدِّث عبدالله بن أبي جمرة في سِفره القيم «بهجة النفوس» (١ / ٣٤) فيقول: «....وأما التنزيل فقوله عز وجل: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾[2] وقوله عز وجل: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾[3]، فأثبت عز وجل الفعل للعبد وأثبت الفعل لنفسه معاً، فأما ما هو من فعل العبد فهو أن النبي ﷺ أخذ غرفة من تراب بيده ثم رماها، وهذا حقيقة فعل من البشر مرئي محسوس.

وأما ما هو من فعل الرب سبحانه فهو أن تلك الغرفة ليس للبشر قوة على إيصالها إلى جميع أعين الأعداء، وقد وصلت لجميع أعينهم حتى أوقعت الهزيمة فيهم. هذا ما هو من طريق النقل والمشاهدة، وأما من طريق العقل والنظر فما يجد الإنسان في نفسه

---

(١) انظر كشاف اصطلاحات الفنون (٢ / ٧٣٠-٧٣١)، والتعريفات (٢١٦)، وكتاب المسامرة (١٤٢).

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٧ .

(٣) سورة الواقعة، الآيتان: ٦٣ – ٦٤ .

من الفرح إذا شاء شيئاً فساعدته القدرة على بلوغه فرح بذلك لنفوذ مشيئته وبلوغ أمله، فإذا شاء شيئاً ولم تساعده القدرة على نفوذه حزن لعدم نفوذ مشيئته؛ وما جعل الله عز وجل لعبيده من المشيئة وربط الأسباب بالمسببات وربط العوائد في بعض الأشياء بما جرت فهو أثر حكمته، وحكمته عز وجل وصف قائم بذاته .اهـ.

فالتوسل لهجة يجأر بها أهل الحق متذللين منكسرين بها لله عزَّ وجلَّ لدفع نقمة أو جلب نعمة، وكأنها عودة لفطرة الله التي فطر الناس عليها، نطق بها كل طفل على وجه البسيطة مستغيثاً مستجيراً بأمه إذا ما وجل من حرج أو احتاج تحقيق طلب فلا يعرف أحداً إلا أمه فيناديها في كل لحظة.... تُرى أيولد المولود على الشرك!؟! والصادق ﷺ أعلمنا بأن المولود يولد على الفطرة، والفطرة خالص الإيمان والتوحيد.

ثم إن تلك الفطرة لم تتوقف عند الطفل البريء بل تجسدت بالأكابر، وأجراها الله على لسان أبي الإنسانية آدم عليه السلام، حينما اقترف الخطيئة بالأكل من الشجرة لجأ إلى ربه متوسلاً بسيد الأكوان، ونرى ذلك أيضاً متكرراً إلى يوم القيامة إذ يلجأ الخلائق يوم غضب الرب سبحانه إلى الأنبياء متوسلين بهم، راجين رضا ربهم، وكل نبي يقول: نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، حتى يبلغوا عيسى عليه السلام فيقول: اذهبوا إلى محمد ﷺ، وكأن الباري

سبحانه وتعالى يرينا مشهداً رائعاً في إقرار الوسيلة في ديننا، يلتمسها العبد من الأدنى إلى الأعلى، وكأن نعمة الله سبحانه وتعالى تسري في أرواح المقربين متفاوتة بقدر علو مقاماتهم.

فلو لم يلتجئ العبد إلى الأدنى لما بلغ الأعلى، فلا يجسر العبد أن يصل إلى الباب الأعظم، حتى يلج إلى ما تقدمه من أبواب، لأن في ذلك إبرازاً لمنازل أولي الفضل، إذ في طياتها حمدٌ وشكر لنعمة الله السارية فيهم.

وكأن الباري سبحانه وتعالى يرينا تلك الحقائق بأنها ذات مقامات ورتب، وأنها فعالة في قضاء الحوائج، إلا أن ذلك الموقف العظيم لا يقتضي إعمالها، بل يحتاج إلى من خُوّل لذلك المقام، فكان كل نبي يتبرأ من حوله إلى حول غيره، حتى بلغ أهل الموقف إلى صاحب المقام المحمود ﷺ، ولذا نجد إعمال هذه الوسائل بعد ذلك، فكل نبي يشفع بعد الشفاعة العظمى بما قدّر الله له من الشفاعات، حتى يصير الأمر بأن يشفع الرجل الصالح في أهل بيته، كما جاء في الأحاديث الثابتة، إذ يقول ﷺ: «يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من عدد مضر، ويشفع الرجل في أهل بيته ويشفع على قدر عمله»[1].

---

(١) رواه الطبراني (٨/٢٧٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٨٢): «رجاله رجال الصحيح».

وبهذا تبين لنا أن هذه الوسائط سارٍ لها الحكم في الدنيا من باب أولى، إذ ثبت لها ذلك في يوم أشد من أيام الدنيا، وهو يوم غضب الرب، وتجلي الحق تجلياً أعظم على خلقه.

وبهذا تبين لنا أيضاً، أنه كلما كثرت الوسائل كان ذلك أرجى في القبول، وأقرب إلى التواضع والخضوع في نيل المأمول، لأنه إشعار بالتجرد عن الذات، والتبرؤ من الحول، كما قال ﷺ: «لا حول ولا قوة إلا بالله» يعني أنه ﷺ يتبرأ من حوله وقوته لا نفياً لحقيقة ما يتمتع به من حول وقوة، ولكن إثباتاً وتأكيداً بأن ما فيه من حول وقوة إنما هو مستمد من حول الله وقوته، فهو مستمدٌ والله مُمد، وهو مستعطٍ والله معطٍ، فحق القوة والحول عند الله وحقائقه أكسبها سبحانه من شاء من خلقه على قدر ما هُيىء له ذلك المخلوق، يدخل تحت قاعدة: إن الله إنما أظهر الأسباب في خلقه بالإطلاق، وأظهر البركة في بعضهم بالخصوص.

وما المَلَكُ والرسول والنبي والولي إلا حول من حوله سبحانه وتعالى، وطَوْلٌ من طوله، كما قال عمر رضي الله عنه: نَفِرٌّ من قَدَر الله إلى قدَرِ الله[1].

فعنى عمر رضي الله عنه بذلك، أنه فرّ من حول الله إلى حول الله، فالعبد إذا تبرأ من حوله وطَوْله إلى حول وطَوْل المقبولين عند الله،

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري ٥/٥٧٢٩، ومسلم ٤/٢٢١٩، ومالك في الموطأ ٢/٨٩٥، وابن حبان ٧/٢١٩، وغيرهم.

فلا غضاضة في ذلك؛ لأنهم جند الحق ورسله إلى الخلق، فإذا كان النبي الأمين المقبول عند الله يتبرأ من حوله إلى حول الله – وهو الوسيلة العظمى– فأحرى بكل مسلم مهما بلغ في مقامات التقوى، أن يتبرأ من حوله وطَوْله إلى حول الله وطَوْله، وكأن النبي والرسول والعبد الصالح يقدّمون بين يدي الله نعمة الله عليهم، بأن ما بهم من حول وطَوْل فهو مُستَمَدٌ منه تعالى، فليس ثمة قدرة لأحد إلا قدرة الله، وأن القوة لله جميعاً، فيردهم الله سبحانه إلى النعمة التي أسبغها عليهم، المتمثلة في أخلاقهم التي تحكيها ذواتهم، وهو مشهد عالم الأسباب، ومن هنا صح التوسل بالذات والعمل الصالح والدعاء، الذي أثبته الأنبياء جميعاً في إحالة كل نبي على من بعده من نبي، ولو أن الوسيلة باطلة لألجأ آدم الخلائق إلى الله دون أن يلجئهم إلى من بعده، ولكن آدم والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أرادوا أن يُعَرِّفوا الخلق أن الأخذ بالوسائل من السابق واللاحق من أهل الإيمان والتقوى، أعظم مظهر من مظاهر الاعتراف بنعمة الله، حتى يبلغوا مجامع الرحمات والنعم، ألا وهو سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ.

يقول الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي قُدِّس سِرُّهُ في «الفتوحات المكية»: «اعلم وفقك الله أيها الوليّ الحميم – تولاك الله برحمته وفتح عين فهمك – أنه من كانت حقيقته أن يكون مقيداً لا يصح أن يكون مطلقاً بوجه من الوجوه ما دامت عينه، فإن التقييد

صفة نفسية له، ومن كانت حقيقته أن يكون مطلقاً، فلا يقبل التقييد جملة واحدة، فإنه صفته النفسية أن يكون مطلقاً لكن ليس في قوّة المقيد أن يقبل الإطلاق، لأن صفته العجز، وأن يستصحبه الحفظ الإلهي لبقاء عينه، فالافتقار يلزمه، وللمطلق أن يقيد نفسه إن شاء، وأن لا يقيدها إن شاء، فإن ذلك من صفة كونه مطلقاً إطلاق مشيئة، ومن هنا أوجب[1] الحق على نفسه ودخل تحت العهد لعبده، فقال في الوجوب: ﴿**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾[2]، أي: أوجب، فهو الموجب على نفسه، ما أوجب غيره عليه ذلك فيكون مقيّداً بغيره، فقيّد نفسه لعبيده رحمة بهم ولطفاً خفياً، وقال في العهد: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**﴾[3] فكلفهم وكلف نفسه لما قام الدليل عندهم بصدقه في قيله، ذكر لهم ذلك تأنيساً لهم سبحانه وتعالى، ولكن هذا كله - أعني دخوله في التقييد لعباده - من كونه إلهاً لا من كونه ذاتاً، فإن الذات غنية عن العالمين، والمَلِكُ ما هو غني عن المُلْك، إذ لولا المُلْك ما صح اسم المَلِك، فالمرتبة أعطت التقييد لا ذات الحق جل وتعالى، فالمخلوق كما يطلب الخالق من كونه مخلوقاً، كذلك الخالق يطلب المخلوق من كونه خالقاً، ألا ترى العالم لما كان له العدم من نفسه لم يطلب

---

(١) لم يعن الشيخ رحمه الله بهذه العبارة أن شيئاً على الله يجب بمعنى التكليف.

(٢) من سورة الأنعام الآية (٥٤).

(٣) من سورة البقرة، الآية (٤٠).

الخالق ولا المعدم، فإن العدم له من ذاته، وإنما طلب الخالق من كونه مخلوقاً، فمن هنا قيد نفسه تعالى بما أوجب على نفسه من الوفاء بالعهد، ولما كان المخلوق بهذه المثابة لذلك تعشق بالأسباب، ولم يتمكن له إلا الميل إليها طبعاً، فإنه موجود عن سبب (أي مؤثر) وهو الله تعالى، ولهذا أيضاً وضع الحق الأسباب في العالم، لأنه سبحانه علم أنه لا يصح اسم الخالق وجوداً وتقديراً إلا بالمخلوق وجوداً وتقديراً، وكذلك كل اسم إلهيٍّ يطلب الكون، مثل الغفور والمالك والشكور والرحيم وغير ذلك من الأسماء، فمن هنا وضع الأسباب، وظهر العالم مربوطاً بعضه ببعضه، فلم تنبت سنبلة إلا عن زارع وأرض ومطر، وأمر بالاستسقاء إذا عدم المطر تثبيتاً منه في قلوب عباده لوجود الأسباب، ولهذا لم يكلف عباده قط الخروج عن السبب، فإنه لا تقتضيه حقيقته، وإنما عين له سبباً دون سبب، فقال له: أنا سببك فعليَّ فاعتمد وتوكل، كما ورد ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[1] فالرجل من أثبت الأسباب، فإنه لو نفاها ما عرف الله، ولا عرف نفسه، وقال يحيى بن معاذ الرازي: «من عرف نفسه عرف ربه» ولم يقل: عرف ذات ربه، فإن ذات الرب لها الغنى على الإطلاق، وأنَّى للمقيد معرفة المطلق؟ والرب يطلب المربوب بلا شك، ففيه رائحة التقييد، فبهذا عرف المخلوق ربه، ولذلك أمره أن

---

(١) من سورة المائدة الآية (٢٣).

يعلم أنه لا إله إلا هو من كـونه إلهـاً، لأن الإله يطلب المألوه، وذات الحق غنية عن الإضافة فلا تتقيد، فإثبات الأسباب أدل دليل على معرفة المثبت لها بربه، ومن رفعها رفع مالا يصح رفعه، وإنما ينبغي له أن يقف مع السبب الأول، وهو الذي خلق هذه الأسباب ونصبها، ومن لا علم له بما أشرنا إليه لا يعلم كيف يسلك الطريق إلى معرفة ربه بالأدب الإلهيّ، فإن رافع الأسباب سيئ الأدب مع الله، ومن عزل من ولاه الله فقد أساء الأدب، وكذب في عزل ذلك الولي، فانظر ما أجهل من كفر بالأسباب وقال بتركها!! ومن ترك ما قرّره الحق فهو منازع لا عبد، وجاهل لا عالم، وإني أعظك يا وليّ أن تكون من الجاهلين الغافلين، وأراك في الحين تكذب نفسك في ترك الأسباب، فإني أراك في وقت حديثك معي في ترك الأسباب ورميها وعدم الالتفات إليها والقول بترك استعمالها، يأخذك العطش فتترك كلامي وتجري إلى الماء فتشرب منه لتدفع بذلك ألم العطش، وكذلك إذا جعت تناولت الخبز فأكلت، وغايتك أن لا تتناوله بيدك حتى يجعل في فمك فإذا حصل في فمك مضغته وابتلعته، فما أسرع ما أكذبت نفسك بين يدي، وكذلك إذا أردت أن تنظر افتقرت إلى فتح عينك، فهل فتحتها إلا بسبب؟ وإذا أردت زيارة صديق لك سعيت إليه، والسعي سبب في وصولك إليه، فكيف تنفي الأسباب بالأسباب، أترضى لنفسك بهذه الجهالة؟.

فالأديب الإلهيّ العالم من أثبت ما آثبته الله، في الموضع الذي أثبته الله، وعلى الوجه الذي أثبته الله، ومن نفى ما نفاه الله، في الموضع الذي نفاه الله، وعلى الوجه الذي نفاه الله، ثم تكذب نفسك إن كنت صالحاً في عبادتك ربك، أليست عبادتك سبباً في سعادتك، وأنت تقول بترك الأسباب، فلِمَ لا تقطع العمل؟ فما رأيت أحداً من رسول ولا نبيّ ولا وليّ ولا مؤمن ولا كافر ولا شقيّ ولا سعيد خرج قط عن رق الأسباب مطلقاً؛ أدناها التنفس، فيا تارك السبب لا تتنفس، فإن التنفس سبب حياتك، فأمسك نفسك حتى تموت فتكون قاتل نفسك فتحرم عليك الجنة، وإذا فعلت هذا فأنت تحت حكم السبب، فإن ترك التنفس سبب لموتك، وموتك على هذه الصورة سبب في شقائك، فما برحت من السبب، فما أظنك عاقلاً إن كنت تزعم أن ترفع ما نصبه الله وأقامه علماً مشهوداً، ودع عنك ما تسمع من كلام أهل الله تعالى، فإنهم لم يريدوا بذلك ما توهمته، بل جهلت ما أرادوه بقطع الأسباب، كما جهلت ما أراده الحق بوضع الأسباب، وقد ألقيت بك على مدرجة الحق، وأبنت لك الطريقة التي وضعها الله لعباده، وأمرهم بالمشي عليها، فاسلك، وعلى الله قصد السبيل، ولو شاء لهداكم أجمعين[1]. اهـ.

وقبل الشروع في موضوع الكتاب أحببت أن أوقف القارئ الكريم على ما قاله إمام المسلمين وحجة الله على العالمين المحدِّث الفقيه

---

(١) الفتوحات المكية (٣/٧٢-٧٣).

الأصولي الناقد شيخ الإسلام تقي الدين السبكي رحمه الله تعالى فقد قال في كتابه «شفاء السِّقام» ما نصه:

«اعلم أنه يجوز ويحسن التوسل والاستغاثة والتشفع بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى ربه سبحانه وتعالى، وجواز ذلك وحسنه من الأمور المعلومة لكل ذي دين، المعروفة من فعل الأنبياء والمرسلين، وسير السلف الصالحين والعلماء والعوام من المسلمين، ولم ينكر أحد ذلك من أهل الأديان، ولا سمع به في زمن من الأزمان، حتى جاء ابن تيمية فتكلم في ذلك بكلام يلبس فيه على الضعفاء الأغمار، وابتدع ما لم يسبق إليه في سائر الأعصار ... وحسبك أن إنكار ابن تيمية للاستغاثة والتوسل قول لم يقله عالم قبله، وصار به بين أهل الإسلام مُثْلةً... وأقول: إن التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم جائز في كل حال، قبل خلقه وبعد خلقه في مدة حياته في الدنيا وبعد موته، في مدة البرزخ وبعد البعث، في عرصات القيامة والجنة، وهو على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أن يتوسل به بمعنى أن طالب الحاجة يسأل الله تعالى به أو بجاهه أو ببركته، فيجوز ذلك في الأحوال الثلاثة، وقد ورد في كل منها خبر صحيح.

أما **الحالة الأولى**: قبل خلقه، فيدل على ذلك آثار عن الأنبياء الماضين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين...» إلى أن قال: «فإن

قلت: المتشفع بالشخص من جاء به ليشفع، فكيف يصح أن يقال: يتشفع به؟ قلت: ليس الكلام في العبارة وإنما الكلام في المعنى...»

إلى أن قال رحمه الله: «وحديث الغار الذي فيه الدعاء بالأعمال الصالحة، وهو من الأحاديث الصحيحة المشهورة، فالمسؤول في هذه الأعمال كلها هو الله وحده لا شريك له، والمسؤول به مختلف، ولم يوجب ذلك إشراكاً ولا سؤال غير الله، وكذلك السؤال بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس سؤالاً للنبي بل سؤالٌ لله به، وإذا جاز السؤال بالأعمال وهي مخلوقة فالسؤال بالنبي ﷺ أولى، ولا يُسمع الفرق بأن الأعمال تقتضي المجازاة عليها لأن استجابة الدعاء لم تكن عليها، وإلا لحصلت بدون ذكرها، وإنما كانت على الدعاء بالأعمال، وليس هذا المعنى مما تختلف فيه الشرائع حتى يقال: إن ذلك شرع من قبلنا، فإنه لو كان ذلك مما يخل بالتوحيد لم يحل في ملة من الملل، فإن الشرائع كلها متفقة على التوحيد، وليت شعري ما المانع من الدعاء بذلك؟ فإن اللفظ إنما يقتضي أن للمسؤول به قدراً عند المسؤول...، فإنه لا شك أن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قدراً عنده، ومن أنكر ذلك فقد كفر، فمن قال: أسألك بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فلا شك في جوازه، وكذا إذا قال: بحق محمد، والمراد بالحق الرتبة والمنزلة، والحق الذي جعله الله على الخلق أو الحق الذي جعله الله بفضله له عليه كما في الحديث الصحيح «قال: فما

حق العباد على الله »،وليس المراد بالحق الواجب،فإنه لا يجب على الله شيء» إلى أن قال:

«**الحالة الثانية**: التوسل به بذلك النوع بعد خلقه صلى الله عليه وآله وسلم في مدة حياته ، فمن ذلك ما رواه أبو عيسى الترمذي في جامعه في كتاب الدعوات. . . » ثم ذكر حديث الضرير الذي أخرجه الترمذي بسند صحيح وذكر رواياته، ثم قال رحمه الله تعالى:

«**الحالة الثالثة**: أن يتوسل به بعد موته صلى الله عليه وآله وسلم لما رواه الطبراني رحمه الله في المعجم الكبير في ترجمة عثمان بن حنيف. . . » ثم ذكر الرواية التي فيها القصة المعروفة في الرجل الذي أراد أن يدخل على سيدنا عثمان رضي الله عنه، ثم قال رحمه الله:

«**النوع الثاني**: التوسل به بمعنى طلب الدعاء منه، وذلك في أحوال:

إحداها: في حياته ﷺ، وهذا متواتر والأخبار طافحة به، ولا يمكن حصرها، وقد كان المسلمون يفزعون إليه ويستغيثون به في جميع ما نابهم كما في الصحيحين. . . »، ثم ذكر بعض الروايات في ذلك، إلى أن قال رحمه الله: «ولعل توسل عمر بالعباس لأمرين:

أحدهما: ليدعو كما حكينا من دعائه.

والثاني: أنه من جملة من يستقي وينتفع بالسقيا، وهو محتاج إليها بخلاف النبي ﷺ في هذه الحالة فإنه مستغن عنها، فاجتمع

في العباس الحاجة، وقربه من النبي ﷺ، وشيبه، والله تعالى يستحي من ذي الشيبة المسلم، فكيف من عم نبيه ﷺ. ويجيب دعاء المضطر فلذلك استسقى عمر بشيبته.

فإن قال المخالف: أنا لا أمنع التوسل والتشفع لما قدمتم من الآثار والأدلة، وإنما أمنع إطلاق التوجه والاستغاثة، لأن فيهما إيهاماً أن المتوجه به والمستغاث به أعلى من المتوجه عليه والمستغاث عليه.

قلنا: هذا لا يعتقده مسلم، ولا يدل لفظ التوجه والاستغاثة عليه، فإن التوجه من الجاه والوجاهة، ومعناه علو القدر والمنزلة، وقد يتوسل بذي الجاه إلى من هو أعلى جاهاً منه. والاستغاثة: طلب الغوث، فالمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحَصِّل له الغوث من غيره، وإن كان أعلى منه، فالتوسل والتشفع والتوجه والاستغاثة بالنبي ﷺ وسائر الأنبياء والصالحين ليس لها معنى في قلوب المسلمين غير ذلك، ولا يقصد بها أحد منهم سواه، فمن لم ينشرح صدره لذلك فليبك على نفسه، نسأل الله العافية.

وإذا صح المعنى فلا عليك في تسميته توسلاً أو تشفعاً أو توجهاً أو استغاثة، ولو سلم أن لفظ الاستغاثة يستدعي النصر على المستغاث منه، فالعبد يستغيث على نفسه وهواه والشيطان وغير ذلك مما هو قاطع له عن الله تعالى بالنبي ﷺ وغيره من الأنبياء والصالحين متوسلاً بهم إلى الله تعالى ليغيثه على من استغاث منه من

النفس وغيرها، والمستغاث به في الحقيقة هو الله تعالى، والنبيﷺ واسطة بينه وبين المستغيث.

الحالة الثانية: بعد موته ﷺ بطلب الشفاعة منه ﷺ في عرصات القيامة، وذلك مما قام الإجماع عليه وتواترت الأخبار به. . .

الحالة الثالثة: المتوسطة في مدة البرزخ. . .»، وقد استعرض- رحمه الله تعالى - حديث مالك الدار الذي جاء فيه أن بلال بن الحارث جاء قبر النبي فقال: يا رسول الله، استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا. فأتاه رسول الله في المنام فقال: ائت عمر فأقرئه السلام وأخبره أنهم مسقون وقل له: عليك الكيس الكيس. فأتى الرجل عمر فأخبره فبكى عمر - رضي الله عنه - ثم قال: يا رب ما آلو إلا ما عجزت عنه.

ثم قال: ومحل الاستشهاد من هذا الأثر طلبه الاستسقاء من النبي ﷺ بعد موته في مدة البرزخ، ولا مانع من ذلك، فإن دعاء النبي ﷺ لربه تعالى في هذه الحالة غير ممتنع، وقد وردت الأخبار على ما ذكرنا وسنذكر طرفاً منها، وعلمهﷺ بسؤال من يسأله ورد أيضاً، ومع هذين الأمرين فلا مانع من أن يسأل ﷺ الاستسقاء كما كان يسأله في الدنيا.

النوع الثالث - من التوسل -: أن يطلب منه ذلك الأمر المقصود، بمعنى أنهﷺ قادر على التسبب فيه بسؤاله ربه وشفاعته

إليه، فيعود إلى النوع الثاني في المعنى، وإن كانت العبارة مختلفة، ومن هذا قول القائل للنبي ﷺ : أسألك مرافقتك في الجنة. قال: «أَعِنّي على نفسك بكثرة السجود».

والآثار في ذلك كثيرة أيضاً، ولا يقصد الناس بسؤالهم ذلك إلا كون النبي ﷺ سبباً وشافعاً، وكذلك جواب النبي ﷺ، وإن ورد على حسب السؤال، كما روينا في دلائل النبوة للبيهقي بالإسناد إلى عثمان بن أبي العاص قال: «شكوت إلى النبي ﷺ سوء حفظي للقرآن فقال: ذاك شيطان يقال له: خنزب، ادن مني يا عثمان، ثم وضع يده على صدري فوجدت بردها بين كتفي، وقال: اخرج يا شيطان من صدر عثمان، قال: فما سمعت بعد ذلك شيئاً إلا حفظته»[1].

فانظر أمر النبي ﷺ بالخروج للشيطان للعلم بأن ذلك بإذن الله تعالى وخلقه وتيسيره، وليس المراد نسبة النبي ﷺ إلى الخلق والاستقلال بالأفعال، هذا لا يقصده مسلم، فصرف الكلام إليه

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٥/٣٠٧)، والطبراني في الكبير (٩/٤٧)، وانظر مجمع الزوائد للهيثمي (٩/٣). والرواية في دلائل النبوة من طريق الحسن، وقد أخرج ابن ماجه في السنن برقم (١١٧٤) ـ بسند صححه الحافظ البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/٧٩-٨٠) قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن عبدالله الأنصاري حدثني عيينة بن عبدالرحمن حدثني أبي عن عثمان بن أبي العاص وذكر الحديث بلفظ متقارب. وعزو المحقق الكشناوي – محقق المصباح – رواية ابن ماجه إلى الحاكم غير مستقيم لأن لفظ الحاكم موجود في صحيح مسلم باب التعوذ من الشيطان في الصلاة (٧/ ٤٤٦). والصواب ما أثبتناه.

ومنعه من باب التلبيس في الدين والتشويش على عوام الموحدين، وإذ قد تحررت هذه الأنواع والأحوال في الطلب من النبي ﷺ وظهر المعنى فلا عليك في تسميته توسلاً أو تشفعاً أو استغاثة أو تجوهاً أو توجهاً، لأن المعنى في جميع ذلك سواء.

أما التشفع: فقد سبق في الأحاديث قول وفد بني فزارة للنبي ﷺ: تشفع لنا إلى ربك، وفي حديث الأعمى ما يقتضيه أيضاً، والتوسل في معناه، وأما التوجه والسؤال ففي حديث الأعمى، والتجوه في معنى التوجه، قال تعالى في حق موسى عليه السلام: ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾[1] وقال في حق عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾[2] وقال المفسرون: وجيهاً: أي ذا جاه ومنزلة عنده، وقال الجوهري في فصل «وجه»: إذا صار وجيهاً ذا جاه وقدر. وقال الجوهري أيضاً في فصل «جوه»: الجاه: القدر والمنزلة، وفلان ذو جاه، وقد أوجهته ووجهته أنا أي جعلته وجيهاً. وقال ابن فارس: فلان وجيه: ذو جاه، إذا عرف ذلك فمعنى تجوه: توجه بجاهه، وهو منزلته وقدره عند الله تعالى إليه.

وأما الاستغاثة فهي: طلب الغوث، وتارة يطلب الغوث من خالقه وهو الله تعالى وحده، كقوله تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ

(١) من سورة الأحزاب الآية (٦٩).

(٢) من سورة آل عمران الآية (٤٥).

رَبَّكُمْ ﴾[1]، وتارة يطلب ممن يصح إسناده إليه على سبيل الكسب، ومن هذا النوع الاستغاثة بالنبي ﷺ، وفي هذين القسمين تعدى الفعل تارة بنفسه كقوله تعالى: ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ** ﴾ ﴿ **فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ** ﴾[2]، وتارة بحرف الجر كما في كلام النحاة في المستغاث به، وفي كتاب سيبويه رحمه الله تعالى: فاستغاث بهم ليشتروا له كليباً، فيصح أن يقال: استغثت النبي ﷺ، وأستغيث بالنبي ﷺ بمعنى واحد، وهو طلب الغوث منه بالدعاء ونحوه على النوعين السابقين في التوسل من غير فرق، وذلك في حياته وبعد موته، ويقول: استغثت الله وأستغيث بالله بمعنى طلب خلق الغوث منه، فالله تعالى مستغاث، فالغوث منه خلقاً وإيجاداً، والنبي ﷺ مستغاث، والغوث منه تسبباً وكسباً، ولا فرق في هذا المعنى بين أن يستعمل الفعل متعدياً بنفسه أو لازماً أو تعدى بالباء.

وقد تكون الاستغاثة بالنبي ﷺ على وجه آخر وهو أن يقول: استغثت الله بالنبي ﷺ، كما تقول: سألت الله بالنبي ﷺ، فيرجع إلى النوع الأول من أنواع التوسل، ويصح قبل وجوده، وبعد وجوده وقد يحذف المفعول به، ويقال: استغثت بالنبي ﷺ بهذا المعنى، فصار لفظ الاستغاثة بالنبي ﷺ له معنيان:

---

(١) من سورة الأنفال الآية (٩).

(٢) من سورة القصص الآية (١٥).

أحدهما: أن يكون مستغاثاً.

والثاني: أن يكون مستغاثاً به، والباء للاستعانة، فقد ظهر جواز إطلاق الاستغاثة والتوسل جميعاً، وهذا أمر لا يشك فيه، فإن الاستغاثة في اللغة طلب الغوث، وهذا جائز لغة وشرعاً من كل من يقدر عليه بأي لفظ عبر عنه، كما قالت أم إسماعيل: «أغث إن كان عندك غواث».

وقد روينا في «المعجم الكبير للطبراني» حديثاً ظاهره قد يقدح في هذا، قال الطبراني: حدثنا أحمد بن حماد بن زغبة المصري، حدثنا سعيد بن عفير، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث ابن يزيد، عن علي بن رباح، عن عبادة قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: قوموا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «إنه لا يستغاث بي، إنما يستغاث بالله عز وجل»[1] وهذا الحديث في إسناده عبدالله بن لهيعة، وفيه كلام مشهور – وهنا لم يصرّح بالسماع – فإن صح الحديث فيحتمل معانيَ:

أحدها: أن النبي ﷺ كان قد أجرى على المنافقين أحكام المسلمين بأمر الله تعالى، فلعل أبا بكر ومن معه استغاثوا بالنبي ﷺ ليقتله، فأجاب بذلك بمعنى أن هذا من الأحكام الشرعية التي لم

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١٥٩): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث، وقد رواه أحمد بغير هذا السياق.

ينزل الوحي بها، وأمرها إلى الله تعالى وحده، والنبي ﷺ أعرف الخلق بالله تعالى، فلم يكن يسأل ربه تغيير حكم من الأحكام الشرعية ولا يفعل فيها إلا ما يؤمر به فيكون قوله: «لا يستغاث بي» عاماً مخصوصاً، أي: لا يستغاث بي في هذا الأمر، لأنه مما يستأثر الله تعالى به، ولا شك أن من أدب السؤال أن يكون المسؤول عنه ممكناً، فكما أنا لا نسأل الله تعالى إلا ما هو في ممكن القدرة الإلهية كذلك لا نسأل النبي ﷺ إلا ما يمكن أن يجيب إليه.

والثاني: أن يكون ذلك من باب قوله ﷺ: «ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم» أي: أنا وإن استغيث بي فالمستغاث به في الحقيقة هوالله تعالى، وكثيراً ما تجيء السنة بنحو هذا من بيان حقيقة الأمر، ويجيء القرآن بإضافة الفعل إلى مكتسبه، كقوله ﷺ: «لن يُدخل أحداً منكم الجنة عمله» مع قوله تعالى: ﴿**ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[1] وقال ﷺ لعلي: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً...» فسلك الأدب في نسبة الهداية إلى الله تعالى، وقد قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا**﴾[2] فنسب الهداية إليهم، وذلك على سبيل الكسب، ومن هذا قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[3]

---

(١) سورة النحل الآية (٣٢).

(٢) سورة السجدة الآية (٢٤).

(٣) سورة الشورى الآية (٥٢).

وأما قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[1] فالأحسن أن يكون المراد به التسلية (والحمل) عن قلب النبي ﷺ في عدم إسلام عمه أبي طالب، فكأنه قد قيل: أنت وفيت بما عليك وليس عليك خلق هدايته، لأن ذلك ليس إليك، فلا تذهب نفسك عليه[2].

وبالجملة: إطلاق لفظ الاستغاثة بالنسبة لمن يحصل منه غوث إما خلقاً وإيجاداً، وإما تسبباً وكسباً أمر معلوم لا شك فيه لغة وشرعاً، ولا فرق بينه وبين السؤال، فتعين تأويل الحديث المذكور. وقد قيل: إن في البخاري في حديث الشفاعة يوم القيامة «فبينا هم كذلك **استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد** ﷺ» حجة في إطلاق لفظ الاستغاثة، ولكن ذلك لا يحتاج إليه، لأن معنى الاستغاثة والسؤال واحد سواء عبر عنه بهذا اللفظ أم بغيره، والنزاع في ذلك نزاع في الضروريات، وجوازه شرعاً معلوم، فتخصيص هذه اللفظة بالبحث مما لا وجه له، وإنكار السؤال بالنبي ﷺ مخالف لما قدمناه من الأحاديث والآثار وما أشرنا إليه مما لم نذكره. اهـ مختصراً[3].

---

(١) سورة القصص الآية (٥٦).

(٢) تنبيه: قلت: الهداية نوعان: هداية توفيق، وهداية إرشاد. فهداية التوفيق من شؤون الحق وهي قوله تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾. أما هداية الإرشاد فهي من شؤون البشر وهي قوله تعالى: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾.

(٣) شفاء السقام للإمام تقي الدين السبكي – طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت (ص١٦٠–١٧٨)، وطبعة دار جوامع الكلم بالقاهرة (ص١٧١–١٩٠).

هذا، وللوسيلة في حياتنا وعباداتنا دورٌ ملموس، فالفرائض والسنن وسائل مشروعة، غايتها طهارة الظاهر والباطن للوقوف بين يدي الله سبحانه؛ لاستقبال تجليات الحق سبحانه على القلوب، فالوضوء وسيلة وشرط لصحة الصلاة، فلا تصح صلاة بلا وضوء كما لا تصح صلاة بلا طهارة.

فالوضوء إذاً وسيلة لا يتم الواجب إلا بها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فالطهارة إذاً لا تتحقق إلا بالماء أو التيمم عند فقد الماء أو لعذر، فالماء إذاً وسيلة لا يُستغنى عنها.

قال سبحانه: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** ﴾[(١)].

فالماء إذاً يحيي الشجرة إذا ذبلت والعروق إذا ظمئت، فهو إذاً وسيلة، واجبٌ فعلها، لو تركها المرء هلك، وقال سبحانه في حقها: ﴿ **وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾[(٢)].

فالوسيلة لامست الأرض فأكسبتها الحياة، فأنبتت الأرض النبات من كل زوج بهيج بالنضارة والحياة، علماً بأن الوسيلة ـ المطر ـ هو الذي أحيا الأرض، ولكن الأرض نسب إليها الحق سبحانه وتعالى الإنبات، وذلك من عظيم كرم الله سبحانه، فبعد أن يهب الله

---

(١) من سورة الأنبياء، الآية (٣٠).

(٢) من سورة الحج: الآية (٥).

سبحانه المخلوق من وهب قدرة الإبداء والإخفاء ينسبه له، وذلك فضل الله على خلقه، إذ أن الأمر كله لله وحده، وأن الله هو الذي يحيي ويميت حقيقة.

وكذلك الحال في الماء حين لامس الأعضاء انفعلت الخلايا في الأعضاء وانتشت وابتهجت وتهيأت للتطهير الروحي - ألا وهو الصلاة - فيتطهر الإنسان بها ويعرج في مقامات الترقي والعطاء، وهكذا الحال مع الزكاة والصيام والحج، فهي وسائل تطهير وترقٍ إيماني، يتحقق بها العبد، مِنَةً من الله وفضلاً، فتعالى الله العلي القدير.

وبذا خلص لنا أن صورة الاتصال سكينة ووصال فالمعاني وسائلها بالمباني والمباني وسائلها بالمعاني كما تقرر أو إن شئت فقل: صحة الأقوال متوقفة على الأفعال، وصحة الأفعال قائمة على الأقوال، فالنطق بالشهادتين متوقف على تحقيقهما بالأفعال من صلاة وصيام وحج وزكاة، والصلاة والزكاة والصيام والحج قائمة جميعها على اعتقاد الجنان اعترافاً وإذعاناً، ثم تجسيداً بالأفعال لاكتمال صورة الاتصال.

فإذن الشهادتان وسيلة لأفعالهما، وأفعالهما وسيلة لاعتقادهما والنطق بهما، والنية في العبادات في الطهارة من وضوء وغسل وصلاة وزكاة وصيام وحج متوقفة على النية، والنية معنى قلبي غيبي

لا يتحقق جزاؤه[1] إلا بالأفعال الظاهرة أي لا يتحقق إلا بانفعاله، إذ أَنَّ انفعاله وسيلة له، وهو وسيلة لانفعاله، فالوضوء والغسل فعل محسوس فهو بمثابة ذات معناها قلبي غيبي، أي أن الفعل الذاتي حقق للذات من جسد وروح ما لم تحققه المعاني، أي ما لم تحققه النية، لأن النية غير منفعلة في عالم الشهادة إلا بأفعال، فكانت الأفعال بمثابة الوسائل الناقلة للمنافع والفوائد لانفعال النية بطهارة الروح عن طريق طهارة البدن، فالمكلف حينما حقق رسم الشرع في ذلك أي أمر الله دون استفسار، أي نفذ أمر الله بناءً على أمر غيبي لا يعلم له تفسيراً إلا طهارة بدنه، وناهيك ما في الغسل، فبتلبسه بهذا الفعل أورثه الله طهارة الروح وكذلك الأمر في الدعاء في رفع اليد تفاؤلاً بالأمر المعنوي دون أن يرى الإنسان ذلك فهي وسيلة رجاء أمر معنوي منشجب بتحقيق الإجابة وراء تنفيذ الأمر الإلهي لنيل طلب علي، وتبدو تلك المظاهر في قيام المسلم للمسلم واحترام الأخ لأخيه والتواضع وتوقير أهل العلم والوالدين واحترام الكبير والقيام في مولد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم والسعي بين الصفا والمروة والطواف بالبيت وكل تلك الأعمال وسائل محسوسة لنيل مطالب غيبية مغموسة تنجلي بمشاعر محسوسة يستشعر بها باذل المعروف في قلبه بالراحة والطمأنينة والسكينة، فالسكينة إذاً ميراث الوسائل

---

(١) أي من حيث الأجر والثواب، فمن نوى وفعل أثيب وأُجر ومن نوى ولم يفعل أثيب.

لذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يقرؤون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله في من عنده»[1] فالرحمة إذاً هي روح المصطفى ﷺ وأرواح المصطفين من النبيين والصديقين قد جلبت السكينة أي أورثت السكينة، فالسكينة نتاج الوسيلة.

* * *

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٩)، وأبو داود برقم (١٤٥٠).

الفصل الثالث
أنواع التوسل

للتوسل صور متعددة:

أولها: التوسل بأسماء الله تعالى وصفاته، كأن يقول المتوسل: اللَّهُمَّ إِني أسألك بأنك أنت الله، لا إِله إلا أنت وحدك لا شريك لك، أن ترزقني كذا، وأن تعطيني كذا....

وقد ثبت في السنة المطهرة أحاديث كثيرة توسل فيها النبي ﷺ بأسمائه تعالى وصفاته، وأمر أصحابه أن يتوسلوا بها، منها:

حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ إذا كربه أمر قال: «ياحي ياقيوم، برحمتك أستغيث»[١].

وحديث عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصاب أحداً قط همّ ولا حَزَن فقال: اللَّهُمَّ إِني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همّه وحُزنه، وأبدله مكان همه فرجاً»[٢].

وهذا النوع لم يختلف في مشروعيته أحد من المسلمين.

---

(١) رواه الترمذي (٥/٥٣٩).

(٢) رواه الإمام أحمد (١/٣٩١و٤٥٢)، والحاكم (١/٥٠٩) وصححه.

ثانيها: **التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة**، وذلك بأن يتوسل الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى بعمل صالح عمله في حياته، كأن يقول: اللَّهُمَّ إني أسألك بحبي لك، أو بإخلاصي في طاعتك، أن تعطيني كذا.

وقد ثبت مثل هذا في قصة أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم صخرة، فلم يجدوا مخلصاً إلا بالتوجه إلى الله، وسؤاله بأرجى عمل عملوه ففرج الله عنهم وذلك فيما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدَّت عليهم الغار، فقالوا: إنّه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، قال رجل منهم: اللَّهُمَّ كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق (أقدّم شُرب العشيِّ) قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي طلبُ شجرٍ يوماً فلم أَرِحْ (أرجع) عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهتُ أن أُغبِقَ قبلَهُما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يديَّ أنتظرُ استيقاظهما حتّى برق الفجرُ، زاد بعض الرواة: والصبية يتضاغون عند قدمي ، فاستيقظا، فشربا غبوقهما اللَّهُمَّ إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك ففرّج عنّا ما نحن فيه من هذه الصّخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج قال النّبيّ ﷺ:

وقال الآخرُ: اللَّهُمَّ كانت لي ابنةُ عمٍّ كانت أحبّ الناس إليَّ، فأردتها عن نفسها فامتنعت منّي، حتّى ألّمت بها سنةٌ من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينارٍ على أن تخلّي بيني وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها قالت: لا أُحلُّ لك أن تفضَّ الخاتم إلا بحقِّه، فتحرّجتُ من الوقوع عليها، فانصرفتُ عنها وهي أحبُّ النّاس إليّ، وتركت الذّهب الذي أعطيتها. اللَّهُمَّ إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنّا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، غير أنهم لايستطيعون الخروج منها. قال النّبيُ ﷺ: وقال الثّالث: اللّهمّ إنّي استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم، غير رجُلٍ واحدٍ ترك الذي له وذهب، فثمَّرتُ أجره حتّى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حينٍ فقال: يا عبد الله أدِّ إليّ أجري، فقلت له: كلُّ ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرّقيق، فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلت: إنّي لا أستهزئ بكَ، فأخذهُ كلَّه فاستاقه فلم يترك منه شيئاً. اللَّهُمَّ فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنّا ما نحن فيه، فانفرجت الصّخرة، فخرجوا يمشون»[1].

ثالثها: أن يتوسل إلى الله سبحانه وتعالى بطلب الدعاء ممن ترجى بركته، كأن يأتي إلى رجل صالح ويسأله أن يدعو الله سبحانه وتعالى له أن يقضيَ حاجته، كما ثبت في الحديث

---

(١) رواه البخاري في الإجارة رقم (٢٢٧١)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٣)، وهو في الجمع بين الصحيحين (٢/١٥٥ رقم ١٢٦١)

الصحيح الذي رواه مسلم، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن خير التابعين رجل يقال له: أويس، وله والدة، وكان به بياض، فمروه فليستغفر لكم». وفي رواية له: «... فمن لقيه منكم فليستغفر لكم»[١].

قال الإمام النووي: «وفي الحديث استحباب طلب الدعاء والاستغفار من أهل الصلاح، وإن كان الطالب أفضل منهم»[٢].

وروى الترمذي وأبو داود وغيرهما أن عمر استأذن النبي ﷺ أن يعتمر فأذن له، وقال له: «لا تنسنا يا أُخَيَّ من دعائك»[٣].

وكما ثبت بالتواتر أن كثيراً من الصحابة رضي الله عنهم، كانوا كلما حزبهم أمر في حياته ﷺ أو بعد انتقاله، لجؤوا إلى النبي ﷺ يستشفعون به إلى الله في كشف ما ينزل بهم، فيكشف الله عنهم بشفاعته، ويرد عنهم بفضلِ دعائه ﷺ.

من ذلك مارواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قلت: يارسول الله إني أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه، قال: ابسط رداءك، فبسطته قال: فغرف بيده ثم قال: ضُمَّه، فضممته، فما نسيت شيئاً بعده»[٤]. ومارواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلاً دخل يوم الجمعة من باب كان وِجَاهَ المنبر،

---

(١) رواه مسلم (٢٥٤٢).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي (١٦/ ٩٥).

(٣) رواه أبو داود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٥٦٢). وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) رواه البخاري (١١٩).

ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائم يخطب،فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائماً، فقال: يارسول الله هلكت المواشي، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا، قال: فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يديه فقال: «اللَّهُمَّ اسقنا، اللَّهُمَّ اسقنا، اللَّهُمَّ اسقنا....» الحديث[1].

رابعها: أن يتوسل إلى الله تعالى بذات النبي، أو بذات ولي من أوليائه ممن اختارهم الله لجواره في دار بقائه.

وهذا النوع هو محل النزاع مع فئة من المسلمين، وقد ابتدأ ظهور هذا الخلاف في القرن السابع للهجرة، ثم زال بسبب تصدي علماء المسلمين آنذاك، وقيامهم بالرد عليهم بالحجة والبرهان على منكريه، ولكن رأيناه يظهر مرة أخرى في عصرنا الحاضر، وظهور هذا الأمر في هذا العصر دليلٌ على ضعف المسلمين، كما قال الإمام الكوثري رحمه الله تعالى، ولولا ذلك لتوقف سريعاً كما سبق، ولتصدى له العلماء المعاصرون كما تصدى سلفهم سابقاً.

على أن موضوع التوسل لا يستحق كل ما أثير حوله من شقاق ونزاع وكثرة الجدل فيه، فإن سؤال الله ببركة ولي من أوليائه، أو بجاه أهل بيت نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، لا ينبغي أن يختلف على جوازه اثنان إذا وجد الإنصاف، فالأدلة تبرهن على صحة التوسل

---

(١) رواه البخاري رقم (١٠١٣)، ومسلم (٨٩٧).

بالذات،لأن الذات أصل للمعنى وصلاح المعنى من صلاح الذات وفساده من فسادها إذ أن أول من أمر بالواسطة والوسيلة هو الرحمن سبحانه وأول واسطة هو آدم، وأول معترض هو الشيطان الرجيم أعاذنا الله منه، وأول مستجيب هم الملائكة الكرام عليهم السلام، ولو أنصف الناس في بحثه لما وصلوا إلى الشقاق والفراق.

وسوف نورد هذه الأدلة فيما بعد إن شاء الله تعالى.

التوسل بجاه النبي ﷺ:

وهناك نوع آخر من التوسل، وهو التوسل بجاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد قرره أهل العلم وبرز في تقرير الإمام الآلوسي فقال رحمه الله تعالى ما نصه:

«لا أرى بأساً في التوسل إلى الله تعالى بجاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند الله تعالى، حيّاً وميتاً، ويراد من الجاه معنى يرجع إلى صفة من صفاته تعالى، مثل أن يراد به المحبة التامة، المستدعية عدم رده وقبول شفاعته، فيكون معنى قول القائل: إلهي أتوسل بجاه نبيك صلى الله عليه وآله وسلم أن تقضي لي حاجتي، إلهي اجعل محبتك له وسيلة في قضاء حاجتي.

ولا فرق بين هذا وقولك: إلهي أتوسل برحمتك أن تفعل كذا،إذ معناه أيضاً إلهي اجعل رحمتك وسيلة في فعل كذا، بل لا أرى بأساً أيضاً بالإقسام على الله تعالى بجاهه صلى الله عليه وآله

وسلم بهذا المعنى، والكلام في الحرمة كالكلام في الجاه... إلى أن قال رحمه الله: بقي ههنا أمران:

الأول: أن التوسل بجاه غير النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا بأس به أيضاً، إن كان المتوسَّل بجاهه ممن علم أن له جاهاً عند الله تعالى، كالمقطوع بصلاحه وولايته.

الثاني: من لا قطع في حقه بذلك فلا يتوسل بجاهه، لما فيه من الحكم الضمني على الله تعالى، بما لم يعلم تحققه منه عز شأنه، وفي ذلك جرأة عظيمة على الله تعالى»[1] .اهـ. كلام الآلوسي.

واستحسن هذا وارتضاه فضيلة الشيخ محمد تاج الدين (المدرس بمشيخة علماء الإسكندرية) فقال: «وبهذا يسقط ما قيل من أن التوسل بالميت لو كان مشروعاً بأحد المعنيين، لنقل عن بعض السلف، مع أنه لم ينقل عن أحد منهم وهم أحرص الناس على الخير. على أن السنّة في الدعاء الإسرار، وهو إسماع النفس دون الغير، وشأن السلف المحافظة على السنّة، فعدم سماعه منهم لا يستلزم عدم حصوله منهم، ولا يدّل على عدم الجواز، للإجماع على كفاية أحد الدليلين، القولي أو الفعلي في إثبات الحكم»[2].

* * *

---

(١) روح المعاني للآلوسي (٦/١٢٨).

(٢) الرسالة الرملية في فصل الخلاف بين أهالي الرمل ودعاة الوهابية لمحمد تاج الدين (ص١٧).

الفصل الرابع

حكم التوسل وارتباطه بالعقيدة

توطئة:

قد يتساءل امرؤ فيقول: لماذا اخترت البحث في هذه القضية، والأمة تمر في ظروف صعبة، أليس من الأولى ــ والحالة هذه ــ أن يترك الخوض فيها، ويبحث في غيرها من الموضوعات المهمة والقضايا الكبرى، التي تنقذ الأمة من واقعها المرير؟.

وللإجابة على هذا التساؤل أقول وبالله التوفيق: إن هذا الموضوع كتبت فيه من واقع إحساسي بأن جمع القلوب، وتصحيح العقيدة، وحب الخير للمؤمنين جميعاً أركانٌ زعزعها هذا المد الزائف، الذي تحوّل مع انحسار العلم إلى مدّ جارف لكل الروابط الإسلامية والأصول العقدية والفقهية، وبات يهدد أقوى رابطة بين المسلمين، تلك الرابطة المتمثلة في أواصر الإيمان والحب والإخاء، والولاء لله ورسوله في ظلال الإسلام، وذلك عن طريق النشرات والكتيبات التي تنشر هنا وهناك بأقلام مأجورة وآراء مشبوهة، ومن بين هذه الكتب (كتاب: التوسل حكمه وأقسامه) لعليّ أبو لوز الذي اطلعت عليه مؤخراً، وهو عبارة عن ترويج لأفكار ابن تيمية ومن لفَّ لفَّه.

ويحتوي هذا الكتاب على عدة نقاط رئيسة، أولاها: وضع قواعد ومفاهيم لم ينقل واحد منها عن سلف الأمة ولا خلفها، وبذا

يكون قد ابتدع بدعة شنيعة اقتدى فيها بأحمد بن تيمية الحرَّاني حيث اعتبر الوسيلة حقيقة شرعية وكذلك السبب والواسطة جرياً وراء ما أطلقه الأصوليون على الصلاة والصيام والزكاة والحج، التي ثبتت لديهم عن طريق السبر بأن أطلقوا عليها الحقيقة الشرعية، ونسي هذا المخذول أن ما فعله علماء الأصول لم يكن عن طريق الهوى ولكن عن طريق التحقيق والسبر العلمي بظهور معنى المسمى ظهوراً لا يدع للمتأمل أدنى شك في أن الشريعة أولدت معناه وطالبت أولي الألباب بمسماه، فأطلقوا عليه اسم الحقيقة الشرعية كما هو الحال عند اللغويين في الحقيقة اللغوية والحقيقة المجازية، ولم ينقل عن واحد من أهل هذا الفن إطلاق مسمى الحقيقة الشرعية على التوسل أو الواسطة أو السبب أو الاستغاثة إلا ما كان من ابن تيمية فهو أول من ابتدع تلك البدعة، ولفق ذلك التلفيق، فخالف بذلك إجماع أهل الاختصاص وقد فعل مثل ذلك في الأخبار الإضافية حيث عاملها بما تعامل به الصفات المعنوية، لما ثبت عن أهل الاختصاص في الأمور العقدية من القرون الفاضلة من قولهم عن الكرم والعلم وغيرهما من الصفات المعنوية عبارة: (تليق بجلاله) فاستغل هذا الإطلاق وأطلقه على الأخبار الإضافية (النعوت) بقوله: (يد تليق بجلاله) و(وجه يليق بجلاله) وهذا تلفيق وابتداع وتقعيد قواعد مبتكرة لا تَمُتُ إلى العلم بصلة نفثها الشيطان

ونصبها الهوى، فكانت أرجوحة الخلاف وأرجوزة الشقاق، تلك التي بنى عليها ابن تيمية ومن لف لفه إلى عصرنا هذا فكرهم ومنهجهم الزائغ.

وثاني تلك النقاط الرئيسة التي أثارها الكتاب: اتسامه بالخيانة العلمية إذ ينقل نصوصاً من مراجع أشياخه غير صحيحة، وإن نُقلت نُقلت محرفة بحسب ما يقتضيه الهوى.

وثالثها: أن الكتاب كفّر أجيال المسلمين من لدن آدم إلى وقتنا هذا.

ورابعها: أنه قد ساوى بين الوسائل المشروعة والوسائل غير المشروعة، واعتبر أن أولياء الرحمن هم وأولياء الشيطان سواء، وقد كفانا مؤنة الرد صاحب كتاب «**الرد المزلزل على منكري التوسل**» وكال لهم الصاع صاعين جزاه الله خيراً.

ومن هنا رأيت من الضرورة بمكان أن أبين أن هذه القضايا الفرعية التي تطرح على الساحة الإسلامية اليوم، يُرمى الناس من خلالها بالكفر والشرك والتضليل والتبديع، وتُشقّ بها الصفوف، وتَتَولَّدُ بسبب إثارتها الأحقاد والضغائن، فاستوجب بحث هذه القضايا الفرعية، لا لأزيد الطين بِلَةً، ولكن لأبين للأمة أن الاختلاف في التوسل وما شابهه من الجزئيات لا يفسد للود قضية كما يقولون، ولا يدخل في دائرة الاعتقاد، بل هو كغيره من الأمور

الفقهية التي جرى فيها الخلاف، وأن من واجب المسلم اليوم أن يسعى إلى الألفة بين المسلمين، تلك الألفة التي كانت تجمع السلف الصالح، الذين ساروا على هدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم، واتخذوه مثلاً وقدوة ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾[1] وأمتنا أمة مرحومة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، لأن في سيرته العطرة الزكية وفي خُلُقِه الأمثل، ما يقدم لنا أسوةً في الحب والتآخي والتآلف الذي يجب أن يكون فيما بيننا.

ولكن من المؤسف أن كثيراً من الناس لا يرجعون إلى هذه السيرة في انطلاقاتهم ليتخذوها نبراساً يضيء لهم الدرب، ويرسم لهم الخطوات، ويجنبهم مزالق الطريق، وإنما ينطلقون من أفكارهم التي يعجبون بها ويعتقدونها، ثم بعد ذلك يعودون إلى تلك السيرة المباركة، والنصوص الشرعية والمبادئ العظيمة، ليقتطفوا منها ما يؤيد أفكارهم، و يدعم حجتهم، ويفسرون النصوص على حسب أفكارهم، فيقلبون المسألة رأساً على عقب من خلال ليِّ أعناق النصوص.

أضف إلى ذلك – أخي المسلم – أن البحث في حقيقة التوسل لا يعني إثارة الفتنة وإيقاظ الإحن، وإنما يؤدي إلى ردع الفتنة وإطفاء نارها، والوصول إلى الحق ورد الأمور إلى نصابها، وتصحيح المفاهيم

---

(١) من سورة الأحزاب الآية (٢١).

واجب إسلامي مقدس، حتى تحفظ العقول من الزيغ والانحراف والضلال.

هذا وإن طبيعة البحث تحتم علينا أن نكون موضوعيين في كلامنا، منصفين في أبحاثنا، معتدلين في تقريراتنا، وبخاصةٍ عندما نسمع كلاماً يخالف إجماع المسلمين من القرون الأولى حتى عصرنا الحاضر، على عقيدة أهل السنة والجماعة من الأشاعرة والماتريدية، الذين رفعوا راية الحق مما تلقوه من العقيدة التي كان عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الكرام رضي الله عنهم ومَنْ بعدهم من القرون الفاضلة، وتلقتها الأمة بالقبول شرقاً وغرباً في كل مصر وعصر، وهذه العقيدة - أعني عقيدة أهل السنة والجماعة - هي العقيدة التي عرفناها وورثناها، ونهجت على طريقها أمتنا، ومؤسساتنا العلمية ومدارس العلماء، كالأزهر ومدارسِ الشام والحجاز واليمن والإحساء والخليج والمغرب والهند وغيرها.

هذا وقبل أن ألج هذا الميدان وأخوض غمار البحث فيه، أضع بين يدي القارئ الكريم معالم عقيدتي في التوسل، جرياً على عادة من سبقني من العلماء الذين ذكروا عقيدتهم في كثير من تصانيفهم، ليكون القارئ على بيّنةٍ منها، واقتداء بهم فأقول: عقيدتي في هذا الباب هي عقيدة أهل السنة والجماعة الذين يقولون:

١ـ إن الله خالق كل شيء، وبيده كل شيء يدبر الأمر، ولا خالق ولا موجد ولا مدبر إلا هو جلّ جلاله، أما النبي والولي فهما مستغاث بهما كسباً وتسبباً.

٢ـ محبتنا لله تعالى أحب إلينا من كل شيء سواه، والنبي ﷺ أحب إلينا من أنفسنا وأهلينا ومن الناس أجمعين.

٣ـ لا غياث ولا مغيث حقاً إلا الله، وكل غوث من عنده، وإن كان قد أجرى ذلك منه جلّ جلاله على يد خلقه، فهو على سبيل الكسب ليس إلا.

قال صاحب الخريدة[١]:

والفعل فالتأثير ليس إلاَّ ... للواحد القهار جلَّ وعلا

ومن يقل بالطبع أو بالعله ... فذاك كفر عند أهل الملهْ

ومن يقل بالقوة المودعةِ ... فذاك بدعيٌّ فلا تلتفتِ

٤ـ إذا قلنا في الدعاء: بحق نبيك أو بجاه نبيك أو بجاه وليك فإنا لا نريد به القسم، وإنما نريد التقرب إلى الله تعالى أن يقبل دعاءنا بآثار تلك المنة، ومكانتها عنده سبحانه.

٥ـ الأنبياء والأولياء لا يشفعون إلا بإذن الله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾[٢].

---

(١) انظر شرح الخريدة البهية للإمام أحمد بن محمد الدردير المالكي (ص٤٧).

(٢) من سورة البقرة الآية (٢٥٥).

٦ــإن من فرّق بين الحي والميت في جواز التوسل ومنعِه، لعجز الميت وقدرة الحي خلقاً وإيجاداً لا كسباً وتسبباً فقد ضل وغوى، لأنه نسب القدرة والخلق حقيقة لغير الله، وهذا منافٍ لعقيدة الإسلام، فقدرة الحي بإذن الله، وللميت قدرة بإذن الله أيضاً، كما نطق بذلك الكتاب والسنة، وسيأتي تفصيله لاحقاً إن شاء الله تعالى.

يقول الشيخ عبد الجواد الدومي: «وأما التوسل إلى الله تعالى بجاه أنبيائه عليهم الصلاة والسلام وأوليائه الصالحين فليس شركاً ولاحراماً، ولا هو بدعة مستحدثة في الدين كما يدعيه المخالفون، وإنما هو محبوب ومندوب إليه شرعاً، وما مخالفة المخالفين فيه، وتنوع مقالاتهم حوله، (كتصريحهم تارة بحرمته وتكفير فاعله مطلقاً، سواء كان المتوسل به نبياً أو ولياً حيّاً أو ميتاً، وكقولهم تارة أخرى بجوازه في النبي ومنعه في الولي، أو بجوازه في الأحياء دون الأموات) إلا من أظهر الأدلة على حيرة عقولهم وفساد تفكيرهم.

وإلاّ فما وجه هذه التفرقة بين الولي والنبيّ والحي والميت هنا، ما دمنا نعتقد أن الفعل لله وحده من غير شريك؟ وأنه عز وجل المتصرف في الكون بالمنع والإعطاء؟ وما الخلق من ملائكة وأنبياء وأولياء وغيرهم إلا وسائط وأسباب فقط يُجري الله تعالى الخير وضده على أيديهم، من غير أن يكون لهم في ذلك إيجاد ولا تأثير مطلق.

كما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «إن هذا الخير خزائن، ولتلك الخزائن مفاتيح، فطوبى لعبد جعله الله مفتاحاً للخير مغلاقا للشر. وويل لعبد جعله الله تعالى مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير»[1]، وهل كان يتصور أحد أن الحي هو الذي كان يجلب الخير، أو يدفع الضر بذاته للمتوسِّل به، حتى إذا مات لم يمكنه ذلك فيكون التوسل به عبثاً قبيحاً أو شركاً صريحاً؟ كلا والله.

على أنا نعتقد أن الأنبياء والأولياء أحياء في قبورهم، وأن منزلتهم عند الله تعالى لم يطرأ عليها تغيير ولا تبديل، بل هم بعد الموت أشد قرباً من الله تعالى وأرفع مكانة عنده، وذلك لأن أرواحهم في الدنيا كانت مشغولة نوعاً ما بتدبير البدن وعوائق البشرية، فإذا ماتوا زالت عنهم هذه العوائق بالكلية، وبقيت أرواحهم خالصة في توجهها إلى الحق، واقتباسها من أنواره القدسية، فيقوى بذلك نورها وسلطانها، وتزداد أشعة أنوارها المنعكسة على من يلوذ بها من ذوي الحاجات وأرباب الإرادات. وقد أخبرنا صلى الله عليه وآله وسلم أن حياته ووفاته سواء في انتفاعنا بشفاعته، وعود بركاته علينا، حيث قال في الحديث الصحيح: «حياتي خير لكم، تحدثون ويحدث

---

(١) رواه ابن ماجه (١ / ٢٣٨) واللفظ له، الطبراني في الكبير (٥٩٥٦)، وأبو يعلى في مسنده (٧٥٢٦)، والروياني في مسنده (٢ / ٢١٠)، وابن أبي عاصم في السنة (١ / ١٢٦) وأخرجه من طريق آخر عن أنس بن مالك (١ / ١٢٧، ١٢٨).

لكم، فإذا مت كانت وفاتي خيراً لكم تعرض عليَّ أعمالكم، فإن وجدت خيراً حمدت الله، وإن وجدت شراً استغفرت لكم»[1].

اللَّهُمَّ اجزه عنا خير ماجزيت به نبيّاً عن أمته.

ثم قال: ولا يخرج التوسل في الحقيقة عن كونه سبباً من الأسباب العادية التي نصبها الله تعالى مقتضياتٍ لمسبباتها، وجعل بينهما مقارنة في الوجود مع كون التأثير له وحده جل وعلا، فيكون حكمه حكم بقية الأسباب العادية التي يضمر فيها الإفراط والمغالاة كما يقع من بعض الجهال، والتفريط كما يقع من أهل القسوة والجفاء المنكرين لخواص أولياء الله تعالى الثابتة، وكراماتهم الواقعة بالمشاهدة والعيان.

إذ ليس من المستحيل، بل ولا من البعيد أن يُعلِّق الله تعالى قضاء حاجة من الحوائج، كشفاء من مرض، أو سعة في رزق، على التوسل بأحد عباده الصالحين، وفي هذه الحالة لا يمكن أن يحصل المطلوب من الشفاء وغيره من غير طريق التوسل بحال. لا لأن التوسل مؤثر بذاته، ولا لأن الولي أو النبي هو الذي خلق الشفاء وأوجده، بل لما سبق في علمه تعالى القديم من تعليق هذا الشفاء على التوسل المذكور»[2]. انتهى كلام الشيخ الدومي.

---

(١) رواه البزار في مسنده (٥/٣٠٨-٣٠٩)، وقال الحافظ العراقي في طرح التشريب (٣/٢٩٧): إسناده جيد. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٢٤): رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح. وصححه السيوطي في الخصائص(٢/٤٩١). وسنتكلم عليه (ص٣١٥).

(٢) من نفحات الدومي للشيخ عبد الجواد محمد الدومي (ص٣٣٤ ـ ٣٣٥ ـ و ٣٣٧) باختصار يسير.

قلت: لأن تعلق إناطة الأسباب يكون بالمسببات، والأسباب هي الوسائل لتحقق المسببات.

هل يترتب على التوسل كفر أو إيمان؟.

يعتقد بعض الناس أن التوسل من مباحث العقيدة، ويترتب على القول به تكفير أو تبديع أو تفسيق وتضليل، ولو نظرنا إلى هذه القضية بعين الإنصاف لعلمنا أن التوسل ليس مبحثاً من مباحث الاعتقاد، وأمره يدور بين الجواز والندب، وما كان أمره كذلك، فهو من موضوعات الفقه، وإقحام مباحث الفقه في العقيدة خطأ جسيم، وقلب للحقائق، وصرف للأمور عن وجهها، والأصل أن ينزل كل بحث في منزلته الصحيحة وفنه اللائق به.

علماً بأن جميع الفقهاء على اختلاف مذاهبهم الفقهية يذكرون التوسل في باب صلاة الاستسقاء، أو عند زيارة القبر النبوي الشريف[1]، ولم نر أحداً من علماء أصول الدين يذكر التوسل في التوحيد إطلاقاً، ومن خالف فليذكر لنا كتاباً واحداً أتى بذكر التوسل في مسائل الاعتقاد، ولن يجد ذلك إلا في رسائل بعض

---

(١) انظر على سبيل المثال: المجموع للنووي (٨/ ٢٧٤)، وإعانة الطالبين (٢/ ٣١٥)، والمغني لابن قدامة (٣/ ٥٨٨)، والشرح الكبير لابن قدامة (١/ ٤٩٤/ ٤٩٥)، والإنصاف (٢/ ٤٥٦)، والاختيار(١/ ١٧٤)، وفتح القدير (٢/ ٣٣٧)، ومراقي الفلاح بحاشية الطحطاوي (ص ٤٠٧)، والفتاوى الهندية (١/ ٢٦٦).

المتاجرين بالخلاف من المعاصرين، وهؤلاء مطالبون بالرجوع إلى كتب مذاهب الأئمة الأربعة ليروا أنهم قد جعلوا مسألة من مسائل الفروع ضمن مسائل الاعتقاد، فأخطؤوا خطأً فاحشاً.

يقول ابن تيمية بعد أن ذكر آراء الفقهاء في مسألة التوسل: «ولم يقل أحد: إن من قال بالقول الأول - يعني من قال بجواز التوسل - فقد كفر، ولا وجه لتكفيره، فإن هذه مسألة خفية ليست أدلتها جلية ظاهرة، والكفر إنما يكون بإنكار ما عُلِمَ من الدين بالضرورة، أو بإنكار الأحكام المتواترة والمجمع عليها ونحو ذلك... بل المكفر بمثل هذه الأمور، يستحق من غليظ العقوبة والتعزير ما يستحقه أمثاله من المفترين على الدين، لا سيما مع قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من قال لأخيه: كافر، فقد باء بها أحدهما»[1][2].

وأخرج ابن حبان والبزار وأبو يعلى بإسناد جيد - وله شاهد عن معاذ رواه الطبراني في الكبير وابن عساكر - عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن مما أتخوف عليكم رجلاً قرأ القرآن حتى إذا رُئيت عليه بهجته وكان ردءاً للإسلام غيَّره الله إلى ما شاء فانسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وخرج على جاره بالسَّيف

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١/١٠٦).

(٢) الحديث أخرجه البخاري (٦١٠٤) ومسلم (٦٠).

ورماه بالشرك. قلت يا رسول الله: أيهما أولى بالشرك الرَّامي أم المرمي؟ قال: بل الرَّامي...» الحديث[1].

ويقول حسن بن غنام الأحسائي، وهو من أصحاب الشيخ محمد بن عبد الوهاب، يقول في شرح أفكار الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب سماه «روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام»: «هذه المسألة أي: التوسل، من مسائل الفقه، ثم يقول: ولا إنكار في مسائل الاجتهاد»[2] اهـ. نقل هذا النص عنه الشيخ بشير السهسواني وهو من أشد المدافعين عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

ويقول سعد بن حمد بن عتيق النجدي، وهو من أئمة دعوة محمد بن عبد الوهاب في رسائله المطبوعة بإدارة البحوث العلمية والإفتاء بالرياض (ص٣٤)، يقول: «نحن لا نشدد في ذلك - أي: التوسل - على من فعله مستدلاً بالحديث» اهـ.

ويقول السيد صديق حسن خان القنوجي، وهو من علماء الهند المناصرين لدعوة محمد بن عبد الوهاب في كتابه «نزل الأبرار»: «ومسألة التوسل بالأنبياء والصالحين مما اختلف فيه أهل العلم،

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه «الإحسان» (١/ ٢٨٢) برقم (٨١) والبزار كما في كشف الأستار (١/ ٩٩) برقم (١٧٥) وقال: إسناده حسن. كلاهما من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه. وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٨٧-١٨٨) عن إسناد البزار: إسناده حسن. وحديث معاذ رواه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٨٨) وابن عساكر في تبيين كذب المفتري (ص٤٠٣)

(٢) من كتاب السهسواني (ص ١٨٣)، انظر رفع المنارة (ص ٥٠).

وبلغت النوبة فيه إلى أن كفّر بعضهم بعضاً أو بدّع أو ضلل، والأمر أيسر من ذلك، وأهون مما هنالك»[1].

وبالجملة ليست المسألة مستحقة لمثل هذه الخصومات والخلافات، ولكن أصبح أهل هذا الزمن طوائف يستوي في الإنكار على أهل الله جاهلهم وعارفهم، منهم من يعلم أنك على الحق وفعلك موافق لما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويجحد ويماري ويجادل، وقد قال الحق سبحانه وتعالى في وصفهم: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾[2].

ومنهم من يعلم المسألة ولا يدرك تأويلها، ويجحد ويماري ويجادل أهل الحق حيث قال سبحانه في وصفهم: ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ** ﴾[3].

ومنهم من يعلم العلم ولا يرزقه الله سبحانه الهداية بعلمه، ويجحد ويماري ويجادل أهل الحق، وقد قال الله تعالى في وصفهم: ﴿ **وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ** ﴾[4].

ومنهم من لا يعلم أصلاً.

---

(١) نزل الأبرار (ص ٣٧).

(٢) من سورة البقرة الآية (٨٩).

(٣) من سورة يونس الآية (٣٩).

(٤) من سورة الأحقاف الآية (١١).

لذا ينبغي على العاقل أن يكون من المستبصرين، نسأل الله السداد والتوفيق، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت، وإليه أنيب.

وثمة سؤال قد يتبادر إلى الذهن وهو: **هل يعتبر التوسل عبادة أم لا؟**.

أجاب على ذلك شيخ مشايخنا علامة مكة السيد محمد بن العربي التباني الحسني رحمه الله في كتابه براءة الأشعريين فقال ما نصه: «إن التوسل لا يسمى عبادة قطعاً، ولا يقال فيه عبادة، وإنما هو وسيلة إليها (العبادة) ووسيلة الشيء غيره بالضرورة وهو واضح فإن التوسل لا تقرب فيه للمتوسَلِ به، ولا تعظيمه غاية التعظيم، والتعظيم إذا لم يصل إلى هذا الحد لا يكون الفعل المعظم به عبادة، فلا يطلق اسم العبادة على ما ظهر من الاستعمال اللغوي إلا على ما كان بهذه المثابة، من كون العمل دالاً على غاية الخضوع منوياً به التقرب للمعبود تعظيماً له بذلك التعظيم التام، فإذا اختل شيء منها منع الإطلاق، أما الدلالة على نهاية الخضوع فظاهر، لأن التسمية لم توجد، ولأن الناس من قديم الزمان إلى الآن يخضعون لكبرائهم ورؤسائهم بما يقتضيه مقامه الدنيوي عندهم، ويحيونهم بأنواع التحيات ويتذللون بين أيديهم ولا يعدون ذلك قربة ولا يطلقون عليه اسم عبادة، وإنما يرونه من باب الأدب، وما ذلك إلا لكون ذلك الخضوع لم يبلغ نهايته، والتعظيم الناشئ عنه لم يبلغ

غايته، وبهذا ظهر الفرق بين التوسل والعبادة، على أن (عَبَدَ) يتعدى بنفسه، و(تَوَسَّلَ) يتعدى بحرف الجر»[١].

ويقول العلامة الشيخ أبو عبدالله سيدي محمد بن مصطفى الحسني في كتابه «إظهار العقوق في الرد على من منع التوسل بالنبي والولي الصدوق»[٢]: يقول القاضي عياض في الشفاء ما نصه[٣]: اعلم أن الله جل اسمه قادر على خلق المعرفة في قلوب عباده والعلم بذاته وأسمائه وصفاته وجميع تكليفاته ابتداء دون واسطة لو شاء كما حكى عن سنته في بعض الأنبياء، وذكر بعض أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا﴾[٤] وجائز أن يوصل إليهم جميع ذلك بواسطة تبلغهم كلامه، ويكون ذلك الواسطة، إما من غير البشر كالملائكة مع الأنبياء عليهم السلام، أو من جنسهم كالأنبياء مع الأمم، ولا مانع لهذا من دليل العقل، وإذا جاز هذا ولم يستحل وجاءت الرسل بما دل على صدقهم من معجزاتهم وجب تصديقهم في جميع ما أتوا به، لأن المعجز مع التحدي من النبي قائم مقام قول الله تعالى: «صدق عبدي فيما بلغ

---

(١) براءة الأشعريين (ص٢٦).

(٢) إظهار العقوق (ص٦٨).

(٣) انظر الشفاء للقاضي عياض (١/٢٠٩)، وانظر نسيم الرياض شرح شفاء القاضي عياض (٢/٤٤٩-٤٥٠).

(٤) سورة الشورى، الآية (٥١).

عني فأطيعوه واتبعوه» وشاهد على صدقه فيما يقوله، وهو كاف والتطويل فيه خارج عن الغرض فمن أراد تتبعه وجده مستوفياً في مصنفات أئمتنا رحمهم الله. اهـ[1].

(وقال) الشيخ الإمام العالم العلامة العمدة الفهامة، حسام الحق والدين تاج الدين عبدالوهاب السبكي، رحمه الله تعالى وأعاد علينا وعلى المسلمين من بركاته آمين، في كتابه: «معيد النعم ومبيد النقم» ما نصه في حديث الأشعث بن قيس الكندي قال: «إن أشكر الناس لله أشكرهم للناس»[2]. أخرجه أحمد بن منيع في مسنده.

قلت: ورد بذلك لكونه أجرى النعمة على يديه، فيكون شكرك إياه داعياً لك إلى أن تزيد من فعل الخير، ولك أن تشكر الفاعل بالحقيقة الذي هو الرب، ولغير ذلك من الأسباب التي لا غرض الآن في شرحها، فعليك الشكر لأجل أمر الله لا لاعتقاد أنه فاعل، بل لو شكرته بذلك الاعتقاد لكنت مشركاً لا شاكراً فاشكره، واعلم أنه لا ينفع ولا يضر، وإنه ربما تغير عليك بأيسر الأسباب وانقلب حبه بغضاً، وزالت تلك الدواعي، وتبدلت بضدها، وإنما المحسن الذي لا يتغير ولا يحول ولا يزول رب الأرباب، والواسطة التي بين الخلق والحق الذي هو بنا رؤوف رحيم لا تتغير حالته،

---

(١) إظهار العقوق (ص٤٣-٤٤).

(٢) رواه أحمد بن حنبل في مسنده (٥/٢١٢) والطبراني في الكبير (١/١٧١).

محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم الأمين خير الخلق أجمعين، سيدنا محمد سيد المرسلين والنبيين عليه أفضل الصلاة والسلام من رب العالمين[1]. اهـ.

ومن نازع في أقوال هؤلاء الأئمة مع رفعة درجتهم في سائر العلوم الشرعية والعقلية وعظيم جاههم عند سائر علماء هذه الأمة، ولا سيما أهل السنة، فاحكم ببدعته وضلالته، وأرشده عسى أن يجبر ما انصدع من عقيدته. اهـ.

قلت: وقد وردت آيات في شكر النعم، منها ما أورده الفخر الرازي في تفسير سورة الفاتحة، قال:

«واعلم أن للجنة ثمانية أبواب، ففي هذا المقام انفتح لك باب من أبواب الجنة، وهو باب المعرفة، والباب الثاني هو باب الذكر وهو قولك: بسم الله الرحمن الرحيم، والباب الثالث باب الشكر، وهو قولك: الحمد لله رب العالمين، والباب الرابع باب الرجاء، وهو قولك: الرحمن الرحيم، والباب الخامس باب الخوف، وهو قولك: مالك يوم الدين، والباب السادس باب الإخلاص المتولد من معرفة العبودية ومعرفة الربوبية، وهو قولك إياك نعبد وإياك نستعين، والباب السابع باب الدعاء والتضرع كما قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[2]

(١) مفيد النعم ومبيد النقم (ص١٤).

(٢) سورة النمل، الآية (٦٢).

وقال ﴿ **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾[1] وهو ههنا قولك: اهدنا الصراط المستقيم، والباب الثامن باب الاقتداء بالأرواح الطيبة الطاهرة والاهتداء بأنوارهم، وهو قولك صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، وبهذا الطريق إذا قرأت هذه السورة، ووقفت على أسرارها انفتحت لك ثمانية أبواب الجنة، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿ **جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ** ﴾[2] فجنات المعارف الربانية انفتحت أبوابها بهذه المقاليد الروحانية، فهذا هو الإشارة إلى ما حصل في الصلاة من المعراج الروحاني»[3].

وقد تحدث الحق سبحانه في محكم تنزيله عن نعمه سبحانه على سيدنا عيسى عليه السلام فقال: ﴿ **وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي** ﴾[4] فلما جاء عند مسألة كف الأذى من الناس لم يأت بالإذن، لأنها وسائط أذن الله بها وهي من أمره فلا تحتاج لإذن، ثم ذكر في سورة الأنعام تحت قوله سبحانه: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ**

---

(١) سورة غافر، الآية (٦٠).

(٢) سورة ص، الآية (٥٠).

(٣) تفسير الرازي (١/ ٢٧٧).

(٤) سورة المائدة، الآية (١١٠).

رَّحِيمٌ ﴾[1] ظهر أن مما يعنيه سبحانه في هذا النص أنه رفع عباده بعضهم فوق بعض درجات فهو إيذان للمؤمنين أن يتحسسوا من روح الله في المقربين، وقربة المقربين هو سيد الشفعاء محمد بن عبدالله ﷺ .

لقد تعنَّت بنو إسرائيل في عدم الإيمان بالواسطة فاستخفُّوا بموسى وطلبوا أن يكلمهم الله: ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ** ﴾[2].

وكذلك في سورة المائدة تعنتوا وطلبوا أن ينزل الله لهم مائدة من السماء بذاته، تعالى الله عن هذه الوجهة بل أنزل سبحانه ملائكة بالمائدة وبذا رد عليهم عيسى : ﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[3] وختمت سورة المائدة بقوله سبحانه: ﴿ **قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ** ﴾[4] الآية، وأعقبتها آخر آية من سورة المائدة: ﴿ **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...** ﴾[5] فالصدق نفع الصادقين وانتفع به المصدقون، فالصدق إذاً وسيلة للقبول فهو معتبر عند الحق،

---

(١) سورة الأنعام، الآية (١٦٥).

(٢) سورة الشورى، الآية (٥١).

(٣) سورة المائدة، الآية (١١٢).

(٤) سورة المائدة، الآية (١١٩).

(٥) سورة المائدة، الآية (١٢٠).

كما أن الكذب وسيلة للفجور وهو مرفوض عند الحق قريب للشيطان، وكلا النفعين أو الضررين مقهوران تحت ملك الله، ولم يخرجا من قدرته إذ هو على كل شيء قدير.

قال تعالى في سورة النحل: **﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾**(1) لمَّا كانت نِعَم الحق سبحانه وتعالى وسائل عطائه لخلقه أنزل الحق سبحانه وتعالى شفاء للناس، وعَنْوَنَ السورة باسم «النحل» وهو من أصغر المخلوقات تقريباً، أدهش أولي الألباب في نظامه ومملكته وما يخرجه من جوفه شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس، لهذه النعمة أثرة وأثر على الخلق فعظمها المولى سبحانه وأنزل هذه الآية التي تدل دلالة بينة على الواسطة الحقة التي شرعها الله وجعل شكرها من شكره، والمقصود من شكرها العناية بها وعدم الإضرار بها حتى يجنوا رحيقها الذي أودع الله فيه بركته وسره، فلا مجال إلى شكره أبلغ من الإحساس بطعم النعمة وأثر النعمة ونفع النعمة، فإكرام النحل وتوفير ما يلزمه ومراعاته والصبر عليه واعتقاد الشفاء فيما يفرزه من جوفه من عسل لم يكن غائلة للشرك لحظة من اللحظات، ولو كان كل شيء وقر وعظم يسوق إلى الشرك لكان أحرى بالنهي بهذه الجمادات، ولو كان الحكم على الموحد بظاهر السياق لما بقي موحد

---

(1) من سورة النحل، آية (114).

على وجه البسيطة، فظاهر هذا النص يدعو إلى شكر ذات النعمة إذا حملنا المراد على الظاهر فليتأمل، لذا جاءت التاء بالرسم العثماني مفتوحة لنوحد التوجه إلى الله بأسبابه المشروعة وبه سبحانه، وعلى ذلك فقس، وقد ضرب الحق سبحانه لنا بخليله إبراهيم عليه السلام، بأنه كان شاكراً لأنعمه أي شاكراً لله على نعمته، محتفياً بها، معطيًا لها حقها، عالماً بأن بلوغ فضل الله من خلالها، وإبراهيم عليه السلام - لا شك - أحرص على دين الله ممن يتشدقون بالتوحيد ويرى الشرك في أدنى درجة من درجات التوقير والإكبار، فالمسألة إذاً ليست بنت وقتها، فالمشركون لم يعظموا ما عظم الله بل استهزؤوا بما عظم الله، ولم يعترفوا بمكانتهم ولم يتخذوهم حناناً ورحمة، وهم أول من أنكر الواسطة والوسيلة الحقة، ولبّس عليهم الشيطان بقياساتهم الفاسدة، والأمر جلي في ذلك كالشمس في رابعة النهار، فحينما أراد سيدنا إبراهيم عليه السلام تقديم ابنه إسماعيل قرباناً إلى الله لرؤيا رآها عليه السلام أنزل الله عليه قرباناً من السماء، علماً بأن الأرض ممتلئة بالأغنام. فَلِمَ أنزل كبشاً؟، إشارة من الحق لنا بأن قرباني ووسائطي تتشابه مع قربانكم ووسائطكم ولكن تختلف في المضمون ولو اتفقت في الظاهر شكلاً، كالنية ظاهرها واحد وحقيقتها مختلفة، والنية حاكمة في المسألة فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا

يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه، فهي هجرة ولكن اختلفت الوجهة، ثم جئت على قدر يا موسى، وليس كل مجيء كمجيء موسى عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾[1] أمر الحق سبحانه بذكر النعمة وهي جند الله من رجال الغيب والملائكة، وأمر بشكرهم كما سبق فالشكر في الحقيقة لا يكون إلا لله لكن لما كان هذا السبب آتياً من قبل الله اعتبر الحق أن الشكر لوسائطه شكرٌ له سبحانه وتعالى، لأن وسائطه المشروعة حافظة شاكرها من الزلل أو الوقوع في الغواية والشرك والخلل.

إن الحق سبحانه وتعالى أعجز بالقرآن المبين أفصح الناطقين بالضاد وحيّر الأدباء والعلماء في أسلوبه، ففي كل حرف من حروفه سر، وفي كل لفظ من ألفاظه أمرٌ فيّاض بأنفس المعاني، لم يأتِ كتابٌ على أسلوبه في عرض القضية وإيصال مفهومها إلى قارئها فحقاً لا تنتهي عجائبه، ولا تنفد غرائبه... لأنه حبل الله المتين... وخُلق سيد المرسلين.

فإذا كانت المسألة التي سيتحدث عنها لا يجري فيها الخلاف غالباً جاء بها نتيجة متقدمة على المقدمات والتمهيد، وإذا كانت

---

(١) من سورة الأحزاب، الآية (٩).

المسألة مما يغلب الخلاف فيها جاء بالمقدمات التي تهيئ القارئ أو المستمع لتقبلها، فمسألة التوسل من المسائل التي يحصل فيها الاشتباه بين الوسيلة الصالحة والوسيلة الطالحة، لذا قدم لها مقدمات ذكرها في سورة المائدة عند قوله سبحانه ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ...**﴾(1) إلى قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ**﴾(2) ولا شك أن النعمة هنا هي الوسيلة بواقع قوله في نفس الآية :﴿**إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا**﴾(3) وختم هذه الآيات بقوله سبحانه: ﴿**قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا**﴾(4) إذاً فبنو إسرائيل ممن أنكر الواسطة الحقة ليس فقط خوفاً من أن يموتوا بالقتال بل أرادوا أن يختبروا نبيهم حيث إنهم كانوا يعتقدون أن نصره بهم فقالوا: ﴿**اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا**﴾(5) بنفس المفهوم الذي يقوله خوارج عصرنا: ادعوا الله ولا تدعوا بالرسول. والله يرد عليهم بهذه الآية وبقوله سبحانه: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ**﴾(6) فدعاء الله

---

(1) من سورة المائدة، آية (19).

(2) سورة المائدة، الآية (20).

(3) من نفس الآية السابقة.

(4) سورة المائدة، الآية (24).

(5) من نفس الآية السابقة.

(6) سورة الإسراء، الآية (110).

بأسمائه، والأسماء وسائط ولم يقصر الله عباده على اسم واحد، إذ لو قصرهم على اسم واحد لربما صح ما ذهبوا إليه ولكن الله سبحانه وتعالى حكيم في تشريعه، ثم مضت المقدمات في سورة المائدة حتى بلغت قصة ابني آدم هابيل وقابيل عند قوله سبحانه: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ** ﴾[1] الآية. فكلا ابني آدم قدما قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، فالفرق واضح بين القربان المقبول والقربان غير المقبول ثم بعد ذلك عقب بقوله موضحاً ما رمى إليه سبحانه وتعالى من إظهار النتيجة التي مهد لها فقال سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** ﴾[2] ثم أعقبها بتحذير ووعيد لمن تسول له نفسه إنكار الوسائط بعد هذا الإحقاق في آية من السورة نفسها وهي قوله سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا** ﴾[3] أي ما علمتموه بظاهر النص فخذوه وأما ما خفي فلستم بمسؤولين عنه فإنكم لم تؤتوه أي لم تؤمروا به، ثم ختم

---

(١) سورة المائدة، الآية (٢٧).

(٢) سورة المائدة، الآية (٣٥).

(٣) من سورة المائدة الآية (٤١).

هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1] ثم بعد أن أوضح الحق تلك الإيضاحات رتب على ذلك معاني كثيرة.

* * *

---

(١) نفس الآية السابقة.

الفصل الخامس

الدليل العقلي على ثبوت التوسل وجوازه

سيأتي في الأدلة النقلية من الكتاب والسنة ثبوت وصحة التوسل، وأما ثبوته ودليله العقلي: فلأن الوسيلة لما كانت باعثة لتقرب العباد إلى الله تعالى، والتقرب إلى الله هو مقصود الإنسان ومطلوبه في عباداته وأعماله، لأن السعادة والفلاح لا يحصلان للإنسان في الدنيا والآخرة بدون التقرب، والتقرب لا يحصل بدون الوسيلة، فحصول السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة موقوف على الوسيلة.

وقد صرح ابن القيم في كتابه «زاد المعاد»، بقوله: «لا سبيل إلى السعادة والفلاح، لا في الدنيا ولا في الآخرة، إلا على أيدي الرسل، ولا ينال رضى الله البتة إلا على أيديهم»[1].

فعلم أن الوسيلة التي حصلت بها السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة هي ذوات الأنبياء والرسل، والوسيلة أيضاً يحصل بها الحوائج، وحصول الحاجة نعمة من الله، فالوسيلة يحصل بها النعمة، وما حصلت به النعمة فهو أيضاً نعمة.

فإذا ثبت أن الوسيلة نعمة وإحسان من الله، فما يكون أكمل نعمة فهو أكمل وسيلة، ولا شك أن ذوات الأنبياء والرسل من أعظم إنعاماته تعالى، فجاز أن تكون وسيلة.

---

(١) زاد المعاد (١/ ٦٩).

فإذا تقرر هذا فاعلم أن النعمة الكبرى والإحسان الأكبر، والمنّ الأعظم من الله تعالى، هو ذات محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه هو الرسول الأعظم،والرحمة للعالمين، وخاتم النبيين، وشفيع المذنبين، إذ قال الله تعالى في شأنه عليه الصلاة والسلام: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾[1].

فثبت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الوسيلة العظمى في الدنيا والآخرة، فلا يحصل الفلاح والسعادة لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا به، كما قال ابن القيم.

ولما ثبت أن التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم صحيح، عُلم منه أنه إحسان ونعمة من الله، فذكر النعمة والإحسان في الحاجة إلى الله كافٍ، وإن كان غير موجود عندنا وقت التوسل، كما أن الأعمال الصالحة يتوسل بذكرها وهي غير موجودة وقت التوسل، كما جاء في «الصحيحين» عن ابن عمر في قصة أصحاب الغار الثلاثة الذين أووا إلى الغار، فأطبقت عليهم الصخرة، فتوسل كل واحد بصالح عمله الماضي.

وكذلك يجوز التوسل بذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولو كان قبل ظهوره، أو بعد ظهوره، في حياته أو بعد مماته، لأن الله تعالى لما أعلم العباد أنه تخليقه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى:

---

(١) من سورة آل عمران، الآية (١٦٤).

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ﴾[1]، علم العبادُ أنه ﷺ نعمة الله تعالى، ورحمة الله الكبرى، فاتخذوه وسيلة، وتوسلوا بذكره في حوائجهم، قبل خلقه وبعد خلقه، في حياته وبعد مماته[2]. اهـ.

* * *

(١) من سورة آل عمران، الآية (٨١).

(٢) من كتاب التوسل للشيخ محمد عبد القيوم القادري (ص ١٦ – ١٧) بتصرف يسير، طبعة باكستان.

الباب الثاني

مشروعية التوسل

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الأدلة النقلية من القرآن الكريم.

الفصل الثاني: الأدلة النقلية من الحديث والأثر.

الفصل الثالث: العلماء وموقفهم من التوسل.

الفصل الأول

الأدلة النقلية من القرآن الكريم

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : السبب والمسبب .

المبحث الثاني : سرد الأدلة النقلية من القرآن الكريم .

الفصل الأول

الأدلة النقلية من القرآن الكريم

المبحث الأول

السبب والمسبب

قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ** ﴾[1].

إن هذه الآية الكريمة تحمل حقيقة إيمانية عظيمة، تلك الحقيقة التي عمل بها الموحدون على مرّ التاريخ وحققوها، وجاءت الإشارة إليها بقوله تعالى: ﴿ **يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ** ﴾[2] ولما كانت الأموال،وهي الأداة المشاهدة المحسوسة التي يقوى نشاطها باتساع رقعة عموميتها، وأن الفتنة كامنة بها: كان التفطن في معرفتها قليلاً جداً، لم ينله إلا ذو حظ عظيم، وهم الموفقون من هذه الأمة، ولذلك جاء التنديد والترهيب بعدم التفكر في موضعه الصحيح.

ثم عطف الشارع النعمة الثانية وهي الأولاد على الأموال، وهذا نسق ونكتة بديعة، جاء بها التنزيل بأسلوب رائع، يجب أن يعايشها

---

(١) من سورة سبأ، الآية (٣٧).

(٢) من سورة الإسراء، الآية (٥٧).

العاقل في تحقيق إيمانه، والتفهم على ضوئها في فهم النص القرآني، الحامل لمعاني التوجيه والإرشاد لما يجب على الموحّد، فذكر الهدي الكريم عاملين مهمين هما أساس الحياة.

ويذكر المفسرون أن النكتة في تقديم الأموال على الأولاد على حسب حال السياق في الآي، حيث يقول بعضهم: إن الأموال لها جوهرية التعلق بالنفس، وهي أسبق من محبة الولد، في روح الإنسان كما ذكر العلامة ابن حجر الهيتمي.

هذا التعليل له معنىً، ولكن التساؤل يبقى قائماً عن معرفة القرينة لتقدم الأموال على الأولاد، في مثل هذا السياق في الآية الكريمة التي بين أيدينا.

والذي يبدو لي ـ والله أعلم ـ أن الله سبحانه وتعالى يرمي في هذه الآية إلى معان إيمانية، ذات دلالات إنسانية وحقائق كونية، فالنفع من الله يجري للعبد من خلال هذين العنصرين، المال والولد، بل إن الولد الذي يمثل الجانب التنفيذي في تحقيق السبب، لا يمكن أن يحقق الغاية المنشودة على الوجه الأكمل إلا بوجود عصب الحياة وهو المال.

ولما كان هذا هو الحال جاء المال متقدماً في الآية، فإن الله سبحانه يمدح من سخروا أموالهم وأولادهم في التقرب إليه سبحانه وتعالى،

مع الاعتقاد بأنها سبب ظاهر يستمد التحقق من السبب الخفي المطلق، ويذم في المقابل من اعتقد في القوة المادية والقوة البشرية بأنها أساس الفوز والنجاح والقرب، وأعطاها صدق التحقق في سعادته، فهذا مذموم بنص الآية.

أما الذين امتدحتهم الآية في معرفة مقام هذين السببين فلهم جزاءُ الضعفِ وهم في الغرفات آمنون، أي: جزاء في الدنيا بتحقيق أوامر الله ، وجزاء في الأخرى جنات عدن ورضوان من الله أكبر.

ولذلك نشط الإنسان الجاهلي في بدء الرسالة، وعرض على حسب اعتقاده وتفكيره على سيد الموحدين صلى الله عليه وآله وسلم أن يقبل المال، وأن يتخلى عن الدعوة، فأبى صلى الله عليه وآله وسلم، وعُرض عليه العامل التنفيذي، حيث عرضوا له أفضل أولادهم فأبى، وما ذلك الرفض إلا لبيان معرفة من صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه ثابت التأييد من رب السماوات والأرض، لا يخطو إلا بتأييده،ولا يمضي إلا بتسديده، وليس ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرفض الأسباب في نصرة الدعوة، ولكنه يرفض الإطار الذي قدم به الطلب، حيث لا يخفى أنه حقق صلى الله عليه وآله وسلم نصر الدعوة بهذين الركنين، بأموال خديجة رضي الله عنها، وبأموال أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما

وغيرهما، وبصحبة الصديق والفاروق وغيرهما رضي الله عنهم أجمعين.

وملاك الأمر في هذه الآية أنها تصرح بنفع الذوات الطيبة مالاً كان أو ولداً فالمال الحلال يقرب إلى الله سبحانه إذا أنفق في سبل الخير كما قال ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[١]، والولد الصالح ينفع كما جاء في الحديث، لقوله ﷺ: «... أو ولد صالح يدعو له»[٢] بالدعوة الصالحة وبدفع الصدقة في سبيل الخير، ولذا قال سبحانه كما في الآية المتقدمة: ﴿**إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾[٣]، فالإيمان رمز عن صلاح الولد، والعمل الصالح رمز عن حسن توجيه المال فيما يرضي الله تعالى، وقد أطلق الحق سبحانه وتعالى على الولد الصالح وعمله بأنهما قربة، ولم يفصل بينهما حيث إنه لم يعول في المسألة على العمل دون باذل العمل، ولكن قرر في هذه الآية أن المعاني مقترنة بالذوات لا ينفكان في الهداية أو في الضلال، ولذا قال في مطلع الآية: ﴿**وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ**﴾[٤] فقد استُثني المؤمن وعمله

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/١٩٧) وابن حبان في صحيحه (٨/٦) برقم ٣٢١٠.

(٢) رواه مسلم برقم (١٦٣١).

(٣) سورة سبأ، الآية (٣٧).

(٤) نفس الآية السابقة.

ولم يستثن العمل دون المؤمن، ولا المؤمن دون العمل، ولكنهما قرينان لا ينفصمان كالروح والجسد، وبذا يثبت جواز التوسل بالذوات لأن الذوات تحوي المعاني، ولا يجوز التوسل بالمعاني دون الذوات، ولا بالذوات دون المعاني، إذا نُظر إلى جوهرية كل منهما، ولكن الجواز صحّ بالنظر إلى حقيقتهما عند الله سبحانه، والله أعلم.

وقد جرى النسق القرآني في مثل ذلك عند قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾[1] وبين قوله تعالى: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾[2] حيث يتبيّن من الآيتين اتفاق وافتراق، اتفقت الآيتان في مسألة الرزق، وأن المسبب واحد هو الله عز وجل، وافترقتا في صفة المعنيّ، فالأولى تحققت بسبب خفي، والثانية تحققت بسبب جليّ، علماً بأن مقام الأولى أولى بالسبب الجليّ (الظاهر)، ومقام الثانية أولى بالسبب الخفي (الباطن).

والسر في ذلك ـ والله أعلم ـ أن المولى سبحانه وتعالى يهذب عباده المصطفين، ليكونوا نبراس الانتقاء ومدارس الاقتداء، فحينما يكون العبد متجهاً إليه اتجاهاً ينسى فيه أثر السبب عليه وهو في مقام السبب، يكون قد بلغ ذروة الإيمان التي هي حقيقة التوكل

(١) من سورة آل عمران، الآية (٣٧).
(٢) من سورة مريم، الآية (٢٥).

على الله سبحانه وتعالى، فليس ثمة حاجةٌ إلى أن يعامل بالسبب الجلي، بل يعامل بالسبب الخفي، ولذا كان انشغال مريم عليها السلام بالمولى سبحانه وتعالى انشغالاً أذهلها عن الأسباب، وهي في مقام السبب الجلي، فجاءها رزقها من السماء من حيث لا تحتسب.

وحينما يكون العبد متجهاً إليه سبحانه اتجاهاً ينسى فيه أثر السبب عليه، وهو في مقام التوكل المطلق، فليس بحاجة لأن يخاطب بالسبب الخفي، لأنه موقن به إيقاناً قطعه حتى من الاعتراف بأثر السبب الجليّ، مما جعل المولى يردُّه إليه وهو في أصعب المراحل، ليعلمه بتلازم الأمرين في مسألة الإيمان، وأنه قد جعل لكل شيء سبباً فأتبع سبباً.

لذا فقد أمر مريم الصديقة عليها السلام وهي في نفاسها أن تهز جذع النخلة، الذي لا تقوى عليه إلا عصبة من الرجال، وهو قادر سبحانه أن يكفيها ذلك، لأنه قد سبق أن أنزل عليها مائدة من السماء في حال قوتها فكيف بها والحال كذلك؟ فسبحان الله رب العالمين اللطيف الخبير.

ولذلك فقد سنّ الله تبارك وتعالى لعباده التوسل بالرسول والنبي والولي الصالح، كما في قوله سبحانه: ﴿**يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ**﴾[1] وقوله: ﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ**

(١) من سورة الإسراء، الآية (٥٧).

وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1]، وهذا سنتعرض له بعد الانتهاء من هذه المقدمة.

فالتوسل في حقيقة الأمر هو ربط بين السبب الخفي والسبب المطلق، تلك القضية الإيمانية التي أرسل الله على إثرها رسولاً، حيث إن اليهود أنكروا السبب الخفي وآمنوا بالسبب الجلي، فكان إيماناً ناقصاً، بعث الله على إثره عيسى ابن مريم عليه السلام من سبب خفي.

أما عبدة الأوثان الذين قال الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[2] آمنوا بالسبب الخفي، وأنكروا وجوده إلا بسبب جلي، فاعتقدوا بالسبب الجلي أنه ينفع ويضر بدون السبب الخفي المتحقق بالسبب المطلق، حيث لا يخفى على كل ذي بصيرة أن السبب الجلي، أي الظاهر - هو ما يحدثه المخلوق ويدركه الطرف إدراكاً حسيّاً ملموساً، أما السبب الخفي فتدرك الحواس صفة من صفاته، وهو فعل الملَك والجان والمعجزة والكرامة، وأما السبب المطلق وهو ما يحقق السبب الخفي، وهو أمر الله سبحانه وتعالى الذي يوقف الأسباب بعد نفاذها، كما حصل لإبراهيم عليه السلام حين

(١) من سورة البقرة، الآية (٨٩).

(٢) من سورة الزمر، الآية (٣).

ألقي في النار قال الله سبحانه للنار: ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾[1] حيث سلب المولى صفة الإحراق من النار، كما سلب صفة القطع من السكين عندما أراد إبراهيم ذبح ابنه إسماعيل، حينما تلّه والده للجبين، وناداه سبحانه: ﴿ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾[2] وسلب الماء خاصيّة الإغراق في أصحاب السفينة، ولذا قال سبحانه: ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾[3].

فعلم اليقين هو اتحاد السبب الخفي والسبب الجلي، وعين اليقين تفويض العبد التفويض المطلق، حينما يعرف السبب والمسَبِّب، وأن المتحكم في ذلك هو السبب المطلق، وهو أمر الله سبحانه وتعالى، الذي يسلب الأسباب الجلية والخفية قدرتها، فسبحان من كان على كل شيء مقتدراً.

ولذا قال سبحانه وتعالى في سورة الكهف: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا

---

(١) من سورة الأنبياء، الآية (٦٩).

(٢) من سورة الصافات، الآية (١٠٥).

(٣) من سورة التكاثر، الآيات (٥، ٦، ٧).

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾[1].

ففي الآية الأولى وهو مقام السبب الجلي، عبر الحق سبحانه عنه بقوله: ﴿ فَأَرَدتُّ ﴾ فهي إرادة السبب الجلي التي يجريها الله سبحانه وتعالى على يد من يشاء من خلقه.

فخرق السفينة سبب ظاهر من تصرف العبد، وفيه هلاك السفينة ومن فيها، لذا اعترض سيدنا موسى عليه السلام على ذلك، إلا أنه خطاب من الخضر عليه السلام من مقام السبب الجلي، وتذكيرٌ بالسبب الخفي، وأن السبب الجلي ليس كل شيء، لإيضاح أن الاعتماد على السبب الجلي ليس كل شيء، كما أن الاعتماد على السبب الخفي ليس كل شيء حيث إنهما مفتقران لعناية الله سبحانه وتعالى، لذا عندما خاطب الخضر موسى عن قتل الغلام، عبر المولى سبحانه بقوله: ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ فهو اجتماع الإرادتين أي: السببين الجلي والخفي، فكان الاعتراض من موسى عليه السلام أنه خوطب من الخضر عليه السلام من مقام السبب الخفي بالسبب

(١) من سورة الكهف، الآيات (٧٩، ٨٢).

الجلي وهو قتل الغلام، وأكد الخضر لموسى عليه السلام أن السبب الخفي ليس كل شيء، بل هناك سبب مطلق، فأقام الجدار، فعبر الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَأَرَدْنَا﴾ فهي إرادة تخفى على صاحب المقام الجلي، وصاحب المقام الخفي، إلا أنهما مطالبان بالإيمان بها يقيناً، وتسليماً وتفويضاً، لذا نفذ الخضر عليه السلام ما أمر به من الله في جميع الحالات الثلاث، فقد اشتركت هذه المراتب الثلاث في أمر، وافترقت في أمر، اتفقت في تصرف الخضر من خرق وقتل وإقامة جدار يظهر للناظر عبثها، إلا أنها في التحقيق توجيه وإرشاد وتبيين لمراتب الاعتقاد.

ففي المرتبة الأولى كما ذكرنا أن الإنسان وهو في السفينة في لجة البحر، يكون متجهاً إلى الله سبحانه وتعالى اتجاهاً ينسى فيه أثر السبب الجلي عليه وهو في مقام السبب، لذا خرقها الخضر ليبرهن أن السبب الظاهر ليس كل شيء، ليرد المعتقد إلى الجادة، خشية أن ينسى أثر السبب الخفي الذي هو أصل هذا المقام، فالمكلف مطالب هنا بأن يكون في أعلى مقامات الاعتقاد و هو مقام التوكل المطلق على الله سبحانه.

ولما أصبح أثر السبب الجلي واضحاً مما ينسي النفسَ أثر السبب الخفي عليها، قام الخضر عليه السلام بقتل الغلام لسبب خفي، وهو

في الحقيقة بادٍ له، وذلك خشية أن يُعتقد أن السبب الظاهر هو كل شيء، ليرد العبد المعتقد إلى الجمع بين الحقيقتين من تلازمهما واتحادهما في السبب المطلق، حيث يتضح للعبد أن الله على كل شيء قدير، وأنه الكبير المتعال، فكما حفظ السفينة من الغرق حين تحقق غرقها بالخرق، كذلك قتل الغلام في حين عدم جواز قتله في الظاهر، لحرمة إنسانيته، إلا أنه قُتل بإرادة خالقه من فساد أصله، لتحقيق حياة الغلام بإبدال والديه بغلام آخر، فهما متفقان في الظاهر مختلفان في الحقيقة.

وحينما بدا أثر السبب الخفي والسبب الجلي، وأنهما يجتمعان في شيء واحد وهو السبب المطلق، جاءت نتيجة ذلك، وهو قيام صرح الإيمان بإقامة الجدار، إشارة واضحة بأن الإيمان هو اجتماع السببين ـ الجلي والخفي ـ في السبب المطلق المتحقق بإرداة الله سبحانه وتعالى.

وإشارة من الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أن للصلاح والصدق أثراً كبيراً في منّة الله على عبده بتحقيق ذروة الإيمان، المنبثقة من إرادة الله المؤلفة من السببين الجلي والخفي.

وعند انعدام السبب الجلي في عالم الشهادة قد يقتضي الحال حدوثه وجوباً، فجاء الأمر للخضر بإنشاء الجدار أي: بإيجاد سبب

جلي يحوي تحته سبباً خفياً، ألا وهو الكنز، ولولا أن الله سبحانه بحكمته وقدرته قضى لسكان عالم الشهادة الأخذ بالأسباب في أمور حياتها، لما استطاعت أن تعيش بسلام، مع العلم بأن الله قادر على أن يحقق لها ما تشاء بدون السبب الجلي، تلك صبغة الله سبحانه وتعالى التي قدرها على هذا العالم، ولو لم ينشئ الخضر عليه السلام الجدار لربما ضاع ذلك الكنز، ولربما قدرالله سبحانه لهما معرفته عن طريق الصدفة، ولكن قد ينشأ من ذلك خلافات كثيرة ما لم يكن عليه شاهد يشهد له.

وتبرز هنا حقيقة مهمة، إذ إن التعبير بقوله سبحانه: ﴿أَرَادَ﴾ واجب جداً، حيث إنها تترتب على إيجاد شيء معدوم، وإيجاد المعدوم جعلاً وخلقاً من صفات الحق سبحانه، ولا يستطيع فعلها المخلوق إلا بتفويض من الله سبحانه أو بتسخيره، فقد فوض عبده الخضر عليه السلام في تشييد الجدار وأعلمه بالسبب، كما أمر ميكائيل بإمطار السماء وصنع الأرزاق، وأمر جبرائيل بإنزال الرسالات، وتدمير البلاد التي بطرت معيشتها، وحق عليها القول، وأمر ملك الموت بقبض الأرواح، ويأمر سبحانه إسرافيل بالنفخ بالبوق لبعث الأرواح، إذن فإيماننا بالسبب الجلي أو الظاهر واجب، مع الاعتقاد الجازم بالسبب الخفي والمطلق، ولو كان السبب الجلي قويَّ الظهور بحيث يسلب المرء إدراكَ الحقائق.

فالصلاة مثلاً سبب جلي في عبادة الله سبحانه، ولكن السبب الخفي الخشوع فيها، وكذلك السجود للكعبة سبب ظاهر، والخفي السجود لله سبحانه وتعالى، وجميع العبادات على ذلك النسق، وهذا من الإيمان بالغيب، فلا يكفّر ولا يضلّل إذاً من توسل بالنبي أو الولي الصالح، إلا إذا اعتقد أنهما ينفعان ويضران من دون الله سبحانه، فإن الحجر الأسود ينفع ويضر، ويأتي يوم القيامة شاهداً لمن قبّله، وقد نبه سيدنا عليٌّ كرم الله وجهه سيدنا عمر رضي الله عنه لهذا الأمر، حينما قال أمير المؤمنين عمر: «والله إني لأعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقبلك لما قبلتك»[1] حيث تجلى لعمر مقام السبب الجلي، فأرشده الإمام علي عليه السلام إلى أن الأصوب في الأمر أنه ينفع ويضر[2]، ولكن اعتقاد النفع والضر فيه حقيقةً هو الممنوع، بل ذلك من شأن الحق سبحانه، وهذه حقائق، فإذا كان الساحر والشيطان يؤثر ضرهما بإذن الله سبحانه، وكذلك الحاسد بإذن الله سبحانه،

---

(١) رواه البخاري (١٥٩٧) و مسلم (١٢٧٠).

(٢) ذكر هذه الزيادة الإمام الحاكم في مستدركه ١/٦٢٨، وذكرها المحب الطبري في كتابه القرى لقاصد أم القرى (ص٢٧٩). قال الحافظ ابن حجر: أخرج ابن خزيمة في صحيحه عن ابن عباس مرفوعاً: «إن لهذا الحجر لساناً وشفتين يشهدان لمن استلمه يوم القيامة بحق» وصححه أيضاً ابن حبان والحاكم. ثم قال الحافظ عن قول عمر: «لا تضر ولا تنفع» أي: إلا بإذن الله. انظر الفتح ٣/٤٦٢.

فأحرى بما ينفع، إذ أن النفع رحمة من رحمات المولى سبحانه وتعالى، والرحمة سابقة، فلا يصح هذا الإلزام، إلا بما صح به ذلك اللازم، حيث إن الرحمة سابقة، لقوله سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1]، ولقوله سبحانه في الحديث القدسي: «سبقت رحمتي غضبي»[2]، أما تأويل قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[3] على رأي ابن تيمية الذي يقضي بأن مشركي مكة تقربوا بالأصنام والأوثان وما عبدوها، فهو تحكم في النص بغير مسوِّغ، إذ أن أقوال جميع المفسرين ترد على ابن تيمية وتأويله هذا، فإن منطوق الآية هو تبكيتٌ وتهكّمٌ من المولى سبحانه فيمن ضل طريق الرشد، الذي سنه لعباده ووجهه حسب مراده، فإن من خابت بهم النظرة، وأخرجوا السبب الجلي من حيزه، وعللوا ذلك بضلالاتهم، فلا يحكم بأن القضية باطلة من أساسها، فهذا لا يقول به عاقل سليم الذوق صحيح الفطرة.

فكفار مكة حينما عارضوا الحنيفية السمحة، وانشغلوا بالدنيا وملذاتها، ساء عندهم القياس، وأظلم عندهم الضمير، فأصبحوا لا يفرقون بين الحق والباطل، فرأوا ما كان فرعاً أصلاً، وما كان أصلاً فرعاً، فضلوا السبيل، إذ أن الله سبحانه شرع لهم التوسل بالصالحين،

---

(١) من سورة الأعراف، الآية (١٥٦).

(٢) رواه البخاري (٧٥٥٣) ومسلم (٢٧٥١).

(٣) من سورة الزمر، الآية (٣).

شريطة أن يصطحبوا في اعتقادهم السبب الخفي في التأثير، ومراعاة السبب المطلق.

لذا يبين الحق سبحانه في تلك الآية بطلان مزاعمهم، حين جعلوا من الأصنام سبباً جلياً كالكعبة المشرفة، بل أكبر من ذلك حين أعطوا الأصنام صفة السبب الخفي، فساغ لهم أن يقولوا: **مانعبدهم** وذلك حينما اتهموا بعبادتهم كما في الآية: **إلاليقربونا** أي: يدنونا من الله زلفى، إلا أن الله سبحانه كذب زعمهم هذا بأنهم مخطئون مخالفون، كما خالف من أنكر السبب الجلي، كإبليس حين أنكر ورفض السجود لآدم، وكأنّ الحق سبحانه يقول لهم: إنكم عبدتموهم ولم تُبقوا للأصل شيئاً فأكد ذلك بقوله: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ** ﴾[1]، فقياس ما زعمتم باطل أصلاً، لذا جاء الإسلام فصحح ذلك ببعثة سيدنا محمد ﷺ بقوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[2]، وتتميم مكارم الأخلاق يكون باعتبار السبب الجلي، لأنه من حقائق عالم الشهادة، فكان السجود

---

(١) من سورة الكافرون، الآيتان (١، ٢).

(٢) رواه البزار (٧/٩٢) رقم(٢٦٤٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/١٩١)، وشعب الإيمان(٦/٢٣٠) رقم(٧٩٧٧)، والقضاعي في مسند الشهاب(٢/١٩٢)، والإمام أحمد في مسنده(٢/٣٨١) بلفظ «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد(٩/١٥): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه البزار إلا أنه قال: «لأتمم مكارم الأخلاق» ورجاله كذلك، غير محمد بن رزق الله الكلوداني وهو ثقة. ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه(٦/٣٢٤)، والبخاري في الأدب المفرد(ص١٠٤)رقم(٢٨٧٣).

للكعبة في الظاهر سجوداً لها، وفي الحقيقة هو سجود لله، حينما تحقق الإيمان بلا إله إلا الله محمد رسول الله، فلا يطالب العابد باصطحاب الحقيقتين (السبب الخفي والجلي) لسابق تحققهما في كلمة التوحيد، ولكن لو اصطحبهما لكان أكمل وأنفع.

كما قال الفقهاء في مسألة استحضار النيّة لكامل الصلاة أولى وأكمل، ولكن المعتمد هو صحة الصلاة بمجرد إمرار ذلك عند تكبيرة الإحرام، لأن المشقة تجلب التيسير، إذ الأخذ بالاستحضار في كامل الصلاة من التعسير، والدين مبنيٌّ على التيسير. وكذلك شعائر الحج هي منافع للمتعبد في الظاهر، وهي عبادة في الباطن وقربة، وذلك بإظهار السببين المرتبطين بإرادة الله سبحانه وتعالى، وهذا هو الصراط المستقيم ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾[1] فابن تيمية في تأويله للآية المتقدمة ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ**﴾ مخطئٌ نقلاً وعقلاً كما بينّا، فلو أخذنا بلازم قوله لكان بهذا مكذباً لله في قوله، وهذا مالا نتصوره للشيخ، فربما أخطأ، أو لربما دسّ ذلك عليه، وهذا أمر لا يعنينا في هذا المقام فقد أوضحته في كتابنا «تصحيح المفاهيم العقدية» فلينظر هناك.

والعاقل من أدرك، والموفق من استدرك، والحمد لله رب العالمين.

* * *

---

(١) من سورة الروم، الآية (٣٠).

المبحث الثاني

سرد الأدلة النقلية من القرآن الكريم

إن الذي يمعن النظر في كتاب الله عز وجل يجد آيات كثيرة في التوسل تصريحاً أو تلويحاً، وجميعها تظهر هذه الحقيقة، وسنورد عدداً من الآيات من كتاب الله صريحة الدلالة على حقيقة التوسل، مع ذكر أقوال المفسرين في ذلك، ثم نستنبط منها ما يقتضيه الحال.

الدليل الأول: قال تعالى: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ**﴾[1]

إن الله تعالى أتى في هذه الآية بالتوسل إليه بالمعاني والمباني، بالأقوال والأفعال، فالصبر رمز عن التوسل بالمعاني والصفات، والصلاة رمز عن التوسل بالأفعال والذوات، إذ أن التوسل لا يتم إلا بواحد منهما إما أن تنتحلها أو تنتحل بها.

وقد قدم التوسل بالمعاني على الذوات لأن الذوات أصل للصفات فلابد على الأصل أن يتأخر ولا بد للصفة أن تتقدم فسبحان الذي قدر فهدى.

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿**وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾[2].

---

(١) من سورة البقرة، الآية (٤٥).

(٢) من سورة البقرة، الآية (٨٩).

يقول المفسرون: إن اليهود كانوا إذا حز بهم أمر ودهمهم عدو يقولون: «اللَّهُمَّ انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعته ـ أي: صفته ـ في التوراة، فكانوا ينصرون».

قال ابن إسحاق في سيرته[1]: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن رجال من قومه قالوا: لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ منا، كان معنا يهود، وكانوا أهل كتاب، وكنا أهل وثن، وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون قالوا: إن نبيّاً مبعوثاً الآن قد أظلَّ زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله تعالى رسوله ﷺ اتبعناه وكفروا به، ففيهم أنزل الله تعالى ﴿ **وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾[2].

قال ابن الجوزي: «يستفتحون: يستنصرون، وكانت اليهود إذا قاتلت المشركين استنصروا باسم نبي الله محمد ﷺ»[3].

وقال القرطبي: «قال ابن عباس: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان، فلما التقوا هزمت يهود، فعاذت يهود بهذا الدعاء وقالوا:

---

(١) هذا الإسناد ثابت فقد صرح ابن إسحاق بالسماع، وعاصم بن عمر بن قتادة ثقة، وشيوخه جماعة يجبر بعضهم بعضاً، فالأثر إسناده صحيح، وهو مشهور، وقد أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٧٥ـ٧٦)، والطبري في تفسيره (١/ ٤٥٥)، وذكرا روايات أخرى لهذا الأثر يجبر بعضها بعضاً وتتقوى بهذا الأثر الصحيح.

(٢) من سورة البقرة، الآية (٨٩).

(٣) زاد المسير (١/ ١١٤).

إنا نسألك بحق النبي الأمي، الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم.

قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان، فلما بعث النبي ﷺ كفروا ،فأنزل الله تعالى:﴿ **وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ أي: بك يا محمد، إلى قوله:﴿ **فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾[١]. وقد أورد الإمام البيهقي رحمه الله هذا الأثر بسنده في «دلائل النبوة»[٢] بعدة روايات يعضد بعضها بعضاً. وقال الإمام الرازي رحمه الله: «في سبب النزول عدة وجوه: أحدها: أن اليهود من قبل مبعث محمد عليه السلام ونزول القرآن كانوا يستفتحون أي: يسألون الفتح والنصرة، وكانوا يقولون: اللَّهُمَّ افتح علينا وانصرنا بالنبي الأمي»[٣].

وقال أبو حيان الأندلسي في تفسيره[٤]: «يستفتحون أي: يستحكمون أو يستعلمون أو يستنصرون، يقولون إذا دهمهم العدو: اللَّهُمَّ انصرنا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعته في التوراة». وبهذا قال الزمخشري[٥]، والخازن[٦]، والإمام

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٢٧).
(٢) دلائل النبوة(٢/ ٧٦).
(٣) التفسير الكبير (٣/ ١٨٠).
(٤) البحر المحيط (١/ ٣٠٣).
(٥) الكشاف (١/ ٣٤٩).
(٦) الخازن (١/ ٦٥).

إسماعيل حقي[1]، وشيخ زاده في حاشيته على البيضاوي[2]، والآلوسي[3].

وزاد البيضاوي رحمه الله تعالى على المعنى المتقدم عند قوله: « يستفتحون » والسين للمبالغة والإشعار بأن الفاعل يسأل ذلك من نفسه[4].

الدليل الثالث: قول الحق سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾[5].

قال الزمخشري: « الوسيلة كل مايتوسل به، أي: يتقرب من قرابة أو صنيعة أو غير ذلك »[6].

أخرج عبد بن حميد، والفريابي وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿**وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾ قال: « القربة »[7].

---

(١) روح البيان (١/١٧٩).

(٢) حاشية شيخ زاده على البيضاوي (١/٣٤٩).

(٣) روح المعاني (١/١٧٩).

(٤) البيضاوي (١/٣٥٩).

(٥) من سورة المائدة، الآية (٣٥).

(٦) الكشاف للزمخشري (١/٣٣٦).

(٧) الدر المنثور (٣/٧١).

وروى الطبري[1] في تفسيره للآية: «عن أبي وائل ﴿ **وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** ﴾ قال: القربة في الأعمال».

و أيضاً عن عطاء ﴿ **وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** ﴾ قال: القربة.

ثم روى رحمه الله تعالى عن السدي ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** ﴾ قال: المسألة والقربة.

وروى أيضاً عن مجاهد ﴿ **وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** ﴾ قال: القربة إلى الله عز وجل.

وروى الحاكم عن حذيفة «أنه سمع قارئاً يقرأ ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** ﴾ قال: القربة، ثم قال: **لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عبد من أقربهم إلى الله وسيلة**»[2].

وروى الطبري أيضاً عن ابن زيد في قوله﴿ **وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** ﴾ قال: المحبة، تحببوا إلى الله، وقرأ ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ** ﴾[3].

وقال أبو بكر عبد الرحمن مخيون في كتابه «سهام الموحدين في حناجر المارقين»: «والحاصل أن الوسيلة: السبب والقربة، أي: كل ما يتقرب به.

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٢٩١) بتحقيق أحمد محمد شاكر.

(٢) رواه الحاكم (٢/ ٣١٢)، وهو على شرط الشيخين. وهذا الحديث من أدل الدلائل على التوسل بالذوات

(٣) من سورة الإسراء، الآية (٥٧).

وقال قوم في الآية: الأمر بالتقوى للعمل، والوسيلة: الذوات الشريفة، منعاً من التكرار، لأنه لو صرفنا الوسيلة للعمل كان تأكيداً لما سبق من الأمر بالتقوى، وإذا صرفناها للذوات الفاضلة كان تأسيساً، والتأسيس خير من التوكيد»[1]. وهو الأليق بالقول الفصيح.

وفي قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً * قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾[2].

يقول العلامة المحدِّث عبدالله بن الصديق الغماري رحمه الله في رده على بعض المعترضين: «من الآية الظاهرة الدالة للتوبيخ لأولئك الذين جعلوا لهم آلهة من دون الله، ونظروا إليهم نظر تقرب ووسيلة فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[3].

ثم يقول رحمه الله تعالى: وقد أخطأ من زعم أن هذه الآية تعم المؤمنين في توسلهم بالأنبياء، وأهل هذا القول قد تطرق عليهم

(١) سهام الموحدين في حناجر المارقين (ص٢٢).
(٢) من سورة الإسراء الآيات (٥٤ ـ ٥٧).
(٣) من سورة الزمر، الآية (٣).

الخطأ حيث إنهم جعلوا النص الخاص عاماً عموماً مطلقاً، ويرد عليهم من عدة وجوه:

الأول: أن الآية نزلت في عبّاد الجن كما في صحيح البخاري، فيجب أن تقصر عليهم ولا تعم غيرهم، لأن الفعل الذي خوطبوا به وهو (أُدعوا) مثبت،والفعل المثبت ليس بعام.

والمشكلة اليوم التي أصيب بها المعترضون، أنهم ينزلون الآيات التي نزلت في المشركين على الموحدين وهذاخطأ فاحش.

الثاني: لو قلنا بأنه عام ـ أي: الخطاب ـ بناء على قول أبي عبدالله البصري المعتزلي: إن قول القائل: «افعلوا» يحمل على الاستغراق فتكون الآية عامة، ومعنى عمومها على هذا أن تشمل عبّاد الجن وغيرهم من المشركين كعبّاد الملائكة والأصنام، لكنها لا تشمل المسلمين الذين يسألون الله بنبيه، لأن الفعل لا يصلح أن يكون خطاباً لهم، لا في اللغة ولا في الشرع.

الثالث: أن معنى قوله: ﴿**ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم**﴾ اسألوهم واطلبوا منهم، وارغبوا إليهم، وهذا لا يوجد في المتوسَل به، ولا ينطبق عليه لأن المتوسِل لا يسأله ولكن يسأل الله به، ولا يرغب إليه ولكن يرغب إلى الله به.

الرابع: لا خلاف أن مفعولي «يدعون» من قوله: ﴿ **يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ** ﴾ محذوفان، فلا يجوز أن يكون التقدير أولئك الذين يدعونه وسيلة بالمعنى الذي نتكلم عليه لأن قوله: ﴿ **زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ** ﴾، يمنع هذا التقدير فتعيّن أن يكون التقدير «يدعونهم آلهة» كما قدره الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله، وهذا القول الذي يؤيده صدر الآية».

أقول ـ أي الغماري ـ: وبهذا ظهر أن الآية توبيخ لأهل وصف معلوم «الكفار» وليس فيها استدلال للقائل بالعموم.

قال الحافظ ابن حجر: «استمر الإنس الذين كانوا يعبدون الجن على عبادة الجن، والجن لا يرضون بذلك لكونهم أسلموا، وهم الذين صاروا يبتغون إلى ربهم الوسيلة»[١].

هذا هو المعتمد في تفسير هذه الآية، بل إن أظهر تفسير لهذه الآية هو ما رواه البخاري ومسلم[٢] عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن، فأسلم النفر من الجن، فاستمسك الآخرون بعبادتهم».

وهناك وجه آخر فيه الدلالة القطعية على أن التوبيخ في الآية موجّه إلى المشركين، وإن اختلفت أنواع شركهم في معبوداتهم، وأن

---

(١) فتح الباري (٨/٣٩٨).

(٢) البخاري (٤٧١٥)، ومسلم (٣٠٣٠) واللفظ لمسلم.

التوسل إلى الله من تلك المعبودات والتقرب بها إلى الله أمر جار، حيث كان آخر الآية يدل على جواز التوسل.

قال البغوي في تفسيره: «قوله: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ** ﴾ يعني الذين يدعونهم المشركون أنهم آلهة يعبدونهم. قال ابن عباس ومجاهد: وهم عيسى وأمه وعزير والملائكة والشمس والقمر والنجوم، ﴿ **يَبْتَغُونَ** ﴾ أي: يطلبون إلى ربهم الوسيلة، أي: القربة، وقيل: الوسيلة الدرجة العليا، أي: يتضرعون إلى الله في طلب الدرجة العليا. وقيل: الوسيلة كل ما يتقرب به إلى الله تعالى. وقوله: ﴿ **أَيُّهُمْ أَقْرَبُ** ﴾ معناه ينظرون أيهم أقرب إلى الله فيتوسلون به. وقال الزجاج: أيهم أقرب يبتغي الوسيلة إلى الله تعالى، ويتقرب إليه بالعمل الصالح»[1].

وقال الإمام الآلوسي في تفسيره «روح المعاني»: «جوَّز الحوفي[2] والزجاج أن يكون ﴿ **أَيُّهُمْ أَقْرَبُ** ﴾ مبتدأ وخبراً، والجملة في محل نصب بينظرون، أي: يفكرون، والمعنى: ينظرون أيهم

---

(١) معالم التنزيل للبغوي (٣/٥٠٣).

(٢) أبو الحسن علي بن إبراهيم بن سعيد الحوفي له إعراب القرآن في عشر مجلدات. انظر سير أعلام النبلاء (١٧/٥٢٢) الحوفي النحوي من أهل حوف بمصر من علماء اللغة والتفسير، توفي سنة ٥٦٢. انظر وفيات الأعيان (١/٣٣٢) وبغية الوعاة (٣٢٥).

أقرب فيتوسلون به»[1]، [وكأن المراد يتوسلون بدعائه، وإلا ففي التوسل بالذوات ما فيه][2].

وقد نبه جمع من المحققين إلى تصرف ابنه (أي: ابن الإمام الآلوسي المذكور) نعمان شكري الآلوسي في بعض نصوص الكتاب، منهم الإمام الكوثري رحمه الله تعالى في كتابه: «تكملة الرد على نونية ابن القيم»، فقد قال الكوثري رحمه الله تعالى: «قاتل الله المادة ما دخلت في شيء إلا أفسدته، وهو (أي: نعمان الآلوسي) ليس بأمين على طبع تفسير والده، ولو قابله أحدهم بالنسخة المحفوظة اليوم بمكتبة راغب باشا باسطنبول ـ وهي النسخة التي كان المؤلف أهداها إلى السلطان عبدالمجيد خان ـ لوجد ما يطمئن إليه. نسأل الله السلامة»[3].

وسيتضح لك ـ أيها القارئ الكريم ـ الأمر جلياً عندما تقف على تفسير الإمام الآلوسي لقوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ وتقارنه بهذه الزيادة المنكرة.

---

(١) روح المعاني للآلوسي (١٥/٩٩).

(٢) ما بين المعقوفتين ليس من كلام الآلوسي بل من كلام ابنه.

(٣) السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل لتقيِّ الدين السبكي. ومعه تكملة الرد على نونية ابن القيم للشيخ الكوثري رحمه الله تعالى (ص١٦٥).

فقد قال في تفسيره لسورة النازعات: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾[1] بعد أن ذكر بعض الأقوال في تفسيرها: «وقيل: إقسام بالنفوس الفاضلة حالة المفارقة، لا بد أنها بالموت، فإنها تنزع عن الأبدان، غرقاً، أي: نزعاً شديداً، من أغرق النازع في القوس، إذا بلغ غاية المد، حتى ينتهي إلى النصل، لعسر مفارقتها إياها حيث ألفته، وكان مطية لها لاكتساب الخير، ومظنة لازدياده، فتنشط شوقاً إلى عالم الملكوت، وتسبح به، فتسبق به حظائر القدس، فتصير لشرفها وقوتها من المدبرات، أي: ملحقة بالملائكة، أو تصلح هي لأن تكون مدبرة، كما قال الإمام: إنها بعد المفارقة قد تظهر لها آثار وأحوال في هذا العالم، فقد يرى المرء شيخه بعد موته فيرشده لما يهمه، وقد نقل عن جالينوس أنه مرض مرضاً عجز عن علاجه الحكماء، فوصف له في منامه علاجه، فأفاق وفعله فأفاق، وقد ذكره الغزالي. ولذا قيل - وليس بحديث كما توهم -: إذا تحيرتم في الأمور، فاستعينوا بأصحاب القبور، أي: أصحاب النفوس الفاضلة المتوفين، ولا شك في أنه يحصل لزائرهم مدد روحاني ببركتهم، وكثيراً ما تنحل عقد الأمور بأنامل التوسل إلى الله تعالى بحرمتهم.

---

(١) من سورة النازعات الآيات (١ - ٣).

وحمله بعضهم على الأحياء المتمثلين أمر «موتوا قبل أن تموتوا» وتفسير النازعات بالنفوس مروي عن السدي، إلا أنه قال: هي جماعة النفوس تنزع بالموت إلى ربها، والناشطات بها، عن ابن عباس أيضاً، إلا أنه قال: هي النفوس المؤمنة، تنشط عند الموت للخروج، والسابقات بها، عن ابن مسعود، إلا أنه قال: هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة عليهم السلام الذين يقبضونها، وقد عاينت السرور شوقاً إلى لقاء الله تعالى، وقيل: إقسام بالنفوس حال سلوكها، وتطهير ظاهرها وباطنها بالاجتهاد في العبادة والترقي في المعارف الإلهية، فإنها تنزع عن الشهوات، وتنشط إلى عالم القدس فتسبح في مراتب الارتقاء فتسبق إلى الكمالات، حتى تصير من المكملات للنفوس الناقصة... إلى أن قال: لا ينبغي التوقف في أن الله تعالى يكرم من يشاء من أوليائه بعد الموت، كما يكرمه قبله بما شاء، فيبرىء سبحانه المريض، وينقذ الغريق، وينصر على العدو، وينزل الغيث، وكيت وكيت كرامة له، وربما يظهر عز وجل من يشبهه صورةً، فتفعل ما سئل الله تعالى بحرمته مما لا إثم فيه استجابة للسائل»[1].

ويقول أحد الأجلاء من أهل العلم، في تفسيرهذه الآية: «والوسيلة على ما فسروه هي التوصل والتقرب، وربما استعملت

---

(١) روح المعاني للآلوسي (٢٩/ ٢٤ـ ٢٥).

بمعنى ما به التوصل والتقرب، ولعله هو الأنسب بالسياق بالنظر إلى تعقيبه بقوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾.

والمعنى ـ والله أعلم ـ أولئك الذين يدعونهم المشركون من الملائكة والجن والإنس يطلبون ما يتقربون به إلى ربهم، يستعلمون أيهم أقرب حتى يسلكوا سبيله ويقتدوا بأعماله، ليتقربوا إليه تعالى كتقربه ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ من كل ما يستمدون به في وجودهم ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ فيطيعونه ولا يعصونه ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ يجب التحرز منه.

والتوسل إلى الله ببعض المقربين إليه ـ على ما في الآية الكريمة ـ قريب منه قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ غير ما يرومه المشركون من الوثنيين، فإنهم يتوسلون إلى الله ويتقربون بالملائكة الكرام والجن والأولياء من الإنس، فيتركون عبادته تعالى ولا يرجونه ولا يخافونه، وإنما يعبدون الوسيلة، ويرجون رحمتها، ويخافون سخطها، ثم يتوسلون إلى هؤلاء الأرباب والآلهة بالأصنام والتماثيل، فيتركونهم ويعبدون الأصنام، ويتقربون إليهم بالقرابين والذبائح.

وبالجملة يَدَّعون التقرب إلى الله ببعض عباده أو أصنام لبعض خلقه ثم لايعبدون إلا الوسيلة مستقلة بذلك، ويرجونها ويخافونها

مستقلة بذلك من دون الله، فيشركون بإعطاء الاستقلال لها في الربوبية والعبادة.

والمراد بأولئك الذين يدعون، إن كان هم الملائكة الكرام، والصلحاء المقربين من الجن، والأنبياء والأولياء من الإنس: كان المراد من ابتغائهم الوسيلة ورجاء الرحمة وخوف العذاب ظاهره المتبادر، وإن كان المراد بهم أعم من ذلك، حتى يشمل من كانوا يعبدونه من مردة الشياطين وفسقة الإنس كفرعون ونمرود وغيرهما، كان المراد بابتغائهم الوسيلة إليه تعالى ما ذكر من خضوعهم وسجودهم وتسبيحهم التكويني، وكذا المراد من رجائهم وخوفهم ما لذواتهم»[1].

وفي تفسير الآية معنى ارتباط التوسل بالأنبياء المذكورين في قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا** ﴾[2] وأن الضمير في قوله «يدعون» يعود عليهم، فيصير التقدير: أولئك الذين يدعون الأنبياء يبتغون بهم إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب يرجون رحمته، ويخافون عذابه فإن هذا المعنى قد ذهب إليه الإمام الفخر الرازي في تفسيره[3] في وجه من الوجوه التي

---

(١) الميزان في تفسير القرآن (٧/ ١٢٧ - ١٢٨) بتصرف يسير.

(٢) من سورة الإسراء، الآية (٥٥).

(٣) تفسير الرازي (٢٠/ ٢٣١ - ٢٣٣).

ذكرها أثناء تفسير هذه الآية، ويشهد له أن الأنبياء هم الذين يرجون الرحمة، ويخافون العذاب بخلاف الملائكة، فإنهم غير مكلفين، بل هم مأمورون. وقد رُدَّ هذا بقوله: قلنا: الملائكة يخافون عذاب الله لو أقدموا على الذنب، وكذلك لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾[١].

فالوسيلة هنا: هي العبادة المشتملة على الوسيلة، لأنه قد تقدمها الأمر بالتقوى، وجرى النسق القرآني في جل العبادات أن يتقدمها الأمر بالتقوى في الغالب، وعطف الجهاد على الوسيلة، والجهاد لا يكون إلا بالعبادات، لأن العبادات هي المجاهدات عينها ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾[٢] أي: جاهدوا أنفسهم بالاستقامة والثبات والطاعات، لقوله سبحانه: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[٣]وقوله: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾[٤] فكل عبادة وسيلة وليس كل وسيلة عبادة.

---

(١) من سورة الأنبياء، الآية (٢٩).

(٢) من سورة العنكبوت، الآية(٦٩).

(٣) من سورة طه، الآية (١٣٢).

(٤) من سورة البقرة، الآية (٤٥).

فتحصَّلَ لنا من أقوال المفسرين في معنى الوسيلة أنه ما يُتَوسل به، فالألف واللام تفيد الاستغراق كما قال الأصوليون، فهي تشمل جميع التوسلات بالأعمال والذوات والدعاء.

والوسيلة في قوله :﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾[1] تعني القربة ، أي: ما يتقرب به، ولا تعني هنا العبادة، لأن ما بعدها وهو (أيهم) تفيد التخيير، والهاء مضافة عائدة على المقربين المقبولين، ولأجل أن تكون الوسيلة صحيحةً لا بد لها من ثلاثة شروط –كما ذكر مولانا الشيخ السيد أختر خان[2] حفظه الله– وهي الحق:

١– أن تكون الوسيلة مأذوناً بها من الله تعالى.

٢– أن يكون عمل المتوسل به محله القبول.

٣– أن يكون المتوسل به متبعاً لسنة رسول الله ﷺ.

قلت: بعد الوصول إلى هذه الحقائق، أذكر بعض المعاني حول ذلك، وعلى اللبيب الفطن أن يدرك شمولية هذه الآية على المعنى الذي نحن بصدده، حيث إنها حسمت القضية، فذكرت تفضيل الأنبياء بعضهم على بعض، وتقرب بعضهم ببعض، وأنها حقيقة يظهر فيها التواضع والخضوع، والتذلل للحي القيوم سبحانه، وعمق

---

(١) من سورة الإسراء، الآية (٥٧).

(٢) الشيخ أختر خان أحد العلماء المعاصرين في بلاد الهند جمع الله له علمي الشريعة والحقيقة وهو من أهل التحقيق.

الاعتراف بفضل الله سبحانه، لذلك ظهر لنا سرٌّ خفي قلَّ من يدركه، وهي حقيقة تاريخية وانتكاسة فكرية في حقبة من الزمن بُليَ بها جيل بين رسالتين، رسالات الأنبياء السابقين، والرسالة الخاتمة، ففي تلك الفترة اختلّت المفاهيم بالبعد عن فطرة الله والبعد عن الهدي السماوي، ودخلت الأغراض النفسية والنزوات الشخصية التي ألبست الحق بالباطل، وأظهرته للمجتمع بديباجة واحدة أمام مجتمع ساده الجهل، وخيّم عليه بجرانه، فصيروا التقرب بالصالحين عبادة بعد أن كانت قربة، بأن شيدوا لتلك المعاني صورة محسوسة بأشكال مختلفة أملاها عليهم الوهم، وأرشدهم إليها الشيطان، واتخذوها في زعمهم قربة يولونها ما يولون الإله، فكذبهم الحق سبحانه وتعالى بذلك الزعم، وبيّن أنهم لا يملكون عهداً منه سبحانه على ذلك.

وكذلك عبّاد الملائكة والجان والأصنام والشمس والقمر وغيرها من المعبودات، الذين قطعوا اعتمادهم عن الله سبحانه بتخليطهم بين الوسيلة المشروعة والوسيلة غير المشروعة، فقد بكتهم الحق وخطأهم الباري سبحانه في فعلهم هذا، ثم أظهر إعجاز القرآن بسيرة النبيين السابقين التي أساء فهمها المشركون في رسالة سيدنا محمد ﷺ الخاتم للنبيين، وكأن المولى سبحانه وتعالى يبين في هذه الآية للمشركين أن ما يتقرب به لايملك ضراً ولا نفعاً إلا بإذن الله علاوة

عن الأصنام الخرساء، لأن المتقرب يتنسرب بالذي أفضل منه كما ذكرنا، فالنبيون الذين فضّل الله بعضهم على بعض، توسلوا بالنبي المبعوث آخر الزمان، كما يبين ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾[1].

قال المفسرون[2]: فيها إظهار مكانة النبي ﷺ في الزبور وتؤيده آية البقرة ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[3] أي: يستنصرون كما بينا، كما تؤكد آية الإسراء هذه من أنهم أقرب ويرجون رحمته، وأعظم رحمة هوسيدنا محمد ﷺ وهو المنصوص عليه في التنزيل ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[4].

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾[5].

قال الإمام الفخر الرازي في تفسيره (١٠ / ١٦٢): «إنما قال: ﴿ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾ ولم يقل استغفرت لهم: إجلالاً للرسول

---

(١) سورة الأسراء، الآية (٥٥).

(٢) تفسير الطبري (٨ / ٩٤)، والدر المنثور (٥ / ٣٠٣)، وتفسير الرازي (٢٠ / ٢٣٠).

(٣) سورة البقرة، الآية (٨٩).

(٤) من سورة الأنبياء، الآية (١٠٧).

(٥) من سورة النساء، الآية (٦٤).

عليه الصلاة والسلام، وأنهم إذا جاؤوه فقد جاؤوا من خصه الله برسالته وأكرمه بوحيه وجعله سفيراً بينه وبين خلقه، ومن كان كذلك فإن الله لا يرد شفاعته، فكانت الفائدة في العدول عن لفظ الخطاب إلى لفظ المغايبة ما ذكرناه».

وقال الإمام أبو السعود في تفسيره (٢/١٩٦-١٩٧): «﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ**﴾ وعرضوها لعذاب على عذاب النفاق بترك طاعتك والتحاكم إلى غيرك ﴿**جَاءُوكَ**﴾ من غير تأخير كما يفصح عنه تقديم الظرف متوسلين بك في التنصل عن جناياتهم القديمة والحادثة ولم يزدادوا جناية على جناية بالقصد إلى سترها بالاعتذار الباطل والأيمان الفاجرة ﴿**فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ**﴾ بالتوبة والإخلاص وبالغوا في التضرع إليك حتى انتصبت شفيعاً لهم إلى الله تعالى واستغفرت لهم وإنما قيل: ﴿**وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ**﴾ على طريقة الالتفات تفخيماً لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيماً لاستغفاره وتنبيهاً على أن شفاعته في حيز القبول ﴿**لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا**﴾ لعلموه مبالغاً في قبول توبتهم والتفضل عليهم بالرحمة وإن فسر الوجدان بالمصادفة كان قوله تعالى توابا حالاً ورحيماً بدل منه أو حالاً من الضمير فيه وأياً ما كان ففيه فضل ترغيب للسامعين في المسارعة إلى التوبة والاستغفار ومزيد تنديم لأولئك المنافقين على

ما صنعوا لما أن ظهور تباشير قبول التوبة وحصول الرحمة لهم ومشاهدتهم لآثارهما نعمة زائدة عليهما موجبة لكمال الرغبة في تحصيلها وتمام الحسرة على فواتها».

قال الإمام أبو حيان في البحر المحيط (٣/٢٨٣): «﴿ **ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ** ﴾ بسخطهم لقضائك أو بتحاكمهم إلى الطاغوت أو بجميع ما صدر عنهم من المعاصي: جاؤك، فاستغفروا الله بالإخلاص واعتذروا إليك واستغفر لهم الرسول أي شفع لهم الرسول في غفران ذنوبهم. والعامل في﴿ **إذ** ﴾﴿ **جَاءُوكَ** ﴾ والتفت في قوله ﴿ **وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ** ﴾ ولم يجئ على ضمير الخطاب في جاؤوك تفخيماً لشأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتعظيماً لاستغفاره وتنبيهاً على أن شفاعة من اسمه الرسول من الله تعالى بمكان وعلى أن هذا الوصف الشريف، وهو إرسال الله إياه، موجب لطاعته، وعلى أنه مندرج في عموم قوله تعالى: ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن اللَّه** ﴾. ومعنى ﴿ **وَجَدُوا** ﴾: علموا أي بإخباره أنه قبل توبتهم ورحمهم.

وقال أبو عبدالله الرازي ما ملخصه: «فائدة ضم استغفار الرسول إلى استغفارهم أنهم بتحاكمهم إلى الطاغوت خالفوا حكم الله وأساؤا إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فوجب عليهم أن

يعتبروا ويطلبوا من الرسول الاستغفار. أو لما لم يرضوا بحكم الرسول ظهر منهم التمرد، فإذا تابوا وجب أن يظهر منهم ما يزيل التمرد بأن يذهبوا إلى الرسول ويطلبوا منه الاستغفار أو إذا تابوا بالتوبة أتوا بها على وجه من الخلل فإذا انضم إليها استغفار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم صارت مستحقة. والآية تدل على قبول توبة التائب لأنه قال بعدها: ﴿ لَوَجَدُوا اللَّهَ ﴾ وهذا لا ينطبق على ذلك الكلام، إلا إذا كان المراد من قوله ﴿ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾، قبول توبته. اهـ.

وقال العارف بالله ابن عجيبة في تفسيره البحر المديد (٥/٥٢٢): « ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ﴾ أي: المنافقون حين ﴿ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ بالترافع إلى غيرك، والتحاكم إلى الطاغوت ﴿ جَاءُوكَ ﴾ تائبين ﴿ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ ﴾ بالتوبة، ﴿ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾ حين اعتذروا إليه حتى انتصب لهم شفيعاً ﴿ لَوَجَدُوا اللَّهَ ﴾ أي: تحققوا كونه ﴿ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾، قابلاً لتوبتهم متفضلاً عليهم بالرحمة والغفران. وإنما عدل عن الخطاب في قوله: ﴿ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾ ولم يقل: واستغفرت لهم، تفخيماً لشأنه، وتنبيهاً على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائبين، وإن عَظُم جرمهم، ويشفع لهم، ومن جلالة منصبه أن يشفع في عظائم الذنوب وكبائرها.

قال الزمخشري في « الكشاف »: « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم بالتحاكم إلى الطاغوت، جاؤوك تائبين من النفاق، متنصلين عما ارتكبوا، فاستغفروا الله من ذلك بالإخلاص، وبالغوا في الاعتذار

إليك من إيذائك برد قضائك، حتى انتصبت شفيعاً لهم إلى الله ومستغفراً: لوجدوا الله تواباً، أي لتاب عليهم، ولم يقل: واستغفرت لهم، وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفخيماً لشأن رسول الله ﷺ وتعظيماً لاستغفاره، وتنبيهاً على أن شفاعة من اسمه الرسول ﷺ من الله بمكان»[١].

فهذه الآية وإن كانت نزلت بسبب المنافقين المتحاكمين إلى الطاغوت فهي عامة تشمل كل عاصٍ ومقصر، لأن ظلم النفس المذكور فيها يشمل كل معصية.

ثم إنها ـ أعني الآية ـ تدل على الاستشفاع بالنبي ﷺ في حالتي حياته ووفاته، لأن كلاً من **فِعْلَي المجيء والاستغفار وقع في سياق الشرط، والفعل في سياق الشرط يدل على العموم، والاستشفاع في حال الحياة ظاهر ليس فيه خلاف**[٢].

ويستأنس هنا بما رواه جماعة من الحفاظ والمحدثين، من طريق محمد بن حرب الباهلي قال: دخلت المدينة فانتهيت إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا أعرابي يوضع على بعيره فأناخه وعقله ثم دخل إلى القبر فسلم سلاماً حسناً ودعا دعاءً جميلاً ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إن الله خصك بوحيه وأنزل عليك كتاباً وجمع لك فيه علم الأولين والآخرين وقال في كتابه وقوله

---

(١) الكشاف للزمخشري (١/ ٢٧٧).

(٢) إتحاف الأذكياء بجواز التوسل بالأنبياء والأولياء للسيد عبدالله الغماري (ص١٣).

الحق: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

وقد أتيتك مقراً بالذنوب، مستشفعاً بك إلى ربك، وهو ما وعدك. ثم التفت إلى القبر فقال:

ياخير من دفنت بالقاع أعظمه	فطاب من طيبهن القاع والأكم
[أنت النبي الذي ترجى شفاعته	عند الصراط إذا ما زلت القدم]
لولاك ما خلقت شمس ولا قمر	ولا نجوم ولا لوح ولا قلم
صلى الإله عليك الدهرَ أجمعه	فأنت أكرم من دانت له الأمم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه	فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم ركب راحلته فما أشك إن شاء الله إلا أنه راح بالمغفرة، ولم يسمع بأبلغ من هذا قط.

انصرف الأعرابي، فغلبتني عيني، فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: «ياعتبي الحق الأعرابي، وبشره أن الله قد غفر له».

وفي رواية: «فرقدت فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول: الحق بالرجل وبشره بأن الله عز وجل قد غفر له بشفاعتي»[1].

---

(١) قال الحافظ ابن بشكوال في كتابه القربة إلى رب العالمين بالصلاة على محمد سيد المرسلين (ص١٢١-١٢٢ رقم ١٢٥): أنبأنا أبو محمد ابن قاسم حدثنا عبدالله بن محمد البصري حدثنا أبو بكر أحمد ابن محمد بن الفضل الأهوازي حدثنا أبو شبل محمد بن محمد بن النعمان بن شبل الباهلي حدثنا ابن روح الرقاشي قال حدثني محمد بن حرب الباهلي، =

....

= به. ورواه ابن النعمان المزالي في مصباح الظلام (خ ط ٥أ ٦ب) من طريق ابن بشكوال بهذا السند وما بين المعقوفتين منه.

وفي إسناده محمد بن محمد بن النعمان بن شبل الباهلي متروك الحديث (انظر تهذيب التهذيب ٣ / ٣٩٠، وتقريب التهذيب ٦٢٧٥)، وتابعه أبو يزيد الرقاشي وفي بعض النسخ أبو زيد الرقاشي، وليس هو بيزيد بن أبان الرقاشي:

قال البيهقي في شعب الإيمان: أخبرنا أبو علي الروذباري حدثنا عمر بن محمد بن حسين بن بقية إملاء، حدثنا شكّر الهروي حدثنا أبو يزيد الرقاشي عن محمد بن روح بن يزيد البصري حدثني أبو حرب الهلالي قال: حج أعرابي فلما جاء إلى باب مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أناخ راحلته فعقلها ثم دخل المسجد حتى أتى القبر ووقف بحذاء وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: السلام عليك يا رسول الله. ثم سلم على أبي بكر وعمر ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله جئتك مثقلاً بالذنوب والخطايا مستشفعاً بك على ربك لأنه قال في محكم كتابه: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله﴾ أي: استغفروا لذنوبهم ﴿واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾، وقد جئتك بأبي وأمي مثقلاً بالذنوب والخطايا أستشفع بك على ربك أن يغفر لي ذنوبي وأن تشفع فيّ ثم أقبل في عرض الناس وهو يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه   فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه   فيه العفاف وفيه الجود والكرم

وفي غير هذه الرواية: (فطاب من طيبه القيعان والأكم).

وتابع أبا يزيد الرقاشي: ابنُ فضيل النحوي: قال الحافظ ابن النجار في الدرة الثمينة في أخبار المدينة (ص٢٢٣-٢٢٤): أخبرنا عبدالرحمن بن أبي الحسين في كتابه، أخبرنا أبو الفرج بن أحمد، أخبرنا أحمد بن نصير، أخبرنا محمد بن القاسم، سمعت علي بن غالب الصوفي يقول: سمعت إبراهيم بن محمد المزكي يقول: سمعت أبا الحسن الفقيه يحكي عن الحسن بن محمد، عن ابن فضيل النحوي عن محمد بن روح عن محمد بن حرب الهلالي قال: دخلت المدينة فأتيت قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فجاء أعرابي فزاره ثم قال: يا خير المرسلين إن الله عز وجل أنزل كتاباً عليك صادقاً قال فيه: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ =

= [النساء: ٦٤] . وإني جئتك مستغفراً إلى ربي من ذنوبي مستشفعاً بك . ثم بكى وأنشأ يقول:

ياخير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم
أنت النبي الذي ترجى شفاعته عند الصراط إذا ما زلت القدم

ثم استغفر وانصرف، فرقدت فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول: الحق بالرجل فبشره بأن الله عز وجل قد غفر له بشفاعتي.

وقال ابن الجوزي في مثير العزم الساكن (١ / ٣٠١-٣٠٣) : أخبرنا عبدالخالق بن يوسف أنبأنا أحمد بن أبي نصر، أنبأنا محمد بن قاسم الفارسي، قال: سمعت غالب بن علي الصوفي يقول: سمعت إبراهيم بن محمد المزكي يقول: سمعت أبا الحسن الفقيه يحكي عن الحسن بن محمد، عن ابن فضيل النحوي عن محمد بن روح عن محمد بن حرب الهلالي قال: دخلت المدينة فأتيت قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجاء أعرابي فزاره ثم قال: يا خير الرسل إن الله عز وجل أنزل عليك كتاباً صادقاً قال فيه: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ [النساء: ٦٤] وإني جئتك مستغفراً إلى ربي من ذنوبي مستشفعاً بك. ثم بكى وأنشأ يقول:

ياخير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم استغفر وانصرف، فرقدت فرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نومي وهو يقول: الحق الرجل فبشره أن الله عز وجل قد غفر له بشفاعتي.

ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (كما في مختصر ابن منظور ٢ / ٤٠٨، وسقط من النسخة المسندة من تاريخ ابن عساكر) عن محمد بن حرب، به.

ورواه ابن بشكوال في القربة (ص١٢٢) معلقاً فقال: وذكر محمد بن عبد الله (ويقال: محمد بن عبيد الله بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب المتوفى ٢٢٨هـ) هذا الخبر وزاد في آخره: فغلبتني عينايَ فرأيت رسول الله ﷺ في نومي فقال لي: يا عتبي الحق الأعرابي وبشره أن الله عز وجل قد غفر له.

وقال ابن السمعاني في الذيل (كما في كنز العمال ٤ / ٢٥٨-٢٥٩) : أخبرنا أبو بكر هبة الله ابن الفرج، أخبرنا أبو القاسم يوسف بن محمد بن يوسف الخطيب، أخبرنا أبو القاسم =

....

= عبدالرحمن بن عمرو بن تميم المؤدب، حدثنا علي بن إبراهيم بن علان، أخبرنا علي بن محمد ابن علي، حدثنا أحمد بن الهيثم الطائي حدثنا أبي عن أبيه عن سلمة بن كهيل عن أبي صادق عن علي بن أبي طالب قال: قدم علينا أعرابي بعدما دفن رسول الله ﷺ بثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبر النبي ﷺ وحثا من ترابه على رأسه وقال: يا رسول الله، قلت فسمعنا قولك، ووعيت عن الله فوعينا عنك، وكان فيما أنزل عليك: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ [النساء: ٦٤]، وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي، فنودي من القبر أنه قد غفر لك.
قال في المغني: الهيثم بن عدي الطائي متروك الحديث. انتهى ما في كنز العمال. وعبارة الذهبي في المغني: تركوه. وقال أبو داود: كذاب. انتهى. والهيثم بن عدي هذا كذّبه البخاري وأبو داود وابن معين ويعقوب بن سفيان، وجماعة آخرون.

وقد استحسن هذه القصة جماعة من الأئمة الثقات الأجلاء، فأوردوها في كتبهم ، منهم: أبو محمد ابن قدامة المقدسي الحنبلي في المغني (٣/٥٨٨ ـ ٥٨٩)، وأبو الفرج ابن قدامة المقدسي الحنبلي في الشرح الكبير (٣/٤٩٤)، والإمام النووي في المجموع (٨/٢٧٤)، والأذكار (ص١٩٥) والإمام ابن كثير في تفسيره (١/٤٩٢)، والقرطبي في تفسيره (٥/٢٦٥-٢٦٦).

قال الإمام النووي في المجموع (٨/٢٧٤): ومن أحسن ما يقول ـ أي الحاج المتوسل والمستشفع به ﷺ ـ ما حكاه الماوردي والقاضي أبو الطيب وسائر أصحابنا عن العتبي مستحسنين له (ثم ذكر القصة).

ثم إن الإمام النووي حينما قال بالاستحسان لقصة العتبي وغيره من العلماء لم يقولوا باطلاً، فالقصة ذات أصل صحيح من الكتاب والسنة. أما من الكتاب فهي، الآية المتقدمة، بل وآيات أخرى سردناها في هذا السفر في الأدلة من الكتاب. أما السنة فقد صح في ذلك رواية الضرير وبلال بن الحارث، ورواية الدارمي في فتح الكوة وغيرها من الأدلة في السنة قد أسهبنا من ذكرها في أدلة السنة من هذا الكتاب.

إذاً قد صحّ معنى هذه الروايات الضعيفة بما احتفت به من أدلة لمعناها من الكتاب والسنة، فارتفعت من درجة الضعف إلى درجة القبول. فهي صحيحة المعنى بلا ريب، كما أن تعدد الروايات دليل قوي على ثبوتها كما هو مقرر في علم مصطلح الحديث. .... =

....

= وليس كل حديث ضعيف يبطل العمل به كما لا يلزم أن كل حديث صحيح يجب العمل به فكم من حديث ضعيف ثبت العمل به. كما هو الحال في جلسة الاستراحة بين الركعتين فقد ثبت الجلوس بين الركعتين في صحيح البخاري، ولكن لم يثبت عند بعض أهل العلم العمل به كما هو عند المالكية والأحناف وأخذوا برواية عبد الله بن عمر من طريق عبدالرزاق، وأيضاً إلصاق القدم بالقدم كما في رواية أنس في البخاري حديث صحيح ولم يثبت العمل به، وعُمل بالرواية الضعيفة التي أخرجها الترمذي في سننه كما قرر ذلك خاتمة المحدثين الإمام الكشميري في فيض الباري.

وقد قرر الحافظ ابن حجر في الفتح عن مسالة تحجيل الوضوء على المرفق فقال: لم يثبت بحديث صحيح ولكن ثبت بروايات ضعيفة حيث ثبت العمل به إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وعبارة إذا صح الحديث فهو مذهبي أي: على الشروط التي وضعها كل إمام لقبول الرواية، أي صحت على شرطه الذي وضعه، فلا يجوز إمرارها على كل ما صح فهناك من الأحاديث ما صح سنداً ومتناً ومنها ما صح سنداً ولم يصح متناً ومنها ما صح متناً ولم يصح سنداً. ومن خلال ذلك جاء علم نقد الرواية كنقد السند. وذكر ذلك الإمام السبكي في كتاب معنى قول الإمام المطلبي: إذا صح الحديث فهو مذهبي.

وقال الدكتور نور الدين عتر في تعليقه على هداية السالك (٣/١٣٨٣): فقد ذكروا هم وغيرهم هذه القصة على سبيل الاستحسان لم يطعنوا فيها وهم أهل الرواية والدراية. انتهى

ثم إن عامة أهل العلم يقدمون تفسير النص بالأثر الضعيف أو بما لم يصح على شرطهم: على القول بالرأي، وهو ما جرى عليه العمل.

ولهجة رفض الرواية الضعيفة لم يبتدعها إلا الألباني ومن لف لفه، حيث ابتدع بدعة منكرة في علم الحديث وهي إخراج الضعيف من دائرة المقبول، وقد ألف فضيلة الدكتور محمود سعيد ممدوح حفظه الله تعالى كتاباً في هذا الصدد أسماه: «التعريف بأوهام من قسم السُّنن إلى صحيح وضعيف» طبع في ستة أجزاء وسيتمه إلى ما يقارب عشرة أجزاء. ......=

....

= ومن المؤسف أن منكري التوسل يلهثون وراء تقعيد تلك القواعد ورد كثير من الأحاديث والآثار، بل بلغت جرأتهم برمي السلف الصالح بالجهل والتساهل وعدم الإحاطة بالعلم المفصل إلى أن وصلت اتهاماتهم إلى الصحابة رضي الله عنهم.

فقد ذكر صالح آل الشيخ في كتابه «هذه مفاهيمنا ص٧٦» أن هذه القصة ليست من سنة الرسول ﷺ ولا فعل خلفائه الراشدين وصحابته المكرمين ولا من فعل التابعين والقرون المفضلة إنما هي مجرد حكاية عن مجهول نقلت بسند ضعيف فكيف يحتج بها في عقيدة التوحيد الذي هو أصل الأصول وكيف يحتج بها وهي تعارض الأحاديث الصحيحة التي نهى فيها عن الغلو في القبور والغلو في الصالحين عموماً وعن الغلو في قبره والغلو فيه ﷺ خصوصاً، وأما من نقلها من العلماء واستحسنها فليس ذلك بحجة تعارض بها النصوص الصحيحة وتخالف من أجلها عقيدة السلف، فقد يخفى عن بعض العلماء ما هو واضح لغيرهم وقد يخطئون في نقلهم ورأيهم وتكون الحجة مع من خالفهم... إلى أن قال: قد تخفى بعض المسائل والمعاني على من خلع الأنداد وتبرأ من الشرك وأهله كما قال بعض الصحابة: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر إنها السنن قلتم والذي نفسي بيده ما قاله أصحاب موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. حديث صحيح. قال والحجة في هذا أن هؤلاء الصحابة وإن كانوا حديثي عهد بكفر فهم دخلوا في الدين بلا إله إلا الله وهي تخلع الأنداد وأصناف الشرك وتوحد المعبود ومع ذلك ومع معرفة قائليها الحقة بمعنى لا إله إلا الله خفي عليهم بعض المسائل من أفرادها وإنما الشأن أنه إذا وضح الدليل وأبينت الحجة فيجب الرجوع إليها والتزامها، والجاهل قد يعذر كما عذر أولئك الصحابة في قولهم: اجعل لنا ذات أنواط وغيرهم من العلماء أولى باحتمال أن يخفى عليهم بعض المسائل ولو في التوحيد والشرك. انتهى كلام آل الشيخ.

وهو كلام لا ينقضي منه العجب وذلك لأمور:

١ ـ جعل آل الشيخ الترك حجة شرعية، وهذا خطأ أصولي.

٢ ـ زعم أن هذه القصة حجة في إثبات عقيدة التوحيد ونسب ذلك إلى الأئمة الأعلام، وهذا من أبطل الباطل ولم يجعل هذه القصة أحد من العلماء دليلاً أصلياً لإثبات التوسل لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٣ ـ زعم أن في هذه القصة غلواً في القبور وهو زعم وهمي لا أساس له من الصحة فالرجل ما عبد القبر ولا جعله إلهاً ولا وثناً يعبد، وغاية ما في الأمر أنه توسل بصاحب القبر =

قال العلامة العز بن جماعة في هداية السالك (٣ / ١٣٨٤):
ولله در هذا الأعرابي حيث استنبط من الآية الكريمة المجيء إلى زيارته بعد موته، مستغفراً، فإن ذلك أظهر في قصد التعظيم، وصدق الإيمان. واستغفار الرسول ﷺ بعد الموت حاصل لأنه الشفيع الأكبر يوم القيامة والوسيلة العظمى في طلب الغفران ورفع الدرجات من بين سائر ولد آدم. والمجيء إليه ﷺ بعد موته تجديد لتأكيد التوسل به إلى الله سبحانه وتعالى وقت الحاجة، وشتان بين هذا الأعرابي وبين

= الشريف، والتوسل به بعد انتقاله ثابت بالأدلة الشرعية الصحيحة - لا في الحكايات - وممن أثبت ذلك الإمام أحمد رحمه الله كما نقل ذلك عنه ابن تيمية في مواضع من كتبه منها الرد على الأخنائي.

٤ - أما خفاء بعض المسائل على العلماء ووضوحها لغيرهم فلا مكان له هنا، والعجب كيف اتفق جماعة من العلماء الأثبات الثقات على الوقوع بهذا الخطأ (المزعوم من قبل آل الشيخ) فالإمام ابن قدامة والنووي وابن كثير والعز بن جماعة وهم محدثون وفقهاء ونقاد تخفى عليهم عقيدة التوحيد الصحيحة السليمة، وتظهر جلية واضحة لصالح آل الشيخ؟!!!

٥ - وأما زعمه بأن أهل القرون الأولى لم يفعلوا ذلك فهو مجرد دعوى لا دليل عليها، فقد ثبت عن جماعة من السلف فعل ذلك: من الصحابة والتابعين وأتباعهم، مثل: حديث عائشة في الكوة، وحديث ابن أبي شيبة في عام الرمادة وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة الثابتة التي لا يردها إلا من تجرد عن القواعد العلمية المقررة في علم مصطلح الحديث.

٦ - وصل الحد في آل الشيخ أن رمى الصحابة وغيرهم من العلماء بأنهم خفي عليهم بعض المسائل من أفراد لا إله إلا الله ومسائل في التوحيد والشرك؟!!!.

وهذا يعجز اللسان عن الرد عليه فإذا كان الصحابة والعلماء الأجلاّء قد خفيت عليهم بعض مسائل التوحيد فلا ندري من هو النحرير الفطن الذي ظهرت له مسائل التوحيد وصفاؤه؟!! أهو صالح آل الشيخ ومن لف لفه من المعاصرين الذين ما زالوا في تطور نحو التطاول على السادة العلماء من الصحابة ومن بعدهم؟!!.

من أضله الله فحرم السفر إلى زيارته ﷺ، وهو من أعظم القربات كما قدمناه (أي في ص١٣٦٩– ١٣٧١، وص١١٣). انتهى كلام العلامة الإمام العز بن جماعة (تلميذ الإمام النووي).

الدليل الخامس: قول الله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾[1].

فقد قرر الحق في هاتين الآيتين ضرورة الواسطة الحقة التي ارتضاها للإنسانية، والتي لا يتأتى رضاه إلا بها، فقال: ﴿**إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي**﴾ وقال: ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ**﴾ فلا تتأتى المحبة لله إلا بمحبة رسول الله ﷺ وطاعته، والمحبة والطاعة لا تتشخصان إلا بذات، ولما كانت ذات الحق متعذّراً اتباعها، بسبب مطالبة الاتباع تجانس المتبوع والتابع، وجاء الأمر من الحق سبحانه بتشخيص ذات النبي في المحبة والطاعة، لأنهما مظهرا الاتباع، وبذا صارت ذات النبي ﷺ أصلاً لذلك المقتضى: صار من الجائز شرعاً تحققها في الرجاء والتوجه والدعاء، لأنها الحق المبين لقبول رسالة الطائعين لرب العالمين، لذا قال سبحانه مؤكداً هذا المعنى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**

---

(١) من سورة آل عمران الآيتان (٣١، ٣٢).

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾[1] فإجابة الدعاء متعلقة بالاستجابة والخضوع والتسليم لأوامر رب العالمين، والاعتراف بفضله المبين، حتى تقبل الزلفى لديه في رجاء الراجين، ولذا ختم الآية بقوله: ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾ فالرشاد يكون بالتسليم لأوامر رب العالمين.

فالاتباع والمحبة اتباع ذات، لا مجرد عمل، حيث إن الاتباع عمل صالح، والعمل الصالح متفقٌ على التوسل به بالنص الصريح، والعمل الصالح لا يتحقق إلا بذات صالحة، إذ لا يتصور انفكاك الأعمال عنها بحال، فإذا صح التوسل بالأعمال الصالحة، وهي فرع عن الذوات، فمن باب أولى أن يتوسل بالذوات، لأنها الأصل الحقيقي الذي تبرز منه الأعمال، ولو أراد الحق سبحانه قصر التوسل على الأعمال لما أمر باتباع النبي ﷺ، واعتبار محبته وطاعته محبةً له سبحانه، ولاكتفى بأن يأمر بطاعته ومحبته مباشرة، إلا أن الاتباع يستلزم إيجاد الواسطة وهو النبي ﷺ كما ذكرنا، وكما قال ابن مشيش في صلاته: لولا الواسطة لذهب ـ كما قيل ـ الموسوط[2].

الدليل السادس: انظر إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ

---

(١) من سورة البقرة، الآية (١٨٦).

(٢) وانظر ـ إن أمكن ـ شرح المشيشية لابن كيران والزبيدي وابن عجيبة.

يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾[2].

تجد أن الحق سبحانه وتعالى أوضح وقرر في هاتين الآيتين، حقيقة إيمانية لابد من إدراكها والتنبه لها، وعدم الخلط بينها وبين غيرها، ألا وهي الحق والحقيقة، السبب والمسبب، كما تقدم في التوطئة، وصدرها بأثر السبب المأذون به من الله سبحانه وتعالى وهو الموت، حيث إن الله سبحانه أعطى الملك القدرة على قبض الأرواح، وإماتة الأشباح، وحقيقة الإماتة والقبض من الملك حقيقة ظاهرة، والحقيقة الخفية التي هي الحق من الإماتة والقبض من المسبب، هو الله جلّت قدرته. وقد فضح الحق سقم فهم الكافرين والمنافقين والمرجفين لهذه المعاني الإيمانية، بأنهم قوم لا يكادون يفقهون حديثاً، حينما يخلطون بين السبب والمسبب، وبين الحق والحقيقة، فلا يؤمنون إلا بالمحسوسات، بحسب ما تقتضيه أهواؤهم من خير ونفع، فهاهم حين بارك الله لهم ببعثة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم، استنكفوا وتجاهلوا بركته، وزعموا أن الخير الذي جاءهم هو من الله،

---

(١) من سورة النساء، الآية (٧٨).

(٢) من سورة النساء، الآية (٧٩).

وليس بسبب الرسول، وإن أصابتهم سيئة ردوا سببها إلى الرسول، فيرد الله سبحانه وتعالى تناقضهم هذا في التعامل مع السبب، وينكر عليهم صنيعهم مع المسبِّب في البلاء، وإنكاره في الرخاء.

وفي الآية الثانية يرد الله سبحانه وتعالى عليهم بأن ما أصابك من حسنة فمن الله، والحسنة هنا حق وحقيقة، سبب ومسبب، أما السيئة فسبب فقط، لأن الله سبحانه وتعالى لا يرضى لعباده الكفر، ولكنه يقدره لهم، فالله قدّر السوء ونهى عنه، والعبد سعى بشقاوته إلى ذلك المقدور، فالسيئة إذن تقديرها من الله، وإحداثها من العبد لسابق الشقاوة فيه[1].

ثم وضح الحق عز وجل مقام نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم إثر ذلك فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾ لإرشادٍ وإسعادٍ وإمداد، وكأن تلك المعاني تتجسد لنا اليوم في إنكار المرجفين الوسيلة، وحضهم على الالتجاء إلى الله، دون التعريج عليها، وكأنها مظهر من مظاهر الشرك، مع التجائهم واعتمادهم على الجمادات، كالتداوي بالأدوية، والاستشفاء بالأطباء، علماً بأن المداوي والشافي

(١) يتمُ بتسليط الرب العبد لإحداث السيئة في الدنيا إما تطهيراً أو تدميراً بقدر ما قسم له من الشقاوة أزلاً. والله أعلم.

قال صاحب الزبد:

وإنَّ الشقي لشقي الأزل وعكسه السعيد لم يبدل

هو الله تعالى، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً، لخلطهم بين المقامات، كما خلط من سبقهم من أهل الجحود والطغيان.

فالحسنة حسنتان، والسيئة سيئتان، فحسنة سببية، وحسنة مسببية، وسيئة سببية، وسيئة مسببية، وحسنة حقة، وحسنة حقيقية، وحسنة مكتسبة. فالحسنة المسببية مطلقة، والحسنة السببية مقيدة، فمن تفطن فقه ورشد، ومن جهل ضل وبعد.

فالحسنة من الرسول كالبركة والخير، كلها من آثار رحمة الله سبحانه وتعالى، فقد قال الحق عز وجل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾[١]. وقال: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ**﴾[٢].

فالمبايع رسول الله حقيقة، والرامي رسول الله حقيقة، ولكن حق البيعة من الله، وحق الرمي من الله، والرسول خليفة الله في إظهار حقيقة البيعة والرمي، فكيف لا يجوز التوسل والتقرب به إلى الله تعالى؟[٣].

وأعاد السيئة للنفس تبكيتاً للكفار، وتسفيهاً لهم في قلب الحقائق، والخلط بينها، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً.

---

(١) من سورة الفتح، الآية (١٠).

(٢) من سورة الأنفال، الآية (١٧).

(٣) انظر كلام ابن أبي جمرة في ذلك في التوطئة.

قال الإمام الفخر الرازي في « تفسيره » في معرض تفسيره لسورة الفاتحة مانصه: « أما دلالة التغيرات على وجود الإله، فلأن الفطرة السليمة تشهد بأن كل شيء وجد بعد العدم، فإنه لا بد له من سبب، ولذلك فإنا إذا سمعنا أن بيتاً حدث بعد أن لم يكن، فإن صريح العقل شاهد بأنه لا بد له من فاعل تولى بناء ذلك البيت، ولو أن إنساناً شكّكَنا فيه لم نتَشكَّك، فإنه لا بد وأن يكون فاعل تلك الأحوال المتغيرة قادراً، إذ لو كان موجباً بالذات لدام الأثر بدوامه، فحدوث الأثر بعد عدمه يدل على وجود مؤثر قادر، وأما دلالة تلك التغيرات على كون المؤثر رحيماً محسناً؛ فلأَنّا بيَّنا أن الغالب في تلك التغيرات هو الراحة والخير والبهجة والسلامة، ومن كان غالب أفعاله راحة وخيراً وكرامة وسلامة كان رحيماً محسناً، ومن كان كذلك كان مستحقاً للحمد، ولما كانت هذه الأحوال معلومة لكل أحد، وحاضرة في عقل كل أحد عاقل، كان موجب حمد الله وثنائه حاضراً في عقل كل أحد؛ فلهذا السبب علمهم كيفية الحمد فقال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ... ثم قال: وحينئذ يقع في قلب العبد أني مع نهاية ذلتي وحقارتي، كيف يمكنني أن أتقرب إليه؟ وبأي طريق أتوسل؟ فعند هذا ذكر الله ما يجري مجرى العلاج الموافق لهذا المرض، فكأنه قال: أيها العبد الضعيف، أنا وإن كنت عظيم القدرة والهيبة والإلهية إلا أني مع ذلك عظيم الرحمة، فأنا الرحمن الرحيم، وأنا

مالك يوم الدين، فما دمتَ في هذه الحياة الدنيا لا أخليك عن أقسام رحمتي وأنواع نعمتي، وإذا مِتَ فأنا مالك يوم الدين، لا أضيع عملاً من أعمالك، فإن أتيتني بالخير قابلت الخير الواحد بمالا نهاية له من الخيرات، وإن أتيتني بالمعصية قابلتها بالصفح والإحسان والمغفرة...

إلى أن قال: ثم إن هذا العالم عالم الأسباب فلا يمكنه تحصيل الخيرات واللذات إلا بواسطة أسباب معينة، ولا يمكنه دفع الآفات والمخافات إلا بواسطة أسباب معينة، ولما كان جلب النفع ودفع الضرر محبوباً بالذات، وكان استقراء أحوال هذا العالم يدلك على أنه لا يمكن تحصيل الخير ولا دفع الشر إلا بتلك الأسباب المعينة، ثم تقرر في العقول أن مالا يمكن الوصول إلى المحبوب إلا بواسطته فهو محبوب – صار هذا المعنى سبباً لوقوع الحب الشديد لهذه الأسباب الظاهرة، وإذا علم أنه لا يمكنه الوصول إلى الخيرات واللذات إلا بواسطة خدمة الأمير والوزير والأعوان والأنصار بقي الإنسان متعلق القلب بهذه الأشياء، شديد الحب لها، عظيم الميل والرغبة إليها، ثم قد ثبت في العلوم الحكمية أن كثرة الأفعال سبب لحدوث الملكات الراسخة، وثبت أيضاً أن حب التشبه غالب على طباع الخلق.

أما الأول فكل من واظب على صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف مدة مديدة، صارت تلك الحرفة والصناعة ملكة راسخة قوية، وكلما كانت المواظبة عليها أكثر كانت الملكة أقوى وأرسخ.

وأما الثاني فهو أن الإنسان إذا جالس الفساق مال طبعه إلى الفسق، وما ذاك إلا لأن الأرواح جبلت على حب المحاكاة، وإذا عرفت هذا فنقول: إنا بينا أن استقراء حال الدنيا يوجب تعلق القلب بهذه الأسباب الظاهرة، التي بها يمكن التوصل إلى جر المنافع ودفع المضار، وبينا أنه كلما كانت مواظبة الإنسان عليها أكثر كان استحكام هذا الميل والطلب في قلبه أقوى وأثبت، وأيضاً فأكثر أهل الدنيا موصوفون بهذه الصفة، مواظبون على هذه الحالة، وبينا أن النفوس مجبولة على حب المحاكاة، وذلك أيضاً يوجب استحكام هذه الحالة، فقد ظهر بالبينات التي ذكرناها أن الأسباب الموجبة لحب الدنيا والمرغبة في التعلق بأسبابها كثيرة قوية شديدة جداً. ثم نقول: إنه إذا اتفق للإنسان هداية إلهية تهديه إلى سواء السبيل وقع في قلبه أن يتأمل في هذه الأسباب تأملاً شافياً وافياً فيقول: هذا الأمير المستولي على هذا العالم استولى على الدنيا بفرط قوته وكمال حكمته أم لا؟ الأول باطل، لأن ذلك الأمير ربما كان أكثر الناس عجزاً، وأقلهم عقلاً، فعند هذا يظهر له أن تلك الإمارة والرياسة ما حصلت له بقوته، وما هيئت له بسبب حكمته، وإنما حصلت تلك الإمارة والرياسة لأجل قسمة قسام، وقضاء حكيم علام، لا دافع لحكمه ولا مرد لقضائه، ثم ينضم إلى هذا النوع من الاعتبار أنواع أخرى من الاعتبارات تعاضدها وتقويها، فعند حصول هذه المكاشفة ينقطع

قلبه عن الأسباب الظاهرة، وينتقل منها إلى الرجوع في كل المهمات والمطلوبات إلى مسبب الأسباب ومفتح الأبواب، ثم إذا توالت هذه الاعتبارات وتواترت هذه المكاشفات صار الإنسان بحيث كلما وصل إليه نفع وخير قال: هو النافع، وكلما وصل إليه شر ومكروه قال: هو الضار، وعند هذا لا يحمد أحداً على فعل إلا الله، ولا يتوجه قلبه في طلب أمر من الأمور إلا إلى الله، فيصير الحمد كله لله والثناء كله لله، فعند هذا يقول العبد: الحمد لله...

إلى أن قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، والمعنى أني كنت قبل هذا أستعين بغيرك، وأما الآن فلا أستعين بأحد سواك، ولما كان يطلب المال والجاه اللذين هما على شفا حفرة الانقراض والانقضاء من الأمير والوزير، فلأن يطلب الهداية والمعرفة من رب السماء والأرض أولى، فيقول: اهدنا الصراط المستقيم، ثم إن أهل الدنيا فريقان:

أحدهما: الذين لا يعبدون أحداً إلا الله، ولا يستعينون إلا بالله، ولا يطلبون الأغراض والمقاصد إلا من الله.

والفرقة الثانية: الذين يخدمون الخلق، ويستعينون بهم، ويطلبون الخير منهم، فلا جرم العبد يقول: إلهي اجعلني في زمرة الفرقة الأولى، وهم الذين أنعمت عليهم بهذه الأنوار الربانية والجلايا النورانية.

ولا تجعلني في زمرة الفرقة الثانية، وهم المغضوب عليهم والضالون، فإن متابعة هذه الفرقة لا تفيد إلا الخسار والهلاك، كما قال إبراهيم عليه السلام: لمَ تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً؟ والله أعلم»[١] .... إلى أن قال رحمه الله: «إذا عرفت حد النعمة فيتفرع عليه فروع: الفرع الأول: اعلم أن كل ما يصل إلى الخلق من النفع ودفع الضرر فهو من الله تعالى على ما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[٢] ثم إن النعمة على ثلاثة أقسام: أحدها: نعمة تفرد الله بإيجادها، نحو أن خلق ورزق. وثانيها: نعمة وصلت من جهة غير الله في ظاهر الأمر، وفي الحقيقة فهي أيضاً إنما وصلت من الله تعالى، وذلك لأنه تعالى هو الخالق لتلك النعمة، والخالق لذلك المنعم، والخالق لداعية الإنعام بتلك النعمة في قلب ذلك المنعم، إلا أنه تعالى لما أجرى تلك النعمة على يد ذلك العبد كان ذلك العبد مشكوراً، ولكن المشكور في الحقيقة هو الله تعالى ولهذا قال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[٣] فبدأ بنفسه تنبيهاً على أنَّ إنعام الخلق لا يتم إلا بإنعام الله، وثالثها: نعم وصلت من الله إلينا بسبب طاعتنا، وهي أيضاً من الله تعالى؛ لأنه لولا أن الله سبحانه وتعالى وفقنا للطاعات وأعاننا عليها وهدانا إليها وأزاح

---

(١) تفسير الفخر الرازي (١/ ١٨٤ - ١٨٨).

(٢) سورة النحل، الآية (٥٣).

(٣) سورة لقمان، الآية (١٤).

الأعذار عنا وإلا لما وصلنا إلى شيء منها، فظهر بهذا التقرير أن جميع النعم في الحقيقة من الله تعالى[١].

قال العارف بالله المحدِّث ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى: الاستعانة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: مستعين ومستعان به ومستعان عليه، فالمستعين هو المؤمن والمستعان به أصله إعانة بعض لبعض لغرض ما من الأغراض كما روي في الحديث: «ويعين الرجل على دابته، يحمله عليها أو يرفع عليها متاعه صدقة». أي يحمله له حتى يبلغه له للموضع الذي أمَّل. والاستعانة هنا على وجهين: استعانة بالزمان واستعانة بالعمل، فأما الاستعانة بالزمان فهي ما في طرفي النهار من اعتدال الهواء ونشط النفس فيهما وما روي أن العمل فيهما أزكى مما في غيرهما. قال عز وجل في كتابه خطاباً لنبيه عليه السلام: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾[٢] وأما الاستعانة بالأعمال فهي أن تعمر هذه الأوقات المذكورة بأنواع الطاعات[٣].

وقال العارف بالله الشيخ الإمام أحمد بن عجيبة في كتابه تفسير الفاتحة الكبير المسمى بـ«البحر المديد»: «والاستعانة: طلب المعونة،

---

(١) تفسير الرازي (١/٢٥٨).

(٢) سورة الكهف، الآية: (٢٨).

(٣) بهجة النفوس (١/٧٣).

وهي العزيمة في الباطن، والنهوض والتيسير في الظاهر، فإن العبد إذا لم تصحبه من الله معونة، لم يكن له وصول إلى مآربه، ولا نجاح لمطالبه، كما قال الشاعر:

إذا كان عون الله للعبد خادماً   تيسر له من كل صعب مراده

إلى أن قال رحمه الله: وقُدمت العبادة على الاستعانة، لتوافق رؤوس الآي، وليعلم منه أن تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أدعى إلى الإجابة. وأيضاً: لما نسب المتكلم العبادة إلى نفسه، أوهم ذلك تبجحاً ـ أي: استعظاماً ـ واعتداداً منه بما يصدر عنه، تعقبه بقوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، ليدل على أن العبادة لا تتم، ولا تنسب له إلا بمعونة منه تعالى، وتوفيقه... وأهل الحقيقة: فرَّعوا علومهم على قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ لأن مدار علمهم، ومشهد أحوالهم، على التبري من حولهم وقوتهم، بل ومن شهود أنفسهم فلا يشهدون لأنفسهم فعلاً ولا تركاً، ولا حولاً ولا قوة، إنما مدارهم على استعانة الله، وحوله وقوته، قد فنوا عن أفعالهم، وعن وجودهم، بشهود معبودهم، ثم فنوا عن فنائهم، وبقوا ببقاء محبوبهم...

وبيان ذلك: أن الجاهلية لما كانت تعتقد إلهية غير الله تعالى، وأن له شريكاً يستحق أن يعبد معه، شُرِعت الشهادتان لمحو الكفر من القلب واللسان، لأنه ترجمان على ما في القلب،وتطهير اللسان،

فإذا قال العبد: لاإله إلا الله، فقد محا الكفر من قلبه ولسانه، في ظاهر أمره، الذي هو مدار الشريعة.

وإذا قال: محمد رسول الله، **فقد أقرَّ بالواسطة، الذي هو ركن في قبول الإسلام.**

ثم لما كانت الكفار تسجد للأصنام، وتصلي لها، شُرِعت الصلاة لمحو الكفر من الجوارح الظاهرة، والأركان،بعد محوه من القلب واللسان.

وأيضاً فلتضمّن إقامتها مناجاة الحق سبحانه خمس مرات في اليوم والليلة، حتى يفضي إلى مراقبته تعالى واستدامة توحيده، الذي حصل بالشهادتين[1].

الدليل السابع: قول الله تعالى: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ إلى أن قال: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ**﴾[2]. معنى قول الملائكة: ﴿**وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾ أي: نوقرك وننزهك ونعظمك بما أذنت لنا به من طاعة وعبادةٍ وتعظيم قد عظمناك به، دون التفات إلى الغيرية، فهذا العبد الذي خلقته به غيريةٌ لن يصدق معك في الطاعة.

---

(١) تفسير الفاتحة الكبير المسمى بالبحر المديد لابن عجيبة (٢/ ٥٨١ - ٥٨٩).

(٢) من سورة البقرة الآيات (٣٠ - ٣٤).

هذا وقد غيّب الحقُّ سبحانه وتعالى نبيّه وورّاث نبيه في آدم عن رؤية الملائكة، وأشهدهم ذلك يوم الإسراء في موقف السلام.

وحديثنا عن قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُو**﴾ فالمولى سبحانه وتعالى أراد أن يزف إلى الملائكة لوناً آخر من القربة، لوناً آخر من الطاعة والتقرب إليه، ألا وهو تعظيم ما عظم وتوقير ما وقر خليفته في الأرض ، لأن التقديس والتسبيح ـ أي الأذكار المعنوية ـ يقوم بها الصالح والطالح، فأراد الحقُّ أن يري الملائكة لوناً من ألوان الطاعة التي سيبتلى بها بنو آدم، فكانت الملائكة بحسن طويتها طائعةً بأمر ربها، لأنها مطهرةٌ من الغيرية إلا إبليس ممن كان مع الملائكة يسبّح ويقدس الله سبحانه، لأنه لم يكن طاهراً من الغيرية إذ هو الغيرية نفسُها فقال: ﴿**أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً**﴾[1] لذا يفهم من هذا الموقف أن الحق قد اختبر الملائكة في التقرب إليه بالذوات، فآدم مثلاً قد جمع الله فيه أرقى الذوات، فهو إذاً أمّ الذوات ومجمعها ـ الطاهرة وغير الطاهرة ـ فالطاهرة مزكاة من ابنه أحمد ﷺ، وغير الطاهرة مائلة إلى الغير، والغير شاذٌ نافرٌ عن الذات السوية مبلسٌ عنها، وأول غير هو إبليس، أي الشيطان الرجيم من حين رفض السجود، ولذا أناط الحق معرفة

(١) من سورة الإسراء، الآية (٦١).

الأمة الإسلامية بربها عن طريق وسائط ذاتية مشروعة منه، فكانت الأنبياء دلائل إليه، والكعبة قبلة إليه، وتوقير نبيه وتعزيره ومحبته، ومحبة آل بيت نبيه قربة إليه، ومحبة الصالحين من هذه الأمة، من صحابة وتابعين وصديقين وشهداء وصالحين قربة إليه، لذا كان توجههم تلقياً ودعاؤهم ترقياً.

ونخلص من ذلك أن التقرب بالسجود لهذه الذات (آدم)، أعظم تقديس وتوقير لله، وبذا تقرر من ذلك أن التوسل إلى الله بكل ما عظّم اللهُ، وبجّل الله، وقدّس الله: هو قربةٌ لله سبحانه.

هذا وقد كان السجود في الأمم السابقة والغابرة مظهراً من مظاهر الشكر والتحية، كماً في تحية إخوة يوسف له ﴿ **وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا** ﴾[1] الآية، إلا أن السجود قد منع في شريعة الإسلام حين أصبح السجود رمزاً للعبادة، والسر في ذلك - والله أعلم - أن السجود في الأمم السابقة كان شكراً لله على وفود الرحمة المنتظرة، فحينما حلّت الرحمة المنتظرة، والمنة المرتقبة، آن للشكر أن يكون عبادة تعظيماً من الله لقدر هذا النبي ﷺ، فكتبها عليهم عبادة، ابتغاء مرضاته سبحانه، فامتنع بذلك إيقاعُها في مقام التحية، والله أعلم.

---

(١) من سورة يوسف، الآية (١٠٠).

هذا ويسوقنا هذا العرض إلى التعرف على عظيم قدرة الله في الملائكة:

عدْلُ الله يقتضي في الخلقة أن يكون فيها الخير والشر، فلما اقتضت حكمته أن يخلق خلقاً لا يعصيه، طهره من الغير والسوى، فكان ذلك الغير والسوى هو الشيطان، ولكن عدل الله اقتضى أن لا يحرم هذا الغير والسوى من عدله، فكتب له أن يكون عابداً مع الملائكة، حتى إن الملائكة لم تدرك شره لأنه جزء منها، فأراد المولى سبحانه وتعالى أن يخلق خلقاً آخر يكون فيه ذلك الشر والخير، فليس هناك شرٌ أعظم من إبليس، وعظيم خلق الله فيه أن لا يطيع الله مولاه في الخضوع، لما ظهر من الكائنات التي يراها في نظره أقل منه، فإذا هو لم يؤمر بالسجود لرئيس الملائكة «جبريل» فكيف يؤمر بالسجود لمخلوق أقل منه شأناً ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ وشُبْهَتُه التي أثارها: «أنت قد جعلتني أسبحك وأقدسك وليس من كمال تقديسك السجود لغيرك، والسجود لسواك شركٌ، فأنا سوى، والسوى لا يسجد في الحقيقة لسوى ـ إلا إذا قد أبصر صاحب اللوا ـ وقد حجبه الله تعالى عن هذا المشهد فلم يرَ سيدنا محمداً ﷺ.

ولما كانت روح ابن آدم ضعيفة بالنسبة للأرواح المتمكنة في مقامها، وأراد الله أن يظهر حكمته فيها، خلق لها بدناً تدرع به من الروح المتمكنة، رحمانية كانت أم شيطانية، فالرحمانية إذا أخذتها

من بدايتها جذبتها، فلم تعد تعرف في التشريع شيئاً، وإذا أخذتها الشيطانية ضلت وغوت، فأراد الحق لها البدن لتدرع به في سموها الروحي، وأنزل لها الشرائع لتتربى بها، فإذا أينعت وزهت لما قرر الله لها إلى أجل مسمى: قَبَضَ روحها بقدرِ تَهيُّؤ كلٍّ ذاتٍ في الاستقبال (على قدر المجلى يكون التجلي). والله أعلم.

إذاً فاللطيفة في قوله تعالى: ﴿**اسْجُدُوا لآدَمَ**﴾، إذ لم يقل: «اسجدوا لي» ولم يقل: «اسجدوا لمحمد» إعلاماً من الحق للإنسانية بأن التقرب إليه عن طريق التبعية، وأن سر هذه التبعية حقيقة مخفية، لا تدرك إلا بالمعاني الذوقية لأهل المعية، ولذا جرت فطرة الله على ذاك كما ذكرنا في مسألة (الشفاعة) حينما تأتي الخلائق إلى آدم.

وهذه إشارة إلى أن من أراد الفضل لا يبلغه إلا بمعرفة أهل الفضل ـ وهم أقرب الناس فضلاً عليه ـ فإذا عرف فضل أقرب الناس إليه دلَّهُ الله بفضلهم عليه، وأوصلهم إليه، وأكد الحق سبحانه هذه المسألة حينما فرض على هذه الأمة الصلوات الخمس، فأعاد المولى سبحانه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى موسى مع أنه أعلى مقاماً منه، وما ذلك إلا لتفطن هذه الأمة أن للوسائط المشروعة من لدنه إلى أجلها المسمى دوراً عظيماً، حتى في مقام الدنو والاقتراب لذا أعيد النبي ﷺ إلى التدلي، فمن داليات سيدنا محمد ﷺ موسى لما

لموسى عليه السلام من اقتراب من سيدنا محمد ﷺ في مقام الدنو، فموسى عليه السلام خاطبه الحق في مقام التشريع، وتشريع موسى رسالةٌ من رسالة سيدنا محمد ﷺ، فلا بد من مظهر الجزء أن يرجع في التقرير إلى الكل، ليبتني عليه الحكم، فيبرز في أرقى صوره.

قال عمر الخيام (ترجمة أحمد رامي):

قد تفصل القطرة عن بحرها   ففي مـــداه منتهى أمـــرها

الدليل الثامن: ومن الأدلة القرآنية على التوسل:

قول الله تعالى: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ * اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾**[1].

في هذه الآيات البينات دليل تلويحي إشاري بأهمية التوسل إلى الله بالوسائط المشروعة،لذا قال سبحانه وتعالى كما في الآية: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾**.

---

(١) من سورة الحديد الآيات (١٦-١٨).

فالذكر هنا هو الغاية المرجوة من حقيقة الإنزال والإرسال، أي إنزال الشرائع على ألسنة الرسل، وتبليغ الرسل الخلقَ لها، لذا استوجب تقديم الغاية وهي الذكر وتأخير الوسيلة وهي الإرسال، أي: وسائل وطرق العبادة الموصلة إلى معرفة ذكر الله.

وكذلك يسري الحال في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾[1]، فتقدم الإيمان بالرسل وما جاءت به، والرسل وما جاءت به هي الآيات البينات وهي الواسطة لمعرفة الله، فلا تتحقق معرفة الله التامة الخالصة إلا بمعرفة الوسائط الدالة على ذلك وهم الرسل عليهم السلام، ثم اختتم هذه الآيات بقوله: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ وهي بشارة ومواساة لمن لم يوفق إلى الأخذ بالوسائل الظاهرة المشروعة بعدم اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى إذ إن رحمة الله تمضي من خلال الأسباب الظاهرة وغير الظاهرة، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول للمؤمنين: إن لم توفقوا بالإقبال عليّ بالأسباب الظاهرة فثقوا بما لديّ من الرحمة الباطنة، فإذاً يتحقق الرجاء بالتأدب مع الله بالأخذ بالأسباب الظاهرة، فإن لم يوفق إليها اكتفى بالإيمان بها وتعليق أمل الرجاء عند بارئها.

---

(١) من سورة الحجرات، الآية (١٥).

الدليل التاسع: قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (١).

أثبتت هذه الآية الكريمة التوسل بالذوات أيما إثبات بذكرها الوسائط المشروعة، ومنعها الاتصال به سبحانه من دونها، فهي سبب ووسيلة لسماع كلام رب العالمين سبحانه لتحقيق الإجابة وتنفيذ الاستجابة، وكذلك الحال في (ياء) النداء، إذ لا تتحقق الإجابة إلا بالنداء، على أي شكل كان، فالنداء وسيلة للإجابة، فهي إذاً ـ أي الوسائط ـ وسيلة، وقد أوجبتموها في النداء باسم الجلالة (الله)، فأنتم إذاً أجزتم الوسيلة المعنوية ونفيتم الوسيلة الحسية الناطقة بحق في عالم الشهود عن المعاني.

فإن كان توسلكم بصورة (الياء) المادية دون حقيقتها فهذا محض الشرك، وقد منعتم مخاطبة الحق بتجريد الخطاب من حرف النداء (الياء) وزعمتم ببطلانه، فوقعتم في المحظور، وقد أجازه من أجاز التوسل لأن أهل التوسل أهل تجريد وتفريد، وأنتم أهل تجسيم وتحديد.

وإن كان توسلكم بحقيقتها المشروعة فلا خلاف بيننا، سيما أن أهل الحق ثبت لديهم النداء بالاسم المفرد، بحذف ياء النداء،

---

(١) من سورة الشورى (٥١).

ويكفي في ذلك تأييداً وإثباتاً ما ثبت في صحيح مسلم[١] وغيره عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله» .

قال الإمام أحمد بن مصطفى العلاوي في شرحه لهذا الحديث ما نصه[٢]:

وأبلغ شاهد يعتمد عليه في هذا الحديث هو مجيء لفظ الجلالة مكرراً فكان صريحاً في إرادته ذكر ذلك الاسم، أما لو جاء غير مكرر لاحتمل أن يكون المراد به: حتى لا يبقى على وجه الأرض من يعتقد وجود (الله) أما مع وجود التكرار فلا احتمال. اهـ.

ويعضد هذا المعنى ما أخرجه الحاكم في مستدركه[٣]، ورجاله رجال الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص قال: مرّ النبي ﷺ بي وأنا أدعو بأصبعي فقال: «أحد أحد» وأشار بالسبابة .اهـ.

قال العلاوي[٤]: فمعنى أحد: الله علم مفرد لا شريك معه، والأحاديث في هذا المعنى أكثر من أن يحاط بها .اهـ.

---

(١) صحيح مسلم (١/١٣١).

(٢) القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد (ص١٩).

(٣) المستدرك (١/٧١٩ برقم ١٩٦٦/١٦٦) وأقره الذهبي.

(٤) القول المعتمد (ص٣٥)

وأيّد هذا المعنى العلامة المحدِّث عبدالله بن الصديق الغماري رحمه الله في كتابه: الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام[1].

قلت: صدق سيدي العلاوي رحمه الله في تقريره، فقد وقفنا ـ بحمد الله ـ على صحاح الأخبار الدالة على المعنى الذي قرره الشيخ، وبذلك يندحر قول المبتدعة الذين يفسرون الحديث بالهوى. وصحاح الأخبار والآثار أولى في تفسير المعنى المراد، وإليك ما ورد في ذلك:

١ ـ فالشاهد الأول عن ابن إسحاق رحمه الله: قال ابن إسحاق: وحدثني هشام بن عروة عن أبيه قال: كان ورقة بن نوفل يمر به (أي بلال) وهو يعذب بذلك، وهو يقول: أحد أحد، فيقول: أحد أحد والله يا بلال... اهـ.

وقد ثبتت رواية ابن إسحاق بالطريقين المرسلين اللذين أوردهما فيكون الحديث بذلك حسناً لغيره.

٢ ـ والشاهد الثاني عن البغوي رحمه الله: فقد أخرج البغوي في معجم الصحابة[2]، عن محمد بن عبد الملك بن زنجويه، أخبرنا عبدالرزاق، أنبأنا معمر، أنبأنا عطاء الخرساني، قال: كنت عند

(١) الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام (ص٥٦–٥٧).

(٢) معجم الصحابة للبغوي (١/٢٥٩– ٢٦٠ برقم ١٦٣).

ابن المسيب فذكر بلالاً فقال: كان شحيحاً على دينه، وكان يعذب في الله، وكـان يُغـرَّب على دينه، فـإذا أراد المشـركـون أن يقـاربهـم قال: الله، الله.. اهـ.

٣ ـ والشاهد الثالث عن ابن عبدالبر رحمه الله: فقد أخرج الخبر المتقدم بإسناده في الاستيعاب[١].

قلت: والأثر صحيح الإسناد، ولا يلتفت إلى تضعيف ابن حبان والعقيلي لعطاء الخرساني لما ذكره الذهبي في الميزان عنه إذ قال[٢]: وثَّقه أحمد ويحيى والعجلي ويعقوب والدارقطني وابن أبي حاتم، والترمذي. وقال عنه الترمذي: روى عنه مثل مالك ومعمر، ولم أسمع من المتقدمين من تكلم فيه.

ثم قال الذهبي رحمه الله: والقول من ابن حبان (في عطاء) فيه نظر.اهـ. قلت: وعلى التسليم بضعف تلك الرواية لوهم عطاء فإن أهل العلم، ومنهم أحمد بن حنبل، قدموا الحديث الضعيف جداً عوضاً عن الضعيف على التفسير بالرأي. هذا والله أعلم.

الدليل العاشر: قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ**

(١) الاستيعاب لابن عبدالبر (١/ ١٧٩ برقم ٢١٣).

(٢) ميزان الاعتدال للذهبي (٣/ ٧٤-٧٥).

يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[1] فالآية توضح للموحدين المصدقين بمحمد ﷺ ألا يجري عليهم ما يجري على أهل الكتاب من التعنت والنكران، فأهل الكتاب كانوا يستعينون بالنبي المبعوث آخر الزمان ويستنصرون به، كما تقدم، فكان ببركة استعانتهم واستغاثتهم باسمه ﷺ يضع الله عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، أي يذهب عنهم مصائبهم ويرفع عنهم كربتهم ببركة النبي الأمي المبعوث آخر الزمان، ولكن حين بُعث كفروا وأنكروا حسداً واستكباراً، فالمسلمون أولى بالاستعانة بالرسل والأنبياء والأولياء ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾[2]، ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[3] لقد نفى الحق سبحانه الشرك عن من يعظم شعائره ونعمه، وعند أهل الزيغ يرون أن التعظيم لا يجوز إلا لله والفارق دقيق جداً، فالله سبحانه يقول: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾[4] أي حق الأمر لا حقائقه، فالحق له حقائق

---

(١) من سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

(٢) من سورة الحج، الآيتان: ٣٠-٣١.

(٣) من سورة الحج، الآية: ٣٢.

(٤) من سورة آل عمران، الآية ١٥٤.

والحقائق مستمدة وممدة والحق ممد غير مستمد لأنه الفعال لما يريد.
وقد بسطت القول في هذا في المقدمة فلتنظر.

الدليل الحادي عشر: يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾(١).

إن الحق سبحانه وتعالى أبرز حقيقة إيمانية للمتقين، ومكرمة عظيمة في التقويم لمن يتقي ويصبر، محظيٌّ منه سبحانه بمنتين من مننه، وحنانين من حنانه، وعطيتين من عطيته وكفلين من رحمته وأمانين من أمانه، فالصديق من هذه الأمة حائز من رسول الله ﷺ تلك المنة، فالكفلان هنا في الآية هما الجاهان، والرحمة هي محمد ﷺ.

فمن صدق في إيمانه حاز ذينك الكفلين فكان على نورٍ من ربه،وحقق له سبحانه بتلك السعادتين فرقاناً لقوله تعالى: ﴿**إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا**﴾(٢)، أي: قرَّ في قلبه قرآناً، وظهر على لسانه فرقاناً شريعة غراء.

---

(١) من سورة الحديد، الآية: ٢٨- ٢٩.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٩ .

ثم أوضح الحق سبحانه أن فضله بيده وليس بيد أحد، وليس هو حكراً على أحد، بل يهبه لمن يشاء، فليس هو خاصاً بأهل الكتاب، بل لمن يشاؤه هو سبحانه، وأن ذلك الفضل - أي: ذلك الجاه - يهبه الله ويؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

أي أن ذلك الفضل مكتسب من فضله سبحانه، وأن ذلك الجاه مكتسبٌ من جاهه سبحانه. فحقيقة الفضل لله (أي أصله) وحقيقة الجاه لله (أي: أصله) وحين عبر سبحانه (بالعظيم) يعني أن شؤون العالمين مقهورة تحت شأنه سبحانه، وفضائل العالمين مقهورة تحت فضله سبحانه، إذ هو ذو الفضل العظيم.

فمن كان له ذلك الفضل المكتسب لا جرم أن يكون من أهل القرب والزلفى، فهو حقيق بأن يتوسل به ويستغاث به إلى الله سبحانه وتعالى، فالكفلان إذاً هما المكانة والجاه، فلا جاه بلا مكانة ولا مكانة بلا جاه، فمن أنكر المكانة أنكر الجاه، ومن أنكر الجاه استخف بالمكانة، فأولياء الله هم من أكرموا من الله بذينك الكفلين وتلكما المنتين، لقوله سبحانه ﴿ **فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** ﴾[1] فهما حقيقتان لا تنفكان، ومنكرهما جاهل أحمق لا يعي ما يقول.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.

فكلمة﴿ رَفِيقًا ﴾توضح عظيم ذات المصطفى ،إذ أن كل ما مر في الآية من المصطفين الأخيار مرتبين في الآية على ذلك الرفيق ﷺ ، ولذا قال ربيعة بن كعب الأسلمي لرسول الله ﷺ حينما سأله النبيﷺ : سل تعط، قال: أسألك مرافقتك في الجنة، فمكانة الأنبياء والصلحاء قائمة على ذات المصطفىﷺ إذ بمرافقتهم له نالوا تلك المكانة وسعدوا من سر تلك الشهادة، وخص الله أمة الإسلام بتلك الخصوصية من دون الأمم ليكونوا شهداء على الناس، أي أماناً للناس، والرسول عليهم شهيداً، أي أميناً.

ولذا ناسب قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[1] فمن كان له قلب أي من عموم المسلمين في كل الأمم ممن صدَّق بالمرسلين والنبيين، أما من ﴿ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ فهم أمناء الله على خلقه من النبيين والصديقين كما في الآية المتقدمة ممن شهد بالحق وصدق به، أي شهد المواثيق (مواثيق الإقرار والاجتباء والاصطفاء والابتلاء) والله أعلم.

الدليل الثاني عشر: ﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ

---

(1) سورة ق، الآية: ٣٧.

وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُربَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

ذكر الآلوسي في تفسيره[2] ما معناه:

قوله: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ أي غرامة وخسراناً: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾... ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ﴾ بمعنى التقرب والمراد اتخاذ ذلك سبباً للتقرب ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ عطف على ﴿قُرُبَاتٍ﴾ أي وسبباً لدعائه عليه الصلاة والسلام، فإنه كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم، وجوِّز عطف ﴿صَلَوَاتِ﴾ على ﴿مَا يُنفِقُ﴾ أي: يتخذ ما ينفق وصلوات الرسول عليه الصلاة والسلام قربات ﴿إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ شهادة لهم من جناب الله تعالى بصحة ما اعتقدوه وتصديق لرجائهم ثم قال: والاقتصار على بيان كونها قربة لهم لأنها الغاية القصوى وصلوات الرسول عليه الصلاة والسلام من ذرائعها.

قلت: لقد بين الحق سبحانه وتعالى في هذا النص القرآني الكريم كما علمنا من النصوص المتقدمة في سوق الأدلة في هذا

(١) من سورة التوبة، الآيات: ٩٨-٩٩.

(٢) روح المعاني (١١ / ٥ - ٧)

الكتاب من عقد المقارنة بين القربات المشروعة وغير المشروعة، والفرق بين حلهما وحرمتهما كالفرق بين البيع والربا، فقد ذكر الحق سبحانه وتعالى صنيع الأعراب الكافرين والمؤمنين في تحقيق مراميهم عن طريق القربات، فقربات الكافرين قربات باطلة لأنها قربات غير مشروعة، ملؤها الهوى والفوضى، أما القربات المشروعة فهي قربات مقررة، ذات ضوابط شرعية محددة، أذن الله بها لما فيها من كبح النفس، وسوقاً إلى اليقين الذي يبتغيه رب العالمين للمؤمنين، لأن داعية اليقين تتطلب براءة من الأنا والادعاء، لذا كان سر توجيه الهدي النبوي إلى الأخذ بالوسائل مع الاعتماد على مُقرر الوسائل والاعتقاد بأن الوسائل لا تمتلك ضراً ولا نفعاً لذاتها ولكن الأخذ بها طاعة لله وامتثالاً لأمره لما تقتضيه الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لأن ترك الأسباب سائق إلى الدعوى والأنا والفرعنة الشيطانية التي تفضي إلى الضلال والكفر بنعم الله، تلك التي أضلت إبليس اللعين، فقد ذكر سبحانه القربة الصالحة بعد أن تحدث عن القربة الطالحة تنبيهاً للمسلمين وإيذاناً منه بمعرفة طريق المتقين فقال: ﴿**وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ**﴾ أي يؤمن بما شرع الله من توقير الأسباب بمقتضى ما أمر الله به فيتخذ ما ينفق قربات عند الله أي وسائل لنيل محاصل وبلوغ منازل، ثم عطف بعد ذلك ببيان المتسبب بصنيع الخير بجميع صوره، ليعلم أن فعله هذا ليس من أجل النبي ﷺ ولو أنه قدمه

لرسول الله فلم يأت بفضيلة تحسب على رسول الله ﷺ بل إن الرسول هو المتفضل على هذه الأمة حيث إن صلاته قربة لكم فلم يبق لكم أدنى فضل على رسول الله، وكما ثبت في الحديث أنّ الدعاء لا يرتفع حتى يصلى على رسول الله ﷺ[(١)].

وقال أيضاً: «لا تجعلوني كقدح الراكب»[(٢)] فإذاً صلاة النبي ﷺ وعمله قربة للمؤمنين وهذا خبر من الحق لنا بأن هذا العمل لم نقم به فكيف يجعله الله قربة لنا، والمعلوم بالنص القرآني ﴿ **وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ** ﴾[(٣)] وقوله: ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ** ﴾[(٤)] فهل هناك تعارض في آي الكتاب؟ حاشا، إلا لمن سقم فهمه وضل عقله، فالآية فيها دلالة عظيمة؛ أن أعمال المؤمنين تنفع بعضهم بعضاً، وكما في الهدي النبوي: «ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك ولك بمثلٍ»[(٥)].

وكذلك إذا تصدق بصدقة فينال أجر الصدقة من أمر بها ومن استلمها ومن سلمها وفضل الله أعظم، فالشاهد أن عمل الرسول

---

(١) رواه الترمذي برقم (٤٨٦) موقوفاً على سيدنا عمر رضي الله عنه.

(٢) رواه عبدالرزاق في مصنفه (٢/٢١٥) والبيهقي في الشعب (٢/٢١٦)، وعبد بن حميد في مسنده (١/٣٤٠) وعزاه الهيثمي (١٠/١٥٥) للبزار، وضعفه.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٣.

(٤) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٥) رواه مسلم برقم (٢٧٣٢).

قربة وهو دليل قوي بأن القربة نافعة كانت من الرسول أو من العبد الصالح، إذ أن العبد الصالح بركة على أهله ولو لم يكونوا محسنين فإن الرحمة تشملهم بحسن تدبير الله وتقديره، وكذلك صلاة المؤمنين على المصطفى كما مرّ قربة للمؤمنين أيضاً في قبول الله لعبادتهم ودعائهم وطاعاتهم. والله أعلم.

وفي الآية إعجاز ظهر لنا في هذا الزمن وذلك بخروج أناس من المسلمين يزعمون أن أعمالهم تقربهم إلى الله زلفى دون حاجة لواسطة والله سبحانه وتعالى يعلم حالهم ومقالهم ولذا بكّتهم في هذه الآية حين ختمها بقوله سبحانه: ﴿ **وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ** ﴾ علماً بأن المعنى قد تمَّ لها فالواو واو العطف فيشعر هذا الإلزام بضرورة التوسل بخير الأنام وأن الأعمال ترفع إليه وترفع به، فهو المزكي لها لذا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ** ﴾ فسبحان من جعله واسطة لقبول المآرب وتحقيق المطالب.

الدليل الثالث عشر: قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[١].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٨.

المعنى: ليست الملائكة هي التي تحمل تلك البقية، أي التركة من جبة ونعال وعصى لموسى عليه السلام ولكن أن تلك الآثار تحفها الملائكة فكل من تبرك بتلك الآثار حفته الملائكة، ونالته الرحمة من الملائكة بسبب ذلك الأثر، فالأثر وسيلة من وسائل التقرب إلى الله.

وكما أن الأمور الخبيثة - كأماكن الخلاء - تحفها الشياطين، كذلك معاطن الإبل حيث نهى الشرع أن يُصلى فيها، وكذا آثار الأشرار كفرعون وهامان وغيرهما التي يتخذها السحرة قربة يتقربون بها إلى الشيطان، فكذلك الآثار الرحمانية تحفها الملائكة حيث يتقرب بها إلى الرحمن. وعبر بكلمة «تحمله الملائكة» بدلاً من «تحفه الملائكة» ذلك لأن الحمل يفيد استغراق الملائكة في ذلك الأثر أي أن لله ملائكة موكلة بآثار الصالحين كما أن الحفظة موكلون بحفظ بني الإنسان لقوله تعالى: ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾[1] وللمؤمن ملائكة موكلون لحفظه دون الناس لقوله سبحانه: ﴿ **تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا** ﴾[2] كما أن الضالين والكافرين تتنزل عليهم الشياطين لقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا** ﴾[3] أما

(١) سورة الرعد، الآية: ١١ .

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٠ .

(٣) سورة مريم، الآية: ٨٣ .

السنة النبوية الشريفة فقد جاءت فيها آثار كثيرة توضح ذلك فمما جاء في المؤمن قوله ﷺ: « ....وما لو وكِّل العبد فيه إلى نفسه طرفة عين خطفته الشياطين »[1] فتأثر ذلك الأثر بصاحبه الصالح بكثرة تنزل الملائكة والأرواح الصالحة تحصل له ما تحصل لمرتاديه، وبارك سبحانه في المسجد الأقصى وما حوله قال تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ** ﴾[2]، أضف إلى ذلك أن الروح متعلقة بمتعلقاتها في موطن مولد جِرمِها (جسدها) وفيما تعلق به من تبعات فإن كانت خيّرة أضفت خيراً وإن كانت سيئة أضفت سوءاً.

الدليل الرابع عشر: قوله تعالى: ﴿ **وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ** ﴾[3] أي أيده بالواسطة (جبريل عليه السلام).

وقال أيضاً سبحانه وتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾[4] لقد أوضح سبحانه في هاتين الآيتين أثر

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٦٧/٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠٩/٧): فيه عفير بن معدان وهو ضعيف.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٤) سورة البقرة، الآيتان: ٢٧٨-٢٧٩.

الواسطة الحقة ومنزلتها ومكانتها عنده سبحانه فلم يفصل بينه وبينها بأدنى فاصل بل أنزلها منزلة تأثيره وإعماله فحربه سبحانه هو الحق، وحرب الرسول ﷺ هي حقيقة ذلك الحق حيث إنه لم يعبر بلفظ يفيد العمل الصالح من الألفاظ المعلومة كالهداية وما في معناها ولكنه عبر بالاسم الذي هو علم على الذات (الرسول) تأكيداً منه سبحانه على أهمية ذات النبي ﷺ. ولو أن الذات ليست ذات أهمية ولا ذات أثر لعبر بلفظ من ألفاظ الذات التي هي عرضة للنقلة وقد انتقل النبي ﷺ إلى جوار ربه. إذاً لما عبر بلفظ الرسول الدال على حقيقة الذات أكد جزماً أن الذات لها أثر قوي في التأثير حيث إنها مورد المعاني والصفات، وكل معنى أو حقيقة متسمة بذاته ومستمدة قوة تأثيرها من قوة ذاته، وذات كل مخلوق هي روحه على أرجح الأقوال، وقيل نفسه لمن قسم الروح إلى نفس (مثال وانفعال) أي مثال ونفث من روح الله ، وعلى كلا الاعتبارين فالروح باقية لا تفنى والجسد مظهر من مظاهرها ومجلى من مجلاها في عالم الشهود أي في عالم التكليف. فمن اقترف جريمة المراباة فقد حارب الحق سبحانه وحارب حقيقة الحق ﷺ. فهو ظالم لنفسه. وهذه الآية من أجلى آيات تقرير قوة الذات الصالحة وقوة أثرها وتأثيرها فليس بعد هذا إلا الضلال البعيد، فمحاربة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هي محاربة الله سبحانه.

كما عبر عن الطاعة ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[1] فمن لم يعتبر الذات بهذه المنزلة ضل ضلالاً بعيداً ووقع في شَرْك الالتباس والبلوى، نعوذ بالله من أحوال أهل الضلال، فمن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، ومن لم يهد الله قلبه فما له من هاد والله ولي العباد.

الدليل الخامس عشر: قال تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[2].

قال ابن عجيبة في تفسيره[3] عن هذه الآية: « ... أو لولا أن الله يدفع بأهل الطاعة والإحسان عن أهل الغفلة والعصيان، لفسدت الأرض بشؤم أهل العصيان. وفي الخبر عنه صلى الله عليه وآله وسلم: (إن الله يدفع بالمصلي من أمتي عمن لا يصلي، وبمن يزكي عمن لا يزكي، وبمن يصوم عمن لا يصوم، وبمن يحج عمن لا يحج، وبمن يجاهد عمن لا يجاهد، ولو اجتمعوا على ترك هذه الأشياء ما أنظرهم الله طرفة عين).

وفي حديث آخر: (لولا عباد لله ركع، وصبية رضع، لصب عليكم العذاب صباً) وروى جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠ .

(٢) من سورة البقرة، الآية: ٢٥١ .

(٣) تفسير ابن عجيبة ١ / ٢٨٠ .

ﷺ: (إن الله ليصلح بصلاح الرجل ولده، وولد ولده،وأهل دويرته، ودويرات حوله، ولا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم). انتهى .

فهذا من فضل الله على عباده يصلح طالحهم بصالحهم، ويشفع خيارهم في شرارهم، ولولا ذلك لعوجلوا بالهلاك، ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ .

وقال ابن عطية الأندلسي في تفسيره[1]: قال مكي: وأكثر المفسرين على أن المعنى : لولا أن الله يدفع بمن يصلي عمن لا يصلي وبمن يتقي عمن لا يتقي لأهلك الناس بذنوبهم .

وقال أبو الحسن النيسابوري في تفسيره[2]: وقال سائر المفسرين : لولا دفع الله بالمؤمنين والأبرار عن الكفار والفجار لفسدت الأرض بمن فيها . يدل على هذا ما أخبرنا منصور بن عبدالوهاب البزار، حدثنا أبو عمرو محمد بن أحمد الحيري، حدثنا محمد بن المسيب، حدثنا أبو حميد الحمصي، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا حفص بن سليمان، عن محمد بن سوقه، عن وبرة بن عبدالرحمن، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيت من جيرانه البلاء »ثم قرأ ابن عمر﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ** ﴾الآية .

---

(١) المحرر الوجيز ٢ / ٣٧٢ .

(٢) الوسيط ١ / ٣٦١ .

وذكره مثله ابن جرير الطبري[1] .

وقال الإمام السيوطي في الدر المنثور[2] : أما قوله تعالى : ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ الآية ... أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ الآية، قال: يدفع الله بمن يصلي عمن لا يصلي، وبمن يحج عمن لا يحج، وبمن يزكي عمن لا يزكي، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ﴾ ولولا دفاع الله بالبر عن الفاجر، ودفعه ببقية أخلاق الناس بعضهم عن بعض لفسدت الأرض بهلاك أهلها.

قال العلامة عبدالله بن الصِّديق الغماري رحمه الله تعالى في التعليق على المقاصد الحسنة (ص٣٤): «وللحافظ السيوطي كتاب (الخبر الدال على وجود النجباء والأوتاد والأبدال) أثبت فيه تواتر أحاديث الأبدال، وإن لم يسلم له التواتر، فالحديث صحيح جزماً خلافاً للمؤلف ـ أي السخاوي ـ، ومن طرقه حديث أم سلمة عند أبي داود بإسناد على شرط الصحيحين، رواه في باب المهدي من كتاب الملاحم»[3] . اهـ.

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري ٥ / ٣٧٤.

(٢) الدر المنثور ١ / ٧٦٤.

(٣) وفيه: «فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال الشام وعصائب أهل العراق يبايعونه بين الركن والمقام...». انظر سنن أبي داود رقم (٤٢٨٦)، والشذا الفواح ص٩١- ٩٢ .

وفي القول المسدد ما نصه: «ذكر الأبدال ورد في مسند الإمام أحمد[1]، قال: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان بن شريح بن عبدالله، قال: ذكر أهل الشام علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو بالعراق، فذكر الحديث المتقدم، وقال عقبه: رجاله رجال الصحيح، غير شريح وهو ثقة»[2].

قال السيوطي في «النكت البديعات على الموضوعات»: خبر الأبدال صحيح فضلاً عما دون ذلك وإن شئت قلت: متواتر، وقد أفردته بتأليف استوعبت فيه طرق الأحاديث الواردة في ذلك. . . .

وأخرج أحمد في الزهد والخلال في كرامات الأولياء بسندٍ صحيح عن ابن عباس، قال: ما خلت الأرض من بعد نوح من سبعة يدفع الله بهم عن أهل الأرض. . . .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ: «لا يزال أربعون رجلاً من أمتي قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام يدفع الله بهم عن أهل الأرض يقال لهم: الأبدال، إنهم لم يدركوها

---

(١) مسند أحمد (١/ ١١٢)، وفيه قول سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «الأبدال يكونون بالشام وهم أربعون رجلاً كلّما مات رجلٌ أبدل الله مكانه رجلاً يُسْقى بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب». وقال السيوطي في اللالئ المصنوعة (٢/ ٣٣٢): وسنده حسن.

(٢) ذيل القول المسدد لمحمد صبغة الله (٨٣-٨٤)، وانظر نحوه في المقاصد الحسنة (ص٣٣).

بصلاة ولا بصوم ولا بصدقة، قالوا: يا رسول الله فبمَ أدركوها؟ قال: بالسخاء والنصيحة للمسلمين»[1].

وقال الرازي[2]: ولولا دفع الله بالمؤمنين والأبرار عن الكفار والفجار، لفسدت الأرض ولهلكت بمن فيها، وتصديق هذا ما روي أن النبي ﷺ قال: «يدفع بمن يصلي من أمتي عمن لا يصلي، وبمن يزكي عمن لا يزكي، وبمن يصوم عمن لا يصوم، وبمن يحج عمن لا يحج، وبمن يجاهد عمن لا يجاهد، ولو اجتمعوا على ترك هذه الأشياء لما أنظرهم الله طرفة عين ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية، ومما يدل على صحة هذا القول من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا**﴾[3]، وقال تعالى: ﴿**وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ**﴾[4] إلى قوله: ﴿**لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾[5]

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/١٨١) رقم (١٠٣٩٠). وانظر عن هذا الحديث وطرقه: المقاصد الحسنة (رقم ٨)، اللآلئ المصنوعة (٢/٣٣٠-٣٣٢)، الحاوي للفتاوي (٢/٤١٧)، تنزيه الشريعة (٢/٣٠٦-٣٠٧)، مجموع رسائل ابن عابدين (٢/٢٦٤-٢٨١).

(٢) تفسير الرازي (١/٢٠٥).

(٣) سورة الكهف، الآية: ٨٢ .

(٤) سورة الفتح، الآية: ٢٥ .

(٥) نفس، الآية السابقة.

وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[1] ومن قال بهذا القول قال في تفسير قوله ﴿لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾[2] أي: لأهلك الله أهلها لكثرة الكفار والعصاة.

وقال ابن عاشور في تفسيره[3]: فخلق الله تعالى أسباب الدفاع بمنزلة دفع من الله يدفع مريد الضر بوسائل يستعملها المراد إضراره، ولولا هذه الوسائل التي خولها الله تعالى أفراد الأنواع، لاشتد طمع القوي في إهلاك الضعيف، ولاشتدت جراءة من يجلب النفع إلى نفسه على منافع يجدها في غيره، فابتزها منه، ولأفرطَتْ أفراد كل نوع في جلب النافع الملائم إلى أنفسها بسلب النافع الملائم لغيرها، مما هو له، ولتناسى صاحب الحاجة، حين الاحتياج، ما في بقاء غيره من المنفعة له أيضاً، وهكذا يتسلط كل ذي شهوة على غيره، وكل قوي على ضعيفه، فيهلك القوي الضعيف، ويهلك الأقوى القويَّ، وتذهب الأفراد تباعاً، والأنواع، وذلك شيء قليل، حتى إذا بقي أعوزته حاجات كثيرة لا يجدها في نفسه، وكان يجدها في غيره: من أفراد نوعه، كحاجة أفراد البشر بعضهم إلى بعض، أو من أنواع أخر، كحاجة الإنسان إلى البقرة، فيذهب هدراً.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٣ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥١ .

(٣) التحرير والتنوير ٢/٥٠٢.

الدليل السادس عشر: قال تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾[1].

قال ابن عجيبة في تفسيره:

(كهيعص) قيل: هي مختصرة من أسماء الله تعالى، فالكاف من كافٍ، والهاء من هادٍ، والياء من يمين، والعين من عليم أو عزيز، والصاد من صادق. قاله الهروي عن ابن جبير.

قال أبو الهيثم: جعل الياء من يمين، من قولك: يَمُنُّ الله الإنسان ييمنُهُ يَمناً فهو ميْمون .اهـ. ولذا ورد الدعاء بها، فقد رُوي عن علي ـ عليه السلام وكرم الله وجهه ـ أنه كان يقول: (يا كهيعص أعوذ بك من الذنوب التي تُوجب النقم، وأعوذ بك من الذنوب التي تغير النعم، وأعوذ بك من الذنوب التي تهتك العِصَم، وأعوذ بك من الذنوب التي تحبس غيث السماء، وأعوذ بك من الذنوب التي تُديل الأعداء، انصرنا على من ظلمنا)[2].

كان يقدم هذه الكلمات بين يدي كل شدة. فيحتمل أن يكون توسل بالأسماء المختصرة من هذه الحروف، أو تكون الجملة، عنده، اسماً واحداً من أسماء الله تعالى، وقيل: هو اسم الله الأعظم.

---

(١) سورة مريم: ١-٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٦/ ٤٤ مختصراً. ورواه بنحوه ابن أبي الدنيا في الفرج، وابن النجار، كما ذكر المتقي الهندي في كنز العمال (٢/ ٦٥٦).

ويحتمل أن يشير بهذه الرموز إلى معاملته تعالى مع أحبائه، فالكاف كفايته لهم، والهاء هدايته إياهم إلى طريق الوصول إلى حضرته، والياء يُمنه وبركته عليهم وعلى من تعلق بهم، والعين عنايته بهم في سابق علمه، والصاد صدقه فيما وعدهم به من الإتحاف والإكرام. والله تعالى أعلم.

وقيل: هي مختصرة من أسماء الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أي: يا كافي، يا هادي، يا ميمون، يا عين العيون، أنت صادق مصدق. وعن محمد بن سلطان تلميذ أبي الحسن الشاذلي ـ رضي الله عنهما: أنه رأى في منامه أنه اختلف مع بعض الفقهاء في تفسير قوله: (كهيعص. حم. عسق)، فقلت: هي أسرار بين الله تعالى وبين رسوله ﷺ، وكأنه قال: « كاف »، أنت كهف الوجود، الذي يؤم إليه كلٌّ موجود، « ها »، هبنا لك الملك، وهيأنا لك الملكوت، « يع »، يا عين العيون، « ص »، صفات الله ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾[1]، « حاء » حببناك، « ميم »، ملكناك، « عين » علمناك، « سين »، ساررناك، « قاف »، قربناك. فنازعوني في ذلك ولم يقبلوه، فقلت: نسير إلى النبي ﷺ ليفصل بيننا، فسرنا إليه، فلقينا رسول الله ﷺ، فقال لنا: الذي قال محمد بن سلطان هو الحق. وكأنه يشير إلى أنها صفات أفعال[2]. اهـ.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠ .

(٢) تفسير البحر المديد لابن عجيبة ٣/٣١٧ .

قال الدكتور عبد الرب النظاري: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[1] هي ذكر رحمة الله لعبده زكريا بنص القرآن، وهي خصوصية لسيدنا زكريا عليه السلام حيث أبرز الحق سبحانه له طرفاً من تلك الرحمة العامة المهداة لجميع العالمين، فكانت هي الذكر الخاص الذي نزلت به عليه الرحمة، فرسول الله ﷺ محل القبول وتنزل الرحمة على سيدنا زكريا عليه السلام أو المضطرين من عباد الله. اهـ.

قلت: إن المولى سبحانه وتعالى افتتح هذه الآيات، ذاكراً لنبيه ﷺ رحمته العظمى؛ وقصته من أول نشأته، والأطوار التي تنقلت فيها روحانيته ﷺ فيشيد بذكرها في آبائه وإخوانه من النبيين والصديقين، فيذكرها في زكريا ويذكر آثار تلك الرحمة في عبده يحيى حين حكى عنه بقوله الحكيم: ﴿**يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا**﴾[2].

فقد حفظ الله ببركة تلك الرحمة على يحيى آثارها فيه فقال: ﴿**وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا**﴾[3] أي: أمان وضمان له على ما آتاه الله من بركة وحنان ورحمة، يوم مولده ويوم

---

(١) سورة مريم، الآية: ١ .

(٢) سورة مريم، الآيات: ١٢-١٤ .

(٣) سورة مريم، الآية: ١٥ .

موته ويوم بعثه، فهو غوث يستغاث به في الحياة وبعد النقلة، فما أعظم مكانته عند الله، تلك التي حفظت له قدره في عوالمه، فهو مستغاث المؤمنين وملجأ الطالبين.

ثم سرد الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك قصة عيسى، وتنقل آثار تلك الرحمة فيه كذلك فقال: ﴿ **قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا** ﴾[1]، إلى أن قال سبحانه: ﴿ **وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا** ﴾[2].

فهذه الآية تؤكد على ما سبق ذكره في شأن يحيى، فهذا عيسى ابن مريم كونه آية من آيات الله استوجب أن يكون رحمة كذلك، وليست رحمة واردة عليه من مخلوق يماثله، ولكنها رحمة من مسبب الأسباب الرازق الوهاب، أبان هذه المعاني الحق على لسان عيسى ﴿ **وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا** ﴾ أي: أن الرحمة استلزمت البركة فالمكانة استولدت الرحمة، والرحمة استولدت البركة.

وهذه البركة غير مقتصرة على حياته، بل أينما كنت أي في حياتي ويوم مماتي ويوم بعثتي حياً، لذا قال بعد هذه الآيات:

---

(١) سورة مريم، الآية: ٢١ .

(٢) سورة مريم، الآيات: ٣١-٣٣ .

﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ﴾ أي الأمان لي والمكانة محفوظة لي يوم ولادتي ويوم موتي ويوم بعثي، ثم أجاب الحق سبحانه بقوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾[1] فإذا كان عيسى بن مريم كذلك فما حال النبي ﷺ الذي قال الحق في حقه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[2].

لا شك أنها رحمة من الله مسداة يتفاوت فضلها بصاحب كل مقام بما آتاه الله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

فما يحيى وعيسى وموسى وغيرهم من النبيين إلا نوابه ﷺ كما قرر ذلك أهل العلم أمثال الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي[3]، والشيخ المحدث الإمام المقريزي، مستدلين بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[4] حيث قال الشيخ الأكبر قدس سره: وهداهم من الله هو شرعه ﷺ، أي الزم شرعك الذي ظهر به نوابك (الأنبياء) من إقامة الدين، ولا تتفرقوا فيه، فلم يقل: فبهم اقتده.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٣٤ .

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧ .

(٣) الفتوحات المكية ١ /١٣٥ .

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٠ .

وذكر مثل ذلك الإمام المقريزي في كتابه: إمتاع الأسماع، وقد بسطت القول في كتابي: رسائل السلام في التعريف بدين الإسلام[1].

الدليل السابع عشر: قال تعالى: ﴿**أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ**﴾[2].

بيّن هذا الهدي الكريم أن للمؤمنين قدم صدق، قيل: معناه: «أن لهم سابق صدق في اللوح المحفوظ من السعادة»، كما ذكره الطبري في تفسيره[3].

وقيل: «سلف صدق» كما في الدر المنثور للسيوطي[4].

ونقل صاحب زاد المسلم (٥ / ١٨٩) قول الداودي: «المراد بالقدم قدم صدق وهو محمد ﷺ إشارة بذلك إلى شفاعته وهو المقام المحمود... انتهى.

قلت: وبذا فقدم الصدق هي المكانة والمنزلة والجاه، فمن كان له مكانة وجاه ومنزلة عند الله فهو أولى بتقرب المؤمنين به عند الله،

---

(١) رسائل السلام في التعريف بدين الإسلام ص١٤٤.

(٢) من سورة يونس، الآية: ٢.

(٣) تفسير الطبري ٧ / ١٠٩.

(٤) الدر المنثور للسيوطي ٤ / ٣٤١.

وهذه الآية أوضحت بالدليل القاطع أن الوجاهة تتطلب المكانة والمنزلة، وكأن الحق سبحانه يعرف المتقين أن المكانة للمتجوه به ذو أهمية بالغة ولذا قال سبحانه في آخر سورة التوبة ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾[1] يعرف الحق سبحانه وتعالى بمكانة النبي من المؤمنين أي أنه أولى بهم من أنفسهم كما قال سبحانه في آية أخرى... ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾[2]، والتعبير بـ ﴿ **أَنفُسِكُمْ** ﴾ تعبير بليغ يدحض به الحق سبحانه كل (أنا) ويقول للعبد: إن رسولي هو أولى بكم من أنفسكم إن كان في أنفسكم مكانة لكم، فهذا النبي المكين الأمين ذو المنزلة العظيمة أولى وأحق بكم فلا تدعوا أدنى شك في الاعتماد والاتكال عليه في شؤونكم بعد تفويض أموركم يقيناً إلى بارئكم، إذ هو الأمين على صدقكم والحريص على صلاحكم وتقواكم، رغم شقاوتكم وبلواكم، تلكم الشقاوة التي تغفل القلب وتعطل الفكر من التحسس بتلك المنزلة النبوية فإن تحصّل ذلك وهو واقع في الأمة كما هو في علم الله، فإن الله أمره أن يستمر بمقام الرحمة عليهم كما هو مقامه ﷺ، ويستغفر لهم الله كما في قوله: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ**

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨ .

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦ .

الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾[1] وكما هي الإشارة في ختم هذه الآية ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾[2] أي أفوض أمري إلى الله فالله يتولى أمركم إن شاء رحمكم وإن شاء عاقبكم لأن التقدير تقديره سبحانه والتدبير تدبيره، وتشعر هذه الآية بشفقة النبي على أمته بأن يسعدهم ولا يشقيهم حيث أن النبي ﷺ إن تحسّب لهم نالوا المغفرة بحسبلته فهذا الإيحاء الكريم يعضد ما قاله جمهور المفسرين بأن آية استغفار الرسول تفيد العموم، وإذا كان النبي استغفر لهند بنت عتبة وغيرها ممن عتا واستكبر ثم أسلم واستغفر لا شك أن المغفرة للأمة مدخرة عند كاشف الغمم ﷺ، كل ذلك تمهيداً بأن تأتي سورة يونس لتنوه في مطلعها بهذه الحقيقة فقالت: ﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا... ﴾[3] الآية. أي أن تلك آيات وبينات ودلالات حواها الكتاب الذي حواه قلب سيدنا محمد ﷺ دالة على رفعة شأنه وعظيم قدره وأنه ذو الوجاهة والمنزلة.

ثم قال سبحانه: ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[4] فيا له من إنذارٍ عقبته بشرى، أرسل رسله منذرة ومبشرة، منذرة من عواقب مخالفة

(١) سورة النساء، الآية: ٦٤ .

(٢) سورة التوبة، من، الآية: ١٢٩ .

(٣) سورة يونس، الآيتان: ١-٢ .

(٤) سورة يونس، الآية: ٢ .

أمره، ومبشرة من أطاعه ولم يصر على معصيته بل آب إلى ربه وحاسب نفسه حتى ختم الله له بالحسنى فاللطيفة التي جمعت النذارة والبشارة إرشاد من الحق بأن المؤمنين الصادقين لولا سابقة السعادة أي القدم التي لهم عند الله، أي لولا المنزلة التي لهم عند الله لما أتحفوا بالعناية وأكرموا بالرعاية كما قال عليه الصلاة والسلام في شأن أهل بدر: «وما أدراك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[1] فإذن المنزلة لها أثر خطير على وجاهة العبد فلولا سابقة العناية أي المنزلة والمكانة لما أتحف الصديقون بتلك الوجاهة التي هي الهداية ومن كان ذو مقام وذو وجاهة أولى بالتجوه. والله تعالى أعلم

وهذا يرد به على من قال بأن دعاء النبي ﷺ ومكانته تنفع النبي نفسه فقط، كيف والله أخبر: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ**﴾[2] فسقطت كل الاعتراضات التي تميز ما للنفس وما للرسول، فالرسول أولى بالمؤمنين من أنفسهم، بل أن الحق سبحانه يحضنا على ذلك التصور لاستجلاء تلك الحقيقة التي عبر عنها بقوله سبحانه ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ**﴾[3] أي ينبغي على

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٨١)، ومسلم (٢٤٩٤).

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦ .

(٣) سورة الحجرات، الآية: ٧ .

العبد التخلق بالأخلاق النبوية حساً ومعنىً حقاً وحقيقة اتباعاً وحباً وتعلقاً حتى تفنى نفسه فلا يبقى للنفس والأنا وجود بل النفس نفس سيدنا محمد ﷺ والهوى هوى سيدنا محمد ﷺ والخلق خلق سيدنا محمد ﷺ، يكون عبداً حقيقاً وجديراً بالميراث النبوي والخلافة الربانية للإنسانية.

الدليل الثامن عشر: قال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ**﴾[1].

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير[2] عند قوله تعالى: ﴿**فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ**﴾:

«هي في موضع الحال من اسم الإشارة أي كائنين في أصحاب الجنة حينما يتقبل أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم، لأن أصحاب الجنة متقبل أحسن أعمالهم، ومتجاوز عن سيئاتهم، وذكر هذا للتنويه بهم بأنهم من الفريق المشرفين كما يقال: أكرمه في أهل العلم... إلى أن قال رحمه الله: والوعد: مصدر بمعنى المفعول، أي: ذلك موعدهم الذي كانوا يوعدونه». اهـ.

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٦ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/ ٣٥-٦٣.

وقال صاحب الفواتح الإلهية[1] ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾: وبالجملة هم في أصحاب الجنة مصاحبون معهم آمنون فائزون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، إنجازاً لما وعد لهم الحق ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ في النشأة الأولى وبعد ما وصى به سبحانه من رعاية حقوق الوالدين، وما يترتب عليها من الفوز العظيم . اهـ.

قلت: إن هذه الآية من الآيات الجليلة التي توضح مقام أولياء الله ومنزلتهم عنده سبحانه، وأنهم بركة ورحمة على الناس، وأن الظالمين أنفسهم يتجاوز الله عنهم بشفاعة الأولياء وبركتهم ومكانتهم، فهم شفعاء لهم وللمذنبين من هذه الأمة، فلولا منزلتهم ومكانتهم وما في ذلك من الأهمية لما عبر بقوله سبحانه: ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ مثل ما قد مر معنا في قوله سبحانه: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ مما يؤكد أهمية المكانة للمتوسل به، وأن مكانته نافعة للبر والفاجر إذا حسن القصد، فمن باب أولى وأحرى مكانة الأنبياء والمرسلين، والنبي الخاتم أولى بذلك وأحق .

الدليل التاسع عشر: قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ

---

(١) الفواتح الإلهية ٢ / ٣٢٢.

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾[1].

إن هذه الآية الكريمة توضح فطرة الله في الوسيلة بين الناس، فتذكر أولاً سوق هذه المعاني من أول سورة الزمر والتأكيد على الدين الخالص، وسرد الحق سبحانه في هذه السورة مقدمات ومسلمات تمهيداً لهذه المعاني التي تضمنتها هذه الآية فقال سبحانه وتعالى في مطلع السورة مخاطباً نبيه ورسوله ﷺ: إن جبريل عليه السلام الذي نزل عليك بالرسالة بالقرآن العظيم إنما هو من الله العزيز الحكيم فأنعم بهذه الواسطة الحقة التي تحمل إليك الدين الخالص فاعبد الله مخلصاً له الدين ومن آمن معك لأنك الأمين على تلك النعمة حيث إن النعمة لم تأخذك عن المسار الذي وضعناه لك فأنت محفوظ عن التقول علينا، وكذلك حال جميع رسل الله ومن صدق مع رسل الله، أما من كذبوا فحكمهم عند الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون والله لا يهدي من هو كاذب كفار، ثم ذكر سبحانه خلق السموات والأرض وآيتي الليل والنهار والشمس والقمر تلك الآيات التي حفظت بقدرته من التألي على الله سبحانه، وذكر عدله في خلقه بأن خلقهم برهم وفاجرهم من نفس واحدة وأن عباده محفوظون بسابق سعادتهم، ثم بعد أن وضع تلك المقدمات ناسب أن يذكر سبحانه

---

(١) من سورة الزمر، الآية: ٨.

حقيقة الإنسان في التجائه إليه سبحانه إذا ما مسه ضر دعا ربه منيباً إليه غير مشرك به ثم إذا خوله نعمة أي وسيلة تنال بها النعم وتتحقق بها الفضائل ويرفع به السقم نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل تلك الوسيلة معوّله الوحيد في جلب المنافع ودفع المضار فنسي بذلك حقيقة الوسيلة ومصداقية التعامل بها لما اقتضته قدرة الله من تخويل نعمته جميع خلقه قبل بعث الرسل فحين فقدوا مصداقية حسن الأداء وضُيعت الأمانة في ذلك من تصيير الوسيلة عبادة أرسل الحق سبحانه على إثر ذلك الرسل ليضعوا للخلق قانون التعامل في عالم الأسباب القائم على الوسائل المشروعة التي تستوجب الشكر كما عناها بقوله: ﴿**وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**﴾[1] وشكر الوسيلة الأخذ بها بحسب ما قررته الشريعة فإذا ما تجاوز المتوسل القنطرة ضل وغوى ثم بين بعد ذلك أرباب الفطر السليمة عباده المتقين الذين يحسنون التعامل مع الوسيلة المشروعة فقال سبحانه: ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ**﴾[2] أي يرجو ربه بالوسيلة الصالحة التي أذن الله بها.

وإن التوسل بالنبيين، والمرسلين، والصديقين، وبعباد الله الصالحين: لمن أجل القربات إلى الله في ذلك، والحقيقة أن هذا العبد

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧ .

(٢) سورة الزمر، الآية: ٩ .

الصالح العابد القانت آناء الليل وأطراف النهار صاحب الدين الخالص: يرجو رضا مولاه برجاء رحمة مولاه، أي متوسلاً بهذه الرحمة، ولو أن التوسل شرك لما أسند الرجاء إلى الرحمة والمقام مقام فصل بين المتوسلين برحمة الله وبين المتخذين الوسائل آلهة يعبدونها من دون الله، وما ذلك إلا بياناً من الحق، أن الباطل مهما تشكل لا يلغي الحقائق التي أثبتها الحق سبحانه وتعالى وفطر الناس عليها. ولذا كان تعبير الحق عند قوله: ﴿ **ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا** ﴾[1]، تعبيراً في منتهى الدقة لأن من تجاهل حق الوسيلة التي كان يدعو الله بها وهي نعمة منه سبحانه.. فسوف يسوقه ذلك الجهل إلى الضلال والكفر، ولذا قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا** ﴾،فكانت هذه الآية صفعة لأولئك المتألِّينَ على الله في إنزال ما نزل في المشركين على الموحدين والخلط بين الحقائق دون اكتراث.

وبهذه الآية يرد الله سبحانه وتعالى على الظالمين الذين يشبهون الموحدين المتوسلين بالأنبياء والمرسلين وعباد الله بالمتوسلين بالوسائط الباطلة غير المشروعة التي لم يأذن الله بها، متجاهلين أمر المتوسلين الذين يعبدون الله بالدين الخالص ممتثلين أمر الله مُذعنين لله في ما عظم الله متذللين لله رغم طاعتهم متحققين في إيمانهم بما يتقربون به إلى الله معتقدين أن تلك الوسائل لا تملك محض النفع والضر ولكن

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٨.

تلك الوسائل تمتلك مظهراً من تلك الملكية بحسب واقع التجليات الرحمانية التي تكتسبها تلك الوسيلة في ذلك المقام حيث تكون في مقام الاعتبار فيتخذها الناس إماماً، فيُشهد الحق سبحانه بها، لا على أنها هي الغاية بل الغاية الفناء في حضرة الله سبحانه، وهي أقصى غايات مقام الإحسان وقد ذم الحق سبحانه ذلك التجاسر في القياس مع الفارق كما قال سبحانه: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ** ﴾[1]، ﴿ **الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ** ﴾[2] ثم مضى الحق سبحانه في هذه السورة الكريمة يتحدث عن هذه الحقائق ويذكر أمثلة في إبطال تلك المزاعم .

فذم سبحانه الذين أساؤوا فهم النعمة وحرفوا وبدلوا بها واتخذوها نداً، قال في حقهم على لسان نبيه مبرئاً المؤمنين من ذلك: ﴿ **قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** ﴾[3] .

ثم تحدث سبحانه عن لون من الأسباب الكونية المصونة من التغيير والتبديل منذ النشأة الأزلية وأعطاها قدرة فعل إحياء الأرض

---

(١) من سورة الزمر، الآية (٩) .

(٢) من سورة الزمر، الآية (١٨) .

(٣) من سورة الزمر، الآيتان: (١٤-١٥) .

وإنبات الزرع فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[1].

ثم عقب بعد هذه الآية أن حقيقة الواسطة والوسيلة لا تدركها القلوب القاسية فقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾[2].

ثم استرسل في ضرب الأمثال في اشتباه الأمر والتحذير من مغبة الوقوع في الشبهة حتى بلغ قوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[3].

أي خولناه وسيلة الشفاء والاستشفاء فنسي علواً واستكباراً وعماية وجهلاً، وظن أن الشفاء من الطبيب والدواء، والحقيقة أن الشفاء من الله وما الطبيب والدواء إلا سبب من الأسباب حاملين لسر الشفاء متوقف نجاحه على إذن الله سبحانه بالشفاء.

ثم اختتم هذه السورة بقول حاكياً عن عباده من المرسلين والنبيين والصديقين ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢١ .

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٢ .

(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٩ .

الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[1] نعم قد جعل الله الأرض وسيلة حرث للآخرة فسبحان الذي ابتدأ هذه السورة وفصل فيها بين الحق والباطل في معاني الوسيلة والواسطة الحقة وغير الحقة أي المشروعة وغير المشروعة وحذر من مغبة الخلط بين ما للمؤمنين وما للكافرين ذلك التحذير الذي وقع فيه أدعياء زماننا ممن يدعي منهج السلف الصالح وهو يخالف هدي القرآن الكريم بالخلط بين ما جاء في شأن الكفار الظالمين وما جاء في شأن المؤمنين الموحدين **﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ﴾**[2] وما أعظم تلك الجريمة من جريمة وما أعظم تلك البدعة من بدعة فإلى الله المشتكى والله يتولى الصابرين بغير حساب.

الدليل العشرون: قال الله تعالى: **﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾**[3] وقال أيضاً: **﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾**[4].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٤ .

(٢) سورة السجدة، الآية: ١٨ .

(٣) سورة البقرة، الآيتان: ٤٧–٤٨ .

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٣ .

قلت: بعد أن قرر الحق سبحانه وتعالى في هذه الأيات البينات ذكر نعمته لما لها من الدلالة على صدق ذكره مع أن الأصل في الذكر ذكره سبحانه كما في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[1]. ليقرر جلّت قدرته أن ذكر نعمته من أسمى الدلالات على صدق ذكره وخالص توحيده، ولما كان الأمر كذلك جاء التذكير بها واحدة تلو الأخرى مشعرة بمقتضاها فبدأ بأعظمها مِنّةً وفضلاً فقال سبحانه: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[2]. ومن أعظم النعم التي أنعم بها عليهم إعلامهم على لسان انبيائهم وإيراد ذلك في كتبهم الإيمان بالنبي المبعوث آخر الزمان وما ذلك إلا إعلامهم التقرب من الحاضر بالغائب والتوسل به بعد أن عرفوا جواز التوسل والتقرب بالحاضر أي بأنبيائهم ومايمتُ إلى أنبيائهم من آثار شريفة كما ورد في قوله سبحانه: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ...﴾[3] الآية. قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى: النكرة في سياق النفي تفيد العموم والاستثناء عن النفي إثبات. اهـ. أي أن الشفعاء مقبولة شفاعاتهم مع إيمان المشفوع له بالله فقدم سبحانه شفاعة الشافعين لأن ما تقدم بيانه أفصح عن حال المتوسلين بصلحائهم إذ عدلوا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٢ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٠ .

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٨ .

بأعمالهم رغم صلاحها في نظرهم وعدم الجزم بقبولها أي التوسل بالمقبولين عند ربهم تنزلاً مع المقام إذ أن المقام مقام تذلل وخشية أرجى لقبول الدعاء.

وتولى الإيراد من الحق بعد ذلك بقوله مذكراً لبني إسرائيل على وجه الخصوص وللأمة على وجه العموم بقوله سبحانه ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[1].

بيان من الحق سبحانه وتذكير للناس إذا تجاوزا مرحلة الذكرى والتذكر بحسب ما اقتضته فطرته وقررته إرادته بتعاقب الأيام والسنين مع طول العهد ألاّ ينسوا أسباب كرامتهم وعزتهم جرّاء البعد على أصحاب الرسالة من النبيين والمرسلين بل عليهم أن يلتمسوها من الصديقين بقوله سبحانه ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾[2]. لذا قال الحق في هذه الآية مذكراً لبني إسرائيل وللمؤمنين بأن يتقوا إذا ماأنكروا تلك الوسائل أن يتذكروا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولايؤخذ منها عدل. بيان من الحق سبحانه للمعتمدين على أعمالهم الجافين لصلحائهم الذين لم يعرفوا قدرهم بالتوافق معهم في بشريتهم فوقروا أعمالهم وأفعالهم وزكوا أنفسهم متجاهلين فضل غيرهم

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٧.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٩.

ومكانتهم عند ربهم مما أدى إلى إنحطاط ملحظ القدوة عندهم أي عدم رؤية الفضل الذي بلغهم، والذي شخَّصه الحق في وراث أنبيائهم فجوزا التوسل بالأعمال والتقرب بها إلى الله دون سواها لذا جاء الخطاب بقوله: ﴿ **وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ** ﴾[1]. ثم أورد الحق سبحانه وتعالى إيراداً ثالثاً لبني إسرائيل وإرشاداً لأمة الإسلام من مغبة الوقوع فيه كمرحلة خطيرة من مراحل المجتمع حينما ينساق الناس إلى الملذات والشهوات ويساوون في تعاملاتهم في نياتهم وأفعالهم بين مايبقى على مايفنى فيصدق عليهم قول الحق: ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** ﴾[2] لذا قدم سبحانه في الآية ﴿ **وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ** ﴾[3].
أي لم يقبل الله سبحانه وتعالى عِدلهم وعدلهم أي لم يقبل منهم العدل عند شكر نعمته ولم يقبل منهم مساواتهم بين نعم الله إذ أنَّ نعم الله متفاوته في الفضل حتى بلغ منهم ذلك التعامل التنكر لدين الله فلم يروا للعالم فضله ولم يروا لدين الله أهله فتقطعت بهم الأسباب وضلت بهم السبل، لذا ينبغي على الأمة أن تعرف لأهل الفضل فضلهم ولأهل البِرِّ برهم، إذ أنهم نسمات المنة ونفحات

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٨ .
(٢) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣-١٠٤ .
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٣ .

الرحمة، حفظنا الله من التنكر للوسائل وجعلنا ممن ضرع إلى الله بأجل الوسائل.

الدليل الحادي والعشرون: قوله سبحانه: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ**﴾(1)

لقد برهن الحق سبحانه وتعالى للواسطة الحقة أعظم برهان في هذه الآية الكريمة فقال سبحانه: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ**...﴾ عنى بهم كما تقدم في الآية المستغفرين التائبين ﴿**فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ**﴾ أي بواسطة أصحاب الجنة ورجائهم واستغفارهم للعصاة المذنبين وقد دخلوا في رحمة الله ببركتهم، وإنه لوعد صدق من الله سبحانه وتعالى، أي قاعدة حق لا تتغير ولا تتبدل أن الصالحين لهم أجرٌ غير ممنون غير منقطع في الدنيا والآخرة ثابت لا يتغير، فإن رجا المستغيث أو استجار بهم لا يتعدى في دعائه ولم يستعد في ندائه لما كان منهم من سابق بر وفضل على أولئك التائبين الراجعين الذين قبلهم الله سبحانه وتعالى ببركتهم ودعائهم واستغفارهم فلا جرم أنهم أحق بالرجاء والتوسل عند الله بهم لما وعدهم الله من وعد صدق وهو وعد ثابت لا يحول ولا يزول، فسبحان الله رب العالمين.

* * *

(1) سورة الأحقاف، الآية: 16.

الفصل الثاني

في ذكر الأدلة النقلية من الحديث والأثر

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: التوسل بالنبي ﷺ قبل ولادته.

المبحث الثاني: التوسل بالنبي ﷺ في حياته.

المبحث الثالث: التوسل بالنبي ﷺ بعد انتقاله.

المبحث الرابع: التوسل بالأنبياء والصالحين.

الفصل الثاني

الأدلة النقلية من الحديث والأثر

المبحث الأول

التوسل بالنبي ﷺ قبل ولادته

تمهيد :

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ ﴾(١) أثبتت هذه الآية أن للأبرار خيراً والخير الذي لديهم من الله، إذ أنهم محل نظره ورأفته وحنانه ورحمته وقد أذن الله بمقتضى هذه الآية بالالتجاء إليهم، وقرر الحق سبحانه أن ما يرتجيه العبد من ربه لدى الأبرار،فلن ينال من الله خيراً إلا من طريقهم،ولن يكتسب براً إلا ببركتهم وبرهم، ومن توفيق الله للعبد أن يسوقه الله إليهم سوقاً، فتحدث الحق بقوله سبحانه : ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾(٢) لأن الوفاة مع الأبرار نجاةٌ وإبرارٌ، وإشارةٌ كبيرة في نفع الذوات للذوات بأعظم مما يتصوره المتصور، فما معنى وفاة الذات مع الذات الصالحة؟ لا جَرَم أن المعنى نفع الوسيلة التي هي الذوات الصالحة، فالحق سبحانه يأذن للمؤمن أن يسأل ربه أن يُشَفِّع ذاته بذات مؤمنة لأنها أرجى بالقبول، لذا كان ما عند الله خير للأبرار، وقد أكد هذه الحقيقة الحق سبحانه في أكثر

---

(١) من سورة آل عمران، الآية (١٩٨).

(٢) من سورة آل عمران، الآية (١٩٣).

من موطن في كتابه، قال تعالى: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[1]، ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ... ﴾[2] ومن أظهرها كما في سورة التين ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾[3] أي: غير مقطوع من جراء الموت، ولكنه متصل وباق بعد الممات أعظم مما كان في الحياة، ففي الحياة متعلق بنفع النفس والخلق وبعد الممات تعلق بنفع الناس، ونفع النفس بذلك النفع في الترقي بالدرجات، ولكن في ضمن الدرجة التي اكتسبها من حرث الدنيا، وفي هذه الآية إشارة لجواز التوسل بالصالحين بعد موتهم لعدم انقطاع مددهم.

أما قول النبي ﷺ: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث...» الحديث، فهذا لعموم الناس، وقد استثنى في الحديث الصالحين، حيث ذكر بعض صفاتهم ومظاهر اتصالهم الذي يكون بالولد الصالح أو الصدقة الجارية أو علم ينتفع به، فلا تعارض بين الآية والحديث فليتأمل.

وقد أكد الحق سبحانه وتعالى تلازم أمره بالوسيلة كما في قوله سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[4]، و﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ

---

(١) من سورة التوبة، الآية (١١٩).

(٢) من سورة الكهف، الآية (٢٨).

(٣) من سورة التين، الآية (٦).

(٤) من سورة الأنبياء، الآية (١٠٧).

﴿قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] وكان السياق يقتضي لغة أن تكون «قريبة» لأن الصفة لابد أن تتبع الموصوف تذكيراً وتأنيثاً وإفراداً وتثنية وجمعاً ورفعاً ونصباً وخفضاً وتعريفاً وتنكيراً بإجماع النحاة مما دل على قرينة ألا وهي الوسيلة إذ أن رحمة الله هي وسيلة قبول العبد عند ربه لأن الرحمة ترفع من مستوى العبد الظلماني إلى المستوى النوراني .

وبذا اتضح أن الحق سبحانه قد أضمر قربه في وسائطه ووسائله، وكذا الحال في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[2] وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[3]. مؤيداً بما جاء في السنة عن الصادق ﷺ في الحديث: «أنا عند ظن عبدي بي،إن ظن بي خيراً فله، وإن ظن بي شراً فله» كما رواه ابن حبان[4]، وقد أخرج البخاري الشطر الأول منه[5]، وهو محل الشاهد، وقول سيدنا موسى: «أي ربِّ! أين أبغيك» قال: «ابغني عند المنكسرة قلوبهم..»[6] . وإذا ما اعترض المخالف بأن الرحمة صفة من صفاته

---

(١) من سورة الأعراف، الآية (٥٦).

(٢) من سورة البقرة، الآية (١٨٦).

(٣) من سورة ق، الآية (١٦).

(٤) صحيح ابن حبان (٢/٤٠٥) رقم (٦٣٩).

(٥) صحيح البخاري رقم (٧٤٠٥).

(٦) رواه ابن أبي عاصم في الزهد (ص٧٥)، و أبو نعيم في الحلية (٢/٣٦٤) و(٦/١٧٧)، ورواه أبو نعيم في الحلية (٤/٣٢) بلفظ: قال داود عليه السلام: إلهي أين أجدك إذا طلبتك؟ قال: عند المنكسرة قلوبهم من مخافتي. ورواه كذلك البيهقي في الزهد الكبير (٢/١٦٢).

قلنا: إن صفات الحق تدعو الخلق للتحقق بها مصداقاً لقوله ﷺ: «تخلقوا بأخلاق الله»[1] الحديث، وأول من تخلق وتحقق بصفات الحق هو النبي ﷺ، إذ أنَّه هو الرحمة المهداة والنعمة المسداة. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[2].

أما أدلة التوسل بالنبي ﷺ قبل ظهوره فكثيرة، منها:

الدليل الأول: ما أورده ابن تيمية في الفتاوى مستشهداً به، وعزاه إلى أبي الحسين بن بشران من طريق الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي في (الوفا بفضائل المصطفى) قال: حدثنا أبو جعفر محمد ابن عمرو، حدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح، حدثنا محمد بن صالح، حدثنا محمد بن سنان العوفي، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن يزيد بن ميسرة، عن عبد الله بن شقيق[3] عن ميسرة قال: قلت: يا رسول الله، متى كنت نبياً؟ قال: «لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهنّ سبع سموات وخلق العرش، كتب على ساق العرش: محمد رسول الله خاتم الأنبياء، وخلق الجنة التي أسكنها آدم وحواء، فكتب اسمي على الأبواب والأوراق، والقباب والخيام، وآدم بين الروح والجسد، فلمّا أحياه الله تعالى نظر إلى العرش، فرأى اسمي

(١) أورده السهروردي في العوارف.

(٢) من سورة الأنبياء، الآية (١٠٧).

(٣) الفتاوى لابن تيمية (٢/ ١٥٠)، وفيها: عبد الله بن سفيان وهو تصحيف والصواب ما أثبتناه.

فأخبره الله أنه سيد ولدك، فلما غرهما الشيطان تابا، واستشفعا باسمي إليه»[1].

قال الحافظ ابن حجر: وأخرجوا من طريق بديل بن ميسرة، عن عبد الله بن شقيق، عن ميسرة الفجر قال: قلت: يارسول الله، متى كنت نبياً؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد» وهذا سند قوي[2]. اهـ.

وذكره العلامة المحدِّث السيد عبد الله بن الصديق الغماري في «الرد المحكم المتين» وقال: «إسناد هذا الحديث قوي، وهو أقوى شاهد وقفت عليه لحديث عبد الرحمن بن زيد»[3].

وإسناد هذا الحديث مسلسل بالثقات، عدا راوٍ واحد وهو صدوق[4]، وعلى هذا فالإسناد من شرط الحسن على أقل أحواله، وصحيح على رأي من يدخل الحسن في الصحيح من الحفاظ، كابن حبان والحاكم وغيرهما.

وفي الحديث التوسل برسول الله ﷺ قبل أن يتشرف العالم بوجوده فيه، وأن المدار في صحة التوسل أن يكون للمتوسّل به القدر الرفيع عند ربه عز وجل، وأنه لا يشترط كونه حيّاً في دار الدنيا، ومنه يعلم أن القول بأن التوسل لا يصح بأحد إلا وقت حياته في دار الدنيا، قول بعيد عن الصواب[5].

---

(١) وهو حديث حسن، وقد استعرضت طرقه في كتاب نور البدايات وختم النهايات. وانظر الفتاوى لابن تيمية (٢ / ١٥٠).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة (٩ / ٣٠٣).

(٣) الرد المحكم المتين (ص ١٣٨ ـ ١٣٩).

(٤) وهو أحمد بن إسحاق، أبو بكر الوزّان، مترجم في تاريخ بغداد (٤ / ٢٨).

(٥) انظر مفاهيم يجب أن تصحح للسيد العلامة المحدث شيخنا الأستاذ الدكتور محمد بن علوي المالكي (ص ١٢٥).

الدليل الثاني: ما أورده ابن أبي الدنيا في «الإشراف»[1] ـ من طريق سعيد بن جبير بسند حسن لذاته ـ فقال: حدثنا محمد بن صالح، قال: حدثنا عون بن كهمس، عن أبي الأسود الطفاوي ـ وكان ثقة ـ عن سعيد بن جبير، قال: «اختصم ولد آدم فقال بعضهم: أي خلق أكرم على الله؟ قال بعضهم: آدم، خلقه الله بيده، وأسجد له الملائكة، قال آخرون: الملائكة الذين لم يعصوا الله، فقالوا: بيننا وبينكم أبونا، فانتهوا إلى آدم فذكروا له ماقالوا، فقال: يا بني إن أكرم الخلق ما بدأ أن نفخ فيّ الروح، فما بلغ قدمي حتى استويت جالساً فبرق لي العرش فنظرت فيه: محمد رسول الله، فذاك أكرم الخلق على الله».

الدليل الثالث: مارواه الحاكم وغيره [2] عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما اقترف آدم الخطيئة قال: يارب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال الله عز وجل: ياآدم

---

(١) الإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا (ص ١١٣)، وهو حديث حسن لذاته، لأن عون بن كهمس ثقة كما قال الحاكم وابن حجر في النكت وصحيح في المتابعات والشواهد. وما زعمه المحقق نجم عبدالرحمن خلف من وجود رواة مجهولين في الإسناد مردود بتوثيق ابن حبان، وإقرار الحافظ ابن حجر لهذا التوثيق في النكت على ابن الصلاح، ولا يحق للمحقق أن يحكم على الرواة الموثقين بالجهالة، ولو سكت لكان أسلم لحاله وأنزه للأمانة العلمية.

(٢) رواه الحاكم وصححه (٢/٦١٥)، والطبراني في المعجم الصغير (ص ٤١٢)، برقم (٩٩٤)، والأوسط (٧/٢٥٩)، رقم (٦٤٩٨)، ودلائل النبوة للبيهقي (٥/٤٨٩) والآجري في الشريعة (٣/١٤١٥) برقم (٩٥٦)، كلهم من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم العدوي ضعيف (تقريب التهذيب ص٤٠ برقم ٣٨٦٥)، وليس بكذاب كما ادعاه المخالفون عليه، بل وصف بالصلاح والعبادة، وقال ابن عدي في =

وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه؟ قال: يارب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك، رفعتُ رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً، لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إليّ، وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك».

الدليل الرابع: ما أورده الإمام السيوطي رحمه الله في «الدر المنثور»: من طريق ابن المنذر عن محمد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب قال: «لما أصاب آدم الخطيئة عظم كربه، واشتد ندمه، فجاءه جبريل فقال: يا آدم هل أدلك على باب توبتك الذي يتوب الله عليك منه؟ قال: بلى يا جبريل، قال: قم في مقامك الذي تناجي فيه ربك فمجده وامدحه، فليس شيء أحب إلى الله من المدح، قال: فأقول ماذا يا جبريل؟ قال: فقل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير كله، وهو على كل شيء قدير. ثم تبوء بخطيئتك فتقول: سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك، لا إله إلا أنت، رب إني ظلمت

= الكامل (٤/ ١٥٨٥): له أحاديث حسان... وهو ممن احتمله الناس وصدقه بعضهم وهو ممن يكتب حديثه. اهـ. ويشهد لهذا الحديث ميسرة الفجر وقد تقدم في الدليل الأول. وقد حرر هذه المسألة السيد المحدث العلامة عبد الله بن الصديق الغماري في الرد المحكم المتين ص١٣١ فليراجع. فالحديث صحيح بالطرق المتقدمة.

نفسي وعملت السوء، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، اللّهُمَّ إني أسألك بجاه محمد عبدك وكرامته عليك أن تغفر لي خطيئتي. قال: ففعل آدم، فقال الله: يا آدم من علمك هذا؟ فقال: يا رب إنك لما نفخت فيَّ الروح، فقمت بشراً سويّاً أسمع وأبصر وأعقل وأنظر، رأيت على ساق عرشك مكتوباً «بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، محمد رسول الله» فلما لم أرَ إثْرَ اسمك اسم ملك مقرب، ولا نبي مرسل غير اسمه، علمت أنه أكرم خلقك عليك. قال: صدقت. وقد تبت عليك وغفرت لك خطيئتك، قال: فحمد آدم ربه وشكره، وانصرف بأعظم سرور، لم ينصرف به عبد من عند ربه. وكان لباس آدم النور. قال الله: ﴿**يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا**﴾[1] ثياب النور. قال: فجاءته الملائكة أفواجاً تهنئه يقولون: لتهنك توبة الله يا أبا محمد»[2].

فيستخلص من هذه الروايات أن آدم (أبا البشر) عليه السلام، توسل بسيدنا محمد ﷺ قبل ولادته وهو في عالم الذر. والله تعالى أعلم.

* * *

(١) من سورة الأعراف، الآية (٢٧).

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (١/١٤٦). ورواية الإمام الباقر هذه، وإن كانت في بعض ألفاظها نكارة، فهي من الرواة عنه لا منه، فهو إمام جليل من كبار أئمة التابعين وثقاتهم.

المبحث الثاني

التوسل بالنبي ﷺ في حياته

التوسل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حياته لا يختلف عن التوسل به قبل ظهوره ومبعثه، والأدلة على ذلك كثيرةٌ منها:

الدليل الأول: ما أخرجه الترمذي رحمه الله من طريق عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «ادع الله أن يعافيني، فقال: إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك، قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويدعو بهذا الدعاء: **اللَّهُمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد: إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللَّهُمَّ فشفّعه فيّ**»[1].

وفي رواية: «فإن كان لك حاجة فمثل ذلك فافعل» وهي زيادة حماد بن سلمة، وفي هذه الزيادة إذنٌ بالتوسل في سائر الأحوال، قال

---

(١) رواه الترمذي رقم (٣٥٧٨)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/١٦٩)، وابن ماجه رقم (١٣٨٥)، والإمام أحمد (٤/١٣٨)، والحاكم في المستدرك (١/٥٢٦ ـ ٥٢٧)، وقال: صحيح على شرط البخاري، وأقره الذهبي، ورواه الطبراني في الكبير (٩/٣٠ ـ ٣١)، والصغير (ص ٢٢٠ ـ ٢٢١)، وصححه، ورواه ابن خزيمة رقم (١٢١٩)، والبيهقي في كتابيه الدعوات الكبير (١/١٥١)، ودلائل النبوة (٦/١٦٦ ـ ١٦٧)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص ٥٨١ ـ ٥٨٢).

عثمان بن حنيف: «والله ما تفرق بنا المجلس حتى دخل بصيراً، كأن لم يكن به ضر».

قال ابن علان في شرح هذا الحديث: «اللَّهُمَّ إني أسألك» أي: مطلوبي. «بنبيك» أي: بوسيلته وشفاعته، والباء للتعدية أو للمصاحبة. «نبي الرحمة» صفة له ولا يخفى مناسبة هذا الوصف للمقام. «يامحمد» التفات إليه ليتوجه إلى الله تعالى، فيغني السائل به عما سواه.

«أتوجه بك» أي: بذاتك، والباء فيه للاستعانة. «لِتُقْضَى لي» وفي نسخةٍ من «الحصن» لتقضي بصيغة الفاعل أي: لتقضي الحاجة، والمعنى لتكون سبباً لحصول حاجتي ووصول مرادي، فالإسناد مجازيٌّ. «اللَّهُمَّ فشفعه» أي: ياالله اقبل شفاعته في حقي[1].

قال العلامة المناوي في شرح هذا الحديث: «سأل الله أولاً أن يأذن لنبيّه أن يشفع له، ثم أقبل على النبي ملتمساً شفاعته، ثم كرّ مقبلاً على ربه أن يقبل شفاعته... **قال السبكي: ويحسن التوسل والاستعانة[2] والتشفع بالنبي إلى ربه، ولم ينكر ذلك أحد من السلف ولا من الخلف حتى جاء ابن تيمية فأنكر ذلك، وعدل عن الصراط المستقيم، وابتدع ما لم يقله عالم قبله، وصار بين**

---

(١) انظر الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية لابن علان (٤ /٣٠٣).

(٢) في المطبوع من شفاء السقام (ص١٧١): «والاستغاثة».

أهل الإسلام مُثلةً»[1]. انتهى وقد تقدم كلام الإمام السبكي في المقدمة.

قلت: أما بشأن قول الإمام السبكي: إنه لم ينكر التوسل أحد من السلف..، فيكفي عليه دليلاً رواية الترمذي وابن ماجه والحاكم لهذا الحديث، وحكم الحاكم أنه صحيح على شرط البخاري ومسلم، وتلقي الأمة له بالقبول والتطبيق مئات من السنين، دون أي تردد في ذلك القبول. أما بشأن صحة إمكان استعمال هذا الدعاء على ممرّ الأجيال بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإن أجلَّ وأصوب حَكَمٍ حول هذا الأمر بلا منازع على الإطلاق، هو الصحابي عثمان بن حنيف نفسه، حيث قد علمه أيضاً لأحدهم أثناء خلافة عثمان رضي الله عنه، وقضيت حاجته، (كما سيمر معك لاحقاً) وكان هذا سبباً لرواية الحديث، فليتنبّه. ولا عبرة لكلام من خالف الصحابة في مثل هذه الأمور ولو كان من كان.

وراوي هذا الحديث هو الصحابي الجليل عثمان بن حنيف الأنصاري الأوسي، شهد أحداً والمشاهد بعدها، واستعمله عمر ابن الخطاب رضي الله عنه على مساحة سواد العراق، واستعمله على البصرة أيضاً، وبقي إلى زمن معاوية [2].

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي (٢/ ١٣٤، ١٣٥). وانظر: شفاء السقام (ص ١٧١) طبعة دار جوامع الكلم - القاهرة.

(٢) انظر ترجمته في الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٦/ ٣٨٦)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٢/ ٣٢٠).

ولا ينبغي أن يُستخف بعقل القارئ فيقال: إن التوسل كان بدعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إذ أن نص الحديث بخلاف ذلك، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر الصحابي الضرير أن يدعو بنفسه كما هو واضح في رواية الترمذي المتقدمة: فأمره أن يتوضأ ويحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: «اللَّهُمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد» الحديث.

ثم إن الروايات كلّها متفقة على أن الذي دعا هو الرجل الضرير لا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا ترجم له البيهقي في «دلائل النبوة»[1] بقوله: باب ماجاء في تعليمه الضرير ما كان فيه شفاؤه حين لم يصبر، وما ظهر في ذلك من آثار النبوة.

وهذا الادعاء يعرّض قائله للتهمة وسوء الظن به، وفيه تحميل لكلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأحكامه مالا يحتمله ، ولأن بعض الصحابة استعملوا ذلك بعد موته صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك يدل على أنهم لم يفهموا إلا المعنى الذي عليه الأمة، من جواز التوسل بذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أكدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «بنبيك محمد» ومحمد علم على الذات أي: ذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يبق

---

(١) دلائل النبوة (٦/١٦٦).

بعد هذا اجتهاد لمجتهد، حيث إنه لا اجتهاد مع النص، فقد نصت هذه الأحاديث الصحيحة على جواز التوسل بالذات قولاً واحداً، ويعضد هذا المفهوم أن الناس حين يأتون آدم يوم الفزع الأكبر، كان عليهم إذاً أن يقتصروا على الدعاء باسم آدم، أو باسم نبي من الأنبياء، والله أقرب يومئذ من عبده، ولكن آدم يحيل للذي بعده، إلى أن يبلغ المستشفع سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وآله وسلم فيلبي طلبه.

وهناك شبه يثيرونها حول حديث الضرير وعباراته، تعرض لها العلامة السيد عبدالله بن الصِّدِّيق الغُمَاري رحمه الله بالشرح والتوضيح، فقال في (المصباح ص٢٤): «وإن شئت دعوت: أي وإن شئت علمتك دعاء تدعو به ولقنتك إياه، وهذا التأويل واجب ليتفق أول الحديث مع آخره».

ولكن الألباني ـ وكعادته ـ تهجم على السيد الغماري واصفاً إياه بالغفلة أو التغافل، فقال: «فإذا كان قوله ﷺ له ـ أي للضرير ـ: «وإن شئت دعوت» جواباً على طلبه تعيّن أنه الدعاء له، ولابد، وهذا المعنى هو الذي يتفق مع آخر الحديث، ولذلك رأينا الغماري لم يتعرض لتفسير قوله في آخره: «اللَّهُمَّ فشفعه فيّ، وشفعني فيه»؛ لأنه صريح في أن التوسل كان بدعائه ﷺ كما بيّناه فيما سلف. اهـ.

قلت: وهذه مغالطة ممن لم يفقه لغة العرب، فهذا إمام من أئمة العلم بالحرم المكي، محمد بن علان الصديقي الشافعي (١٠٥٧هـ) يفسر ألفاظ الحديث ـ كما تقدم مبسوطاً في موضعه ـ فيقول رحمه الله: قوله: (اللَّهُمَّ) أي يا الله، وهذا التفات آخر، قوله: (فشفعه) بتشديد الفاء المكسورة، أي: اقبل شفاعته فيّ، أي: في حقي.

قال في النهاية: المشفع: الذي تقبل شفاعته، قال الطيبي: الفاء عطف على قوله: أتوجه، أي: اجعله شفيعاً لي فشفعه، وقوله: (اللَّهُمَّ) معترضة.اهـ.

وفي الحرز الأظهر: أن (اللَّهُمَّ) ندائية، وما بعدها جملة دعائية، والمعطوف عليه بالفاء مقدر، والمعنى: يا الله اجعله شفيعاً أولاً، فاقبل شفاعته فيّ ثانياً ليتم به المقصود والله المحمود.اهـ.[١]

وأما دعوى الألباني وأضرابه كأبي لوز بأن السيد عبدالله بن الصديق الغماري علامة عصره في علم الحديث قد أغفل الكلام عن قول الرسول ﷺ في الحديث: «فشفعه فيّ وشفعني فيه»، وبأن هذه الجملة دالة على أن التوسل هو الدعاء، فهي دعوى باطلة تفضح صاحبها، وتكشف عواره، وتنم عن ضحالة علمية يترفع عن مجاراتها العلامة السيد عبدالله بن الصديق، فروايات الحديث جاءت

---

(١) الفتوحات الربانية على الأذكار النووية ٤/٣٠٣.

متعددة، ففي رواية الترمذي: «فشفعه في»، وزاد أحمد في روايته: «فشفعني فيه»، وجاء في رواية الطبراني: «اللَّهُمَّ شفعه فيّ وشفعني في نفسي». والمعنى كما يفهمه العقلاء، أي تقبل شفاعته بي، أي بذاتي لذاتي، هذا ولا يخالف عاقل هذا المعنى إلا من أمرض الله قلبه وضيق أفقه فأصبح كالأنعام بل هو أضل.

وللحديث طريق آخر يثبت أن ذلك عام في حياة النبي ﷺ وبعد انتقاله فقد أخرج الإمام الطبراني أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكى ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضأة فتوضأ، ثم ائت المسجد فصلّ فيه ركعتين ثم قل: اللَّهُمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فتقضى لي حاجتي، وتذكر حاجتك، وَرُحْ حتى أروح معك، فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفان رضي الله عنه، فجاء البواب حتى أخذ بيده، فأدخله على عثمان بن عفان رضي الله عنه، فأجلسه معه على الطُنفسة فقال: حاجتك؟، فذكر حاجته وقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة، وقال: ماكان لك من حاجة فاذكرها، ثم إن الرجل خرج من

عنده فلقي عثمان بن حنيف، فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر ولا يلتفت إليّ حتى كلَّمْتَهُ فيّ، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلَّمْتُهُ ولكني شهدت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأتاه ضرير، فشكى إليه ذهاب بصره، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «فتصبر» فقال: يارسول الله ليس لي قائد وقد شق علي، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ائت الميضأة فتوضأ، ثم صلّ ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات» قال ابن حنيف: فو الله ما تفرقنا وطال بنا الحديث، حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرٌّ قط[1].

قال السيد العلامة المحدِّث علي بن محمد بن يحيى باعلوي: «إن دعاء الأعمى توسل بذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجاهه وليس توسلاً بدعائه، لأنه سؤال وتوجه لله وحده، وهذا لا يكون في التوسل بالدعاء وإنما هو توسل وطلب من المتوسِّل إلى الداعي أن يسأل الله له. ويؤيد ذلك رواية: (فإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك)، وهي رواية صحيحة من رواية حماد بن سلمة الإمام الثقة. وقد تقدم الكلام في ذلك. وأيضاً رواية: (وشفعني في نفسي)، وهي رواية صحيحة سبق الكلام فيها.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٩/ ٣٠ـ ٣١)، والصغير (ص ٢٢٠ ـ ٢٢١) وصححه، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ١٦٧).

وأيضاً التوسُّل بطلب الدعاء قد جاء في أول الحديث، فلا معنى لتكريره في دعاء الأعمى الذي علمه إِيَّاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»[1].

وقال أخي الفاضل المحدث الدكتور الشيخ محمود سعيد ممدوح: «إن رواية ابن أبي خيثمة للحديث من طريق حماد بن سلمة الحافظ الثقة فيها «فإن كانت لك حاجة فافعل مثل ذلك»، وهي زيادة ثقة حافظ، فهي صحيحة مقبولة كما هو معلوم ومقرر في علم الحديث. وهذه رواية تدل على العموم، وطلب العمل بالحديث في الحياة وبعد الممات إلى قيام الساعة.

ثم قال ابن تيمية:

ولو توسل غيره من العميان الذين لم يدع لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالسؤال به لم تكن حالهم كحاله. اهـ.

ثم قال أيضاً في موضع آخر: وكذلك لو كان أعمى توسل به صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يدع له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بمنزلة ذلك الأعمى، لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى، فعدولهم عن هذا إلى هذا دليل على أن المشروع ما سألوه دون ما تركوه. اهـ. إلى أن قال: الشيخ محمود سعيد ممدوح: والجواب عليه سهل ميسور، وكنت أود أن لا أورد هذا الإيراد، لكنّني رأيت جماعة أخذوا هذا الإيراد ونسبوه

(١) هداية المتخبطين (ص١٠٤-١٠٥).

لأنفسهم، وكان الصواب أن لا يذكر لفساده، أو يذكر مع نسبته لقائله، ومن الذين نسبوه لأنفسهم الألباني، فإنه قال في توسله - أي توسل الأعمى - (ص٧٦) : لو كان السرّ في شفاء الأعمى أنه توسل بجاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقدره وحقه كما يفهم عامة المتأخرين، لكان المفروض أن يحصل هذا الشفاء لغيره من العميان الذين يتوسلون بجاهه صلى الله عليه وآله وسلم بل ويضمون إليه أحياناً جاه جميع الأنبياء والمرسلين، وكل الأولياء والشهداء والصالحين، وجاه كل من له جاه عند الله، من الملائكة والإنس والجن أجمعين، ولم نعلم ولا نظن أحداً قد علم حصول مثل هذا خلال هذه القرون الطويلة بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم إلى اليوم .اهـ. إلى أن قال :

وذكر نحو هذا الإيراد صاحب « التوصل إلى حقيقة التوسل » (ص٢٤٣)، وكذا صاحب « هذه مفاهيمنا » (ص٣٧) .

والجواب على هذا الإيراد بالآتي :

١- إجابة الدعاء ليست من شروط صحة الدعاء،وقد قال الله تعالى : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[١]،ونحن نرى بعض المسلمين يدعون فلا يستجاب لهم، وهذا الإيراد يأتي على الدعاء كله، فانظر إلى هذا الإيراد أين ذهب بصاحبه؟

---

(١) من سورة غافر، الآية (٦٠) .

٢- هذا الإيراد يرد عليه احتمال أقوى منه، وحاصله أن عدم توسل عميان الصحابة و غيرهم احتمال فقط لا يؤيده دليل، وهم إما توسلوا فاستجيب لهم، أو تركوا رغبة في الأجر، أو توسلو ا وادُّخِرَ ذلك أجراً لهم، أو تعجلوا فما استجيب لهم.

وقد صحّ أن رسول الله ﷺ قال: «يستجاب لأحدكم مالم يعجل يقول: قد دعوت فلم يستجب لي». رواه البخاري ومسلم وغيرهما[١].

وكم من داع متوسلٍ لله بأسمائه وصفاته ولم يُستجب له، ويلزم له إشكال وهو أننا نرى من يدعو ويتوسل بأسماء الله وصفاته، أو بعمله الصالح، أو بدعاء رجل صالح، ولم نرَ إجابة الدعاء. هذا من تمام الحجة عليهم ونقض إيرادهم، فلا تلازم بين الدعاء والإجابة، على أن قول الألباني: لا نعلم ولا نظنّ أحداً ... إلخ. تهافت وشهادة على نفي لا ينخدع بها إلا مسلوب العقل»[٢]. اهـ.

الدليل الثاني: روى البخاري عن عبد الله بن دينار عن أبيه قال: سمعت ابن عمر يتمثل بشعر أبي طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثِمالُ اليتامى عصمة للأرامل[٣]

---

(١) البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥).

(٢) رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة للشيخ محمود سعيد ممدوح (ص٢٠،٢٢).

(٣) ثمال: العماد والملجأ والمُطْعِم والمغيث والمعين والكافي. عصمة للأرامل: يمنعهم مما يضرهم.

وقال عمر بن حمزة: حدثنا سالم عن أبيه: «ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبي ﷺ يستسقي، فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثِمالُ اليتامى عصمة للأرامل

وهو قول أبي طالب»[1].

الدليل الثالث: أخرج البيهقي من غير وجه في «دلائل النبوة» عن سعيد بن خثيم الهلالي، عن مسلم الملائي، عن أنس ابن مالك قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله لقد أتيناك وما لنا بعير يَئِطّ، ولا صبيّ يغطّ[2] وأنشده:

أتيناك والعذراء يدمى لبانها ... وقد شُغلت أمُّ الصبي عن الطفل

وألقى بكفيه الصبي استكانة ... من الجوع ضعفاً لا يمر ولا يخلي

ولا شيء مما يأكل الناس عندنا ... سوى الحنظل الحامي والعِلهِز الفسل[3]

وليس لنا إلا إليك فرارنا ... وأين فرار الناس إلا إلى الرسل

فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى صعد المنبر، ثم رفع يديه إلى السماء فقال: «اللَّهُمَّ اسقنا غيثاً مغيثاً مريئاً مريعاً

(١) رواه البخاري في صحيحه (١٠٠٩)، وابن ماجه (١٢٧٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/١٤٢)، وفي السنن الكبرى (٣/٨٨)، كلهم من طريق أبي عقيل عبد الله بن عقيل وهو ثقة.

(٢) يئط: الأطيط صوت البعير المثقل. الغطيط: صوت النائم، كناية عن شدة الجوع.

(٣) العلهز: هو شيء يتخذونه في سني المجاعة، يخلطون الدم بأبوال الإبل ثم يشوونه بالنار ويأكلونه. والفسل: الرديء من كل شيء.

غدقاً[1] طبقاً[2] عاجلاً غير رائث[3]، نافعاً غير ضار، تملأ به الضرع، وتنبت به الزرع وتحيي به الأرض بعد موتها، وكذلك تخرجون »، فوالله ما رد يديه إلى نحره حتى ألقت السماء بإبراقها، وجاء أهل البطانة يعجّون: يا رسول الله الغرق الغرق، فرفع يديه إلى السماء، ثم قال: « اللَّهُمَّ حوالينا ولا علينا »، فانجاب السحاب عن المدينة حتى أحدق بها كالإكليل، فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى بدت نواجذه، ثم قال: « لله درّ أبي طالب، لو كان حيّاً قرت عيناه، من ينشدنا قوله »؟ فقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله كأنك أردت:

وأبيضَ يُستسقى الغمامُ بوجهه ... ثِمالُ اليتامى عصمةٌ للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في نعمةٍ وفواضلِ
كذبتم وبيت الله نَبْزي محمداً ... ولمانقاتل دونهُ ونناضلِ
ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

قال الحافظ ابن حجر[4]: « وإسناد حديث أنس وإن كان فيه ضعف لكنّه يصلح للمتابعة » .اهـ.

---

(١) الغدق: المطر الكبار القطر.

(٢) طبقاً: مائلاً للأرض مغطياً لها.

(٣) غير رائث: غير بطيء ومتأخر.

(٤) فتح الباري (٢/ ٤٩٥).

وقال ابن هشام في «السيرة النبوية»: وحدثني من أثق به فذكره[1].

قلت: قوله: «يستسقى الغمام بوجهه» أطلق البعض وأراد الكل، فتمثل ابن عمر بهذا البيت هو إقرار منه بجواز التوسل بالذات، إذ كلمة «بوجهه» لا تحتمل معنى دعائه، وإنما معنى الذات.

الدليل الرابع: من الأدلة التي يمكن إلحاقها بما تقدم، ماروا البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا جاءه السائل، أو طلبت إليه حاجة قال: **اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ماشاء**»[2].

قال الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي في شرحه لهذا الحديث: «ويؤخذ من هذا الحديث أنه عليه الصلاة والسلام يحب توسل الناس به لله تعالى مطلقاً، في زمن حياته الدنيوية وفي البرزخ وفي القيامة، لأنه عليه الصلاة والسلام حض على شفاعة الناس بعضهم لبعض، ووعد عليها بالأجر وقضاء الله على لسان نبيه ما شاءه مما سأله السائل، فالتشفع به هو صلى الله عليه وآله وسلم لله

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/١١٦)، ورواه ابن عبد البر في التمهيد (٢٢/٦٣-٦٦)، وابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال (٣/٤٠٩)، والأصبهاني في دلائل النبوة(١/١٨٤).

(٢) رواه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٢٦٢٧).

تعالى أولى بالجواز والندب وثبوت الأجر وقضاء الحوائج، لأن جاهه عند الله تعالى عظيم كخُلُقه، وله المقام المحمود، والله تعالى أكرم مسؤول، كما أشرت إليه في منظومة «حجج التوسل» بقولي:

هو كريم والنبي مكرم   فمن توسل به لا يحرم[1] اهـ.

الدليل الخامس: عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن وفد هوازن لما أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالجعرانة وقد أسلموا، قالوا: **إنا أصلٌ وعشيرةٌ، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك، فامنن علينا مَنَّ الله عليك**، وقام رجل من هوازن، ثم أحد بني سعد بن بكر، يقال له: زهير، يكنى بأبي صرد، فقال: يا رسول الله نساؤنا عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كفلنك، ولو أنا ملحنا (أي: أرضعنا) الحارث بن أبي شَمِر، والنعمان بن المنذر، ثم نزل بنا منه الذي أنزلت بنا لرجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين، ثم أنشد رسولَ الله ﷺ شعراً فقال:

امننْ علينا رسولَ الله في كرمٍ   فإنك المرءُ نرجوه وندّخر

امنن على بيضة قد عاقها قدرٌ   مفرَّقٌ شملُها في دهرها غيرُ

أبقت لنا الحرب هتافاً على حزنٍ   على قلوبهم الغمّاءُ والغُمَرُ

إنْ لم تداركهُمُ نعماء تنشرها   يا أعظم الناس حلماً حين يختبرُ

امننْ على نسوة قد كنت ترضعها   إذ فوك يملؤه من مَحْضها دُرَرُ

إذ كنت طفلاً صغيراً كنت ترضعها   وإذ يزينك ما تأتي وما تذرُ

لا تجعلنّا كمن شالت نعامته   واستبق منّا فإنا معشرٌ زهرُ

---

(١) زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم (٤/٤٤٥).

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أوأموالكم؟».

قالوا: يا رسول الله خيّرتنا بين أموالنا ونسائنا، بل ترد علينا أموالنا ونساءنا، فقال: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، **فإذا صليت الظهر بالناس فقولوا: إنا نستشفع** - وفي رواية النسائي (٦/ ٢٦٣): **إنا نستعين برسول الله ﷺ إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم**» فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالناس الظهر، قاموا فكلموه بما أمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم» وقال المهاجرون: ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقالت الأنصار مثل ذلك... الحديث [١].

الدليل السادس: من الأدلة أيضاً على أن التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في حياته ثابت دون ريب أو شك، ماورد عن أنس ابن مالك رضي الله عنه، أن فاطمة بنت أسد عليها السلام - أم علي

(١) أخرجه ابن إسحاق في المغازي، كما في الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٤/ ٢٠)، والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٦٦٧ - ٦٦٨)، وإسناده حسن، ومن طريقه الطبراني في المعجم الكبير (٥/ ٢٧٠ - ٢٧٢).

ابن أبي طالب عليه السلام ـ لما توفيت نزل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قبرها قبيل الدفن واضطجع فيه وقال: « الله الذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، **اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقّنها حجتها، ووسع عليها مدخلها، بحق نبيك، والأنبياء الذين من قبلي، فإنك أرحم الراحمين**»[1].

وهو حديث صحيح على شرط ابن حبان والحاكم، حسن على شرط غيرهما، وهو حجة عامة على جواز التوسل مطلقاً بذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حياته، وبمن مات من الأنبياء والمرسلين.

وإذا جاز التوسل بهم في هذه الحالة جاز التوسل بغيرهم من الصالحين والأولياء، وإذا جاز التوسل بالأموات جاز التوسل بالأحياء، لأن المقصود هو الله تعالى في جميع الحالات، وذكر المرسلين والأنبياء والأولياء في الدعاء إنما هو توسل واستشفاع وأخذ بالأسباب، وهذا أمر مشروع.

الدليل السابع: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللَّهُمَّ إني أسألك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق ممشاي هذا،

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤/٣١٥)، رقم (٨٧١)، وفي المعجم الأوسط (١/١٥٢ـ١٥٣)، ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣/١٢١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٢٥٧): فيه روح بن صلاح وثّقه ابن حبان والحاكم، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح . فهو ثقة عند ابن حجر كما تقدم عنه في تعليق التغليق.

فإني لم أخرج أشراً (افتخاراً)، ولا بَطَراً (إعجاباً)، ولا رياءً، ولا سمعة، وخرجت اتقاء سخطك، وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تعيذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، أقبل الله عليه بوجهه، واستغفر له سبعون ألف ملك»[1].

وفي هذا الحديث ترغيب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للأمة في التوسل إلى الله بجميع المؤمنين السائلين له، من الأنبياء والأولياء، أحياء كانوا أو أمواتاً.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١/٢٥٦)، رقم (٧٧٨)، وأحمد في المسند (٣/٢١)،والطبراني في الدعاء (١/٩٩٠) وغيرهم، وقد حسنه جمع من الحفاظ منهم الحافظ الدمياطي في المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح (ص ٤٧١ ـ ٤٧٢)، والحافظ أبو الحسن المقدسي، شيخ الحافظ المنذري كما في الترغيب والترهيب (٢/٤٥٩)، والحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/٢٩١)، والحافظ ابن حجر في أمالي الأذكار (١/٢٧٢)، وقال الحافظ البوصيري في مصباح الزجاجة (١/٩٨): لكن رواه ابن خزيمة في صحيحه من طريق فضيل بن مرزوق، فهو صحيح عنده.

وأما من ضعف الحديث بحجة ضعف عطية العوفي فيرد عليه بما ذكره السيد العلامة علي بن محمد بن يحيى باعلوي في «هداية المتخبطين» (ص٦١-٦٢) بما حاصله أنه قد وثقه ابن معين وابن سعد، وبأن الحافظ قال في الإملاء: روى له أبو داود أحاديث ساكتاً عليها يعني أنها صالحة، وحسن له الترمذي عدة أحاديث، بعضها من أفراده. وقد وصفه الحافظ بالصدق وحسن حديثه ووافقه على ذلك محققو الحفاظ المتأخرين، وسبقهم إلى ذلك ابن خزيمة وابن أبي حاتم... .

أما من ضعفه بسبب تدليس عطية العوفي، فغير مسلَّم به، لاعتمادهم في ذلك على رواية تفرد بها تالف، متهم بالكذب، هو محمد بن السائب الكلبي لا ينبغي الاعتماد عليه، وقد توارد كثير من الحفاظ على ذلك تقليداً،انظر كتاب رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة، للشيخ الدكتور المحدِّث محمود سعيد ممدوح (ص ١٨١ ـ ١٩٠).

« والسائلون » هم المتضرعون إلى الله بخالص طوياتهم، وحسن إخلاصهم، أمواتاً كانوا أو أحياءً، وهؤلاء هم المتوسل بهم إلى الله تعالى.

قال الشيخ محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالى: « في الحديث التوسل بعامة المسلمين وخاصتهم، وإدخال الباء في أحد مفعولي السؤال إنما هو في السؤال الاستعلامي، كقوله تعالى: ﴿ **فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً** ﴾[1] و﴿ **سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ** ﴾[2]، وأما السؤال الاستعطائي فلا تدخل الباء فيه أصلاً إلا على المتوسل به، فدونك الأدعية المأثورة، فتصوُّرُ إدخالها هنا في المفعول الثاني إخراج للكلام عن سننه بهوىً، وصيحة باطل تمجّها الأسماع، وليس معنى « الحق » الإجابة، بل ما يستحقه السائلون المتضرعون فضلاً من الله سبحانه، فيكون عد « بحق السائلين » سؤلاً لهذا الداعي هذياناً محضاً، ولاسيما عند ملاحظة ما عطف عليه في الحديث، وأما زعمُ أنه ليس في سياق الحديث مايصلح أن يكون سؤلاً غير ذلك، فممّا يثير الضحك الشديد والهزء المديد، فأين ذهب عن هذا الزاعم « أن تعيذني من النار »؟. وكم يكرر الفعل للتوكيد، فالسؤال في الفعل الأخير هو السؤال في الفعلين المتقدمين، بل لو لم تكن تلك الأفعال

(١) من سورة الفرقان، الآية (٥٩).

(٢) من سورة المعارج، الآية (١).

من باب التوكيد لدخلت في باب التنازع، فيكون هذا القيد معتبراً في الجميع على كل تقدير[1].

الدليل الثامن: ومما يستدل به على التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ما ورد في ألفاظ «التشهد»:

فقد أخرج الخركوشي رحمه الله تعالى في «شرف المصطفى» بسنده إلى محمد بن كعب القرظي قال: «ما بعث الله نبياً مرسلاً إلا أمره أن يعرض على أمته ﴿**لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**..﴾[2] الآية... إلى أن قال: فنادى جبريل عليه السلام: حيٍّ يا محمد ربك، فألهمني الله تعالى فقلت: التحيات لله والصلوات والطيبات فأجابه الله تعالى بثلاثة أجوبة فقال:

السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فلم يُرد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن تكون له كرامة لا تشاركه فيها أمته، فقال: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فلما رأت الملائكة كرامته ومناجاته مع المولى بغير ترجمان، قال كل واحد منهم: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله»[3]. انتهى.

---

(١) مقالات الكوثري (ص ٤٢٦).

(٢) من سورة البقرة، الآية (٢٨٤).

(٣) شرف المصطفى للإمام الخركوشي خ ط (١٨٩ ب). وانظره في المطبوع بتحقيق السيد نبيل بن هاشم الغمري باعلوي (٤/١٥٧-١٥٩) رقم (١٤٣٦) الذي طبع حديثاً - الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، على نفقة الشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم نائب حاكم دبي حفظه الله تعالى.

قلت: إن الحق سبحانه وتعالى يعلِّمُ عبدَه المقبل عليه على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم كيف يشكُرُه، وكيف يذكرُه، وأن يستحضر تلك النعم أثناء تلاوتِها على لسانه، أو تصويرها بأفعاله في حركاته وسكناته، فيقول حين يقبل على ربه: التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله تعالى، أي: كأن لسان حاله يقول: لك الشكر ربي على نِعمِ التحيات ونعم المباركات ونعم الصلوات ونعم الطيبات التي هي منك يا ربي، فإن سعادتي التي أجريتَها ضمن هذه المعاني - التي أحببتُها وتعشقتها - إنما هي منك يا الله! وما هي إلا وسائلُ مباركات أستَمِدُ من خلالها فضلَكَ الذي يوردُني قربَكَ، ويوصلُ لي حُبَّكَ، ويورثني ذِكرَكَ، يا خير مذكور.

فأسألك بنور وجهك أن تُسمِعَ آذانَ روحي، حتى ترتسمَ تلك المعاني في مظهري وصروحي، فأكونَ إنساناً سويّاً تقيّاً، خُلِعَتْ عليه خِلْعَةُ القبول وأُكْرِمَ بالصدقِ والوصول.

فحينما رد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «السلام علينا»، فذلك لاستبقاء أصل البركة والرحمة اللتين خصَّه الله بهما. فالرحمة والبركة هدية من الله لسيدنا محمد ﷺ.

وحينما قال ﷺ: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» أدخل معه في تلك المزايا الأنبياء والمرسلين، دون أن يحوزوا

مفاتيحها وأصولها، فإن أصولها عنده ﷺ، ولا يحصل لهم شيء منها إلا بواسطته وطريقه، لأن السلام معناه الاستسلام والأمان والانقياد والثبات[1]، فبسلام الأنبياء والمرسلين والصالحين والملائكة المقربين، يكون لهم ذلك الانقياد والاتباع، فيتم لهم الإسعاد من تلك المزايا، ومن الرحمة والبركة، ومن الأدب المتقدم على ذلك، وهو السلام، لأنه لا استسلام إلا بالسلام ، والسلام هو الأدب، والتأدب مع حضرة الله، وحضرة رسول الله، وحضرة الأنبياء والمرسلين، وحضرة عباد الله الصالحين.

وقد ثنيت الرحمة بورودها أولاً بقوله: (الصلوات)، وثانياً بقوله: (ورحمة الله)، وربّعت التحية، من الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم للمجيب جل جلاله، بقوله: (التحيات)، ومن المجيب للحبيب بقوله: (السلام عليك أيها النبيّ)، ومن الحبيب لنفسه الشريفة. ومنه ﷺ للأنبياء وعباد الله الصالحين، وأبقى سبحانه وتعالى الصلوات والطيبات عنده، لأنها من ذكره سبحانه، حيث إنه يصلي على نبيه ويثني عليه، فقد روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن أبي العالية قال: «صلاة الله: ثناؤه عليه عند

(١) أي تثبيت الله النعم لمن أولاها إياه وضمنها لمستحقها منه جل في علاه ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء»[1] في كل حين، ويطيِّبُ ذكر حبيبه ﷺ بتلك الصلوات، ويرفع قدره العظيم. وقد أبان لنا الحق سراً عظيماً حينما فصّل بين النعم الأربع، فالرحمات والبركات أصولُ ظهور عالم الأسباب، إذ لولاهما لما ظهر هذا العالم، وأبقى له سبحانه: الصلوات والطيبات، لأنهما قوام عالم الرحموت والرهبوت[2] فالرحمات والبركات تقومان على الصلوات والطيبات، والرحمات متعلقة بالصلوات، والبركات متعلقة بالطيبات. الرحمات تزكيها الصلوات، أي: تنميها وتبرزها، والبركات تنميها الطيبات وتزكيها.

فَسِرُّ الرحمات قائم على الصلوات، وسر البركات قائم على الطيبات، والرحمة مظهر من مظاهر الصلوات، والبركة مظهر من مظاهر الطيبات. فهي تتقابل مع الحقيقة والحق. فالرحمات هي الحقيقة، وحقها الصلوات، والبركات هي الحقيقة وحقها الطيبات.

ومما يعضد هذا المفهوم ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره ونصه: « . . . فإذا تجاوزت هذه العقبات وتخلصت عن هذه الدركات فقد

---

(١) صحيح البخاري (٤ / ١٨٠٢).

(٢) قد أخرج هذا المعنى البخاري في الصحيح، باب تفسير سورة الأنعام بقوله: ملكوت ملك مثل رهبوت خير من رحموت...(٤ / ١٦٩٢ برقم ٤٣٥٠)، ومثله في فيض القدير(٢ / ٤٩٢)، وفي الفتوحات المكية (٤ / ٢٠٠ - ٢٠١).

وصلت إلى الدرجات العاليات، وملكت الباقيات الصالحات، وانتهيت إلى عتبة جلال مدبر الأرض والسموات، فقل عند ذلك التحياتُ المباركات الصلوات الطيبات لله، فالتحيات المباركات باللسان، والصلوات بالأركان، والطيبات بالجنان وقوة الإيمان، ثم في هذا المقام يصعد نور روحك وينزل نورُ روح محمد ﷺ فيتلاقى الروحان، ويحصل هناك الروح والراحة والريحان، فلابد لروح محمد عليه الصلاة والسلام من محمدة وتحية، فقل: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فعند ذلك يقول محمد عليه الصلاة والسلام: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وكأنه قيل لك فهذه الخيرات والبركات بأي وسيلة وجدتها؟ وبأي طريق وصلت إليها؟ فقل بقولي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فقيل لك: إن محمداً هو الذي هداك إليه، فأي شيء هديتك له؟ فقل: اللَّهُمَّ صل على محمد وعلى آل محمد، فقيل لك: إن إبراهيم هو الذي طلب من الله أن يرسل إليك مثل هذا الرسول فقال: ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً** ﴾ فما جزاؤك له؟ فقل: كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، فيقال لك: فكل هذه الخيرات من محمد أو من إبراهيم أو من الله؟ فقل: بل من الحميد المجيد إنك حميد مجيد »[١].

(١) تفسير الرازي (١/ ٢٧٨).

الدليل التاسع: روى الإمام أبو داود عن أبي جُرَيّ جابر بن سليم قال: ثم رأيت رجلاً يصدر الناس عن رأيه؛ لا يقول شيئاً إلا صدروا عنه، قلت: من هذا؟ قالوا: هذا رسول الله ﷺ، قلت: عليك السلام يا رسول الله، مرتين. قال: «لا تقل عليك السلام، فإن عليك السلام تحية الميت، قل: السلام عليك»، قال :قلت: أنت رسول الله، قال: «**أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك، وإن أصابك عام سنة فدعوته أنبتها لك، وإذا كنت بأرض قفراء أو فلاة فضلت راحلتك فدعوته ردها عليك**»، قلت: اعهد إلي، قال: لا تسبن أحداً» قال: فما سببت بعده حراً ولا عبداً ولا بعيراً ولا شاة، قال: «ولا تحقرن شيئاً من المعروف، وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك، إن ذلك من المعروف، وارفع إزارك إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة، وإن امرؤ شتمك وعيرك بما يعلم فيك فلا تعيره بما تعلم فيه، فإنما وبال ذلك عليه»[1].

وأخرج أحمد في مسنده[2] عن أبي تميمة الجهيمي، عن رجل من قومه أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وآله سلم أو قال: شهدت

---

(١) رواه أبو داود (٤ / ٥٦) واللفظ له، والبيهقي في الكبرى (١٠ / ٢٣٦)، والشيباني في الآحاد والمثاني (٢ / ٣٩٢-٣٩٣)، والطبراني (٧ / ٦٥) رقم (٦٣٨٣).

(٢) مسند أحمد (٤ / ٦٥)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨ / ٧٢) وفيه الحكم بن فضيل وثقه أبو داود، وضعفه أبو زرعة وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح.

رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله أو قال: أنت محمد؟ فقال: نعم، فقال: ما تدعو؟ قال: أدعو الله عز وجل وحده، من إذا كان لك ضر فدعوته... الحديث.

قال الشيخ العلامة المحدث خليل السهارنفوري[1] عقب رواية أبي داود المتقدمة: اسم الموصول [الذي] إما صفة للفظ (الله) أو للفظ (رسول) [فدعوته] فعلى الأول بصيغة الخطاب، أي: دعوت الله بتضرعٍ وافتقار، وعلى الثاني بصيغة المتكلم، أي: فدعوت الله أن يكشف الضر عنك [كشفه] أي: دفعه عنك.

قلت: قد أوضحت رواية أبي تميمة المعنى رغم ضعفها، حيث إنها قررت بأن اللجوء إلى الله بأنامل التوسل من محض التوحيد، كما في رواية «يدعو الله وحده». والتوجه إلى الله تعالى لكشف الضر وطلب السقيا وطلب الضالة لا يكون إلا بالوسائل المشروعة، أو برحمة من الله ومنة، والشفاء أيضاً يكون بالدواء بإذن الله، وقد يكون برحمة من الله سبحانه ومنة أو بدعوة صالحة لمقبول الرجاء عند مولاه. وطلب السقيا يكون بالتوسل إلى الله. وطلب الضالة لا يكون إلا برحمة من الله ومنة أو بالوسائل المشروعة كما في الحديث «إذا انفلتت دابة أحدكم فليناد يا عباد الله احبسوا» وهو حديث صحيح

(١) بذل المجهود (١٦/٤٠٩) كتاب اللباس.

فالمتوسل هذا لم يطلب عباد الله الموكلين بإعادة الضالة دون الله، ولكن طلب من جند الله أن يحققوا طلبه، لأن الله قد خصهم بهذا الغرض، كما قد خص جبريل بإنزال الرسالات وتدمير بلاد الطغاة، وخص ميكائيل بإنزال الأرزاق، وخص ملك الموت بقبض الأرواح، وخص إسرافيل بنفخ البوق لخروج الأرواح، ونصر الله المسلمين يوم بدر بملائكة أرسلهم من السماء... والله سبحانه وتعالى قادر أن يفعل ذلك دون أولئك، ولكن حكمته اقتضت ذلك، فلا غضاضة إذا لجأ العبد إلى أولئك مع تحرير النية بأن الأمر لله وحده من قبل ومن بعد، والنية متحققة في هذه الأمة على ذلك المقتضى دون أدنى شك في أبسط مسلم على وجه البسيطة، وكم قد رأينا عوام المسلمين إذا ما سئلوا عن ذلك قالوا: نعلم أن الله هو الفعال ولكن نتقرب إليه بالمقبولين عنده، حيث أنَّ أعمالنا رغم صحتها إلا أننا نجهل قبولها عند الله بعدم عصمتها من الرياء. وقد حشد أهل العلم أمثلة كثيرة على ذلك في مجتمعات مختلفة وأزمان متفاوتة، وهذا الأعرابي يعرف الله سبحانه وتعالى ويعرف اللجوء إليه، ولكنه يجهل طرق التقرب وحقوق مقام الرسالة والرسول، فتأكد له ضمناً بعد السؤال والجواب أن الذي لا يخالف في أمر من أوامره لا بد أن يكون رسولاً، ويفهم من ذلك أيضاً أنه قد دخل على الملوك ورأى رؤساء القبائل

ولكنه يشاهد الآن أمراً غريباً جليه، يشاهد قائداً يدل على الله بعد التفرق عليه ومعرفة مقامه بأنه دال على الله تعالى، لذا قال له: «لا تقل: عليك السلام فإن عليك السلام تحية الميت» وهذا يظهر لنا أن السلام على المسلمين في قبورهم إنما كان بقوله صلى الله عليه وآله سلم: «سلام عليكم دار قوم مؤمنين» على أنهم أحياء في قبورهم كما قرر المصطفى صلى الله عليه وآله سلم في الحديث. فليتأمل.
إنما أراد عليه الصلاة والسلام أن ينبه أن عبارة الحصر التي سجلها إنما تكون للموتى، وذلك لأن تقديم الخبر يعد من أساليب الحصر، والميت إنما يحتاج إلى السلام والأمان، أما الأحياء فيحتاجون إلى السلام وغيره، من صلاح الأعمال الظاهرة والباطنة، ولذا تقرر أن السلام إنما هو لضبط أنوار الصلاة ولرفع الخوف والشعور بالأمان، من أجل ذلك وقف الأنبياء على الصراط يقولون: «سلم سلم»، ولكون أهل الجنة تحيتهم فيها سلام، فالسلام هو الأمان لمن لا يرجى له المزيد الكسبي، أما من كان يرجى له المزيد الكسبي من العمل والدعوة وتربية الخَلْق وتزكيتهم فهو يحتاج إلى كل العطايا التي يعقبها السلام، فإنه يطلب له القبول والأمان في عواقب العمل، ولذلك لما كان الرسول صلى الله عليه وآله سلم حياً في مثواه نقول في صلاتنا: السلام عليك، وهو من جملة ما نطلب من الله، وليس لنرفع عنه

الخوف بالأمان، لأن ذلك الأمان عائد لأمته ولمن تعلق به، وأما هو فقد أرسله الله رحمة لأمته، وأماناً، فلا يحتاج لأي شيء لشخصه.

فقد قصد الرسول صلى الله عليه وآله سلم أن يبين أن مقام الرسالة مأذون في الشفاعة، وهذا بيان لسنة قطعية، وفيه تصريح بالإذن لجواز التوجه إليه في قضاء الحاجات، مع الاعتقاد أنه سبب مأذون فيه، وليس تأثيره أصلياً، بل هو تأثير مجازي، كما في قوله تعالى: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾[1] وقوله: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ**﴾[2] ولو كان يقصد تأكيد أنه رسول الله صلى الله عليه وآله سلم وأن الله فعال في هذه الأشياء المذكورة لما احتاج إلى تأكيدها في مقام بيان الشريعة والعقيدة، وفي مقام المنة، ولَمَا أعاد الاسم الموصول، لأنه صدَّر الوصف بالموصول وجعله تابعاً للمضاف والمضاف إليه جميعاً، ومن المعلوم عند الأصوليين أن العموم أقرب المجازات إلى الحقيقة، فوجب المصير إليه.

فإذا رجع التابع إلى المضاف، فإنما رجع إلى السبب الذي أذن الله به أي: السبب الكسبي، أو السبب الجلي، وإذا رجع إلى المضاف إليه، فإنما رجع إلى مسبب الأسباب، ويكفي أن مسبب الأسباب إنما

(١) من سورة البقرة، الآية (٢٥٥).

(٢) من سورة الأنفال، الآية (١٧).

يُعْمِل أوامره سبحانه بالأسباب المقيدة أو المكتسبة، وهي رحمة الله - التي رسول الله ﷺ عنوانها ومجلاها.

قال سيدي العارف بالله أبو الحسن البكري:

ما أرسل الرحمن أو يرسل	من رحمة تصعد أو تنزل
في ملكوت الله أو ملكه	من كل ما يختص أو يشمل
إلا وطه المصطفى عبده	نبيه مختاره المرسل
واسطة فيها وأصل لها	يعلم هذا كل من يعقل
فلذ به في كل ما ترتجي	فإنه المقصد والمأمل
وعذ به من كل ما تختشي	فإنه الملجأ والمعقل

قال سيدي أبو المواهب الشاذلي في مزج الصلاة المشيشية:

«ولا شيء إلا وهو به منوط، وبسره الساري محوط» ثم علل ذلك بقوله: «إذ لولا الواسطة في كل صعود وهبوط لذهب - كما قيل - الموسوط»

فيحق لنا أن نقول: إن الموصول إنما هو تابع للمضاف، لأن المضاف له الصدارة في الجزأين كما في الرواية الصحيحة.

ولأن هذا الأسلوب يقتضي التأسيس، إذا دار الحديث بين التأكيد والتأسيس كان الحمل على التأسيس أولى لأنه زيادة حكم، ومعنى التأسيس بيان ما يجوز في حق الرسول صلى الله عليه وآله

سلم من كونه شافعاً ورسولاً بإذن الله، وليس لإثبات تأثير الله تعالى، لأن تأثيره المطلق معلوم بالبداهة، ولو حمل الحديث على إثبات بعض أجزاء ذلك المطلق لكان ذلك لغواً أو تحصيل حاصل، فكيف يعد هذا مدحاً في من بيده ملكوت كل شيء؟ وإنما قدرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام سبب مأذون فيه من قبل الله، مقيد بمصالح إضافية محدودة[1].

ومما يؤيد ذلك ما رواه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن ماجة: «إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي صلى الله عليه وآله سلم، ثم ليقل: اللَّهُمَّ افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللَّهُمَّ إني أسألك من فضلك»[2].

زاد ابن السني: «وإذا خرج فليسلم على النبي صلى الله عليه وآله سلم وليقل: اللَّهُمَّ أعذني من الشيطان الرجيم»[3].

ونقل القاضي عياض[4] عن عمرو بن دينار في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾[5]، إن لم يكن في

---

(١) قد أقرّ هذا الكلام فضيلة العلامة الشيخ الدكتور محمود عبدالمتجلي خليفة رحمه الله تعالى، وأقره أيضاً فضيلة الشيخ الدكتور محمد عبدالرب مقبل النظاري حفظه الله تعالى.

(٢) أبو داود (١/١٢٦) رقم (٤٦٥)، وابن ماجه (١/٢٥٤) رقم (٧٧٢، ٧٧٣)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/٢٧) رقم (٩٩١٨).

(٣) عمل اليوم والليلة لابن السني رقم (٨٦).

(٤) الشفاء للقاضي عياض (٢/٥٧).

(٥) من سورة النور، الآية (٦١).

البيت أحد فقل: السلام على النبي ورحمة الله وبركاته، وعلى عباد الله الصالحين، والسلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته.

قلت: يستنبط من هذا أن روح النبي ﷺ حاضرة طوَّافة ببيوت المسلمين، وكذلك أرواح الصالحين رضي الله عنهم، كما قرره القاضي عياض رحمه الله تعالى. وقال الإمام ملا علي القاري: أي لأن روحه عليه السلام حاضرة في بيوت أهل الإسلام. انتهى (شرح الشفاء ٣ / ٤٦٤).

الدليل العاشر: روى الإمام أحمد في مسنده عن ربيعة بن كعب رضي الله عنه قال: «كنت أخدم رسول الله ﷺ وأقوم له في حوائجه نهاري أجمع،حتى يصلي رسول الله ﷺ العشاء الآخرة، فأجلس ببابه إذا دخل بيته أقول: لعلها أن تحدث لرسول الله ﷺ حاجة،فما أزال أسمعه يقول رسول الله ﷺ :سبحان الله،سبحان الله، سبحان الله وبحمده، حتى أمل فأرجع، أو تغلبني عيني فأرقد، قال: فقال لي يوماً لما يرى من خِفَّتي له وخدمتي إياه: سلني يا ربيعة أعطك، قال: فقلت: أنظر في أمري يا رسول الله ثم أعلمك ذلك، قال: ففكرت في نفسي فعرفت أن الدنيا منقطعة زائلة، وأن لي فيها رزقاً سيكفيني ويأتيني، قال: فقلت: أسأل رسول الله ﷺ لآخرتي، **فإنه من الله عز وجل بالمنزل الذي هو به**، قال: فجئت فقال: ما

فعلت يا ربيعة؟ قال: فقلت: **نعم يا رسول الله، أسألك أن تشفع لي إلى ربك فيعتقني من النار**، قال: فقال: من أمرك بهذا يا ربيعة؟ قال: فقلت: لا والله الذي بعثك بالحق ما أمرني به أحد، ولكنك لما قلت: سلني أعطك، وكنتَ من الله بالمنزل الذي أنت به، نظرت في أمري وعرفت أن الدنيا منقطعة وزائلة، وأن لي فيها رزقاً سيأتيني، فقلت: أسأل رسول الله ﷺ لآخرتي، قال: فصمت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طويلاً ثم قال لي: **إني فاعل فأعني على نفسك بكثرة السجود**»[1].

يرشدنا هذا الحديث إلى أن للنبي ﷺ مكانة تنفع المؤمن، ولولا المكانة لما تحقق النفع، فذلك ما جعل الصحابي ربيعة بن كعب يتفطن لذلك، ويسأل النبي ﷺ لأجل ذلك.

ويرشدنا أيضاً إلى أن السائل ليس من الأعراب ولكن من الصحابة الراسخين في الإيمان حيث سأل لآخرته، وسؤال النبي ﷺ واستفسار النبي للصحابي فيه دلالة واضحة أن هذا الفهم من المعاني لا يدركه إلا ذو حظ عظيم ممن ثبت الله قلبه وشرح صدره للإيمان وفطن لمنزلة سيد الأنام لأن مكانته ومنزلته نافعة في الدنيا والآخرة، والسؤال بها مطية الإجابة وطريق الاستجابة، ولذا قال النبي ﷺ:

---

(١) رواه الإمام أحمد (٤/٥٩) واللفظ له، ومسلم (٤٨٩) مختصراً، والنسائي (١١٣٧)، وأبو داود (٢/٣٥) رقم (١٣٢٠) وغيرهم.

« سلني » ولم يقل: « سلِ الله » تأكيداً من النبي ﷺ لضرورة الواسطة الحقة وأنها حقيقة مهمة من حقائق الإيمان تقضى بها الحوائج وتنال بها الرغائب، وهو ﷺ من أعظمها وأجلها قداسة.

وكما يرشدنا الحديث إلى حرص النبي ﷺ على توفيق أمته في نيل المجد وتحقيق السؤدد إذا ما رشدت طريق المتقين وأهل الصدق واليقين.

الدليل الحادي عشر: مارواه البخاري عن مصعب بن سعد قال: رأى سعد رضي الله عنه أن له فضلاً على من دونه، فقال النبي ﷺ: « **هل تنصرون إلا بضعفائكم** »[1].

قلت: فقد فَقِهَ الصحابي رضي الله عنه أن المكانة لها أثر بالغ في التوسل والوسيلة، ولذا فإن منزلة النبي ﷺ نافعة، وقبول دعائه مترتب على منزلته. وبهذا تدحض شُبهة ابن تيمية ومن لف لفه بأن مكانة النبي ﷺ ومنزلته لا علاقة لها بالتوسل.

وأخرج مثله أبوداود عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ابغوني (اطلبوا لي) الضعفاء، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم »[2].

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٦).

(٢) رواه أبو داوود (٢٥٨٧)، والنسائي (٣١٧٩) والترمذي (١٧٠٢)، وأحمد (٥/١٩٨) وهو حديث صحيح.

وروى الطبراني مثله عن أمية بن عبد الله بن خالد، قال: «كان رسول الله ﷺ يستفتح بصعاليك المهاجرين»[١].

وفي رواية أيضاً: «كان النبي ﷺ يستفتح ويستنصر بصعاليك المسلمين»[٢] قال العلامة ملا علي القاري: «قال ابن الملك: بأن يقول: اللَّهُمَّ انصرنا على الأعداء، بحق عبادك الفقراء المهاجرين»[٣].

وفي هذا الحديث الصحيح دلالة على التوسل بالذوات الصالحة، كما هو ظاهر الدلالة.

وأيضاً وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ليأتين على الناس زمان يخرج الجيش، فيطلب الرجل من أصحابي، فيقال: فيكم رجل من أصحاب محمد؟ فيقولون: نعم، فيستفتحون به، فيفتح عليهم، ثم يأتي على الناس زمان، فيخرج الجيش، فيقال: هل فيكم رجل من أصحاب محمد؟ فيطلبونه فلا يجدونه، فيقال: هل فيكم أحد رأى أحداً من أصحاب محمد؟ فيطلبونه فلا يجدونه، فلو كان رجل من أصحابي وراء البحر لأتوه»[٤].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١/ ٢٩٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٦٢): ورجال الرواية الأولى رجال الصحيح، ورواه البغوي في شرح السنة (١٤/ ٢٦٤).

(٢) انظر التخريج السابق.

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٥/ ٦١).

(٤) رواه عبد بن حميد (١٠٢٠)، وأبو يعلى من طريقين مختلفين (٢١٨٢) و(٢٣٠٦)، ورجاله رجال الصحيح، عدا عقبة بن مكرم وهو ثقة، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٨)، وقال: رواه أبو يعلى من طريقين ورجالهما رجال الصحيح.

وفي هذا كله بيان لجواز التوسل بذوات الصحابة الكرام، إكراماً لهم، وتعليماً وتنبيهاً للأمة بأن التوسل بالذوات الصالحة جائز، وعلى هذا فالتوسل به ﷺ وبآله وأصحابه أفضل وأرجى قبولاً عند الله تعالى.

وفي هذا بيان بأن التوسل بالذوات هو الأصل، فلو لم يصحّ لما صحّ التوسل بالعمل الصالح.

وروي عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل الله عليّ أمانين لأمتي، ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾[١]، إذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة»[٢].

فيستنبط من هذه الآية،أن النبي ﷺ وسيلة الأمن من عذاب الله عز وجل، وأن الاستغفار ذريعة الأمن والسلامة[٣].

وفي حديث الشفاعة، الذي يبيّن كيف تأتي الخلائق إلى الأنبياء متوسلين بمقامهم، مستشفعين بهم، يقول ابن حجر رحمه الله تعالى: «وفيه (أي: الحديث) أن الناس يوم القيامة يستصحبون

---

(١) من سورة الأنفال، الآية (٣٣).

(٢) رواه الترمذي (٣٨٢).

(٣) وقد أثير حول هذه الآية شبهة تبين أن الوسيلة قد انقطعت، وقد أجبت عليها بفضل الله تعالى، فراجعها في المبحث الثاني من الفصل الثالث في آخر هذا الكتاب.

حالهم في الدنيا من التوسل إلى الله تعالى في حوائجهم بأنبيائهم، والباعث على ذلك الإلهام »[1].

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم، وقال: إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينا هم كذلك استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم »[2].

قال الإمام الكرماني: « قوله: « بمحمد » فيه اختصار، إذ قد يستغاث بغيرهما أيضاً، وتقديم الاستغاثة بغيره عليه لإظهار درجته ورفعة منزلته، حيث علم عجز الآخرين عن الشفاعة »[3].

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني: « لا يستحضر أحدٌ منهم (المستغيثين) أن ذلك المقام يختص به نبيّنا ﷺ، إذ لو استحضروا ذلك لسألوه من أول وهلة، ولما احتاجوا إلى التردد من نبيّ إلى نبيّ، ولعلّ الله تعالى أنساهم ذلك للحكمة التي تترتب عليه من إظهار فضل نبيّنا ﷺ »[4].

---

(١) فتح الباري (١١/ ٤٤١). وقد بينت زيادة على هذه الحكمة في التوطئة فلينظر.

(٢) رواه البخاري (١٤٧٥)، وابن جرير الطبري في تفسيره (١٥/ ١٤٦).

(٣) صحيح البخاري بشرح الكرماني (٨/ ١٩).

(٤) فتح الباري (١١/ ٤٤١).

الدليل الثاني عشر: «توسل بعض الحيوانات بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم».

ذكر الإمام محمد بن يوسف الصالحي في كتابه «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد»[1] قال: «**الباب الرابع في ذكر من توسل به صلى الله عليه وآله وسلم في حياته من الحيوانات**، روى ابن شاهين في «دلائله» عن عبد الله بن جعفر، رضي الله عنه، قال: «أردفني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم خلفه، فأسرّ إليّ حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس، وقال: كان أحبّ ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لحاجته هدفٌ أو حائش نخل، فدخل حائط رجل من الأنصار، **فإذا جملٌ،فلما رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حنّ وذرفت عيناه**، فأتاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فمسح سراته (ظهره) وذِفْراه (أصل الأذن) فسكت».

وفي رواية: «فسكن، ثم قال: من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: هذا لي يارسول الله، فقال: **أفلا تتقي الله في هذا الجمل، الذي ملّكك الله إيّاه، فإنه يشتكي إليّ أنك تجيعه وتدئبه**».

وروى مسلم[2]: «إلى حائش نخل» عن محمد بن عبدالله ابن أسماء.

(١) سبل الهدى الرشاد (١٢/ ٤٠٥).

(٢) صحيح مسلم رقم (٣٤٢).

ورواه أبو داود[1] بطوله عن موسى بن إسماعيل، عن مهدي بن ميمون. ثم قال الصالحي: والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وقد تقدّم بعضها في أبواب معجزاته ﷺ». اهـ.

الدليل الثالث عشر: وروى الإمام البيهقي في «دلائل النبوة» عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فمررنا بشجرة فيها فرخا حُمَّرة، فأخذناهما، قال: **فجاءت الحُمَّرة إلى النبي ﷺ وهي تَعَرَّض، فقال: «من فجع هذه بفرخيها»**؟ قال: فقلنا: نحن، قال: «ردوهما»، قال: فرددناهما إلى مواضعهما. وفي رواية أخرى: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فدخل رجل غيضة فأخرج بيضة حمرة، فجاءت الحُمَّرة ترفُّ على رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال: «أيكم فجع هذه»؟ فقال رجل من القوم: أنا أخذت بيضتها، فقال: «رُدَّهُ، رُدَّهُ رحمة لها»[2].

ويتضح لنا من هذه الآثار أن هذه الأحياء من حيوان وطائر ونبات تستجير برسول الله ﷺ فيجيرها ﷺ.

---

(١) سنن أبي داود حديث رقم (٢٥٤٢)، ورواه الإمام أحمد (١/ ٢٠٤).

(٢) رواه البيهقي في الدلائل (٦/ ٣٢-٣٣). وأخرجه أبو داود (٤/ ٣٦٧) رقم (٥٢٦٨). وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٦٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي عنه في التلخيص: صحيح.

والحمرة: بضم الحاء وفتح الميم المشددة، وقد تخفف: طائر صغير كالعصفور. وتعرض: يعني تتقرب للأرض وترفرف بجناحيها.

الدليل الرابع عشر: شفاعة النبي ﷺ لعمه أبي طالب والتخفيف عنه بسببه ﷺ.

أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن العباس بن عبدالمطلب أنه قال: يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «**نعم هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**».

هذا الحديث النبوي الشريف يدل دلالة جلية على تصريح النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنفعه لعمه، وأن هذا الأمر متعارف بينهم، لذا سأل العباس النبي ﷺ قائلاً له: هل نفعت أبا طالب بشيء؟ فقال ﷺ: «نعم...» إلخ.

فقوله ﷺ: «لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»:

ظاهر الحديث يدل دلالة صريحة على نفع النبي ﷺ لأبي طالب كما صرح به عامة أهل العلم، فقال الإمام الأبي في شرحه على صحيح مسلم (١ / ٣٧٥) عند قوله ﷺ: «لعله تنفعه شفاعتي»: كان ذلك بسببه وببركته ﷺ فسماه شفاعة مجازاً.

تنبيه:

إلا أن الإمام البرزنجي استدل بهذا الحديث، أن النبي ﷺ استمد نفعه لأبي طالب حتى أنقذه من الكفر، فكان مسلماً موحداً حقاً، واستدل بأدلة كثيرة كتب على منوالها إمام الحرمين شيخ مشايخ

مشايخنا السيد أحمد بن السيد زيني دحلان شيخ علماء البلد الحرام رسالة أسماها (أسنى المطالب في نجاة أبي طالب) أثبت فيها نجاة سيدنا أبي طالب عليه السلام.

وأكد الإمام البرزنجي والسيد ابن دحلان أن شفاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم محجوبة عن الكافرين لقوله تعالى: ﴿ **فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ** ﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ...** ﴾[2] الآية.

وأكد رحمه الله تعالى أن شفاعة النبي ﷺ قد نفعت أبا طالب وخفف عنه العذاب وأُخرج من غمرات النار إلى ضحضاح النار بشفاعة النبي ﷺ فوجب أن يكون من أهل الكبائر ما عدا الكفر ووجب أن يخرج من النار لأنه صار من عصاة الأمة الذين هم في الطبقة العليا، وكل ما كان كذلك يخرج ويدخل الجنة وهذا معنى قوله ﷺ: «أرجو من ربي كل خير» وهذا الحديث أخرجه ابن سعد (١/ ١٢٤)، وابن عساكر (٦٦/ ٣٣٦)، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سأل النبي ﷺ ما ترجو لأبي طالب؟ قال: «كل الخير أرجو من ربي».

ولا يُرجى كل الخير إلا لمؤمن، ولا يجوز أنه يراد بهذا ما حصل من تخفيف العذاب، فإنه ليس خيراً فضلاً عن أن يكون كل الخير،

---

(١) من سورة المدثر، الآية (٤٨).

(٢) من سورة التوبة، الآية (١١٣).

وإنما هو تخفيف الشر، وبعض الشر أهون من بعض والخير كل الخير دخول الجنة.

وأخرج تمّام الرازي في فوائده (٤ / ٣٤٠) بسند يعتد به في المناقب: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة شفعت لأبي وأمي وعمي أبي طالب وأخ لي كان في الجاهلية» أورده المحب الطبري في ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى.

وأخرجه أبو نعيم وصرح بأن الأخ كان من الرضاع.

قلت: إن حديث تمام فيه الوليد بن سلمة، وهو منكر الحديث وبهذا يكون الحديث ضعيفاً، يعتبر في الشواهد والمناقب كما قرره البرزنجي، واعتمده الشيخ زيني دحلان.

ثم إن حديث البخاري في أبي طالب يقوي معنى الحديث، ويفهم بأن النبي ﷺ نفع أبا طالب قبل الشفاعة العظمى من لفظ حديث الباب حين قال العباس للنبي ﷺ: هل نفعت أبا طالب بشيء؟ فكان الجواب: نعم، هو في ضحضاح من نار، ولو كان هذا الحال سيكون يوم القيامة لكان السؤال هل ستنفع أبا طالب بشيء؟ ويكون الجواب: نعم، سأنفعه، وبذا اتضح المعنى كما أشار إلى ذلك الإمام البرزنجي(١) والإمام زيني دحلان في «أسنى المطالب»(٢).

---

(١) سداد الدين ٣٧٣ - ٣٧٩.

(٢) انظر أسنى المطالب ص٤ - ٦.

إن هذه الشفاعة أدركت أبا طالب بالبرزخ فنقلته من غمرات النار إلى ضحضاح النار، فمن كان كذلك نال شفاعة من شفاعة النبي العظمى والتي ينالها عصاة هذه الأمة كالعاق لوالديه ومن في معناه كالمرأة التي عذبت الهرة وكالمتبختر، فأبو طالب أولى بذلك.

ولا يُنَغِّصُ على ذلك ما أخرجه البخاري (٣ / ١٤٠٩) رقم (٣٨٨٥) ومسلم (١ / ١٩٥) رقم (٢١٠) في صحيحيهما من طريق أبي سعيد الخدري: أن النبي ﷺ ذُكر عنده أبو طالب، زاد إسماعيل: عمه. فقال: لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار... الحديث.

فإن النبي ﷺ مخبر في هذا الحديث بأمرين:

أن أبا طالب ناج بشفاعته من دركات النار، ولم يجزم في الحديث بأن أبا طالب قد استنفد جميع الشفاعات، فإن النبي ﷺ ليست شفاعته محدودة بواحدة، ولكنها شفاعات متعددة كما صح في الأخبار.

فإذا صحت شفاعته لأهل الكبائر من أمته فمن باب أولى لأبي طالب الذي ما تلفظ بالشهادة وقلبه مطمئن وموقن بها مع التسليم بعدم صحة رواية ابن عباس التي أثبتت أنه سمعه قالها، فقد قرر أهل العلم كما ذكره البرزنجي اختلاف العلماء في النطق بالشهادتين، هل هو شطر أي جزء من مسمى الإيمان أو شرط لإجراء

الأحكام الدنيوية فيترتب على كونه شطراً ـ أي جزءاً ـ أن تارك ذلك مع القدرة يكون كافراً مخلداً في النار.

وعلى كونه شرطاً لإجراء الأحكام الدنيوية يكون غير مخلد، فقال: قال السفاقسي في شرح التمهيد: إن كون الإيمان التصديق فقط هو الرواية الصحيحة عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، وقال العلامة العيني في شرح البخاري: إن الإقرار باللسان شرط لإجراء الأحكام حتى من صدق الرسول في كل ما جاء به فهو مؤمن فيما بينه وبين الله تعالى وإن لم يقر بلسانه، وقال النسفي: إن ذلك هو المروي عن أبي حنيفة وإليه ذهب الإمام أبو الحسن الأشعري في أصح الروايتين عنه، وهو قول أبي منصور الماتريدي، وأقره الغزالي وإمام الحرمين، والباقلاني وأبو إسحاق الإسفراييني، ونسبه التفتازاني إلى جمهور المحققين، واستدل له بأحاديث منها قوله ﷺ: «من علم أن الله ربه وأني نبيه، صادقاً عن قلبه حرّم الله لحمه على النار» رواه الطبراني في الكبير[1].

ونقل التفتازاني في شرح المقاصد والكمال بن الهمام في المسايرة وابن حجر الهيتمي في شرح الأربعين أن شرط النجاة في الآخرة إذا لم يطالب به أي: (النطق بالشهادتين)، فإذا طولب به وامتنع عناداً

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ١٢٤) رقم (٢٥٣) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه. قال في المجمع (١/ ١٩): في إسناده عمر بن محمد بن صفوان، وهو واهي الحديث.

وكـراهة للإسـلام أي امـتنع امـتناعـاً على وجـه الإباء عن الإسـلام والكراهية والعناد فلا ينجو، ويفهم من هذا القيد أنه لو ترك النطق بعد المطالبة لا إباءً عنه ولا عناداً بل لعذر صحيح وقلبه مطمئن بالإيمان أنه لا يكون كافراً فيما بينه وبين الله تعالى، بل لو تكلم بالكفر والحالة هذه لا يضر، قال تعالى: ﴿**إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ**﴾[1].

ونقل النووي في شرح مسلم اتفاق أهل السنة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين على هذا القول، واعترضوا عليه في حكاية الاتفاق، قال ابن حجر في شرح الأربعين... والراجح أنه لا يُشترط خصوص اللفظ المعروف، وأن الإيمان ينعقد بغير اللفظ المعروف.

وقد قرر البرزنجي ذلك ونقل عن الحليمي في منهاجه مثله ثم قال البرزنجي رحمه الله كما في سداد الدين: إذا علمت ذلك فنقول: تواترت الأخبار أن أبا طالب كان يحب النبي ﷺ ويحوطه وينصره ويعينه على تبليغ دينه ويصدقه فيما يقول ويأمر أولاده كجعفر وعلي باتباعه ونصره وكان يمدحه في أشعاره بما يدل على تصديقه، وكان ينطق بأن دينه حق، فمن كلامه المعروف:

ولقد علمت بأن دين محمد   من خير أديان البرية دينا

---

(١) من سورة النحل، الآية (١٠٦).

ثم قال أيضاً:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً رسولاً كموسى صح ذلك في الكتب

اهـ. (سداد الدين ص٣٧٣ - ٣٧٩).

وأخرج ابن عساكر أيضاً من طريق عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لأبي طالب عندي رحماً سأبلها ببلالها»[١]. وقال ﷺ - كما في الحديث المشهور -: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة». وفي رواية: «هكذا وأشار بالسبابة والوسطى»[٢].

فائدة:

حدثنا الشيخ الداعية الحبيب عمر بن محمد بن حفيظ قال: قال الشيخ الحبيب عبد الله بن مُحْسن العطاس: إن هذا الحديث فيه إشارة إلى أبي طالب إذ أن أعظم يتيم في الوجود رسول الله ﷺ، وقد كفله أبو طالب، فهو أولى وأحق أن ينال هذه المنزلة من كافل أي يتيم آخر، وإذا كان مجرد كافل أي يتيم يعم ببركته الكافل فمن باب أولى أن تعم بركة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم كافله، انتهى بمعناه.

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق عن عمرو بن العاص. انظر كنز العمال (١٢/١٥٢).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، في الأدب، باب فضل من يعول يتيمين (٦٠٠٥)، وأبو داود في سننه في الأدب، باب فيمن ضم اليتيم رقم (٥١٥٠)، والترمذي في سننه في البر والصلة، باب ما جاء في كفالة اليتيم رقم(١٩١٩) وغيرهم، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه. وروى مسلم نحوه رقم (٢٩٨٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فمن شاء أن ينظر في نجاة أبي طالب فعليه بكتاب «سداد الدين»، و«أسنى المطالب» فقد أشبعا الموضوع بحثاً، وحاصل ما في الأمر أن النبي ﷺ كان وسيلة حقة لأبي طالب الذي اختلف أهل العلم في إسلامه، فكيف في حق من أسلم.

الدليل الخامس عشر: حديث ابن عبد الله بن أُبي بن سلول.

عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن عبد الله بن أُبي لما توفي جاء ابنه إلى النبي ﷺ فقال: **يا رسول الله، أعطني قميصك أكفنه فيه، وصلّ عليه، واستغفر له، فأعطاه النبي ﷺ قميصه، فقال**: «**آذني أصلي عليه**» فآذنه، فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر رضي الله عنه فقال: أليس الله نهاك أن تصلي على المنافقين؟ فقال: أنا بين خيرتين، قال: ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ**﴾[1] فصلى عليه، فنزلت: ﴿**وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا**﴾[2]. رواه البخاري (١٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٠)، والترمذي (٥ / ٢٧٩).

يستدل من هذا الحديث على جواز التبرك بآثار الصالحين سواء علمنا أنه مؤثر في حال الميت أو لا، هذا ما ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح عن ابن الورد وأقرّه، وعلق عليه ابن باز تعليقاً عرياً عن

---

(١) من سورة التوبة، الآية (٨٠).

(٢) من سورة التوبة، الآية (٨٤).

الصواب، هو أقرب إلى التعصب والهوى منه إلى العلم والحجة فقال: انظر ما تقدم من منع التبرك بآثار الصالحين سوى النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فهذا التخصيص من كيس ابن باز غفر الله له، إذ لو استظهر السنة بأكملها لم يجد مخصصاً، ومن العجيب أن ابن باز ومن لف لفه ينعقون في كل واد وينادون بأن كل مسألة ليس فيها أمر ولم يفعلها النبي باطلة، ويضربون بالقاعدة الأصولية: عدم النقل لا يعني نقل العدم، وهاهم يناقضون أنفسهم في هذا التقرير حينما يخصص ابن باز التبرك بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فهو محجوج بأن يأتي بالمخصص ومطالب بما طالب به أهل الحق من أنهم لو استظهروا السنة لن يأتوا بدليل أمر ومثله بمولد المصطفى أو بالإسراء والمعراج وغيرها من الأمور المباحة علماً بأن أهل الحق يستدلون في ذلك بأدلة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس قد بيناها في كتابنا «البدعة أصل من أصول التشريع» وفي كتاب «الاحتفاء بمولد المصطفى» فلينظرا. فسبحان الله ألا يعقل من يلزم خصمه بلازم لم يلتزم به، فهذا هو الضلال البعيد.

وهذا الحافظ ابن حجر يكذب ابن باز ومن لف لفه بما نقله عن الإمام الإسماعيلي في نهاية شرح هذا الحديث فقال: «واستنبط منه

الإسماعيلي جواز طلب آثار أهل الخير منهم للتبرك بها وإن كان السائل غنياً». (فتح الباري ٣ / ١٨٠).

قلت: وتخصيص النبي ﷺ بالبركة دون غيره لا مسوغ له إذ أنه يصطدم بالكتاب والسنة كما بينا في أكثر من موطن في كتابنا هذا وغيره لما ورد ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾[1]، ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾[2] ﴿... إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[3] وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[4] وقوله: ﴿بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[5].

إذن أطلقت البركة على غير النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم كما هو واضح وورد في السُّنة في الخبر الصحيح كما في صحيح البخاري أن موسى عليه السلام حينما أدركه الموت سأل ربه أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية حجر وقد ثبت لديك تبرك الصحابة بعضهم ببعض كما ثبت في حديث جرير أنه استاك ووضع السواك في الماء وأمر أهله أن يتباركوا بفضل ماء سواكه وغيرها من الآثار تعرضنا لها في بابها، فإذاً تخصيص النبي ﷺ بالبركة دون غيره لا مسوغ له،

---

(١) من سورة ق، الآية (٩).

(٢) من سورة آل عمران، الآية (٩٦).

(٣) من سورة الإسراء، الآية (١).

(٤) من سورة مريم، الآية (٣١).

(٥) من سورة النمل، الآية (٨).

وتحكم في النص، بل هو تمحل في الغلو الذي فرَّ منه قائله ورمى خصمه به فحينما يطلق على الموحدين من أهل القبلة أن التبرك بغير النبي شرك، وأن التبرك بالنبي ليس شركاً، تقرر بالنتيجة المنطقية أن التبرك بالنبي شرك ما دام النبي من جنس البشر إلا إذا أخرج النبي من حيز البشرية ورفعه إلى مقام الألوهية نعوذ بالله من عثرة اللسان وزلة الأقلام.

قلت: وقد تقرر من هذا أن التبرك والتوسل بالذوات مشروع من لجوء عبد الله بن عبد الله بن أُبي للنبي واستغاثته بالمصطفى وبقميصه وببصاق النبي ﷺ بفم أُبي كما في صحيح البخاري، رجاء أن يقبل الله من النبي ﷺ استغفاره وشفاعته في أُبي إمام المنافقين، طمعاً من عبد الله في كرم النبي ﷺ وعلمه بقدره ومقامه عند الله، وإقبال النبي ﷺ بإرضاء قلب عبد الله في أبيه - كما قرره الحافظ الإمام العيني في شرح البخاري (٨ / ٥٤) - حتى أنه ردّ على عمر كما هو في الحديث: «أنا بين خيرتين استغفر لهم أولا تستغفر لهم».

وكما ورد بأسانيد أخرى: «لأستغفرن لهم سبعين وسبعين وسبعين».

وكذا روي عن عروة بن الزبير ومجاهد بن جبر، وقتادة بن دعامة رواها ابن جرير بأسانيد، قال الحافظ أبو عبد الله بن كيران الفاسي:

فالمحصل من هذا أن الشفاعة لا تتوقف على إذن خاص بمعنى إطلاقها وإباحتها للشافع ولكن يتوقف نفعها على رضاه تعالى أن يقبلها واختياره لذلك... إلى أن قال رحمه الله تعالى: قلنا الاحتجاج إنما هو بوقوع الاستغفار لا بالتقرير عليه، والتقرير وعدمه قدر زائد على الوقوع، وذلك أن قوله تعالى: ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ** ﴾[1] استفهام إنكاري في معنى نفي عام بدليل الاستثناء المفرغ فكأنه قيل: لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه، فلو حمل على ظاهره لكان الإخبار بذلك النفي العام منافياً للوقوع، وإذا حمل على الرضى انتفت تلك المنافاة، فإن حملت الاستفهام على معنى النفي لم يلتئم بسابقه ولاحقه، ولزم أن يكون النهي سابقاً على قضية ابن أُبي لأنه مات آخر التاسعة كما في كتب التفسير والسير، والبقرة من أول ما نزل بالمدينة مع أن نظير هذه الآية نزل بمكة، كقوله تعالى في سورة يونس: ﴿ **مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ** ﴾[2] ومحال أن يفهم ﷺ النهي ويُقدم على المنهي. اهـ.

وقال العيني: فإن قلت: في رواية الواقدي أن عبد الله بن أبي هو الذي أعطاه النبي ﷺ، وفي رواية للبخاري أن ابنه هو الذي أعطاه، وفي رواية جابر أنه ألبسه قميصه بعد ما أخرجه من حفرته،

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٥٥).

(٢) سورة يونس، الآية (٣).

قلت: رواية الواقدي وغيره لا تقاوم رواية البخاري، وأما التوفيق بين روايتي ابن عمر وجابر رضي الله تعالى عنهما أن معنى قوله: أعطاه في حديث ابن عمر أنعم عليه فأطلق على الوعد اسم العطية، وقال ابن الجوزي: يجوز أن يكون أعطاه قميصين، انتهى مختصراً (عمدة القاري: ٨/ ٥٤).

وقال القسطلاني: وقد ورد ما يدل على أن ابنه فعل ذلك بعهد من أبيه فأخرج عبدالرزاق عن معمر والطبري من طريق سعيد كلامهما عن قتادة قال: أرسل عبد الله بن أبي إلى النبي ﷺ فلما دخل عليه قال: أهلكك حب يهود، قال: يا رسول الله! إنما أرسلت إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتوبخني، ثم سأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه. قال في (الفتح): هذا مرسل مع ثقة رجاله، ويعضده ما أخرجه الطبراني عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما مرض عبد الله بن أبي جاءه النبي ﷺ فقال: امنن عليّ فكفني في قميصك وصل عليَّ. اهـ. (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ٣/ ٣٤٢).

قال صاحب لامع الدراري: وهذا لا ينافي ما تقدم من رواية البخاري لأنه ليس في هذه الروايات الإعطاء بل فيها سؤاله القميص، فأعطاه النبي ﷺ بعد ما مات على استدعاء ابنه فلم يبق التعارض إلا في روايتي البخاري، وما أجابوا به لا يزال إيراد السندي المذكور

قبل، ويمكن التقصي عنه بأن المراد بالمشي معه هو المشي إلى الحفرة بعد ما أخرج عنها لا المشي من أول الأمر لما تقدم قريباً أنهم خشوا المشقة عليه ﷺ فبادروا في إدخاله الحفرة قبل وصوله ﷺ وسيأتي حديث ابن عباس عن عمر رضي الله تعالى عنهما في البخاري في التفسير ليس فيه ذكر المشي معه. (لامع الدراري على صحيح البخاري ٤ / ٣٩٢).

قال العيني: فإن قلت: ما الحكمة في دفع قميصه وهو كان رأس المنافقين؟ قلت: أجيب عنه بأجوبة فقيل: كان ذلك إكراماً لولده، وقيل: لأنه ما سُئل عن شيء فقال: لا، وقيل: إنه ﷺ قال: إن قميصي لن يغني عنه شيئاً من الله تعالى إني أؤمل أن يدخل في الإسلام بهذا السبب، فروي أنه أسلم من الخزرج ألف لما رأوه يطلب الاستشفاء بثوب رسول الله ﷺ والصلاة عليه، وقال أكثرهم: إنما ألبسه قميصه مكافأة لما صنع في إلباس العباس عم النبي ﷺ قميصه يوم بدر وكان العباس طوالاً فلم يأت عليه إلا قميص ابن أبي، وروى عبد بن حميد عن ابن عباس أن النبي ﷺ لم يخدع إنساناً قط غير أن ابن أبي قال يوم الحديبية كلمة حسنة وهي أن الكفار قالوا: لو أنت طفت بالبيت فقال: لا، لي في رسول الله ﷺ أسوة حسنة فلم يطف اهـ . (عمدة القاري ٨ / ٥٤) .

وقال القسطلاني: وأما قول المهلب: رجا أن يكون معتقداً لبعض ما كان يظهر من الإسلام فينفعه الله بذلك، فتعقبه ابن المنير فقال: هذه هفوة ظاهرة، وذلك لأن الإسلام لا يتبعض والعقيدة شيء واحد لأن بعض معلوماتها شرط في بعض والإخلال ببعضها إخلال بجملتها، وقد أنكر الله تعالى على من آمن بالبعض وكفر بالبعض كما أنكر على من كفر بالكل اهـ. (إرشاد الساري ٣ / ٣٤٢).

أخرج البخاري برقم (١٣٣٩) في باب من أحب الدفن في الأرض المقدسة أو نحوها:

حدثنا محمود حدثنا عبدالرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « أرسِلَ ملك الموت إلى موسى عليهما السلام، فلما جاءه صكه، فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت. فرد الله عليه عينه وقال: ارجع فقل له يضع يده على متن ثور، فله بكل ما غطت به يده بكل شعرة سنة. قال: أي رب، ثمَّ ماذا؟ قال: ثمَّ الموت. قال: فالآن. فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر. قال: قال: رسول الله ﷺ: «**فلو كنت ثَمَّ، لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر**».

وأخرجه البخاري (١٣٣٩) في الجنائز: باب من أحب الدفن في الأرض المقدسة، و (٣٤٠٧) في الأنبياء: باب وفاة موسى،

ومسلم (٤ / ١١٨ - ١١٩) في الجنائز: باب نوع آخر في التعزية، وابن أبي عاصم في « السنة » (٥٩٩)، والبيهقي في « الأسماء والصفات » ص٤٩٢ عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة موقوفاً. وأخرجه عبدالرزاق في مصنفه (٢٠٥٣٠). وأخرج أحمد (٢ / ٥٣٣)، والطبري في التاريخ (١ / ٤٣٤) من طرق عن حماد ابن سلمة. وأخرجه ابن حبان في صحيحه برقم (٦٢٢٣).

وأخرج البخاري في صحيحه برقم (١٢٩٥) من طريق عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع ..... إلى أن قال: « اللَّهُمَّ أمضِ لأصحابي هجرتهم، ولا تردهم على أعقابهم، لكن البائس سعد بن خولة. يرثي له رسول الله ﷺ أن مات بمكة »، حيث فاته شرف الهجرة وبركة الجوار مع النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بالمدينة المنورة.

قلت: قول النبي ﷺ: « لأستغفرن لهم سبعين وسبعين وسبعين » طمعاً من النبي ﷺ في فضل ربه بأن يقبل شفاعته في ابن أبي مع عدم القطع على الله في قبولها، والذي يظهر والله أعلم بعد هذا التقرير أن مغفرة الله لابن أُبي راجعة لفضل الله تعالى.

وهذا الحديث نص على أن النبي ﷺ مستغاث ورحمة يفزع إليه في الملمات، كما لجأ عبد الله بن عبد الله بن أبي في شأن والده

رغم أن والده منافق بيِّنُ النفاق، أسأل الله تعالى أن تنالنا شفاعة رسول الله ﷺ.

ومما روي أيضًا في التوسل بالنبي ﷺ في حياته ما ذكره الإمام ابن جرير الطبري في تاريخه في هزيمة كسرى فقال: «حدثني يحيى ابن جعفر، قال أخبرنا علي بن عاصم، قال: أخبرنا خالد الحذاء، قال: سمعت عبد الرحمن بن أبي بكرة، يقول: بينما كسرى بن هرمز نائم ليلة في هذا الإيوان، إيوان المدائن، ،الأساورة محدقون بقصره؛ إذ أقبل رجل يمشي معه عصا؛ حتى قام[1]، على رأسه، فقال: يا كسرى بن هرمز؛ إنّي رسول الله إليك أن تُسلم، قالها ثلاث مرات - وكسرى مستلق ينظر إليه لا يجيبه؛ ثم انصرف عنه ثم آتاه في المرة الثالثة فقال له نفس الكلام ثم قال: يا كسرى إنك قد آبيتَ عليّ، الله ليكسرنّك الله كما أكْسِرُ عصاي هذه، ثم كسرها وخرج، فأرسل كسرى إلى الحرس، فقال: ألم آمركم ألاّ يدخل عليّ الليلة أحد، أهل ولا ولد! قالوا: ما دخل عليك من قبِلَنا أحد! قال: فلم يلبث أن وَثب عليه ابنُه فقتله.

قال الطبري: ومن ذلك ما كان من أمر ربيعة والجيش الذي كان أنفذه إليهم كسرى أبرويز لحربهم، فالتقوا بذي قّار.

---

(١) ت، ح: «وقفَ».

وذُكـر عن النبيّ ﷺ أنه لما بلغه ما كان من هزيمة ربيعة جيشَ كِسْرى، قـال: «هذا أوّل يوم انتصف العرب من العجم؛ وبي نُصروا».

وهو يوم قُـراقِـر ويوم الحنْو حِنْوذى قـار، ويوم حِنْو قُـراقِـر، ويوم الجُبابات، ويوم ذي العُجْرُم، ويوم الغَذَوان، ويوم البطحاء، بَطْحاء ذي قار، وكلّهنّ حول ذي قار» انتهى[1].

الدليل السادس عشر: استغاثة الصحابي عمرو بن سالم الخزاعي بالنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو في مكة والنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم في المدينة.

لما أورده الحافظ ابن حجر في الإصابة وابن سيد الناس في كتاب المدح من رواية أبي طاهر المخلص عن ابن صاعد (قال) حدثني طاهر المخلص، عن ابن صاعد حدثنا يحيى بن سليمان بن نضلة، حدثني عمي محمد عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن ميمونة بنت الحارث أن النبي ﷺ قام[2] عندها في ليلتها للصلاة فسمعته يقول: لبيك لبيك ثلاثاً فقلت يا رسول الله سمعتك تكلم إنساناً، قال:

(١) تاريخ الطبري المسمّى بتاريخ الأمم والملوك (٢/ ١٩٢ـ ١٩٣) تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، وينظر طبعة مكتبة البيان ـ بيروت (٢/ ١٤٥ـ ١٤٦).

(٢) (ثم قام فتوضأ) كما في رواية ابن سيد الناس في المدح. انظر المدح (١٩٧).

هذا راجز[1] بني كعب يسترحمني[2] ويزعم أن قريشاً أعانت عليهم بني بكر، قال: فأقمنا ثلاثاً فصلى النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فسمعت الراجز ينشد، (فذكرت بعض الأبيات)[3]، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «نُصرت نُصرت» ثلاثاً، أو

---

(١) وقد وردت في بعض الروايات زاجر كما في المدح لابن سيد الناس (ص١٩٧).

(٢) يستصرخني كما في رواية ابن سيد الناس في المدح.

(٣) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (٢/٥٣٣-٥٣٤)، وذكره ابن حجر في الإصابة (٧/١٠٨)، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/٤٣٣)، وفي الصغير (٢/٧٣)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد(٦/١٦٤) وقال: «فيه يحيى بن سليمان وهو ضعيف»،كما ذكره ابن سيد الناس في منح المدح بترجمة عمرو بن سالم (ص١٩٧)، كلهم من طريق ابن صاعد.

ولم نعثر على الرواية في النسخة التي بين أيدينا من فوائد ابن صاعد فلعلها من الساقط منه، والله أعلم.

قال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٩/١٥٤) عن يحيى بن سليمان بن نضلة: «كتب عنه أبي وسالته عنه فقال شيخ حدث أياماً ثم توفي».

وذكره الحافظ في لسان الميزان (٧/٤٠٤-٤٠٥) وقال: «روى عن مالك وسليمان بن بلال وعنه ابن صاعد وكان يغتنم أمره. وقال ابن عقدة: سمعت ابن خراش يقول: لا يساوي شيء. قال الحافظ ابن حجر: قلت: وقع لي من عالي حديثه». اهـ.

وذكره ابن حبان في الثقات (٩/٢٦٩) وقال: «يخطئ ويهم».

وقال ابن عدي في الكامل (٧/٢٧١٠): «كان ابن صاعد يقدم ويفخم أمره وهو يحدث عن مالك بالموطأ وغير الموطأ ويحدث عن ابن أبي الزياد وسليمان بن بلال والكبار من المؤذنين (وهو) يروي عن مالك وأهل المدينة أحاديث عامتها مستقيمة.

قلت: وهذه الرواية عن أهل المدينة كما صرح بذلك ابن سيد الناس في منحه (ص١٩٧) فقال بعد سوق السند إلى أبي طاهر قال: حدثنا يحيى بن محمد بن صاعد إملاء حدثنا يحيى بن سليمان ابن نضلة الخزاعي بالمدينة سنة خمس وأربعين ومائتين قال: حدثني عمي محمد بن نضلة عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن ميمونة، وساق الحديث، =

«لبيك لبيك» ثلاثاً، فخرج رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم فلما كان بالروحاء نظر إلى سحاب منصب، فقال: «هذا السحاب لَيُنصَبُّ ينصر بني كعب»، وذكر تمام الخبر[1].

وله شاهد حسن موصول من رواية ابن إسحاق تبين صدق الحادثة فقد روى ابن إسحاق في مغازيه (قال): حدثني الزهري عن عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة أنهما حدثاه جميعاً أن عمرو بن سالم الخزاعي ركب إلى رسول الله ﷺ لما كان من أمر خزاعة وبني بكر بالوتير حتى قدم المدينة يخبره الخبر فأنشده:

اللهم إني ناشد محمدا حِلف أبينا وأبيه الأتلدا

كنت لنا أباً وكنا ولدا ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا

= و«محمد بن نضلة الخزاعي المدني من رجال جعفر الصادق كما ذكره الطوسي في رجاله (ص٣٠٢)».

و نستشف من كلام ابن عدي وابن صاعد وابن حجر توثيق الرجل، وأنه حسن الحديث وليس بضعيف كما جنح إليه الهيثمي، وصرح ابن سيد الناس بأن روايته هذه بالمدينة، عن عمه محمد بن نضلة، وهو مدني، وذهب ابن عدي في الرجل بأن روايته عن مالك وأهل المدينة مستقيمة، وهذه الرواية عن أهل المدينة فهي رواية مستقيمة، ويفسر كلام ابن حبان حين أورده في كتابه الثقات واتهمه بالوهم والخطأ فلعل ذلك في روايته عن غير مالك وأهل المدينة أضف إلى أن الحافظ ابن حجر أورد الرواية في الفتح (٧/ ٥٢٠) كتاب المغازي - باب غزوة الفتح ولم يعلق عليها **فهي على أقل تقدير حسنة ولها أصل حسن موصول.** قاله الحافظ. اهـ.

(١) من رواية ابن سيد الناس في المدح (ص١٩٨).

فانصر رسول الله نصراً أعتدا   وادع عباد الله يأتوا مددا

فيهم رسول الله قد تجردا   إن شيم خسفاً وجهه تزبدا

في فيلق كالبحر يجري مزبدا   إن قريشاً أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا   وزعموا أن لست تدعو أحدا

وهم أذلّ وأقلّ عددا   قد جعلوا لي بكداءٍ رصدا

هم بيتونا بالوتير هُجّدا   فقتلونا رُكّعاً وسُجّدا[1]

وهي أطول من هذا فقال رسول الله ﷺ **« نصرت يا عمرو بن سالم »**.

* * *

(١) أخرجه أبو نعيم (٤/٢٠١٢-٢٠١٣) برقم (٢٠٦٤)، وابن الأثير في أسد الغابة (٤/١٠٤)، وفي الكامل (٢/٢٣٩-٢٤٠). تاريخ مدينة دمشق (٤٣/٥٢٠).

وذكر الرواية الحافظ في الفتح بعدة طرق وقال عن طريق الواقدي حسن موصول. اهـ.

المبحث الثالث

في بيان مشروعية التوسُّل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: في بيان حياة الأنبياء عليهم السلام في قبورهم.

المطلب الثاني: في ذكر أدلة التوسُّل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد انتقاله.

المطلب الثالث: في الاستغاثة والتوسل بقبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

المطلب الأول

في بيان حياة الأنبياء عليهم السلام في قبورهم

قبل الخوض في الأدلة التي تثبت أن التوسل يجوز بعد الموت، هناك بعض الأسئلة التي نريد أن نوضح جوابها فنقول:

١ـ هل الموت فناء محض؟ أو هو انتقال من دار إلى دار؟.

٢ـ وهل هناك فرق في القدرة وعدمها بين الحي والميت؟ .

٣ـ هل ينتفع الحي من الميت؟ أم أن النفع يكون من الحي للميت فقط، كأن يدعو له بعد موته مثلاً؟.

٤ـ هل كرامة ومنزلة النبي، أو الصدّيق، أو الولي، أو الرجل الصالح، تنقطع بعد الموت؟.

وفي الإجابة على هذه التساؤلات نقول وبالله التوفيق:

إن الموت ـ كما قرّر أهل السنة والجماعة ـ هو انتقال من دار الدنيا إلى دار البرزخ.

يقول حجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله في كتابه «الإحياء»: «الذي تشهد له طرق الاعتبار، وتنطق به الآيات والأخبار، أن الموت معناه تغير حال فقط، وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد، إما معذَّبة، وإما منعّمة»[1].

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/٤٩٣).

وقال السيوطي في «بشرى الكئيب»: «قال العلماء: الموت ليس بعدم محض، ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن»[1].

وقال أيضاً في «إنباء الأذكياء في حياة الأنبياء»: «حياة النبي ﷺ في قبره هو وسائر الأنبياء معلومة عندنا علماً قطعياً، بما قام عندنا من الأدلة في ذلك، وتواترت به الأخبار الدالة على ذلك»[2].

وقال في «مرقاة الصعود»: «تواترت بها الأخبار» أي: حياتهم.

وذكر مثله الماوردي، وابن تيمية في «الفتاوى».

وقال ابن القيم في كتاب «الروح»: «ومعلوم بالضرورة أن جسده ﷺ في الأرض طري مُطَرّاً، وقد سأله الصحابة كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أَرِمْت؟ فقال: «**إن الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»[3].

وقال القرطبي في «التذكرة»: «قال شيخنا أحمد بن عمر القرطبي صاحب المفهم في شرح صحيح مسلم: إن الموت ليس بعدم محض، وإنما هو انتقال من حال الى حال، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين

---

(١) الحاوي للفتاوي للسيوطي ٢/١٤٧.

(٢) إنباء الأذكياء في حياة الأنبياء (ص٣٤).

(٣) الروح (ص١١١). والحديث أخرجه النسائي (١٣٧٤)، وأبو داود (١٠٤٠)، وابن ماجه (١٠٨٥)، وأحمد (٤/٨)، وهوحديث صحيح.

مستبشرين، وهذه صفة الأحياء في الدنيا، وإذا كان هذا في الشهداء، كان الأنبياء بذلك أحق وأولى، مع أنه قد صح عن النبي ﷺ «أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء»[١]، وأن النبي ﷺ قد اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس، وفي السماء، وخصوصاً بموسى عليه السلام[٢]، وقد أخبرنا النبي ﷺ بما يقتضي أن الله يرد عليه روحه، حتى يرد السلام على كل من يسلم عليه[٣]، إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء، إنما هو راجع إلى أن غيِّبوا عنا بحيث لا ندركهم، وإن كانوا موجودين أحياء، وذلك كالحال في الملائكة، فإنهم موجودون أحياء، ولا يراهم أحد منّا، إلا من خصه الله بكرامة منه سبحانه»[٤].

والأدلة على حياة الأنبياء في قبورهم كثيرة، منها ما هو آيات، ومنها ما هو أحاديث وآثار.

أولاً: الأدلة من القرآن الكريم:

الدليل الأول: قول الله تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾[٥].

(١) يأتي تخريجه.
(٢) أخرجه مسلم (٤/١٨٤٥)، برقم (٢٣٧٥) و(١/١٥٦) برقم (١٧٢).
(٣) يأتي تخريجه.
(٤) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي (١/١٩٩).
(٥) من سورة آل عمران الآية (١٦٩).

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿**وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ**﴾[1].

فقد دلت هاتان الآيتان على حياة الذين يقتلون في سبيل الله تعالى، والقتل في سبيل الله عام يشمل الشهادة في الحروب وغيرها، كما دلت الأحاديث والآثار على ذلك، وإذا كان هذا حال الشهداء، فما بالك بحال الأنبياء عامة، وحال نبيّنا وسيدنا محمد ﷺ خاصة، وقد جمع الله له بين الشهادة والنبوة، ولا شك أنهم دونه بهذه المزية.

قال أبو جعفر الطبري: «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله: هو ميت، فإن الميت من خلقي من سلبتُه حياته، وأعدمته حواسه، فلا يلتذ لذة، ولا يدرك نعيماً، فإن من قتل منكم ومن سائر خلقي في سبيلي، أحياء عندي، في حياة ونعيم، وعيش هنيّ، ورزق سنيّ، فرحين بما آتيتهم من فضلي، وحبوتهم به من كرامتي»[2].

وقال القرطبي في تفسيره: «أما من تأوّل في الشهداء أنهم أحياء، بمعنى أنهم سيحيون، فبعيدٌ يرده القرآن والسنة، فإن قوله تعالى: ﴿**بَلْ أَحْيَاءٌ**﴾ دليل على حياتهم، وأنهم يرزقون ولا يرزق إلا حيّ»[3].

---

(١) من سورة البقرة الآية (١٥٤)

(٢) تفسير الطبري (٢/٤٢).

(٣) تفسير القرطبي (٤/٢٧٠).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الميت يعرف من يحمله، ومن يغسله، ومن يدليه في قبره»[1].

وعن أنس رضيَ الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «العَبدُ إذا وُضِعَ في قبره، وتوُلِّيَ، وذَهَبَ أصحابهُ، **حتّى إنّهُ ليسمعُ قرعَ نعالهم**، أتاهُ ملكانِ فأقعداهُ، فيقولانِ لهُ: ما كنتَ تقولُ في هذا الرّجلِ، محمّدٍ ﷺ؟ فيقولُ: أشهدُ أنّهُ عبد الله ورسوله، فيقالُ: انظُرْ إلى مقعدكَ من النّارِ، أبدَلَكَ اللهُ به مقعداً من الجنّة».

قال النبيُّ ﷺ: «يراهما جميعاً، وأمّا الكافر، أو المنافق، فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقولُ الناسُ، فيقالُ: لا دريْتَ ولا تلَيْتَ، ثمَّ يضربُ بمطرقةٍ من حديدٍ ضربةً بينَ أذنيهِ، فيصيحُ صيحةً يسمعها من يليهِ إلاّ الثّقلينِ»[2].

ثانياً: الأدلة مِن الحديث الشريف:

الدليل الأول: ما رواه الإمام أحمد وأبو داود بسند صحيح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من أحد يسلم علي إلا ردّ الله عليّ روحي حتى أردّ عليه السلام**»[3].

---

(١) رواه أحمد (٣/٣)، والطبراني في الأوسط (٨/٢١١)، من طريقين يُحسَّنُ بهما. والخطيب البغدادي في موقع أوهام الجمع والتفريق (٢/٢٦٤)، وفي تاريخ بغداد (١٢/٢١١).

(٢) رواه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠).

(٣) رواه أبو داود رقم (٢٠٣٤)، وأحمد (٢/٥٢٧). وصححه النووي في الأذكار وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٦/٤٨٨): رواته ثقات، وصححه في تلخيص الحبير (٢/٢٦٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٥/٢٤٥) رقم (١٠٠٥٠).

الدليل الثاني: وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون**»[1]. ويشهد له حديث أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر، **وهو قائم يصلي في قبره**»[2].

قال الإمام أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي: «وهذا الحديث يدلُّ بظاهره على أنه ﷺ رأى موسى رؤية حقيقية في اليقظة، وأن موسى كان في قبره حيّاً، يصلّي فيه الصلاة التي كان يصلّيها في الحياة، وهذا كلّه ممكن لا استحالة في شيءٍ منه، وقد صحّ أن الشهداء أحياءٌ يرزقون، ووجد منهم من لم يتغير في قبره من السنين. وإذا كان هذا في الشهداء، كان في الأنبياء أحرى وأولى. فإن قيل: كيف يصلّون بعد الموت، وليست تلك الحال حال تكليف؟ فالجواب: أن ذلك ليس بحكم التكليف، وإنما ذلك بحكم الإكرام لهم والتشريف، وذلك أنهم كانوا في الدنيا حبّبت لهم عبادة الله، والصلاة، بحيث كانوا يلازمون ذلك، ثم توفّوا وهم على ذلك، فشرّفهم الله تعالى بعد موتهم بأن أبقى عليهم ما كانوا

---

(١) رواه أبو يعلى رقم (٣٤٢٥)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢١١): رواه أبو يعلى والبزار، ورجال أبي يعلى ثقات. وصححه البيهقي في جزء حياة الأنبياء في قبورهم، ووثق رجال رواية البيهقي وأبي يعلى الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٤٨٧).

(٢) رواه مسلم (٢٣٧٥)، وابن حبان (١/ ٢٤١ ـ ٢٤٢) رقم (٤٩)، والنسائي (١٦٣١)، وأحمد (٣/ ١٢٠).

يُحبُّون، وما عرفوا به، فتكون عبادتهم إلهاميّة كعبادة الملائكة، لا تكليفية، وقد وقع مثل هذا لثابتٍ البُنانيّ رضي الله عنه، فإنه حبِّبت الصلاة إليه حتى كان يقول: اللّهم إن كنت أعطيت أحداً يصلّي لك في قبره، فأعطني ذلك، فرآه ملحِدُه بعدما سوّى عليه لحدَه قائماً يُصلّي في قبره»[1].

وقال السيوطي في شرحه على «سنن النسائي»: «قال الشيخ بدر الدين بن الصاحب في مؤلف له في «حياة الأنبياء»: هذا صريح في إثبات الحياة لموسى في قبره، فإنه وصفه بالصلاة وأنه قائم، ومثل ذلك لا يوصف به الروح، وإنما يوصف به الجسد، وفي تخصيصه بالقبر دليل على هذا، فإنه لو كان من أوصاف الروح لم يحتج لتخصيصه بالقبر. وقال الشيخ تقي الدين السبكي رحمه الله في هذا الحديث: الصلاة تستدعي جسداً حيّاً، ولا يلزم من كونها حياة حقيقة، أن تكون الأبدان معها كما كانت في الدنيا، من الاحتياج إلى الطعام والشراب، وغير ذلك من صفات الأجسام التي نشاهدها، بل يكون لها حكم آخر»[2].

وقال ابن حجر العسقلاني: «قال عياض: رؤيا النبي ﷺ للأنبياء على ما ذكر في الأحاديث، إن كان مناماً فلا إشكال فيه، وإن

---

(١) المفهم لما أشكل من كتاب صحيح مسلم (٦/ ١٩٢).

(٢) شرح السيوطي على سنن النسائي (٣/ ٢١٥ ـ ٢١٦).

كان في اليقظة ففيه إشكال، وقد تقدم من رواية ابن عون عن مجاهد عن ابن عباس في حديث الباب من الزيادة «وأما موسى فرجل آدم جعد، على جمل أحمر، مخطوم بخلبة، كأني أنظر إليه إذا انحدر في الوادي» وهذا مما يزيد الإشكال وقد قيل عن ذلك أجوبة:

أحدها: أن الأنبياء أفضل من الشهداء، والشهداء أحياء عند ربهم، فكذلك الأنبياء، فلا يبعد أن يصلوا ويحجوا ويتقربوا إلى الله بما استطاعوا، مادامت الدنيا ـ وهي دار تكليف ـ باقية.

ثانيها: أنه ﷺ أري حالهم التي كانوا في حياتهم عليها، فمثلوا له كيف كانوا، وكيف كان حجهم وتلبيتهم، ولهذا قال أيضاً في رواية أبي العالية عن ابن عباس عند مسلم: «كأني أنظر إلى موسى، وكأني أنظر إلى يونس».

ثالثها: أن يكون أخبر عما أوحي إليه ﷺ من أمرهم وما كان منهم.

فلهذا أدخل حرف التشبيه في الرواية، وحيث أطلقها فهي محمولة على ذلك والله أعلم، وقد جمع البيهقي كتاباً لطيفاً في حياة الأنبياء في قبورهم، أورد فيه حديث أنس: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون». أخرجه من طريق يحيى بن أبي كثير، وهو من

رجال الصحيح عن المستلم بن سعيد، وقد وثقه أحمد وابن حبان عن الحجاج بن الأسود، وهو ابن أبي زياد البصري، وقد وثقه أحمد وابن معين عن ثابت عنه.

وأخرجه البيهقي عن ثابت بلفظ آخر قال: «إن الأنبياء لا يتركون في قبورهم بعد أربعين ليلة، ولكنهم يصلون بين يدي الله حتى ينفخ في الصور».

قال البيهقي: وفي حديث سعيد بن المسيب عن أبي هريرة، أنه لقيهم ببيت المقدس، فحضرت الصلاة، فأمهم نبينا ﷺ، ثم اجتمعوا في بيت المقدس. وفي حديث أبي ذر ومالك بن صعصعة في قصة الإسراء، أنه لقيهم بالسموات، وطرق ذلك صحيحة، فيحمل على أنه رأى موسى قائماً يصلي في قبره، ثم عرج به هو ومن ذكر من الأنبياء إلى السموات، فلقيهم النبي ﷺ، ثم اجتمعوا في بيت المقدس، فحضرت الصلاة، فأمهم نبينا ﷺ . قال: وصلاتهم في أوقات مختلفة وفي أماكن مختلفة لا يرده العقل، وقد ثبت به النقل، فدل ذلك على حياتهم. قلت: وإذا ثبت أنهم أحياء من حيث النقل، فإنه يقويه من حيث النظر كون الشهداء أحياء بنص القرآن، والأنبياء أفضل من الشهداء .

ومما يشكل على ما تقدم ما أخرجه أبو داود من وجه آخر عن أبي هريرة رفعه: «ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله علي روحي حتى

أرد عليه السلام» ورواته ثقات[1]. ووجه الإشكال فيه أن ظاهره أن عود الروح إلى الجسد يقتضي انفصالها عنه وهو الموت، وقد أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة:

أحدها: أن المراد بقوله: «رد الله علي روحي» أن رد روحه كانت سابقة عقب دفنه، لا أنها تعاد ثم تنزع ثم تعاد.

الثاني: سلَّمْنا، لكن ليس هو نزع موت، بل لا مشقة فيه.

الثالث: أن المراد بالروح الملك الموكل بذلك.

الرابع: المراد بالروح النطق فتجوز فيه من جهة خطابنا بما نفهمه.

الخامس: أنه يستغرق في أمور الملأ الأعلى، فإذا سُلِّمَ عليه رجع إليه فهمه ليجيب من سَلَّم عليه. وقد استشكل ذلك من جهة أخرى، وهو أنه يستلزم استغراق الزمان كله في ذلك، لاتصال الصلاة والسلام عليه في أقطار الأرض، ممن لا يحصى كثرة، وأجيب بأن **أمور الآخرة لا تدرك بالعقل، وأحوال البرزخ أشبه بأحوال الآخرة**، والله أعلم»[2].

الدليل الثالث: ومن الأدلة على حياة الأنبياء في قبورهم ما رواه أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أفضل

---

(١) تقدم عزوه.

(٢) فتح الباري (٦/ ٤٨٦ ـ ٤٨٨) باختصار.

أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليّ، فقال رجل: يا رسول الله، كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمْتَ؟ يعني بَليتَ. قال: **إن الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»[1].

الدليل الرابع: وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفس أبي القاسم بيده، لينزلن عيسى بن مريم إماماً مقسطاً، وحكماً عدلاً، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليصلحن ذات البين، وليذهبن الشحناء، وليُعرضنّ عليه المال فلا يقبله، ثم لئن قام على قبري **فقال: يا محمد، لأجيبنّه**»[2].

الدليل الخامس: ومن الأدلة على حياة النبي ﷺ في قبره ما رواه الدارمي عن سعيد بن عبد العزيز قال: «لما كان أيام الحرة لم يؤذّن في مسجد النبي ﷺ ثلاثاً، ولم يُقَم، ولم يبرح سعيد بن المسيب

---

(١) رواه أبو داود (١٠٤٠)، والنسائي (١٣٧٤)، وابن ماجه (١٠٨٥)، وأحمد (٤ / ٨)، والحاكم (٤ / ٥٦٠) وقال: صحيح على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الإمام الذهبي. والدارمي ١ / ٤٤٥، والبيهقي في السنن الصغرى ١ / ٣٧٢، وفي الكبرى ٣ / ٢٤٨، وابن أبي شيبة في المصنف ٢ / ٢٥٣، والطبراني في الأوسط ٥ / ٩٧. وقال ابن كثير في تفسيره ١ / ٥٨٣: «رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث حسين بن علي الجعفي، وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبّان والدارقطني والنووي في الأذكار».

(٢) رواه أبو يعلى الموصلي بإسناد صحيح (٦٥٨٤). وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢ / ٦٥١ بنحوه. وصححه وسلّمه الذهبي.

من المسجد، وكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهَمْهَمَةٍ يسمعها من قبر النبي ﷺ »[1].

وله طريق آخر ضعيف، رواه ابن سعد عن أبي حازم قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: «لقد رأيتُني ليالي الحرة وما في المسجد أحد من خلق الله غيري، وإن أهل الشام ليدخلون زمراً زمراً يقولون: انظروا إلى هذا الشيخ المجنون، وما يأتي وقت صلاة إلا سمعت أذاناً في القبر، ثم تقدمت فأقمت فصليت، وما في المسجد أحد غيري»[2].

فالأنبياء أحياء في قبورهم حياة برزخية أفضل من حياة الشهداء، وأجسادهم لا تبلى ولاتفنى، والإجماع منعقد على ذلك، كما حكاه غير واحد من العلماء منهم: ابن حزم[3]، وابن تيمية في «الفتاوى الكبرى»[4]، والسخاوي في «القول البديع»[5] وغيرهم، للنصوص الصريحة والصحيحة، والدلائل القاطعة الكثيرة في ذلك.

---

(١) رواه الدارمي (١ / ٤٤) ورجاله ثقات، وسعيد بن عبد العزيز لم يسمع من سعيد بن المسيب.

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات (٥ / ١٣٢)، وله طريق آخر ذكره ابن سعد أيضاً. وأخرجه اللالكائي في كرامات الأولياء ١ / ١٦٦.

(٣) المحلى ١ / ٣٠.

(٤) الفتاوى الكبرى ١ / ٣٣٠.

(٥) ص١٢٥، وقال: «ونحن نؤمن ونصدق بأنه ﷺ حيٌّ يرزق في قبره وأن جسده الشريف لا تأكله الأرض والإجماع على هذا».اهـ.

قال السيوطي كما مرّ في «إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء»: «حياة النبي ﷺ في قبره هو وسائر الأنبياء معلومة عندنا قطعياً، لما قام عندنا من الأدلة في ذلك، وتواترت بها الأخبار الدالة على ذلك».

فمن قال بفناء أجسادهم فقد خرق الإجماع، وخالف ما صح عن رسول الله ﷺ، وحديث قرع النعال[1] وحديث الصرخة يدلان على حقيقة الروح وقدرتها، وإن الجسد هو العائق الوحيد أمامها، لا كما يتوهم البعض، أن الروح بمفارقة الجسد تضعف وتسلب قوتها وقدرتها، وتصبح عاجزة تنتظر المعونة والدعاء فقط من الأحياء.

قال ابن القيم في كتابه «الروح»: «فللروح المطلقة من أسر البدن، وعلائقه وعوائقه من التصرف والقوة والنفاذ والهمة وسرعة الصعود إلى الله والتعلق بالله، ما ليس للروح المهينة المحبوسة في علائق البدن وعوائقه، فإذا كان هذا، وهي محبوسة في بدنها، فكيف إذا تجردت وفارقته، واجتمعت فيها قواها، وكانت في أصل شأنها روحاً عليّةً زكية، كبيرة ذات همة عالية، فهذه لها بعد مفارقة البدن شأن آخر وفعل آخر»[2].

واعلم أن هناك تكليفات فرغ منها الميت، كالصلاة والصوم وطلب المعاش، وهناك أعمال يشترك فيها الميت والحي، كقول

---

(١) البخاري ١/ ٤٤٨ رقم ١٢٧٣، ومسلم ٤/ ٢٢٠٠ رقم ٢٨٧٠ وغيرهما.

(٢) الروح لابن القيم (ص١٣٧).

رسول الله ﷺ : « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له »[1].

فكما أن الحي ينتفع من الحي بهذه الأعمال، فإنه ينتفع بها من الميت أيضاً، فهو ينتفع من علم بثه الميت بين الناس، أو من بئر، أو من صدقة جارية، وهي أعمال واسعة النطاق، بل إن الحي محتاج إليها أكثر من الميت، لأن الميت له من هذه الأعمال الأجر والثواب، والحي له منها قوام حياته، وهي مساعدة من الميت للحي. أضف إلى ذلك ما ورد من عمومات قوله ﷺ : « ومن فرّج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً، ستره الله يوم القيامة »[2].

وغيره من عمومات الشرع التي لا يملك المخالف دليلاً على تخصيصها بالحياة، لأن الحي قد ينتفع من وصية الميت الغني أو وقفه، ليس هذا فحسب، بل قال ابن القيم : « قد تواترت الرؤيا في أصناف بني آدم على فعل الأرواح بعد موتها، ما لا تقدر على مثله حال اتصالها بالبدن، من هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد والاثنين والعدد القليل ونحو ذلك، وكم قد رئيَ رسول الله ﷺ ، ومعه أبوبكر وعمر في النوم، قد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم، فإذا

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١) وغيره.

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠).

بجيوشهم مغلوبة مكسورة مع كثرة عددهم وعُددهم، وضعف المؤمنين وقلتهم »[1].

وذكر الإمام ابن الأثير في كتابه: «الكامل في التاريخ» أنه لما ركب طارق بن زياد البحر غلبته عينه، فرأى النبي ﷺ ومعه المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسي، فقال له النبي ﷺ: يا طارق تقدم لشأنك، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد، فنظر طارق فرأى النبي ﷺ وأصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه، فاستيقظ مستبشراً، وبشر أصحابه، وقويت نفسه ولم يشك في الظفر[2].

وقال محمد تاج الدين (المدرس بمشيخة علماء الإسكندرية) في رسالته «الرسالة الرملية»: «وبالضرورة حياة الأنبياء والأولياء البرزخيّة، لا تكون أقل من حياة الشهداء، بل يجب أن تكون حياة الأنبياء أتمّ من الجميع، وقد ثبت بما صحَّ في السنّة، من عرض أعمال الأمّة على النبيّ عليه الصلاة والسلام، واستغفاره لمسيئهم بعدّة أحاديث ... ومما ورد في حياة الصالحين، وعرض الأعمال عليهم أيضاً، ما في مسند الإمام أحمد، الذي أحاديثه كلّها مقبولة عند ابن تيمية إمام المانعين، قوله ﷺ: «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم

(١) الروح لابن القيم (ص٢٣٧).
(٢) الكامل في التاريخ (٤ / ٢٦٨).

وعشائركم من الأموات، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللَّهُمَّ لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا»[1].

ويعضد هذا الحديث ما رواه ابن أبي الدنيا وغيره، من قوله عليه الصلاة والسلام: «تعرض أعمالكم على الموتى، فإن رأوا حسناً استبشروا، وإن سوءاً قالوا: اللَّهُمَّ راجع بينهم»[2]. أي: أرجعهم إلى طاعتك.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه، إلا عرفه وردَّ عليه السلام»[3]... إلى أن قال: فقد ثبت بهذه الأدلة أنّ عامّ القدرة تامّ الحكمة جل شأنه، اقتضت حكمته تعالى أن يميّز النوع الإنسانيّ، عما عداه من سائر الحيوانات بعد الممات، كما ميّزه عنها في الحياة الدنيا بالتكريم والتكليفات، فجعل له حياة برزخيّة

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/ ١٦٤) عن أنس بن مالك. وفيه رجل لم يُسَم.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب المنامات ص(٨) موقوفاً على أبي أيّوب ولفظه «تعرض أعمالكم على الموتى، فإن رأوا حسناً فرحوا واستبشروا، وقالوا: اللهم هذه نعمتك على عبدك، فأتمها عليه، وإن رأوا سوءاً قالوا: اللهم راجع به» ورواه في ص(٧) مرفوعاً عن أبي هريرة بلفظ «لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم، فإنها تعرض على أوليائكم» وسنده ضعيف كما ذكر الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٤/ ٤٩٧). ولكن هذه الروايات يقوي بعضها بعضاً، فيرتقي الحديث إلى الحسن لغيره.

(٣) رواه ابن عبد البر في الاستذكار (١٨٥٨)، وقال المناوي في فيض القدير (٥/ ٤٨٧): «أفاد الحافظ العراقي أن ابن عبدالبر خرَّجه في التمهيد والاستذكار بإسناد صحيح من حديث ابن عباس، وممن صحّحه عبدالحق الإشبيلي» اهـ.

من حين انفصاله عن الدنيا، بين الحياتين الدنيويّة والأخروية، بمقدار ما يذوق من مقدمات جزاء عمله، من ثواب أو عقاب، وإنه بهذه الحياة يعرف زائره، ويرد عليه السلام، كما في حديث ابن عباس السابق، وأن الصالحين من الأموات يدعون لأقاربهم وعشائرهم بقولهم: «اللَّهُمَّ اهدهم كما هديتنا»[1]، وأن الميّت أهل لأن يخاطب بتحيّة السلام، ويحيّي هو بمثلها، ولا شك أن ردّ السلام دعاء، لأنه عبارة عن طلب الأمان من المخاوف، فهو دعاء من الميّت استدعاه زائره ببدئه له بتحية السلام، وهل يتصور فرق بين استدعائه من الميّت بهذا الطريق، واستدعائه بقوله له: ادع الله لي بكذا؟ لا سيما إذا كان بعد أن قدم له ما هو أنفع وأولى بالمكافأة من مجرد تحية السلام، من الاستغفار والقراءة والتصدق على روحه، المتوجهة له من حين أن تبودلت بينه وبين زائره تحية السلام، إذ لا يعقل انقطاع هذا التوجه الذي استوجبته التحية وردّها بشروع الزائر البادئ بها، فيما وفق له من استغفار للميّت وذكر وقراءة، لا سيما إذا كان ممن هم أقوى روحاً وأصفى نفساً، كالأنبياء والشهداء، والأولياء والصالحين، الذين ثبت وقوع الدعاء منهم للأحياء، وقد أكرموا في دار الدنيا بأنواع من المميّزات، فخرقت لهم العادات معجزة للأنبياء

(١) مرّ في رواية أحمد بلفظ: «اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا» وفي رواية أبي داود الطيالسي بإسناد ضعيف: «اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك».

منهم، وكرامة للأولياء خلفائهم في تربية النفوس، وتزكية الأرواح، فهم في هذه الحياة الوسطى التي بها ابتداء إثابة العاملين وإكرام المقربين، أولى بأن يجعل من جملة إكرامهم اتصال أرواحهم الطاهرة، وإمداداتهم الظاهرة، بقبول الدعوات وحسن التوجهات لمن أقبل عليهم متوجهاً إلى الله بهم، من ذوي الحياة الدنيوية، في حالٍ هم فيه أقرب إلى الله منهم إليه تعالى، وأحق بالكرامات وأنواع المميّزات من حال الحياة الأولى، وقد علمت أن الحياة البرزخية متفاوتة بتفاوت ذويها قرباً من الله، حتى إن من بينهم من يرزق ما يشتهي، وينعّم كما يتنعّم ذو الحياة الدنيوية، كما استفيد ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾[١]، فهل هذه الكرامة أقل من قبول دعائهم، وتوجههم لمن أقبل عليهم متوسّلاً بهم إلى الله تعالى في قضاء حوائجهم، وكم من منحٍ ونفحاتٍ وتوجهاتٍ وإغاثاتٍ، شوهدت بسبب الزيارات والتوسلات بأصحاب هذه المقامات»[٢] اهـ. كلام الشيخ محمد تاج الدين.

---

(١) من سورة آل عمران الآيتان (١٦٩ – ١٧٠).

(٢) الرسالة الرملية في فصل الخلاف بين أهالي الرمل ودعاة الوهابية، لمحمد تاج الدين (ص٧–١١) باختصار وتصرف يسير.

وأما بالنسبة لكرامة الميت ومنزلته: فمذهب أهل الحق أن كرامته بعد الموت باقية، كما أن النبوة لا تنقطع بالموت، وهناك دلائل على إكرام الله تعالى لكثير من الأموات الصالحين، منها مارواه أبو داود في باب: في النور يُرى عند قبر الشهيد، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما مات النجاشي، كنا نتحدث أنه لا يزال يُرى على قبره نور»[1].

لذلك ورد النهي عن الجلوس على قبر الميت أو كسر عظمه. عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده، خير له من أن يجلس على قبر»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «كسرُ عظم الميت ككسره حيّاً»[3].

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٢٣). وهو حديث حسن.

(٢) رواه مسلم (٩٧١)، وأبو داود (٣٢٢٠) وغيرهما.

(٣) رواه أبو داود (١١٩٩)، وابن ماجه (١٦١٦)، وأحمد (٦/٥٨)، وابن حبان (٣١٦٧). وقال العجلوني في كشف الخفا ٢/١٤٤: «وحسّنه ابن دقيق العيد على شرط مسلم ورواه الدارقطني عن عائشة وزاد «في إرثهم» وذكره مالك في الموطأ بلاغاً عن عائشة موقوفاً، ورواه ابن ماجه من حديث أم سلمة»اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/٥٤): «حسّنه ابن القطان، وذكر القشيري أنه على شرط مسلم»، وحسّن إسناد رواية أم سلمة عند ابن ماجة ابن الملقن في خلاصة البدر المنير (٢/٩٩).

فكرامة الميت أيّاً كان عظيمة وكبيرة، فما بالك بكرامة المقربين إلى الله سبحانه وتعالى كالنبيين والأولياء والصالحين، لاشك أن كرامتهم ومنزلتهم أعظم وأشد من غيرهم، والداعي عندما يدعو الله عز وجل، ويسأله أن يستجيب له إكراماً لهؤلاء ومنزلتهم عنده، فحاشا أن يُخيِّب الله سؤاله ورجاءه، لما يعلم الخالق سبحانه وتعالى من قدر ذلك الميت وصلاحه ومنزلته.

* * *

المطلب الثاني

في ذكر أدلة التوسل بالنبي ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى

تمهيد:

اعلم أنه ليس هناك فرق بين التوسل بالنبي ﷺ في حياته، والتوسل به بعد وفاته، ومع ذلك فقد ضل أقوام لم تشعر أفئدتهم بمحبة رسول الله ﷺ، وراحوا يستنكرون التوسل بذاته ﷺ بعد وفاته، بحجة أن تأثير النبي ﷺ قد انقطع بوفاته، فالتوسل به إنما هو توسل بشيء لاتأثير له البتة! .

وهذه حجة تدل ـ كما ترى ـ على جهل قائلها! فهل ثبت لرسول الله ﷺ تأثير ذاتي في الأشياء في حال حياته، حتى نبحث عن مصير هذا التأثير من بعد وفاته؟ .

إن أحداً من المسلمين لا يستطيع أن ينسب أي تأثير ذاتي في الأشياء لغير الواحد الأحد جل جلاله، ومن اعتقد خلاف هذا يكفر بإجماع المسلمين كلهم، فمناط التوسل به أو بآثاره ﷺ، ليس هو إسناد أي تأثير إليه، والعياذ بالله تعالى، وإنما المناط كونه ﷺ أفضل الخلائق عند الله على الإطلاق، وكونه رحمة من الله للعباد، فهو التوسل بقربه ﷺ إلى ربه، وبرحمته الكبرى للخلق.

وبهذا المعنى توسل الصحابي الأعمى به ﷺ في أن يرد عليه بصره، فرده الله عليه، وبهذا المعنى كان الصحابة يتوسلون بآثاره وفضلاته دون أن يجدوا منه أي إنكار، ولهذا استحب العلماء الاستشفاع بأهل الصلاح والتقوى وأهل بيت النبوة في الاستسقاء

وغيره، وهذا مما أجمع عليه جمهور الأئمة والفقهاء، منهم ابن قدامة الحنبلي والصنعاني والشوكاني وغيرهم، فالتفريق بعد هذا بين حياته ووفاته صلى الله عليه وآله وسلم، خلط عجيب وغريب لا مسوغ له.

يقول محمد بن عبد الوهاب: «من جاء إلى قبر معروف الكرخي، أو عبد القادر الجيلاني، وسأل بهما ليس خلاف بين المسلمين في ذلك، ولكن الخلاف إذا سألهما دون الله» كما سيأتي بيانه.

أقول: ليس على وجه البسيطة مسلم أو مشرك يسأل عبداً أو يسأل واسطة لذاتها دون الله، ولكن الفرق بين المسلم والمشرك أن المسلم يسأل بالواسطة المشروعة (المأذون بها من الله)، والكافر يسأل بالواسطة غير المشروعة، والحقيقة أن الإجماع منعقد عند أهل السنة والجماعة، بل عند الطوائف الأخرى، أن التوسل مجرداً عن إذن الله كفرٌ، حيث الوسيلة لا تمتلك الضرَّ والنفعَ بذاتها.

وقد أوضح العلامة الصالح الشيخ عبيد الله الكردي المدني رحمه الله أثناء مجادلته في مسألة التوسل مع المخالفين إلزام المخالفين بالموافقة على ما عرضه عليهم من جواز التوسل بكلمات الله، فحجهم بقول الحق سبحانه عن عيسى بن مريم ﴿ **وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ** ﴾[1] فسقطت حجتهم بعدم التوسل بالذوات الصالحة، وأثبت لهم جواز التوسل بالذات في هذه المحاورة.

---

(١) من سورة النساء الآية (١٧١).

أما أدلة التوسل بالنبي ﷺ بعد انتقاله:

فقد احتوى هذا المطلب على أدلة لا تدع للمنصف أدنى شك في تقبلها ولا يرفضها إلا جاهل بأصول الحديث وقواعد العلماء، وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث يقول: «من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين»(١).

الدليل الأول: عن مالك الدار ـ وكان خازن عمر رضي الله عنه على الطعام ـ قال: «**أصاب الناس قحط في زمن عمر بن الخطاب، فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، استسق الله لأمتك، فإنهم قد هلكوا، فأتاه رسول الله في المنام، فقال: ائتِ عمر فأقرئه السلام، وأخبره أنكم مسقون**، وقل له: عليك الكيس الكيس، فأتى الرجل عمَر فأخبره، فبكى عمر، ثم قال: يا رب لا آلو إلا ما عجزت عنه»(٢).

قال ابن حجر: «وقد روى سيف في الفتوح أن الذي رأى المنام المذكور، هو بلال بن الحارث المزني، أحد الصحابة»(٣).

---

(١) البخاري ١/ ٣٩ رقم ٧١، ومسلم ٢/ ٧١٨ رقم ١٠٣١ وغيرهما.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٤٨٢)، وأخرجه ابن أبي خيثمة كما في الإصابة لابن حجر (١٠/ ٨ ـ ٩)، والخليلي في الإرشاد (١/ ٣١٣ ـ ٣١٤)، والبيهقي في دلائل النبوة واللفظ له (٧/ ٤٧)، وصحح إسناده السيد المحدّث عبدالله بن الصديق الغماري رحمه الله في كتابه مصباح الزجاجة ص٣٦ .

(٣) فتح الباري (٢/ ٤٩٦).

وقد صحح هذا الحديث الحافظان ابن حجر [١]، وابن كثير في «البداية والنهاية»[٢] وكون سيف ضعيفاً لا يضر في الاستشهاد بالحديث؛ لأن الحجة في إقرار سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعمله، حيث لم ينهه عما فعل، بل أقرّه بالتوسل بالنبي ﷺ بعد وفاته دون إنكار، وبكى عمر رضي الله عنه وقال: يارب ما آلو إلا ما عجزت عنه.

وإليك الروايات التي أوردها الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في كتابه «البداية والنهاية» عن كيفية استسقاء سيدنا عمر بن الخطاب في عام الرمادة:

قال سيف بن عمر عن سهل بن يوسف السلمي عن عبدالرحمن ابن كعب بن مالك قال: كان عام الرمادة في آخر سنة سبع عشرة وأول سنة ثماني عشرة، أصاب أهل المدينة وما حولها جوع، فهلك كثير من الناس، حتى جعلت الوحش تأوي إلى الإنس، فكان الناس بذلك وعمر كالمحصور عن أهل الأمصار، حتى أقبل بلال بن الحارث المزني، فاستأذن على عمر فقال: أنا رسول رسول الله إليك، يقول لك رسول الله ﷺ: «لقد عهدتك كيساً، وما زلت على ذلك، فما شأنك؟» قال: متى رأيت هذا؟ قال: البارحة، فخرج فنادى في

---

(١) فتح الباري (٢/ ٤٩٥).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ١١١).

الناس: الصلاة جامعة، فصلى بهم ركعتين ثم قام فقال: أيها الناس أنشدكم الله هل تعلمون مني أمراً غيره خيراً منه؟ فقالوا: اللَّهُمَّ لا، فقال: إن بلال بن الحارث يزعم ذية وذية. قالوا: صدق بلال فاستغث بالله ثم بالمسلمين. فبعث إليهم - وكان عمر عن ذلك محصوراً - فقال عمر: الله أكبر، بلغ البلاء مدته فانكشف. ما أذن لقوم في الطلب إلا وقد رفع عنهم الأذى والبلاء. وكتب إلى أمراء الأمصار أن أغيثوا أهل المدينة ومن حولها، فإنه بلغ جهدهم. وأخرج الناس إلى الاستسقاء فخرج وخرج معه العباس بن عبدالمطلب ماشياً، فخطب وأوجز وصلى ثم جثى لركبتيه وقال: اللَّهُمَّ إياك نعبد وإياك نستعين، اللَّهُمَّ اغفر لنا وارحمنا وارض عنا. ثم انصرف فما بلغوا المنازل راجعين حتى خاضوا الغدران.

قلت: قول عمر رضي الله عنه: «ما أذن لقوم بالطلب إلا وقد رفع عنهم الأذى والبلاء»، في هذه العبارة الشريفة إقرار عمر لفعل بلال ابن الحارث حيث إن رسول الله ﷺ وجه بلال ابن الحارث مناماً أن يقصد عمر رضي الله عنه ليطلب منه أداء الشكر لله بالالتجاء إليه بأنامل التوسل ضمن صلاة ودعاء الاستسقاء، فلا يوجد إنكار من الشارع ﷺ ولا من عمر. وفي بيان الشارع ﷺ بقوله: «الكيس الكيس» إشارة بأن الأمر هذا لن يفطن له إلا فقيه.. وناهيك بعمر

رضي الله عنه، ويستشعر من ذلك حرص النبي ﷺ على عدم عرض ذلك الأمر إلا على العقلاء خشية أن لا يتفطن له، فلا يبذل الشكر بالوسائل المشروعة المتعددة بأكف الضراعة والتذلل والانكسار للواحد الأحد.

فالمنكر محجوج بمقالة عمر رضي الله عنه، وغيرها من الإشارات البليغة، في الفعل والقول والعمل، فلا حجة ثمة لمعترض، والله أعلم.

ثم روى سيف عن مبشر بن الفضيل عن جبير بن صخر عن عاصم بن عمر بن الخطاب أن رجلاً من مزينة عام الرمادة سأله أهله أن يذبح لهم شاة فقال: ليس فيهن شيء. فألحوا عليه فذبح شاة فإذا عظامها حمر فقال: يا محمداه. فلما أمسى أري في المنام أن رسول الله ﷺ يقول له: «أبشر بالحياة، ائت عمر فأقرئه مني السلام وقل له: إن عهدي بك وأنت في العهد شديد العقد، فالكيس الكيس يا عمر»، فجاء حتى أتى باب عمر فقال لغلامه: استأذن لرسول رسول الله ﷺ . فأتى عمر فأخبره ففزع ثم صعد عمر المنبر فقال للناس: أنشدكم الله الذي هداكم للإسلام هل رأيتم مني شيئاً تكرهونه؟ فقالوا: اللَّهُمَّ لا، وعم ذاك؟ فأخبرهم بقول المزني - وهو بلال بن الحارث - ففطنوا ولم يفطن. فقالوا: إنما استبطأك في

الاستسقاء فاستسق بنا. فنادى في الناس فخطب فأوجز ثم صلى ركعتين فأوجز ثم قال: اللَّهُمَّ عجزت عنا أنصارنا، وعجز عنا حولنا وقوتنا، وعجزت عنا أنفسنا، ولا حول ولا قوة إلا بك، اللَّهُمَّ اسقنا وأحي العباد والبلاد.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو نصر بن قتادة وأبو بكر الفارسي قالا: حدثنا أبو عمر بن مطر، حدثنا إبراهيم بن علي الذهلي، حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن مالك قال: أصاب الناس قحط في زمن عمر، فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا. فأتاه رسول الله ﷺ في المنام فقال: ائت عمر فأقرئه مني السلام وأخبرهم أنهم مسقون، وقل له: عليك بالكيس الكيس. فأتى الرجل فأخبر عمر فقال: يا رب ما آلو إلا ما عجزت عنه. وهذا إسناد صحيح.

وقال الطبراني: حدثنا أبو مسلم الكشي، حدثنا أبو محمد الأنصاري، حدثنا أبي عن ثمامة بن عبدالله بن أنس، عن أنس أن عمر خرج يستسقي وخرج بالعباس معه يستسقي يقول: اللَّهُمَّ إنا كنا إذا قحطنا على عهد نبينا توسلنا إليك بنبينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا ﷺ . وقد رواه البخاري عن الحسن بن محمد عن محمد

ابن عبدالله به ولفظه: «عن أنس أن عمر كان إذا قحطوا يستسقي بالعباس بن عبدالمطلب فيقول: اللَّهُمَّ إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. قال: فيسقون»[1].

ما أراد عمر رضي الله عنه بهذا المعنى إلا التوسل بذات النبي ﷺ صراحة لمّا كان بين ظهرانيهم وحين انتقل ﷺ إلى جوار ربه مضى عمر يتحسس ذاتاً لها تعلق ذاتي وروحي بالنبي ﷺ فلم يجد كالعباس عليه السلام عم رسول الله ﷺ الذي ينزله منزلة الوالد حيث يرقب فيه محمداً ﷺ كما صح في الأثر موقوفاً على أبي بكر رضي الله عنه قال: «ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته»[2] وليس ثمة أحد ممن توفرت فيه صفات القربى مثل العباس، إذ لا شك أن علياً سابقٌ بالفضل إلا أنه لن يتقدم على عمه لما يعلم من توقير واحترام ذي الشيبة، علماً بأن النبي ﷺ ينزله منزلة الوالد سيما كما في رواية ابن عساكر[1]: أن عمر رضي الله عنه قدم صفوة آل البيت؛ العباس وعلي والحسن والحسين كما في الحديث «وكبر رجاله». والله أعلم.

* * *

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٧/٩١-٩٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم ٣٧١٣.

الرد على ابن باز في استنكاره حديث بلال بن الحارث:

يقول المحدث الشيخ محمود سعيد ممدوح في كتابه «رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة»: «ركب عبدالعزيز بن باز في تعليقه على «فتح الباري» الصّعْبَ، فقال تعليقاً على أثر بلال بن الحارث المزني (٢/٤٩٥): «هذا الأثر - على فرض صحته كما قال الشارح - ليس بحجة على جواز الاستسقاء بالنبي ﷺ بعد وفاته، لأن السائل مجهول، ولأن عمل الصحابة رضي الله عنهم على خلافه، وهم أعلم الناس بالشرع، ولم يأت أحد منهم إلى قبره يسأله السقيا ولاغيرها، بل عدل عمر عنه لما وقع الجدب إلى الاستسقاء بالعباس، ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة، فعلم أن ذلك هو الحق، وأن مافعله هذا الرجل منكر، ووسيلة إلى الشرك، بل قد عدَّه بعض أهل العلم من أنواع الشرك، وأما تسمية السائل في رواية سيف المذكورة «بلال بن الحارث» ففي صحة ذلك نظر، ولم يذكر الشارح سندَ سيف في ذلك، وعلى تقدير صحته عنه لا حجة فيه، لأن عمل كبار الصحابة يخالفه، وهم أعلم بالرسول ﷺ وشريعته من غيرهم، والله أعلم». اهـ.

قلت: قوله: «لأن السائل مجهول»، هو معنى كلام الألباني في توسله (ص١٢٢)، حيث قال: «هب أن القصة صحيحة، فلا حجة

فيها، لأنّ مدارها على رجل لم يسم، وتسميته بلالاً في رواية سيف، لا يساوي شيئاً، لأن سيفاً متفق على ضعفه». اهـ.

وقد أجبتُ بتوفيق الله تعالى عن هذا فقلت:

الجائي إلى القبر الشريف سواء كان صحابياً أو تابعياً، فالحجّة في إقرار عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لعمله، حيث لم ينهه عمّا فعل، بل بكى عمر وقال: يا رب ما آلو إلا ما عجزتُ عنه. والله أعلم.

قوله: «ولأن عمل الصحابة رضي الله عنهم على خلافه» **قلت**: قد تقدم أن حكمه حكم الترك، وإقرار عمر لهذا الجائي فيه لفت نظر للقارئ الكريم إلى أن فعل الصحابة ليس على خلافه، ومثله أثر عائشة رضي الله عنها في فتح الكوى، وهما نصّان في الباب.

قوله: «ولأن ما فعله هذا الرجل منكر، ووسيلة إلى الشرك، بل جعله بعض أهل العلم من أنواع الشرك».

قلت: أخطأت، وما أصبت، فبعد تسليمك بصحة الأثر أترى أمير المؤمنين عمر رضي الله تعالى عنه يقرُ الرجلَ على الشرك، في رأيك؟ حاشاه من هذا.

ثم للناظر أن يتعجب ويسأل: هل نتعلم من الصحابة رضوان الله عليهم ديننا؟ أم ننظر في أعمالهم ونحكم عليها وفق مانراه من قواعد غير مسلمة؟ وهكذا تكون الفوضى في التعليقات.

سبيلُ أهل العلم هجر ما يخالف الآثار الصحيحة وعمل الصحابة رضي الله عنهم.

والمجيء إلى القبر الشريف ومخاطبة الرسول ﷺ ليس بشرك، واعتراف ابن تيمية بهذه الواقعة وغيرها انظره في «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص٣٧٣) وما بعد.

فهل ابن تيمية - في نظرك - يقر الشرك، أم أن المعلِّق لم يعطِ البحثَ حقه، أم ماذا؟ نعوذ بالله من التخبط والتناقض، ومرض البدعة والشرك.

قوله: «وعلى تقدير صحته عنه لا حجة فيه، لأن عمل كبار الصحابة يخالفه، وهم أعلم بشريعته ﷺ من غيرهم». اهـ.

قلت: الحجة في قول عمر وإقراره رضي الله عنه، ثم إنّ عمل كبار الصحابة ليس بحجة مع مخالفة صغارهم لهم، كما هو مقرر في علم الأصول، والكلام هنا يحتمل أكثر من ذلك، ولولا خشية الإطالة لَوَفَّيْتُ الكيل صاعاً بصاع، والله المستعان»[1].

قلت: وقد أجبنا على هذا الإشكال وأبطلنا شُبهه في هذا الكتاب، وأجملنا القول في الخلاصة التي ستأتي لاحقاً.

---

(١) انظر كتاب رفع المنارة للشيخ محمود سعيد ممدوح (ص٢٦٢ - ٢٧٨)، فقد درس هذا الحديث دراسة وافية، وردَّ على من طعن فيه.

تقرير العلامة الشيخ محمد متولي الشعراوي:

وقبل أن نُعرِّج على تلك الخلاصة نستأنس بما ذكره الشيخ السيد العلامة المفسّر محمد متولي الشعراوي لما استشكله المفتي ابن باز في الاستسقاء بالعباس رضي الله عنه فقال ما نصه: «ونقول لمن يكفر المتوسلين بالنبي أو الولي: هذّبوا هذا القول قليلاً؛ إنّ حدوث مثل هذا القول هو نتيجة عدم الفهم، فالذي يتوسل إلى الله بالنبي أو الولي هو يعتقد أن له منزلة عند الله. وهل يعتقد أحد أن الوليّ يجامله ليعطيه ما ليس له عند الله؟ طبعاً لا. وهناك من قال: إن الوسيلة بالأحياء ممكنة، وإن الوسيلة بالأموات ممنوعة، ونقول له: أنت تضيق أمراً متسعاً، لأن حياة الحي لا مدخل لها بالتوسل، فإن جاء التوسل بحضرته ﷺ إلى الله، فإنك قد جعلت التوسل بحبك لمن علمت أنه أقرب منك إلى الله؛ فحبُّك له هو الذي يشفع. وإياك أن تظن أنه سيأتي لك بما لا تستحق.

والجماعة التي تقول: لا يصح أن نتوسل بالنبي؛ لأن النبي انتقل إلى الرفيق الأعلى، نقول لهم: انتظروا قليلاً، وانتبهوا إلى ما قال سيدنا عمر ـ رضوان الله عليه ـ قال: كنا في عهد رسول الله إذا امتنع المطر نتوسل برسول الله ونستسقي به، ولما انتقل رسول الله ﷺ، نتوسل بعمه العباس، وقالوا: لوكان التوسل برسول الله جائزاً بعد انتقاله لما عدل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عن التوسل بالنبي بعد انتقاله، وذهب إلى التوسل بعم النبي، ونسأل: أقال عمر

«كنا نتوسّل بنبيك، والآن نتوسّل إليك بالعباس؟ أم قال: والآن نتوسل إليك بعم نبيك»؟ .

ولذلك فالذين يمنعون ذلك يوسعون الشقة على أنفسهم، لأن التوسل لا يكون بالنبي فقط، ولكن التوسل أيضاً بمن يَمُتُّ بصلة إلى النبي ﷺ، فساعة يتوسل واحد إلى غيره، يعني أنه يعتقد أن الذي توسل به لا يقدر على شيء، إنني أتوسل به إلى الغير، لأني أعرف أنه لا يستطيع أن ينفذ لي مطلوبي، إذن فلنبعد مسألة الشرك بالله عن هذا المجال، ونقول: نحن نتوسل به إلى غيره، لأننا نعلم أن المتوسَّل إليه هو القادر وأن المتوسَّل به هو الحقيقة، وأن المتوسَّل إليه هو المرجو بالإضافة، والمتوسَّل به هو محل الرجاء بالإضافة وهذا هو منتهى اليقين ومنتهى الإيمان[1] .

ولكن المتوسّل به قد ينتفع وقد لا ينتفع، وعندما توسّل سيدنا عمر بالعباس عمّ النبي، كان يفعل ذلك من أجل المطر، والمطر في هذه الحالة لا ينتفع به رسول الله، لذلك جاء بواحدٍ من آل البيت، وكأنه قال: «يا ربّ عمٌّ نبيك عطشان، فمن أجله نريد المطر» .

إذن فتوسّل عمر بن الخطاب بعم النبي، دليل ضد الذين يمنعون التوسل بالنبي بعد الانتقال إلى الرفيق الأعلى . وحتى نخرج من

---

(١) والنبي ﷺ قال لحارثة: «إن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك»؟ أخرجه البيهقي في الزهد ٢ / ٣٥٥ برقم ٩٧٣، الطبراني في المعجم الكبير ٣ / ٢٦٦ برقم ٣٣٦٧، وقال ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم ١ / ٣٦: «روي من وجوه مرسلة وروي متصلاً، والمرسل أصحّ» .

الخلاف نقول: إن العمل الصالح المتمثل في «افعل كذا» و «لا تفعل كذا» هو الوسيلة الخالصة، وبذلك نخلص من الخلاف، ولا ندخل في متاهات»[1] انتهى كلام الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى.

ورحم الله الإمام السبكي إذ قال في كتابه «شفاء السقام»: «وأقول: إن التوسل بالنبي ﷺ جائز في كل حال، قبل خلقه وبعد خلقه، في مدة حياته في الدنيا وبعد موته، في مدة البرزخ وبعد البعث، في عرصات القيامة والجنة»[2]. وقد تقدم بسطه في مقدمة الكتاب.

والخلاصة: أثار المانعون دعوى عريضة خدعوا بها الطغام، ولبَّسُوْا بها على العوام بقولهم: إن بلال بن الحارث وعثمان بن حنيف قد خالفا كبار الصحابة في التوسل بمثل ما تقدم عنهما. ويا له من باطل يفضح نفسه، إذ إن هذا كلام مردود، فليس اجتهاد صحابي حجة على صحابي آخر، ولم يعلم لذلك مخالف عند أهل العلم قاطبة، ثم إن عمل بلال بن الحارث وعثمان بن حنيف كان على مرأى من الصحابة فهو إجماع سكوتي.

وهذا مفسر بأن حال الصحابة عموماً بني على الجلد والصبر على البلاء رجاء عظيم الدرجات عند الله، ثم إن الاستعجال في الدعاء يرونه مخلاً بالأدب مع الله ومخالفاً لعرى التوكل عليه،

---

(١) تفسير القرآن للشيخ الشعراوي (ص ٣١٠٧ – ٣١٠٨).

(٢) شفاء السقام (ص١٦١).

ومخالفاً لسير الأنبياء والمرسلين، فقد كان ﷺ يأمرهم بذلك، فقد روى البخاري برقم (٣٦١٢)، عن أبي عبدالله خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون».

هكذا تعلموا من حال رسول الله ﷺ، وحينما أصاب المدينة في عهد النبي ﷺ قحط لم يبادر أحد بدعاء الله لرفعه ولم يجرؤ صحابي أن يسأل النبي ﷺ ذلك، فلما رأى الله صبرهم على البلاء وشدة جلدهم وعظيم توكلهم عليه أرسل لهم رجلاً من الأعراب يشتق الصفوف في المسجد - والنبي ﷺ على المنبر - وينادي: يا رسول الله استسق لأمتك، فما إن أنزل النبي ﷺ يديه الشريفتين إلا وسقاهم الله بمطر غزير. فالنبي ﷺ لم يتوجه إلى الله بأن يرفعه، ولم يجرؤ صحابي أن يسأل النبي ﷺ أن يتوجه إلى الله برفعه حتى جاء ذلك الأعرابي يسأل رسول الله ﷺ أن يسأل الله رفعه، وبهذا انتقض زعم من يزعم أن كبار الصحابة وكبار التابعين لم يفعلوا ذلك،

ويكفي كما قلنا فعل واحد من الصحابة عن تكرر رواية التوسل في أكثر من واحد منهم رضوان الله عليهم أجمعين، ومنكر هذا إنما يكابر بلا دليل.

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

واستسقاء عمر بالعباس ليس دليلاً على منع التوسل بالنبي ﷺ وهو في قبره، لأن مثار التوسل بالعباس كان بسبب توسل بلال بن الحارث بالنبي ﷺ حيث إن بلال بن الحارث رضي الله عنه رأى النبي ﷺ بعد أن توسل به وهو في مرقده الشريف وطلب السقيا منه فرآه في منامه قائلاً له: ائت عمر فأقرئه مني السلام وأخبره أنهم مسقون وقل له: عليك بالكيس الكيس، وفي رواية: لقد عهدتك كيساً وما زلت على ذلك فما شأنك؟ قال: متى رأيت هذا؟ قال: البارحة، فخرج فنادى بالناس: الصلاة جامعة، فصلى بهم ركعتين ... الحديث، ثم قال في آخر هذه الرواية رضي الله عنه: «الله أكبر بلغ البلاء مدته فانكشف، ما أذن لقوم في الطلب إلا وقد رفع عنهم الأذى والبلاء»(١).

وبهذا قرر عمر رضي الله عنه صحة توسل بلال بن الحارث، ولم يعنفه ولم يؤَنِّبْهُ، ولكنه عزز موقفه، فلم يكتف عمر بصلاة الاستسقاء، ولكن أراد أن يُظهر قدر آل بيت رسول الله ﷺ، فأتى

(١) ذكر هذه الرواية ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ٩١).

بالعباس وعلي والحسن والحسين عليهم السلام كما في رواية ابن عساكر(٢٦ / ٣٦٢) وقدمهم أمامه، وأخذ بيد العباس معه على المنبر لمنزلة العباس من رسول الله ﷺ حيث النبي ﷺ كان ينزله منزلة الوالد، فتوسل عمر إلى الله بالعباس كما في رواية ابن عساكر، ثم أردف بتوسل العباس بأن أخذ بيده وطلب منه التوجه إلى الله والتوسل إليه، فقال العباس: اللّهم إنهم توسلوا بي إليك لقربي من نبيك.

وأخرج ابن عساكر[1] بإسنادٍ حسن لذاته في الأصول، صحيح في الشواهد والمتابعات من طريق أبي صالح، قال: أنبأنا أبو طالب عبدالقادر بن محمد بن يوسف، أنبأنا إبراهيم بن عمر.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٦ / ٣٦٣)، ورجال الإسناد هكذا:

* عبدالله بن مسلم بن قتيبة قال عنه ابن حجر في اللسان (٤ / ١٥٨): صدوق، وقال الخطيب (١٠ / ١٧٠): كان ثقة ديناً فاضلاً.
* وعبيد الله بن عبدالرحمن: قال عنه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠ / ٣٥١): ثقة
* و محمد بن العباس بن نجيح: قال الخطيب: ذكر لنا أنه كان حافظاً، وقال أيضاً: كان محمد بن العباس بن نجيح ثقة (٣ / ١١٨).
* و علي بن عمر بن أحمد بن جعفر بن حمدان بن دخان مولى العباس بن محمد: أحاديثه مستقيمة. تاريخ بغداد (١٢ / ٤٢).
* و المبارك بن عبدالجبار: قال عنه الذهبي في لسان الميزان (٥ / ٩): ثقة.
* و المبارك بن أحمد الأنصاري: قال عنه الذهبي في السير (٢٠ / ٢٦٠): وثقه ابن نقطة. وفي تقييد محمد بن عبدالغني البغدادي (٢٠ / ٤٤٠): هو ثقة صالح.
* عبدالقادر بن محمد بن يوسف: قال عنه الخطيب (١١ / ١٤١): كان من أهل الأمانة والصدق. وقال عنه الذهبي في السير (٩ / ٣٨٦): «قال السمعاني: شيخ صالح ثقة دين متحرٍ في الرواية».

(ح) وحدثنا أبو المعمر المبارك بن أحمد الأنصاري، أخبرنا المبارك ابن عبدالجبار، أخبرنا علي بن عمر بن الحسن، وإبراهيم بن عُمَر قالا: أخبرنا محمد بن العباس، حدثنا عبيد الله بن عبدالرحمن، حدثنا أبو محمد بن قتيبة، قال في حديث العباس ابن عبدالمطلب: أن عمر خرج يستسقي به فقال: «**اللَّهُمَّ إنا نتقرب إليك بعم نبيك، وبقية آبائه وكُبَّر رجاله، فإنك تقول وقولك الحق** ﴿**وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا**﴾[1] فحفظتهما لصلاح أبيهما فاحفظ اللَّهُمَّ نبيك في عمه، فقد دلونا به إليك، مستشفعين ومستغفرين. ثم أقبل على الناس فقال: ﴿**يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**﴾[2]. قال: ورأيت العباس وقد طال عمر وعيناه ينضحان وسبائبه تجول على صدره.. الحديث.

وأخرج اللالكائي في كرامات الأولياء[3] بسند ضعيف، ما جاء في لفظه: «إنا نتشفع بك وإليك بوجه عم نبيك...» الحديث. وعلة هذا الإسناد وجود راوٍ مبهم، ولولاه لكان هذا الإسناد من قسم الحسن ومع ذلك فالإسناد حسن في الشواهد والمتابعات، معضد المعنى في الرواية المتقدمة، مثبت التوسل بذات النبي ﷺ نصاً،

---

(١) من سورة الكهف الآية: (٨٢)

(٢) من سورة نوح الآيات: (١١، ١٢).

(٣) كرامات الأولياء (١/ ١٣٦).

داحض تقوّل المنكرين: بأن في لفظ عمر بالتوسل بالعباس تقديراً محذوفاً ألا وهو التوسل بدعاء العباس.

وهذا يرد عليه بوجهين:

الوجه الأول: مخالفته للغة العرب، لأن تقدير المحذوف (حذف المضاف) مقيَّد بشروط.

فقد يحذف المضاف لقيام قرينة تدل عليه، ويقام المضاف إليه مقامه نحو: ﴿**وجَاءَ رَبُّكَ**﴾[1]، أي أمر ربك، ونحو: ﴿**واسْأَلِ الْقَرْيَة**﴾[2] أي أهل القرية، ونحو:﴿**وأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ**﴾[3]، أي حب العجل.

قال محمد بن مالك في خلاصته:

وما يلي المضاف يأتي خلفاً عنه في الاعراب إذا ما حذفا[4]

وكما يقوم مقامه في الإعراب كذلك يقوم مقامه في التذكير كقول حسان رضي الله عنه:

يسقون من ورد البريص عليهم بردًا يصفق بالرحيق السلسل

---

(١) من سورة الفجر الآية (٢٢).

(٢) من سورة يوسف الآية (٨٢).

(٣) من سورة البقرة الآية (٩٣).

(٤) انظر شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٣/٣٧-٣٨)، (البيت ٤١٣)، وشرح الأشموني لألفية ابن مالك مع حاشية الصبان (٢/٢٧٨).

أي: ماء بردًا. وفي التأنيث كذلك ومنه:

مرت بنا في نسوة خولة   والمسك في أردانها نافحة

أي رائحة المسك. وفي حكمه نحو: «إن هذين حرام على ذكور أمتي» أي استعمال «هذين».

وقد يكون مضافاً إلى مضاف فيحذفان ويقام الثالث مقام الأول نحو: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(١) أي وتجعلون بدل شكر رزقكم تكذيبكم. ونحو: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾(٢) أي كدوران عين الذي يغشى عليه من الموت(٣).

وبه فسر الزمخشري قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم﴾(٤) على أن الواو في يجعلون ضمير أصحاب الصيب وإن كان محذوفاً لبقاء معناه، كما أرجع الشاعر ضمير يصفق إلى ماء بردٍ مع أنه غير مذكور، ولفظه: «أو كمثل ذوي صيب»(٥).

ومنه قول أوس بن حجر:

فهل لكمُ فيها إلي فإنني   طبيب بما أعيى النطاسيَّ حِذْيَمَا

---

(١) من سورة الواقعة الآية (٨٢).
(٢) من سورة الأحزاب الآية (١٩).
(٣) انظر الأشموني على الألفية مع حاشية الصبان (٢/ ٢٧٩).
(٤) من سورة البقرة الآية (١٩).
(٥) الكشاف (١/ ٢٠٩).

على أن فيه حذف مضاف وهو «ابن»، وعند ابن السكيت أن الطبيب حذيم لا ابنه وبه قال الفيروز آبادي في القاموس وعليه فلا حذف فلا دليل فيه[1].

وأنكر الخوارزمي الحذف في بيت الصلتان العبدي:

أرى الخطفى بذَّ الفرزدق شعره

ولكن خيراً من كلاب مُجاشع

وقال: إنه من باب تعدي اللقب من الأب إلى الابن، كما في قوله:

فإنك إذ ترجو تميماً ونفعها

كراجي الندى والعرف عند المذلق

أي ابن المذلق[2].

قلت: ويمكن أن يقال هذا في كثير من شواهد حذف المضاف، كقول ذي الرمة:

عشية فرَّ الحارثيون بعدما

قضى نحبه في ملتقى القوم هوبر

أي ابن هوبر.

---

(١) خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي (٤/ ٣٧٠).

(٢) خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي (٤/ ٣٧٠-٣٧١).

وقول الشاعر:

صبحن من كاظمة الخُصَّ الخرب

يحملن عبـاس بن عبدالمطلب

يريد: ابنه عبد الله.

وهذا ما توكأ عليه المنكرون للتوسل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تأول حديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه، الذي فيه: «اللَّهُمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك... إلخ.

وفي حديث استسقاء عمر بالعباس رضي الله عنهما ولفظه: اللَّهُمَّ إنا كنا نتوسل إليك بنبينا صلى الله عليه وآله وسلم وتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا.. .إلخ فإنهم لما لم يجدوا في سند الحديثين مطمعاً طمعوا في متنهما ظانين أنهم سيجدون في ألفاظهما منفذاً يخلصهم من قبضة الحجة على أعناقهم، وهيهات لهم ذلك، فكلا الحديثين محكم السياج، متداخل الحلقات، مرصوص البنيان، وقد ألقى عليهم الحق شبكته، وأغلق عليهم سلطان العلم حظيرته، فكلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها.

وذلك أن حذف المضاف مع كونه سائغاً قليل، وله شروط وأسباب، فمن شروط جوازه الضرورة.

قال ابن عصفور في المقرب: ويجوز حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه في الإعراب وغيره، إذا كان الكلام مشعراً بحذفه، فإن لم يكن الكلام مشعراً بذلك لم يجز الحذف إلا في ضرورة، نحو قوله:

عشية فرّ الحارثيون بعدما   قضى نحبه في ملتقى القوم هوبر

وقد مر بنا اعتراض الخوارزمي لهذا النوع من حذف المضاف بأنه تعدي اللقب من الأب إلى الابن فلا دليل فيه إذاً [1].

قال الصبان في حاشيته على الأشموني: اعلم أن المضاف إذا حذف للقرينة فتارة يكون مطروحاً، وتارة يكون ملتفتاً إليه، ويُعلم هذا بعود الضمير عليه، وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿ **وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ** ﴾[2] فأرجع الضمير أولاً إلى القرية طرحاً للمضاف، وثانياً إلى المضاف التفاتاً إليه، قاله ياسين.

ثم قال: قوله: «لقيام قرينة تدل عليه» فإن لم تكن قرينة امتنع الحذف ولا ينافيه ما قالوه في نحو: «جاء زيد نفسه» من أن «نفسه» لدفع توهم نية المضاف وإن اعترض بذلك الدماميني لأن

(١) المقرِّب لابن عصفور (١ / ٢١٤).

(٢) من سورة الأعراف الآية (٤).

باب التوهم واسع لا يقتضي جواز ارتكاب المتوهم ولأن عقل السامع ربما يجوز وجود قرينة خفيت عليه» . . . إلى أن قال: «وذهب كثير إلى أنه لا حذف فيما ذكر فقيل: لأن القرية عبر بها مجازاً وتأنيثها باعتبار لفظها»[1]، والدليل إذا تطرقه الاحتمال سقط به الاستدلال.

ولم أقف على حذف المضاف في أمالي ابن الشجري رغم أنه ذكر الحذوف الواقعة في الأسماء والأفعال والجمل والحروف، وذكر حذف المضاف إليه[2].

فلعله تركه لضعفه عنده، فقد رأيت أن من شروط جواز حذف المضاف الضرورة إلى ذلك وقيام قرينة دالة عليه، كما أن من هذه الشروط أمن الالتباس بأن يكون معلوماً ضرورة وليس هناك صارف يقابل القرينة الدالة عليه.

قال الزمخشري عند قوله تعالى: ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ** ﴾[3] الآية، فإن قلت: فإذا كانت التسمية واقعة مع المضاف والمضاف إليه جميعاً فما وجه ما جاء في الأحاديث من نحوقوله عليه الصلاة والسلام: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً»، «من أدرك رمضان فلم يغفر له» قلت: هو من باب الحذف لأمن الإلباس، كما

---

(١) انظر حاشية الصبان على الأشموني (٢/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٢) الأمالي الشجرية، ط دار المعرفة، ١/ ٣١٩.

(٣) من سورة البقرة الآية (١٨٥).

قال: «بما أعيى النطاسيَّ حِذْيَما». أراد ابنه حذيم[1]. وقد سمعت قول ابن السكيت والفيروزآبادي بأن الطبيب حذيم.

وليس في الحديثين المذكورين ما يشعر بشيء محذوف لا لفظاً ولا معنى ولا سياقاً يقتضيه، وليس فيهما ضرورة تحمل على الحذف، ولا فيهما من أسبابه شيء، فليس المقام مقام اختصار؛ لأنه مقام الثناء على الله ورفع الحاجة إليه، والحاجة إلى البيان قائمة؛ لأنه تشريع من كلام النبوءة ووحي السماء.

وقد ورد في كلام عمر والعباس رضي الله عنهما ما يؤيد ذلك، وهو قول سيدنا عمر: «هذا هو والله الوسيلة إلى الله عز وجل والمكان منه». وقول سيدنا العباس: «اللَّهُمَّ إن القوم....» والقرائن الجلية تشير بوضوح إلى أن المراد هو اللفظ المنطوق في حديث رسول الله ﷺ وكلام عمر والعباس رضي الله عنهما.

أما من جهة اللفظ فهو مجرور بالباء، ولولا الباء لكان له في اللفظ وجهٌ لبقاء عمل المحذوف كقول الشاعر:

أكل امرئ تحسبين امرءاً ونارٍ تَوَقَّدُ بالليل نارا

وأما من جهة المعنى فلا يقدر محذوفاً في كلام المعصوم إلا ما دعت ضرورة استقامة المعنى، أو الحكم إلى حذفه، ولا ضرورة هنا

(١) الكشاف ١/٣٣٦.

البتة، مع أن الحذف لو قُدِّر كان الإلباس غير مأمون؛ لأن المعنى بدونه صحيح واللفظ مستقيم، ولا دليل لقائله إذ لم يقله أحد من الأمة قبله.

الوجه الثاني: إن سلمنا جدلاً بصحة المحذوف، فالمحذوف هو التوسل بوجه العباس، والوجه يُفسر بالذات بإجماع اللغويين وأهل العلم دون نكير إلا ممن زاغ عن الجادة.

وقد جاء في رواية اللالكائي(٩ / ١٤٤–١٤٥)التصريح بالمحذوف إن سلم جدلاً فبطل زعم من قال: بأن المحذوف دعاء العباس. قال اللالكائي: قال: أخبرنا علي بن محمد بن عمر[١]، قال: أخبرنا عبدالرحمن بن أبي حاتم[٢]، قال: حدثنا محمد بن عُزَيز[٣]، قال:

---

(١) علي بن محمد بن عمر: ثقة بناء على ما نص عليه علماء هذا الفن أن مستور الحال إذا وقع بين ثقتين فهو ثقة . انظر مجمع الزوائد (١ /٨) وعضد ذلك التهانوي في كتابه قواعد في علوم الحديث (ص٢٠٥–٢٠٦) بقوله: «وفي فتح المغيث للسخاوي نقلاً عن الحافظ ابن حجر قال: وإذا لم يكن في الراوي المجهول الحال جرح ولا تعديل وكان كل من شيخه والراوي عنه ثقة ولم يأتِ بحديث منكر فهو ثقة عند ابن حبان». ونقل التهانوي أيضاً (٢٢٧) عن الحافظ أنه قال ـ ما معناه ـ: كُل راو لا يوجد في اللسان ولا في تهذيب التهذيب له فهو إمَّا ثقة أو مستور. انظر آخر لسان الميزان (٩ / ٥٧١).

(٢) عبدالرحمن بن أبي حاتم: ثقة. السير (١٣ /٢٦٣).

(٣) محمد بن عُزَيز: بمهملة وزايين، فيه ضعف، وقد تكلموا في صحة سماعه من عمه سلامة. من الحادية عشرة مات سنة ٦٧هـ (التقريب ٥٦٩، برقم ٦١٣٩). وقال الذهبي في الميزان: صدوق إن شاء الله... إلى أن قال: وقال ابن أبي حاتم: صدوق (٦ /٢٥٩). إلا أن النسخ التي بين أيدينا لم يذكر ابن أبي حاتم ذلك الحكم في محمد بن عُزَيز، وعلى مذهب محب الدين الطبري وابن سعد وجمع من المحدثين أن ابن أبي حاتم إذا سكت عن راوٍ فهو ثقة.

حدثني بالإجماع[1] (سلامة) عن عقيل[2] عن زيد بن أسلم[3] وأبي إسحاق[4] عمن أخبرهما عن ابن عباس، وبعضهم زاد في الحديث على بعض قال:

لما كان عام الرمادة استسقى عمر بن الخطاب بالناس فأخذ بيد العباس بن عبدالمطلب ثم قال: اللَّهُمَّ إنا نستشفع بك وإليك بوجه عم نبيك ...» الحديث[5].

وخطب عمر الناس فقال: يا أيها الناس ألا إن رسول الله ﷺ كان يرى للعباس ما يرى لوالده فيعظمه ويبجله ويبر له قسمه ولا ينسى له غيبة.

وبذا أظهر سيدنا عمر مزية عظيمة فقهها رضي الله عنه من قول بلال بن الحارث: عليك بالكيس الكيس، وما ذاك إلا إشراك أهل الفضل في ذلك المنّ، وإظهار نعمة الله على أهل المنن بما يتطلبه الشرع الحكيم من إقامة صلاة الاستسقاء.

---

(١) سلامة بن روح بن خالد، قال عنه ابن حجر في التقريب (ص٢٦١): «صدوق له أوهام».

(٢) عُقَيل بن خالد: بالضم، ثقة ثبت. (التقريب ص٤٦٢ برقم ٤٦٦٥).

(٣) زيد بن أسلم: ثقة (التقريب ص٢٦٥، برقم ٢١١٧).

(٤) أبو إسحاق عمرو بن عبدالله السبيعي: ثقة من الثالثة روى له الجماعة. التقريب (ص٤٢٣)، برقم (٥٠٦٥).

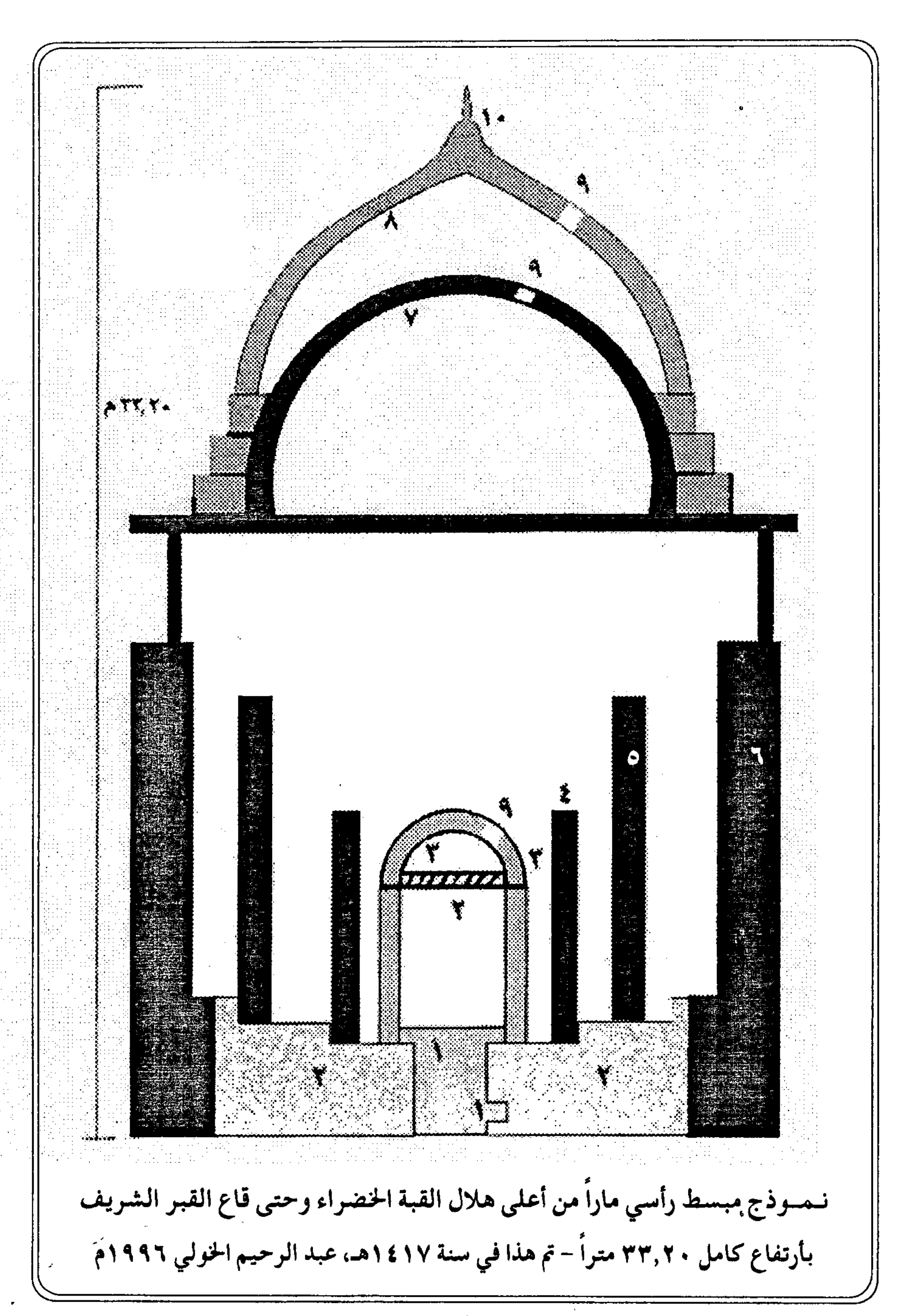
(٥) كرامات الأولياء للالكائي (ص١٣٥-١٣٦).

وقد أسهبنا في الحديث عن ذلك بما ذكره أهل العلم في توسل عمر بالعباس لتقرير عمر جواز التوسل بالمفضول مع وجود الأفضل ليس إلا. وليس في ذلك تأل على عمر رضي الله عنه كما زعم المخالف.

هذا وقد تحصل لنا من هذه الأحداث وتظافر طرق التوسل حشد أكبر قدر من التبتل والتذلل والتضرع إلى الله بأنامل التوسل بالمرقد الشريف وبالنسب الشريف وبالنَّفَس الطاهر. أي: توسل بلال بن الحارث بقبر النبي ﷺ وإقرار عمر والصحابة له على ذلك دون نكير، وتوسل عمر بذات العباس رضي الله عنهما، وتوسل العباس رضي الله عنه بقربه من النبي ﷺ بدعاء صادق، فثبت بعد هذا جواز التوسل بجميع الطرق المشروعة في حياته ﷺ وبعد نقلته، وبذاته وبالذوات الصالحة وبروحه الشريفة في قبره الشريف، وبدعاء الصالحين دون نكير، كما تقدم في الآية ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ وأن الألف واللام تفيد العموم دون حصر، ويحضرني في هذا المقام قول من قال:

ما أجمل أن ترى شبهة الباطل تتضاءل افتضاحاً، وما أروع أن تلقى حجة الحق تتبختر اتضاحاً.

والحمد لله رب العالمين الهادي إلى طريق المتقين.



نمـوذج مبسط رأسي ماراً من أعلى هلال القبة الخضراء وحتى قاع القبر الشريف

بأرتفاع كامل ٣٣,٢٠ متراً - تم هذا في سنة ١٤١٧هـ، عبد الرحيم الخولي ١٩٩٦مَ

مخطط الكوى التي جُعلت في القبر الشريف

١- اللحد الذي يضم الجسد الطاهر الشريف ﷺ .

١َ- قبر الرسول محمد ﷺ .

٢- رصاص مصبوب حول القبور الشريفة في عهد السلطان محمود نور الدين زنكي.

٢َ- سقف الحجرة الطاهرة من جريد النخيل من عهد صاحبها ﷺ .

٣- قبة فوق القبور الطاهرة.

٣َ- جدار السيدة عائشة رضي الله عنها، بناء الرسول ﷺ .

٤- جدار عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

٥- أعمدة وجدار قاتيباي رحمه الله (حاملة الستاير على القبور الشريفة).

٦- جدار المقصورة الخارجية حامل القباب.

٧- القبة الزرقاء أنشئها قاتيباي عام ٨٨٥هـ، منذ ٥٤٣ سنة.

٨- القبة الخضراء أُنشئت عام ١٢٢٨هـ، منذ ٢٠٠ سنة.

٩- كوة مفتوحة جهة الجنوب مطلة على الساحة الجنوبية.

١٠- هلال من النحاس مطلي بماء الذهب.

الدليل الثاني: وروى الدارمي عن أبي الجوزاء أوس بن عبد الله قال: قحط أهل المدينة قحطاً شديداً، فشكوا إلى عائشة رضي الله عنها، فقالت: **انظروا قبر النبي ﷺ، فاجعلوا منه كوىً**[1] **إلى السماء، حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف** (انظر الشكل أ)، **قال: ففعلوا، فمطرنا مطراً حتى نبت العشب وسمنت الإبل، حتى تفتقت من الشحم، فسمي عام الفتق**»[2].

فهذا دليل على صحة التوسل بالنبي ﷺ بعد وفاته، فقد طلبت السيدة عائشة رضي الله عنها ذلك من أهل المدينة فأغاثهم الله عز وجل بالمطر، وفيهم صحابة رسول الله ﷺ وقد أقروا فعلهم. فهل ننسب بعد هذا، الشرك للسيدة عائشة رضي الله عنها والصحابة رضي الله عنهم الذين أقروا قولها؟ حاشاهم من ذلك.

قال السيد العلامة علي بن محمد بن يحيى: «ويكفينا من هذه القصة أنها دليل أن عائشة أم المؤمنين تَعْلَم أن رسول الله ﷺ لازال بعد وفاته رحيماً وشافعاً لأمته، وأنَّ مَنْ زاره واستشفع به شفع له، كما فعلت أم المؤمنين، وليس هو من قبيل الشرك أو من وسائل

(١) قوله: «فاجعلوا منه كوىً»: كذا في النسخ الخطية، وفي الوفا، وتاريخ المراغي وغيره: كوة، قال في اللسان: الكُوة، الخرق في الحائط، والثقب في البيت، يقال: كوة بالفتح، وبالضم لغة، والجمع كوى.

(٢) سنن الدارمي، باب ما أكرم الله تعالى نبيه بعد موته (١/ ٤٣ - ٤٤) وإسناده حسن. وقد حسنه السيد العلامة المحدِّث على بن محمد بن يحيى باعلوي رحمه الله تعالى في كتابه «هداية المتخبطين» (ص٥٤) وردَّ على من ضعفه، وكذا حسنه الشيخ المحدث محمود سعيد ممدوح في رفع المنارة (ص٢٠٣).

الشرك كما يَلْغَط به هؤلاء المكفِّرُون والمضَلِّلُون، فإن عائشة ومن شهدها لم يكونوا ممن يجهلون الشرك ولا ما يمتُ إليه.

فالقصة تدمغ هؤلاء وتثبت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يهتم بأمته في قبره، ولم يكن توفي وانتهى.

وقد ثبت أن أم المؤمنين عائشة قالت: «كنت أدخل بيتي الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأضع ثيابي وأقول إنما هو زوجي وأبي، فلما دفن عمر معهما فوالله ما دخلتُ إلا وأنا مشدودة حياءً من عمر» رواه أحمد. قال الحافظ الهيثمي رجاله رجال الصحيح، وفي رواية: حتى بنيت بيني وبين القبور جداراً، فتفضضت بعد. ورواه أبو يعلى بإسناد آخر فيه عويد ابن أبي عمران ضعيف، ووثقه ابن حبان، ولم تعمل عائشة هذا باطلاً بل هي تعلم أن النبي صلى الله عليه واله وسلم وصاحبيه يعلمان من هو عند قبورهم»[1].

الدليل الثالث: ما أخرجه الإمام الطبراني أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكى ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضأة فتوضأ، ثم ائت المسجد فصلّ فيه ركعتين ثم قل: **اللَّهُمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد ﷺ، نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي**

---

(١) هداية المتخبِّطين للسيد العلامة علي بن محمد بن يحيى (ص٥٥).

فتقضى لي حاجتي. وتذكر حاجتك، وَرُحْ حتى أروح معك، فانطلقَ الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفان رضي الله عنه، فجاء البواب حتى أخذ بيده، فأدخله على عثمان بن عفان رضي الله عنه، فأجلسه معه على الطُنفسة فقال: حاجتك؟، فذكر حاجته وقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة، وقال: ماكان لك من حاجة فاذكرها، ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف، فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر ولا يلتفت إليّ حتى كلَّمْتَهُ فيّ، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلَّمْتُهُ ولكني شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير، فشكى إليه ذهاب بصره، فقال له النبي ﷺ: «فتصبر» فقال: يارسول الله ليس لي قائد وقد شق علي، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ائت الميضأة فتوضأ، ثم صلّ ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات» قال ابن حنيف: فو الله ما تفرقنا وطال بنا الحديث، حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرٌّ قط[1].

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير ٩/ ٣٠ برقم ٨٣١١، والمعجم الصغير ١/ ٣٠٦ رقم ٥٠٨، وقال: الحديث صحيح، وفي الدعاء له ٢/ ١٢٨٩. والبيهقي في دلائل النبوة ٦/ ١٦٧-١٦٨. وصححه المنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٢٧٣ بموافقته لتصحيح الطبراني؛ والحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٢٧٩. وقال عقبه: «قلت روى الترمذي وابن ماجه طرفاً من آخره خالياً عن القصة، وقد قال الطبراني عقبه: والحديث صحيح بعد ذكر طرقه التي روي بها». وأخرجه ابن السني رقم ٦٢٨، والحاكم في المستدرك ١/ ٥٢٦ عن طريق أحمد بن شبيب عن أبيه ولم يذكر القصة. وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، وسلمه الذهبي. فالرواية بهذه القصة المذكورة صحيحة، ويكفي فيها تصحيح الطبراني والحاكم والهيثمي، وإقرار المنذري تصحيح الطبراني.

قال السيد العلامة المحدِّث علي بن محمد بن يحيى باعلوي:
«واعلم أن هذه الطائفة يدَّعون متابعة السلف، والسلف براء منهم، وهم ليسوا طلاب حق، فهؤلاء كلَّما رأوا حديثاً يخالف مذهبهم نشطوا له تشغيباً وتشفيّاً فيه.

فحديث الأعمى تَشَعَّب فيه كلامهم، فضعفه جماعة منهم بأبي جعفر الراوي له بأنه مجهول تمسكاً بقول الترمذي أنه غير الخطمي، غاضّين عن تصحيح الترمذي للحديث، لأن الحامل لهم التخلص من الحديث، وإلا فإن أبا جعفر مشهور بالخطمي في هذا الحديث من رواية شعبة وروح بن القاسم وحماد بن سلمة وهم تلاميذه، وأعرف الناس به ومن كلام ابن أبي خيثمة، فقد صرح بأنه الخطمي وأنه هو الذي روى شعبة عنه هذا الحديث. وكفى بهذا الإمام الذي يُرجع إليه في تاريخ الرواة. وكذلك الإمام الدولابي في «الكنى» والطبراني في «المعجم» فسقطت شبهة هؤلاء.

فانبرى جماعة آخرون منهم إلى التشبث في زيادة حماد بن سلمة: «فإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك». فقالوا إنها رواية شاذة وقد أخطأوا، فإنها زيادة من ثقة لا تنافي أصل الحديث فهي مقبولة كما في علوم الحديث ونصوص علماء المصطلح كما تقدم شرحه.

فادَّعى زاعمون آخرون أن القصة التي وقعت لرجل عند الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه له حاجة، فعلمه راوي الحديث

عثمان بن حنيف هذا الدعاء لتكون حافزاً لقضاء هذه الحاجة، فادعوا أنها زيادة في الحديث وهي قصة متأخرة وليست من الحديث في شيء..قالوا إنها من رواية شبيب بن سعيد، وقد سبق قريباً صحة هذه الرواية لأنها جاءت بإسناد الحديث الذي صححه الأئمة. وشبيب روى عنه هذا الحديث والقصة ابنه أحمد أتقن الناس فيه، وهو - أي شبيب بن سعيد- ثقة في غير ما يرويه عنه ابن وهب، وهذا الحديث لم ينفرد بروايته ابن وهب بل رواه ابنه أحمد وأخوه وابن وهب، لا ابن وهب وحده فقط، فسقط كلام هؤلاء الزاعمين. . . .

وأما تشكيكهم في هذه القصة بأنها لو صحت تزري بعثمان رضي الله عنه، فمن جملة التحككات والتلكؤات التي يبثونها للتغبير والتشغيب في وجه الآثار الصحيحة، إذ قد عُلِمَ من القصة أن سيدنا عثمان رضي الله عنه اعتذر بأنه نسي حاجة الرجل الذي في القصة، وهي حاجة شخصية، وإلا فإن الخليفة له قضاة شرعيون يتقدم إليهم كلُّ مظلوم»[1].

الدليل الرابع: ما رواه البزار عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**حياتي خير لكم**

---

(١) هداية المتخبطين (ص٣٩-٤١).

تُحْدِثُون ويُحْدَث لكم، ووفاتي خير لكم تعرض علي أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت لكم»[1].

فإذا وجدت الخيريّةُ في حياته وفي وفاته، وكان يجوز التوسل في حياته، فكذلك بعد وفاته ﷺ .

الدليل الخامس: وروى الإمام أحمد والحاكم عن داود بن أبي صالح قال: **أقبل مروان يوماً فوجد رجلاً واضعاً وجهه على القبر، فقال: أتدري ما تصنع؟ فأقبل عليه فإذا هو أبو أيوب الأنصاري فقال: نعم جئت رسول الله ﷺ ولم آت الحجر**، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تبكوا على الدين إذا وليه أهلُه، ولكن ابكوا عليه إذا وليه غير أهله»[2].

---

(١) رواه البزار في مسنده كشف الأستار: (١/٣٩٧). وقال الحافظ العراقي في طرح التثريب (٣/٢٩٧): إسناده جيد. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٢٤): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح. وصححه السيوطي في الخصائص (٢/٤٩١). وقال الحافظ السيد أحمد ابن الصديق الغماري في كتابه «الاكتفاء بتخريج أحاديث الشفاء» ـ مخطوط ـ صفحة ١٧ عن حديث ابن مسعود عند البزار: «قلت: وهو إسناد صحيح ورجاله رجال الصحيح وحديث بكر بن عبدالله المُزني رواه ابن سعد في الطبقات، قال: أخبرنا يونس بن محمد المؤدب ثنا حمّاد بن زيد عن غالب عن بكر بن عبدالله عن النبي ﷺ به مثل لفظ ابن مسعود وهذا سند على شرط البخاري ومسلم فهو مرسل صحيح وله طريق آخر رواه الحارث ابن أبي أسامة في مسنده.»اهـ.

(٢) رواه الإمام أحمد (٥/٤٢٢)، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخه (٥٧/٢٤٩)، ورواه من طريقين آخرين (٥٧/٢٤٩ - ٢٥٠)، والحاكم في المستدرك (٤/٥١٥) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. وإسناده فيه ضعف يسير ولكنه يزول بالمتابعة.

وفي هذا الحديث التجاء الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في قبره الشريف، وفيه أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يفرقون بين حالة كونه صلى الله عليه وآله وسلم حياً بين أظهرهم وبين كونه في قبره الشريف في مخاطبتهم له والتجائهم إليه وبث شكواهم له، وتأمل قوله رضي الله عنه «**جئت رسول الله**»، والحجر المذكور هو حجر موضوع فوق القبر فهل يجرؤ إنسان وينسب لأبي أيوب الشرك؟!.

الدليل السادس: وذكر ابن كثير، وهو من تلاميذ ابن تيمية، عن عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رجلاً من مزينة، سأله أهله أن يذبح لهم شاة عام الرمادة (١٨هـ) فقال: ليس فيهن شيء، فألحوا عليه بذبح شاة، فإذا عظامها حمر، فقال: **يا محمداه**. فلما أمسى أريَ في المنام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول له: «أبشر في الحياة»[١].

الدليل السابع: وفي يوم اليمامة وكان يوماً شديداً على المسلمين، لأن أصحاب مسيلمة الكذاب قاتلوا قتالاً لم يعهد مثله، واستشهد كثير من الصحابة، **حتى نادى خالد بن الوليد بشعار المسلمين**. قال ابن كثير: **وكان شعارهم يومئذ يا محمداه**[٢].

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/٥٠٩)، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٧/٩١).

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/٢٨١)، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٦/٣٢٤).

الدليل الثامن: وروى ابن سعد في «الطبقات» عن عبدالرحمن ابن سعد قال: كنت عند ابن عمر فخدرت رجله فقلت: يا أبا عبد الرحمن ما لرجلك؟ قال: اجتمع عصبها من هاهنا؟ قال: **قلت: ادعُ أحب الناس إليك، قال: يا محمد، فبسطها**[1].

وقد أورد هذا الحديث الإمام النووي في كتابه القيم «الأذكار» في باب «ما يقوله إذا خدرت رجله» وهو كتاب جمعه الإمام النووي رحمه الله تعالى لكي يطبق المسلمون ما فيه من أذكار وصلوات وأدعية. ومن العجيب والغريب أن يورد هذا الحديث ابن تيمية في كتابه «الكلم الطيب»[2] وهذا من تناقضاته الواضحات.

الدليل التاسع: ما رواه البيهقي في «شعب الإيمان»[3]، عن أبي إسحاق القرشي قال: كان عندنا رجل بالمدينة، إذا رأى منكراً لا يمكنه أن يغيره، أتى القبر فقال:

أيا قبر النبي وصاحبيه ألا يا غوثنا لو تعلمونا

قال ابن عبد البر[4]: ذكر الهيثم بن عدي قال: رعت بنو عامر بالبصرة في الزروع، فبعث أبو موسى الأشعري في طلبهم،

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (٤/ ١٥٤)، ورواه علي بن الجعد في مسنده (١/ ٣٦٩)، ورواه من طريقه المزي في تهذيب الكمال (١٧/ ١٤٢)، ورواه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٣٣٥).

(٢) ص١٢٠ منشورات المكتب الإسلامي ١٣٨٥ بتحقيق الألباني.

(٣) (٣/ ٤٩٥) رقم (٤١٧٧).

(٤) الاستيعاب لابن عبد البر (٤/ ١٥١٨).

فتصارخوا: يا آل عامر، فخرج النابغة الجعدي ومعه عصبة له، فأتي به أبا موسى، فقال له: ما أخرجك؟ قال: سمعت داعية قومي، قال: فضربَهُ بهِ أسواطاً، فقال النابغة في ذلك:

رأيت البكر بكر بني ثمود　　وأنت أراك بكر الأشعرينا

فإن تك لابنِ عفان أمينا　　فلم يبعث بك البرَّ الأمينا

فيا قبر النبي وصاحبيه　　ألا يا غوثنا لو تسمعونا

ألا صَلّيِ إلهكم عليكم　　ولا صلى على الأمراء فينا

ولما توفي رسول الله ﷺ، دهش الناس، وطاشت عقولهم، وكان أبو بكر رضي الله عنه أثبتهم وأجلدهم، فجاء وعيناه تهملان، فأكب عليه، وكشف عن وجهه ومسحه، وقبّل جبينه، وجعل يبكي ويقول: بأبي أنت وأمي، طبت حياً وميتاً ... إلى أن قال:

ولو أن موتك كان اختياراً　　لجدنا لموتك بالنفوس

اذكرنا يا محمد عند ربك، ولنكن في بالك[1].

الدليل العاشر: ومن الأدلة على جواز التوسل بالنبي ﷺ بعد وفاته **القياس على جواز التبرك بآثاره في حياته وبعد وفاته**، فقد روى البخاري ومسلم وغيرهما صوراً كثيرة من تبرك الصحابة بآثار

---

(١) انظر الروض الأنف (٤ / ٤٤٥) و الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء (٢ / ٤٣٣). والمواهب اللدنية مع شرح الزرقاني (٨ / ٣٢٢).

النبي ﷺ، والتوسل بها للاستشفاء أو العناية والتوفيق، وما شابه ذلك، فمنها:

١- ما رواه البخاري عن عثمان بن عبدالله بن موهب قال: أرسلني أهلي إلى أم سلمة زوج النبي ﷺ بقدح من ماء... وكان إذا أصاب الإنسان عينٌ أو شيء، بعث إليها مخضبة، فاطلعتُ في الجُلْجُل[1] فرأيتُ شعراتٍ حُمْراً[2].

إذن فإن أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ، كانت تحتفظ بشعرات من شعر النبي ﷺ في جلجل لها، فكان إذا أصاب أحداً من الصحابة عين أو أذىً، أرسل إليها إناء فيه ماء، فجعلت الشعرات في الماء، ثم أخذوا الماء يشربونه توسلاً للاستشفاء والتبرك به.

٢- ومن ذلك مارواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يدخل بيت أم سُليم، فينام على فراشها وليستْ فيه، قال: فجاء ذات يوم فنام على فراشها، فأُتيَتْ فقيل لها: هذا النبي ﷺ نام في بيتك على فراشك، قال: فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش، ففتحت عتيدتها[3]، فجعلت تنشف ذلك العرق، فتعصره في قواريرها، ففزع النبي ﷺ

---

(١) ما يشبه القارورة يحفظ فيه ما يراد صيانته.

(٢) رواه البخاري (٥٨٩٦).

(٣) صندوق صغير تضع فيه ما يعزُّ من متاعها.

فقال: «ما تصنعين يا أم سُلَيمْ؟» فقالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا، قال: «أصبتِ»[1].

٣ - ومن ذلك ما جاء في الصحيحين من استباق الصحابة إلى فضل وضوئه عليه الصلاة والسلام ليتمسحوا به، والتبرك بالكثير من آثاره، كألبسته والقدح الذي كان يشرب به.

فإذا كان هذا شأن التوسل بآثاره المادية، فكيف بالتوسل بمنزلته عند الله جل جلاله، وكيف بالتوسل بذاته ﷺ، وبكونه رحمة للعالمين؟!.

فالتوسل والتبرك كلمتان تدلان على التماس الخير والبركة عن طريق المتوسل به، وكل من التوسل بجاهه ﷺ عند الله تعالى، والتوسل بآثاره أو فضلاته أو ثيابه، أفراد وجزئيات داخلة تحت نوع شامل هو مطلق التوسل الذي ثبت حكمه بالأحاديث الصحيحة، وأمر الحق به كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ**﴾[2]، فعبر عن إدراك الرحمة بالأثر وما دامت الرحمة تدرك بالأثر أصبح للآثار قداسة، ومن هذا الباب رغّب الإسلام في التبرك والتوسل بالذوات لأنها الحقائق.

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣١).

(٢) من سورة الروم الآية رقم (٥٠).

قال الإمام ابن حجر في «الإصابة»: «وقال سعيد بن منصور: حدثنا هشيم، حدّثنا عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه، أن خالد بن الوليد فقد قلنسوته يوم اليرموك، فقال: اطلبوها، فلم يجدوها، فلم يزل حتى وجدوها، فإذا هي خلفه،فسُئِلَ عن ذلك فقال: اعتمر النبي فحلق رأسه، فابتدر الناس شعره، فسبقتهم إلى ناصيته، فجعلتها في هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالاً وهي معي إلا تبيّن لي النصر»(١).

لِمَ وزّع النبي ﷺ شعره على أصحابه في حجة الوداع؟

وفي «فتوح الشام» قال خالد بن الوليد رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ لما حلق رأسه في حجة الوداع، أخذت من شعره شعرات، فقال لي: ما تصنع بهؤلاء يا خالد؟ فقلت: أتبرك بها يا رسول الله، وأستعين بها على قتال أعدائي، فقال لي النبي ﷺ: «لا تزال منصوراً ما دامت معك»، فجعلتها في مقدمة قلنسوتي، فلم ألق جمعاً قط إلا انهزموا ببركة رسول الله ﷺ (٢).

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٢/٢٥٣،٢٥٤)، ورواه أبو يعلى في مسنده (١٣/١٣٨) رقم (٧١٨٣)، ورواه عمر بن أبي جرادة في بغية الطلب في تاريخ حلب (٧/٣١٤٨)، ورواه الواقدي في فتوح الشام (١/٢٢٠)، وذكره الإمام أحمد في مسائله (١/١٦٠)، وابن كثير في البداية والنهاية (٧/١١٣)، وابن الجوزي في صفة الصفوة (١/٦٥٣)، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٤/٣١٤). والحديث حسن على مذهب ابن حجر (التقريب ١/٣٣٣ رقم ٣٧٥٦)، وصحيح على مذهب ابن سعد، وعلي بن المديني، والطبري. انظر ميزان الاعتدال (٤/٢٤٧ رقم ٤٧٧٢).

(٢) فتوح الشام للواقدي (١/٢٢٠).

قلت: عبر خالد رضي الله عنه بقوله: ببركة رسول الله ﷺ، ولم يقل: ببركة الشعرات لأن الرسول ﷺ هو الذي بارك تلك الشعرات، والله هو الذي بارك الرسول، فأضحت سنة التبرك من صريح الإيمان الخالص.

الدليل الحادي عشر: توسل سفينة مولى رسول الله ﷺ برسول الله حين خرج عليه سبع بالصحراء: في الزمان والمكان:

أخرج الحافظ البغوي في معجم الصحابة قال: حدثنا هارون بن عبدالله، حدثنا علي بن عاصم قال: حدثني أبو ريحانة، عن سفينة مولى رسول الله أنه قال: لقيت الأسد فقلت: **أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ**، قال: فضرب بذنبه الأرض وقعد[1]. وأخرجه من طريق ابن المنكدر فقال: حدثنا محمد بن عبدالله بن المخرمي، حدثنا حسين بن محمد، حدثنا عبدالعزيز بن عبدالله ابن أبي سلمة، وحدثني إبراهيم ابن هاني، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن رجل، جميعاً عن محمد بن المنكدر عن سفينة، مولى كان لرسول الله ﷺ، قال: كنا في سفينة تجاراً في البحر فانكسرت السفينة فرمى بنا البحر فخرجت أمشي لا أدري أين أتوجه، فكان أول شيء رأيت

---

(١) معجم الصحابة للبغوي ٣/ ٣٥٥، البزار ١/ ٢٥٧، الطبراني في المعجم الكبير ١/ ٩٤، وزاد: وهمهم فظننت أنه يودعني، وكان ذلك آخر عهدي به. قال الهيثمي: رواه البزار والطبراني بنحوه ورجاله وثقوا، انظر مجمع الزوائد ٩/ ٦٣٦-٦٣٧.

الأسد فقلت: أي أبا الحارث **أنا مولى رسول الله** ﷺ، فهمهم فدفعني برأسه فجعلت أدفعه حتى أوقفني على الطريق[1].

كما وقد ذكر صاحب (إظهار العقوق)[2] نقلاً عن كتاب النجم الثاقب بزيادة، فقال سفينة: «**أقسمت عليك برسول الله أن تسكن، فسكن**».

وحديث قصة سفينة هذا مما يبرهن لك أخي القارئ أن الصحابة رضي الله عنهم قد تأصل فيهم التوسل بالنبي ﷺ في حياته وبعد مماته، فهذا سفينة حينما يهجم عليه الأسد يقول له: أنا مولى رسول الله ﷺ، فقد عرّف الأسد بأنه مولى رسول الله ﷺ، فَلِمَ لم يقل له: أنا سفينة ويسكت؟ ولكنه قال: أنا سفينة مولى رسول الله، وفي الرواية الثانية: أنا مولى رسول الله، أي مستجيراً برسول الله منك.

ورواية صاحب النجم الثاقب تفسر المعنى، وكذلك رواية الروياني تشهد لهذا المعنى رغم ضعفها[3]، فهي مفسرة للمعنى

---

(١) الحاكم ٣/٦٠٦، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وأبو نعيم في الحلية ١/٣٦٩، وأبو نعيم في الدلائل ص٢١٢، البداية والنهاية ٥/٣١٦، وذكره الكاندهلوي في حياة الصحابة ٣/٥١١، وفي تاريخ دمشق ٤/٢٦٩.

(٢) ص١٥.

(٣) أخرج الروياني في مسنده ١/٤٣٧ قال: حدثنا أحمد بن يوسف حدثنا هشام بن عمار حدثنا إبراهيم بن أعين عن بحر السقاء عن محمد بن المنكدر قال: قلت لسفينة مولى النبي ﷺ: لم سميت سفينة... فقال: أحدثك بأعجب من هذا عدا كلب أسود على رجل من أهل الذمة فدخل البحر فتحرز به وثبت الكلب ينتظره، فقال: يا كلب إني في =

كما اعتمده أكثر أهل العلم، فلولا صحبته وصلته برسول الله ﷺ لما استجار بتلك المعرفة وتلك الصحبة من الأسد، فإذاً استقر المعنى أن سفينة عنى ذات النبي ﷺ التي حققت له مقام الصحبة والخدمة لرسول الله ﷺ فرضي الله عنه وأرضاه.

الدليل الثاني عشر: استغاثة الصحابي الجليل ضمرة بن ثعلبة السلمي بالنبي ﷺ في الحروب والغزوات، أي: في الزمان والمكان:

عن ضمرة بن ثعلبة أنه أتى النبي ﷺ وعليه حلتان من حلل اليمن فقال: يا ضمرة أترى ثوبيك هذين مدخليك الجنة؟ فقال: لئن استغفرت لي يا رسول الله لا أقعد حتى أنزعهما عني. فقال ﷺ: اللَّهُمَّ اغفر لضمرة بن ثعلبة فانطلق سريعاً حتى نزعهما عنه[1].

وعنه أنه أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله لي بالشهادة فقال النبي ﷺ: اللَّهُمَّ حرم دم ابن ثعلبة على المشركين والكفار. قال: فكنت

= ذمة محمد رسول الله ﷺ فولى الكلب يعدو. بحر السقاء قال عنه ابن حجر في التقريب (٦٣٧): ضعيف من السابعة، إبراهيم بن أعين الشيباني ضعيف من التاسعة. (التقريب: ١٥٤) وذكره ابن حبان في الثقات (٨/٥٧).

(١) أحمد ٤/٣٣٨ الطبراني في المعجم الكبير ٨/٣٠٩، وقال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب ٣/٨٣: «ورواته ثقات إلا بقية» اهـ. ومثله قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/١٣٦:

أحمل في عرض، وفي الطبراني : عظم القوم فيتراءى لي النبي ﷺ خلفهم فقالوا: يا ابن ثعلبة إنك لتغرز (وفي الهيثمي : لتغرر) فتحمل على القوم فقال: إن النبي ﷺ يتراءى لي خلفهم فأحمل عليهم حتى أقف عنده ثم يتراءى لي أصحابي فأحمل حتى أكون مع أصحابي قال: فعمر زمناً طويلاً من دهره [1].

إن هذا الحديث الشريف لينوه بدلالات عظيمة في مجالات شتى أجلها وأسماها:

١ - رؤية النبي ﷺ يقظة، فيلجم بهذا المعنى وبهذه الحجة أفواه من في قلوبهم مرض ممن ينكر ذلك عماية وجهلاً وجحداً واستكباراً.

٢ - الدلالة الثانية: يدل على صدق اعتقاد الصحابة في رسول الله ﷺ بأنه الغوث والمستغاث به في الحياة وبعد الممات، وياله من تقرير نبوي لهذا الصحابي الجليل حينما سأله أن يتحفه الله بالشهادة في سبيل الله فأدركت العين النبوية الثاقبة الشريفة منزلة هذا الصحابي وخصوصيته عند ربه وكرامة الله عليه باستمداد الغوثية النبوية له حتى بعد نقلة الصادق إلى جوار ربه وما ذلك إلا بصدقه وزهده في الدنيا حين طلب منه ﷺ أن يخلع ثوبيه. فبخلع ثوبيه

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٩ / ٣٧٩ رواه الطبراني وإسناده حسن.

خلع الكونين فلم يعرف إلا ربه فاشتاق إليه فطلب الشهادة فقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ حرم دم ابن ثعلبة على المشركين والكفار» لقد أغاث دعاء النبي ﷺ ابن ثعلبة فأكرمه بالغوثية النبوية المطلقة، وخصه بهذه الخصوصية لما رأى فيه ﷺ من كمال الأهلية وتمام الخيرية ومعرفته الربانية فقد أدرك ابن ثعلبة ذلك لما لم تفصح عنه الأوراق فعمر قلبه بالإيمان وانطوى كونه في حضرة صاحب المقام ﷺ فقال رضي الله عنه: كنت أحمل في عرض القوم، أي: أنه يأتي الجيش من عرض، والعادة في المجاهدين أن يأتوا الجيش مواجهة فما معنى تلك الخصوصية يا ترى؟.

معنى تلك الخصوصية أن النبي ﷺ يتراءى له خلفهم أي خلف الجيش فيحمل عليهم حتى يصل إلى النبي ﷺ فيقف عنده ثم إذا ما تراءى له النبي ﷺ عند أصحابه مضى حتى يكون عندهم، وقضى هذا الصحابي مجاهداً ببركة رؤية النبي ﷺ يقظة واستمداده من روحه الشريفة التي أعطته القوة بالظهور بذلك المشهد أثناء الجهاد حتى قضى نحبه كما هو نص الحديث، فعمر زمناً طويلاً من دهره رضي الله عنه.

* * *

المطلب الثالث

الاستغاثة والتوسل بقبر النبي ﷺ

وإليك أخي المسلم بعض القصص التي توسل أو استغاث أصحابها بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو بقبره الشريف عليه الصلاة والسلام، وهي غير القصص التي ذكرتها في هذا الكتاب، كقصة الإمام العتبي التي ذكر فيها أن أعرابياً جاء إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتوسل به إلى الله ليغفر ذنبه، فبُشِّر بمايطلب، وكالقصة التي رواها مالك الدار، عن الرجل الذي جاء إلى قبر النبي ﷺ يطلب منه أن يستسقي لأمته، وكقصة الذين شكوا للسيدة عائشة رضي الله عنها قحطاً شديداً، فأمرتهم أن يأتوا قبر النبي ﷺ، ويجعلوا فيه كوى إلى السماء... القصة، وكمجيء سيدنا أبي أيوب رضي الله عنه إلى قبر النبي ﷺ، وغيرها من القصص التي تقدم ذكرها بالتفصيل مع الكلام عنها.

وهذه القصص التي أنقلها، ذكرها أئمة ديننا الحنيف، الذين أجمع الناس على صدقهم وثقتهم وعدالتهم.

فقد روى ابن عساكر في «تاريخ دمشق» «أن بلالاً الحبشي رضي الله عنه رأى في منامه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول له: **ما هذه الجفوة يا بلال، أما آن لك أن تزورني يا بلال؟**

فانتبه حزيناً وجلاً خائفاً، فركب راحلته وقصد المدينة، فأتى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجعل يبكي عنده، ويمرغ وجهه عليه، وأقبل الحسن والحسين فجعل يضمهما ويقبلهما، فقالا له: يا بلال نشتهي نسمع أذانك الذي كنت تؤذنه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في السحر، ففعل فعلا سطح المسجد فوقف موقفه الذي كان يقف فيه، فلما أن قال: الله أكبر الله أكبر ارتجت المدينة، فلما أن قال: أشهد أن لا إله إلا الله زاد تعاجيجها، فلما أن قال: أشهد أن محمداً رسول الله خرج العواتق من خدورهن، فقالوا: أبعث رسول الله؟ فما رئي يوم أكثر باكياً ولا باكية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك اليوم»[1].

وقد روى الإمام ابن عساكر رحمه الله تعالى في «تاريخ دمشق»، عن إسماعيل بن يعقوب التيمي قال: كان محمد بن المنكدر يجلس مع أصحابه، قال: **فكان يصيبه صمات، فكان يقوم كما هو حتى يضع خده على قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم يرجع، فعوتب في ذلك، فقال: إنه يصيبني خطرة، فإذا وجدت ذلك استغثت بقبر النبي ﷺ** .

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٧/١٣٧). قال الإمام الشوكاني في نيل الأوطار (٥/١٨٠): سنده جيد.

وكان يأتي موضعاً من المسجد في السحر، يتمرغ فيه ويضطجع، فقيل له في ذلك، فقال: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الموضع، أراه قال: في النوم [١].

وروى أيضاً عن أبي القاسم ثابت بن أحمد بن الحسين البغدادي، أنه رأى رجلاً بمدينة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أذن الصبح عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال فيه: الصلاة خير من النوم، فجاءه خادم من خدام المسجد فلطمه حين سمع ذلك، فبكى الرجل، وقال: **يا رسول الله! في حضرتك يفعل بي هذه الفعال؟** ففلج الخادم في الحال، وحمل إلى داره، فمكث ثلاثة أيام ومات [٢].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٦/ ٥٠ - ٥١) وذكر ذلك الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٥٨ - ٣٥٩)، ولم يتعقبها بشيء، وفي إسناد القصة إسماعيل بن يعقوب التيمي، ضعفه أبو حاتم الرازي كما في الجرح والتعديل لابنه (٢/ ٢٠٤)، وذكره ابن حبان في كتابه الثقات (٨/ ٩٣)، والجرح إن لم يكن مفسَّراً فالتعديل مقدم عليه. علماً بأن للقصة شواهد عن السلف، مما يؤكد ثبوتها وأقل ما يقال عن السند: إنه حسن والله أعلم.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١١/ ١٠٤). وسنده فيه: أخبرنا أبو الفتح نصر الله بن محمد، حدثنا نصر بن إبراهيم، إملاء، حدثني أبو القاسم ثابت بن أحمد بن الحسين البغدادي، به، أما أبو الفتح نصر الله بن محمد فقد قال السمعاني فيه: إمام مفت فقيه أصولي متكلم دين خير، كتبت عنه. اهـ. وقال الذهبي: الشيخ الإمام المفتي الأصولي شيخ دمشق. اهـ. وأثنى عليه الحافظ ابن عساكر ثناء بليغاً حسناً (انظر تبيين كذب المفتري ص٣٣٠ وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ١١٨-١١٩). وثابت بن أحمد هو شيخ ابن عساكر، ترجمه في التاريخ (١١/ ١٠٤).

قال ابن عساكر: وذكر أبو الفرج محمد بن عبد الله بن المعلم، وسمعت أبي، أنبأنا محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين «والد ابن عساكر»، يذكر أن بيننا وبينه قرابة، وأن الأرض التي لنا ببيت سابا[1] كانت له، وأنها انتقلت إلينا بالإرث منه، فلم أسأله عن وجه القرابة بيننا وبينه لصغري، فذكر أبو الفرج أنه ابتدأ بناء الكهف في سنة سبعين وثلاثمائة، قال: وبالله أعتصم من الكذب، وأسأله أن ينطق لساني بالصدق، رأيت جبريل عليه السلام في المنام، فقال لي: «إن الله تعالى يأمرك أن تبني مسجداً يصلى فيه له، ويذكر اسمه، وهو هذا، فقلت: وأين هذا الموضع؟ فسار إلى هذا الموضع الذي سميته أنا كهف جبريل، قلت: أنى لي بذلك؟ قال: إن الله تبارك وتعالى سيوفق لك من يعينك عليه.

قال أبو الفرج: وإنما سميته كهف جبريل عليه السلام ومسجد محمد، لأني رأيتهما في المنام فيه، وموضع يرى فيه جبريل ومحمد من أجلِّ بقاع الأرض، وجبل دمشق هكذا ما أنبت شجرة قط، ولا ظهر فيه ثمرة، فلما رأيت جبريل ومحمداً عليهما الصلاة والسلام، أنبت الله تبارك وتعالى ببركتهما الشجر، وظهر فيه الثمر، و أكل الناس ما لم يؤكل فيه قط، وصار مسجداً من مساجد الله تبارك

---

(١) بالباء الموحدة من إقليم بيت الآبار عند جرمانس. انظر معجم البلدان ١ /٦١٧.

وتعالى، يذكر فيه اسمه، ولو تمكنت ما كنت أقيم إلا فيه، ولا أدفن إلا فيه، ولا أحشر إلا منه.

قال: فمن كانت له حاجة، فليغسل جسده بالماء، ويلبس ثوباً طاهراً، ثم يقصد إلى الكهف فليصل فيه ركعتين، يقرأ في كل ركعة بالحمد، وسبع مرات ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[1]، فإذا فرغ من صلاته يقول: اللَّهُمَّ صلِّ على جبريل الروح الأمين، وعلى محمد خاتم النبيين، سبع مرات، ويسجد ويقول: **اللَّهُمَّ إني أتوسل إليك بجبريل الروح الأمين، وبمحمد خاتم النبيين، إلا قضيت حاجتي، ويذكرها، فإن الله سبحانه وتعالى يقضيها له، إن شاء الله تعالى**[2].

وروى أيضاً عن رزام مولى خالد بن عبد الله القسري، قال: بعث بي المنصور إلى جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام، وأمه أم فروة بنت قاسم بن محمد بن أبي بكر، قال: فلما أقبلت به إليه، والمنضور بالحيرة، وعلونا النجف، نزل جعفر بن محمد عن راحلته، فأسبغ الوضوء، ثم استقبل القبلة فصلى ركعتين، ثم رفع يديه، قال رزام: فدنوت منه فإذا هو يقول: **اللَّهُمَّ بك أستفتح، وبك أستنجح، وبمحمد عبدك ورسولك أتوسل**، اللَّهُمَّ سهّل

---

(١) من سورة الإخلاص الآية (١)، والظاهر المقصود قراءة السورة كلها.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢/ ٣٣٧ - ٣٣٨).

حزونته، وذلّل لي صعوبته، وأعطني من الخير أكثر مما أرجو، واصرف عني من الشر أكثر مما أخاف.

ثم ركب راحلته، فلما وقف بباب المنصور، وأعلم بمكانه، فتحت الأبواب، ورفعت الستور، فلما قرب من المنصور قام إليه، فتلقاه، وأخذه بيده، وماشاه حتى انتهى به إلى مجلسه، فأجلسه فيه، ثم أقبل عليه يسأله عن حاله، وجعل جعفر يدعو له [(١)].

وروى ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد في «كتاب القبور» قال: حدثني سعيد بن عثمان الجرجاني، حدثني ابن أبي فديك قال: سمعت بعض من أدركت يقول: بلغنا أنه من وقف عند قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتلا هذ الآية ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً** ﴾[(٢)].

وقال: صلى الله وسلم عليك يا محمد، حتى يقولها سبعين مرة، ناداه ملك: صلى الله عليك يا فلان، لم تسقط لك حاجة[(٣)].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٨ / ١٣٥ - ١٣٦)، وفي الإسناد رجل مبهم.

(٢) من سورة الأحزاب الآية (٥٦).

(٣) نقله عن ابن أبي الدنيا الحافظ حمزة السهمي في تاريخ جرجان (١ / ٢٢٠). والإسناد صحيح إلى ابن أبي فديك الثقة المتقن ورواه البيهقي في الشعب (٣ / ٤٩٢)، وابن بشكوال في القربة إلى رب العالمين (ص١٣٠-١٣١)، وابن النجار في الدرة الثمينة في أخبار المدينة (ص١٥٧-١٥٨)، والجرجاني في تاريخ جرجان (ص٢٢٠).

وقال ابن عبد البر في «الاستيعاب»: روى ابن عيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد قال: خطب عمر بن الخطاب أم كلثوم بنت أبي بكر إلى عائشة فأطمعته وقالت: أين المذهب بها عنك؟ فلما ذهبت قالت الجارية: تزوجيني عمر وقد عرفت غيرته وخشونة عيشه؟ **والله لئن فعلت لأخرجن إلى قبر رسول الله ﷺ ولأصيحن به**: إنما أريد فتى من قريش، يصب عليَّ الدنيا صبا، قال: فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص فأخبرته الخبر، فقال عمرو: وأنا أكفيك، فقال: يا أمير المؤمنين! لو جمعت إليك امرأة! فقال: عسى أن يكون ذلك في أيامك هذه، قال: ومن ذكر أمير المؤمنين؟ قال: أم كلثوم بنت أبي بكر، قال: مالك ولجارية تنعى إليك أباها بكرة وعشياً؟ قال عمر: أعائشة أمرتك بذلك؟ قال: نعم، فتركها، قال: فتزوجها طلحة بن عبيد الله، وقال علي: لقد تزوجها أفتى أصحاب محمد ﷺ (١).

وذكر الإمام النووي رحمه الله تعالى في كتابه: «تهذيب الأسماء واللغات» **أن عقبة بن عامر الصحابي المشهور، رضي الله عنه، وصل المدينة في سبعة أيام، ورجع منها إلى الشام في يومين**

(١) الاستيعاب لابن عبد البر(٤ /١٨٠٧/ ١٨٠٨)، معلقاً عن ابن عيينة، وهو ثقة ثبت مثل شيخه إسماعيل.

ونصف بدعائه عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتشفعه به في تقريب طريقه[1].

وقال العلامة المحدث سيدي الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري: «قال الحافظ أبو بكر بن المقرئ في «مسند أصفهان»: كنت أنا والطبراني وأبو الشيخ في مدينة النبي ﷺ فضاق بنا الوقت، فواصلنا ذلك اليوم، فلما كان وقت العشاء **أتيت إلى القبر الشريف وقلت: يا رسول الله الجوع**، فقال لي الطبراني: اجلسْ فإما أن يكون الرزق أو الموت، فقمت أنا وأبو الشيخ، فحضر البابَ علويّ، ففتحنا له، فإذا معه غلامان بزنبيلين فيهما شيء كثير، فقال: **يا قوم! شكيتم إلى النبي ﷺ فإني رأيته**، فأمرني بحمل شيء إليكم. نقل هذه الحادثة الحافظ السخاوي في «القول البديع»[2]،

(١) تهذيب الأسماء (١/٣٠٩).

(٢) القول البديع للسخاوي (١٦٠) وأقرها المحدث العلامة الشيخ عبدالله بن الصديق في كتابه إتحاف الأذكياء ص (٤١-٤٣). وذكرها الذهبي في تذكرة الحفاظ (٣/٩٧٤)، وفي السير (١٦ / ٤٠١)، قال محققه شعيب الأرنؤوط: «هذا مردود على قائله إن صح عنه ذلك فإنه لا خلاف بين أهل العلم أنه لا يستغاث إلا بالله ولا يسأل أحد سواه».
واعجب من هذا التألي والاستعلاء والكذب على أهل العلم عماية واستكباراً فإن أكبر أهل العلم يستغيثون برسول الله ﷺ ولم يخالف في ذلك إلا من في قلبه مرض ولعل المحقق منهم، ولم يدرك الجاهل أن الاستغاثة من المترادفات وليست من الأضداد، ففي معناها التوسل بعينه، والله سبحانه ليس بوسيلة ولكن متوسل إليه وليس هناك على وجه البسيطة من أهل التوحيد ممن يستغيثون بالأنبياء والأولياء دون الله سبحانه وتعالى بل اتخذوا النبيين والأولياء وسائط حق مأذون بها من الله سبحانه حتى ينالوا من الله سرعة الإجابة ليس إلا ولا يعتقدون أن الوسائط تنفع وتضر من دون الله .

وذكرها الحافظ ابن الجوزي في كتابه الوفا بأحوال المصطفى، وابن المقري، والطبراني، وأبو الشيخ، كلهم من كبار الحفاظ المشهورين.

وذكر الحافظ السخاوي أيضاً مما عزاه إلى أبي عبد الرحمن السلمي بإسناده، إلى أبي الخير الأقطع الزاهد، قال: دخلت المدينة وأنا بفاقة، فأقمت خمسة أيام لم أذق ذواقاً، فتقدمت إلى القبر الشريف، وسلمت على النبي ﷺ وعلى أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، وقلت: **أنا ضيفك الليلة يا رسول الله**، وتخليت ونمت خلف المنبر، فرأيت النبي ﷺ، وأبا بكر عن يمينه، وعمر عن شماله، وعلياً بين يديه، فحركني علي وقال: قم قدجاء النبي ﷺ، فقمت إليه، وقبَّلتُ بين عينية، فدفع لي رغيفاً، فأكلت نصفه، فانتبهت، فإذا في يدي نصف رغيف»[1].

وذكر المحدث شاه ولي الله دهلوي في كتابه إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء[2]، قال: «وروي أن عمر بعث جنداً إلى مدائن كسرى، وأمَّر عليهم سعد بن أبي وقاص، وجعل قائد الجيش خالد بن الوليد، فلما بلغوا شط الدجلة ولم يجدوا سفينة تقدم سعد وخالد، فقالا: **يا بحر إنك تجري بأمر الله، فبحرمة محمد ﷺ، وبعدل عمر خليفة الله إلا خليتنا والعبور، فعبر الجيش** بخيله وجماله ورجاله إلى المدائن، ولم تبتل حوافرها» .اهـ.

---

(١) إتحاف الأذكياء (ص٤١-٤٣).

(٢) إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء (٤ / ٩٤).

زيادة أدلة من السنة الشريفة:

١ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان له فرطان من أمتي أدخله الله بهما الجنة» فقالت له عائشة: فمن كان له فرط من أمتك؟ قال: «ومن كان له فرط يا موفقة» قالت: فمن لم يكن له فرط من أمتك؟ قال: «**فأنا فرط أمتي، لن يصابوا بمثلي**»(١).

هذا الحديث فيه دلالة واضحة على اعتبار الواسطة الحقة، وأن لها مقاماً ودولة يوم القيامة وكما جاء في البخاري عن مصعب بن سعد قال: رأى سعد رضي الله عنه أن له فضلاً على من دونه، فقال النبي ﷺ: «**هل تنصرون إلا بضعفائكم**»(٢).

فليس ثمة يد إلا قدم الصدق الذي للمؤمنين عند الله، تلكم المكانة التي تبوّئ صاحبها أهلية المثول في حضرة القدس بالتزلف والانكسار والتبتل للعزيز الغفار بأن يرفع الآصار ويضع الأوزار عن

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣/٣٧٦) وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد ربه بن بارق وقد روى عنه غير واحد من الأئمة. وفي الشمائل (٤٨٠)، وأخرجه أحمد في مسنده (١/٣٣٤، رقم ٣٠٩٨)، وأبو يعلى في مسنده (٥/١٣٨)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢٨٨٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/٦٨)، وفي شعب الإيمان (٧/١٣٤). وذكره الحكيم الترمذي أيضاً في نوادر الأصول (١/٣١١)، وزاد فيه: «أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم».

(٢) صحيح البخاري رقم ٢٨٩٦.

العاصين والظالمين أنفسهم، فيقبل الله رجاءهم لأنهم منته ونعمته التي أذن بها، رحمةً منه وحناناً، أظهرها في إخوتهم لسابق منن إخوتهم عليهم، فبوأهم الله تلك المنزلة وأحلهم دار السلام.

وقد ورد عنه ﷺ أن الرجل الصالح يشفع في أربعين من آل بيته، أو في سبعين[1] أو أكثر من ذلك على مختلف الروايات ولذا جاء في هذا الهدي من كان له فرطان، أي: شفيعان من أهله، فسألت الصديقة رضي الله عنها وعن أبيها سؤال الكيس الفطن: فمن كان له فرط؟ فقال ﷺ: ومن كان له فرط. أي شفيع واحد، ثم أعقبت بالسؤال: فمن لم يكن له فرط من أمتك؟ فأجاب ﷺ: «أنا فرط أمتي، لن يصابوا بمثلي».

وأخرج البخاري[2] في باب كراهة السخب بالأسواق من طريق محمد بن سنان عن عطاء بن يسار قال:

لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال: أجل والله إنه لموصوف

---

(١) عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته». أخرجه أبو داود ٣/ ١٥ رقم ٢٥٢٢ وابن حبّان ١٠/ ٥١٧ رقم ٤٦٦٠ والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٦٤، وأخرج ابن ماجه عن عثمان بن عفّان عنه ﷺ قال: «ثم يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء» ٢/ ١٤٤٣ رقم ٤٣١٣.

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٣٩).

بالتوارة ببعض صفته في القرآن «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً **ونذيراً وحرزاً** للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك... »، وأخرج البخاري مثله في كتاب التفسير من الصحيح.

المعنى: أي أن النبي ﷺ شفيع من لا شفيع له من أمته، فبوسيلته وبوساطته التي بوأه الله إياها حين يخر ساجداً في بطنان العرش يلهمه الله من المحامد ما يلهمه فيقول له ربه: ارفع رأسك وسل تعط. فيقول رسول الله ﷺ: «لا أدخل الجنة وواحد من أمتي في النار». فيعطيه الله حتى يرضى، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ** ﴾[1].

فقد دل إذاً هذا الحديث الشريف العظيم دلالة لا مراء فيها بأن من لا مكانة له لا وسيلة له. ومن لا وسيلة له، لا مكانة له.. فلولا منزلة النبي ﷺ ومكانته لما كان فرطاً لمن لا فرط له، إذ أن النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، كما قال سبحانه: ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...** ﴾[2].

٢- عن ابن عباس قال: مرَّ النبي ﷺ بحائطٍ من حيطان المدينة أو مكة، فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما، فقال النبي ﷺ: «يُعذبان، وما يعذبان في كبير». ثم قال: «بلى، كان أحدهما

---

(١) سورة الضحى، الآية (٥).

(٢) سورة الأحزاب، الآية (٦).

لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة». ثم دعا بجريدة، فكسرها كسرتين، فوضع على كل قبر منهما كسرة، فقيل له: يا رسول الله، لم فعلت هذا؟ قال: «لعلهُ أن يخفف عنهما ما لم تيبسا»[1]. أو «إلى أن ييبسا».

٣ـ عن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله ﷺ يخطبُ يوم الجمعة إلى جنب خشبة يُسند ظهره إليها، فلما كثر الناس، قال: (ابنوا لي منبراً)، فبنوا له منبراً له عَتَبَتَان، فلما قام على المنبر ليخطب، حنت الخشبة إلى رسول الله ﷺ، فقال أنسٌ: وأنا في المسجد فسمعتُ الخشبة حنت حنين الولد، فما زالت تحِنُّ حتى نزل إليها رسول الله ﷺ فاحتضنها فسكنت. قال: وكان الحسن إذا حدَّث بهذا الحديث بكى ثم قال: يا عباد الله الخشبةُ تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه لمكانه من الله، فأنتم أحقُّ أن تشتاقوا إلى لقائه[2].

وهذا هديٌ نبوي ترتسم فيه الدلالة واضحة جلية بأثر الذوات الحية على الأروح من قوله ﷺ: «لعله أن يخفف عنهما ما لم

---

(١) أخرجه البخاري (١/٨٨) رقم (٢١٣)، وابن خزيمة (١/٣٢) رقم (٥٥) والنسائي في سننه (٤/١٠٦) والسنن الكبرى (١/٦٦٣).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٤/٤٣٦)، وأحمد (٣/٢٢٦) رقم (١٣٣٨٧)، وأبو يعلى (٥/١٤٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٥٥٩)، والأصبهاني في الدلائل (١/٤٦). وقد أخرج أبو نعيم في دلائل النبوة (٢/١٤٢-١٤٣) أحاديث حنين الجذع.

تيبسا» يفسره قول رسول الله ﷺ: «في كل ذات كبد رطبة أجر»[١]، لأن الجريدتين تحتويان على الحياة ما دامتا خضراوتين، وكل نباتٍ حي يسبح بحمد الله فينتفع الميت بذلك التسبيح، لأن التسبيح يستدر نزول الرحمات، فالعرق الأخضر الحامل للحياة ذات رطبة مأجورة وآجرة، مستمدة وممدة، وهذا أثر حقيقة من حقائق التوسل بالذوات، وعلى ما نص عليه أهل العلم كالإمام العيني ملخصٌ لما ذكرنا قال: «لعله يخفف ذلك من ناحية التبرك بأثر النبي عليه الصلاة والسلام ودعائه بالتخفيف عنهما»[٢]، ونقل الإمام ابن حجر العسقلاني أيضاً عن الطرطوشي أنه قال: «لأن ذلك خاص ببركة يده»[٣]. وقولهما (أي: العيني وابن حجر) «بانتفاع الجريدتين من كف النبي ﷺ ذات، والجريدة ذات، فحصل

---

(١) مختصر الحديث الذي أخرجه البخاري في الصحيح (٢/ ٨٧٠) رقم (٢٣٣٤)، (٥/ ٢٢٣٨) رقم (٥٦٦٣)،وابن حبان (٢/ ٣٠١)، وأبو داود (٣/ ٢٤) رقم (٢٥٥٠) ومالك في الموطأ (٢/ ٢٢٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٨٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: بينما رجل بطريق، اشتد عليه العطش... الحديث.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٣/ ١١٧).

(٣) فتح الباري (١/ ٣٢٠)، وقال الحافظ: ليس في السياق ما يقطع على أنه باشر الوضع بيده الكريمة، بل يحتمل أن يكون أمر به. اهـ. قال العيني في عمدة القاري (٣/ ١٢١): هذا كلام واه جداً، وكيف يقول ذلك وقد صرح في الحديث (ثم دعا بجريدتين فكسرهما فوضع على كل قبر منهما كسرة) وهذا صريح في أنه ﷺ وضع بيديه الكريمة ودعوى احتمال الأمر لغيره به بعيدة.

الاستمداد بطريق السريان من الإنسان (النبي ﷺ) والنبات (الجريدتين)، بدليل قوله ﷺ: «مالم ييبسا».

فالنفع تم من ذات الجريدة الخضراء حيث إنها عندما تكون يابسة تنتهي حقيقتها كما هو الحال في الجمادات مالم يكن ذلك الجماد متجاذباً مع بركة خارجة قوية كما هو الحال في صخرة الإسراء، والحجر الأسعد وفي الجذع الذي خطب عليه النبي ﷺ إذ سطت في ذلك الجذع بركة النبي ﷺ فأورثت فيه روحاً وجددت فيه حياة، فبكى حينما تركه ﷺ وخاطبه حينما سأله. فهذه ذات جامدة تأثرت بالنبي ﷺ فكيف بالقلوب الحية والأرواح الباقية.

* * *

المبحث الرابع
التوسل بالأنبياء و الصالحين

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : التوسل بذوات الأنبياء والصالحين :

التوسل بالأنبياء والصالحين ثابت بالأدلة الشرعية الكثيرة، وهو كأن يقولَ الإنسان : اللَّهُمَّ إني أسألك وأتوسل إليك بجاه فلان، أو حق فلان، أن ترحمني، أو إني أسألك بفلان أن تقضي حاجتي، ونحو ذلك .

والأدلة على هذا كثيرة منها :

الدليل الأول : ماروه البخاري في صحيحه عن أنس، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان إذا قحطوا استسقى بالعباس ابن عبد المطلب، فقال : « **اللَّهُمَّ إنا كنّا نتوسل إليك بنبيّنا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمّ نبينا فاسقنا** » قال : فيسقون[1] .

قال الحافظ ابن حجر : « ويستفاد من قصة العباس **استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح، وأهل بيت النبوة**، وفيه فضل العباس وفضل عمر لتواضعه للعباس، ومعرفته بحقه »[2] .

---

(١) رواه البخاري (١٠١٠)، وأخرجه البغوي في شرح السنة (٣/ ٤٠٩) من طريق البخاري، ورواه عن أنس أيضاً ابن خزيمة (٢/ ٣٣٧) رقم (١٤٢١) ، وابن حبان (٧/ ١١٠)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ١٤٧)، وفي السنن الكبرى (٣/ ٣٥٢)، وابن سعد في الطبقات (٤/ ٢٨ – ٢٩) .

(٢) فتح الباري (٢/ ٤٩٧) .

ويقول أخي المحدِّث محمود سعيد ممدوح: «وليس فيه ترك التوسل به ﷺ، لعموم الأدلة، ولأن غاية ما فيه هو جواز ترك التوسل به، وفرق بين الجواز وغيره، على أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد بالتوسل بالعباس رضي الله تعالى عنه الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، في تبجيل وإكرام العباس، وقد كان في الصحابة من هم أفضل من العباس»(١).

وأخرج الحاكم في «المستدرك»، عن ابن عمر أنه قال: استسقى عمر بن الخطاب عام الرمادة(٢) بالعباس بن عبد المطلب فقال: «**اللَّهُمَّ هذا عم نبيك العباس، نتوجه إليك به فاسقنا**»، فما برحوا حتى سقاهم الله، قال: فخطب عمر الناس فقال: «أيها الناس، إن رسول الله ﷺ كان يرى للعباس ما يرى الولد لوالده، يعظمه، ويفخمه، ويبر قسمه، فاقتدوا أيها الناس برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عمه العباس، **واتخذوه وسيلة إلى الله فيما نزل بكم**»(٣).

قال ابن حجر في «فتح الباري»: «وقد بين الزبير بن بكار في «الأنساب» صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة، والوقت الذي

---

(١) رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة (ص٩١).

(٢) سمي كذلك لكثرة تطاير الرماد لاحتباس المطر.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك ٣ / ٣٣٤، والزبير بن بكار في الأنساب كما في الفتح ٢ / ٤٩٧، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق، من طريق الزبير بن بكار به (٢٦ / ٣٢٨ - ٣٢٩).

وقع فيه ذلك، فأخرج بإسناد له، أن العباس لما استسقى به عمر قال: «اللَّهُمَّ إنه لا ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، **وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك**، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا بالتوبة، فاسقنا الغيث» فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض، وعاش الناس»[1].

وفي رواية عند ابن عساكر: « فقال عمر: اللَّهُمَّ إنا توجهنا إليك بعم نبيك وصنو أبيه، فاسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، ثم قال عمر: قل يا أبا الفضل، فقال العباس: اللَّهُمَّ إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، **وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك**، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا بالتوبة، فاسقنا الغيث، فأرخت السماء شآبيب مثل الجبال بديمة مطبقة حتى أسقوا الحفر بالآكام، وأخصبت الأرض، وعاش الناس، فقال عمر: «هذه الوسيلة إلى الله، والمكان منه»[2].

وفي رواية: «استسقى عمر بالعباس عام الرمادة فقال: اللَّهُمَّ إن هؤلاء عبادك وبنو عبادك وبنو إمائك أتوك راغبين **متوسلين إليك بعم نبيك عليه الصلاة والسلام**، فاسقنا سقيا نافعة تعم البلاد وتحيي العباد، اللَّهُمَّ إنا نستسقي ـ وقال ابن طاوس: **نستسقيك** ـ

(١) فتح الباري (٢/ ٤٩٧).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٦/ ٣٥٩ـ٣٦٠).

بعم نبيك ونستشفع إليك بشيبته، فسقوا ففي ذلك يقول عباس ابن عتبة بن أبي لهب:

بعمي سقا الله الحجاز وأهله

عشية يستسقي بشيبته عمر

توجه بالعباس في الجدب راغباً

إليه فما إنْ رام حتى أتى المطر

ومنا رسول الله فينا تراثه

فهل فوق هذا للمفاخر مفتخر

وفي رواية أخرى عن جابر بن عبدالله قال: أصابتنا سنة الرمادة فاستسقينا فلم نسق، ثم استسقينا فلم نسق، ثم استسقينا فلم نسق، فقال عمر: لأستسقين غداً بمن يسقيني الله، فقال الناس: بمن، بعلي، بحسن، بحسين؟ فلما أصبح غدا إلى منزل العباس فدق عليه فقال: من؟ فقال: عمر. قال: ما حاجتك؟ قال: اخرج حتى نستسقي الله بك، قال: اقعد فأرسل إلى بني هاشم أن تطهروا والبسوا من صالح ثيابكم، فأتوه فأخرج إليهم طيباً فطيبهم، ثم خرج وعلي أمامه بين يديه والحسن عن يمينه والحسين عن يساره وبنو هاشم خلف ظهره فقال: يا عمر لا تخلط بنا غيرنا، قال: ثم أتى المصلى فوقف فحمد الله وأثنى عليه وقال: اللَّهُمَّ إنك خلقتنا ولم

تؤامرنا، وعلمت ما نحن عاملون قبل أن تخلقنا فلم يمنعك علمك فينا عن رزقنا، اللَّهُمَّ فكما تفضلت علينا في أوله فتفضل علينا في آخره، فما برحنا حتى سحت السماء علينا سحاً، فما وصلنا إلى منازلنا إلا خوضاً فقال العباس: أنا المسقي ابن المسقي خمس مرات، فقال سعيد: فقلت لموسى بن جعفر: وكيف ذاك؟ قال: استسقى فسقي عام الرمادة[1].

وذكر الطبري في تاريخه رسالة طويلة بعثها أبو جعفر المنصور إلى محمد بن عبدالله بن حسن بن الحسن بن علي عليهم السلام، وفيها: «ولقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم، فصارت للعباس من بين إخوته، فنازعنا فيها أبوك فقضى لنا عليه عمر، فلم نزل نليها في الجاهلية والإسلام، ولقد قحط أهل المدينة فلم يتوسل عمر إلى ربه ولم يتقرب إليه إلا بأبينا، حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث، وأبوك حاضر لم يتوسل به»[2].

وقال العلامة الشيخ محمد أنور الكشميري رحمه الله، في كتابه «فيض الباري» وقوله: «وإنا نتوسل إليك بعم نبينا، فاسقنا، فيسقون».

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٦/ ٣٦١-٣٦٢).
(٢) تاريخ الطبري (٤/ ٤٣٣).

قلت: «(القائل ابن تيمية) وهذا توسل فعلي، لأنه كان يقول له بعد ذلك: «قم يا عباس فاستسق» فكان يستسقي لهم، فلم يثبت منه التوسل القولي، أي: الاستسقاء بأسماء الصالحين فقط بدون شركتهم».

أقول (القائل الشيخ محمد أنور الكشميري): وعند الترمذي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم علّم أعرابياً هذه الكلمات، وكان أعمى «اللَّهُمَّ إني أتوجه إليك.... إلى قوله: فشفِّعه فيَّ». فثبت منه التوسل القولي أيضاً، وحينئذ إنكار ابن تيمية تطاول»[1].

ذكر بعض الاعتراضات على حديث توسل عمر بالعباس رضي الله عنهما، والجواب عليها

وهنا أحب أن أذكر بعض الاعتراضات التي تثار حول استسقاء سيدنا عمر بسيدنا العباس عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم والجواب عليها.

ومن هذه الاعتراضات قولهم: لمَ لمْ يتوسل عمر بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في الاستسقاء، واتجه إلى العباس رضي الله عنه؟.

والجواب على ذلك من وجوه:

---

(١) فيض الباري (٤ / ٦٨).

أحدها: أن التوسل بالنبي ﷺ ليس بملزم، ويجوز تركه والعدول عنه إلى غيره من الفروع، فهو ليس من الأصول، ولكن المعترضين أنزلوه منزلة الأصول، وهذه المشكلة تعاني منها الآن معظم المجتمعات الإسلامية، حيث إن كثيراً من الدعاة، أو ممن نصبوا أنفسهم دعاة، أخذوا يخلطون في الأسس التي قامت عليها علوم الفقه والعقيدة والفكر الإسلامي، فأنزلوا الفروع منزلة الأصول، والأصول منزلة الفروع وفرعوا على ذلك، وفي هذا خطر عظيم على وحدة الصف واجتماع الكلمة، وهذا ما دفعني إلى تبيين هذه المسألة ومدى خطر التفرقة وأثرها في تفلت المسلمين من عدم التمسك بأصول الإسلام ومبادئه الصحيحة الثابتة.

ثانيها: أن الله تعالى يقول: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾[1]، ولا شك أن العباس كان من المضطرين في تلك الفترة كما هو معلوم، فأهل المدينة كلهم في ضيق من القحط، والعباس نفسه كان له حائط أي: بستان، وأصابه الخراب من الجفاف، فهو من المضطرين لنفسه خاصة وللمسلمين عامة، فهو بحاجة إلى الدعاء والالتجاء إلى الله في تفريج الكرب، فكان من المستحسن أن يُتوَسل به، إضافة إلى قرابته من رسول الله ﷺ.

---

(١) من سورة النمل الآية (٦٢).

ثالثها: أن عمر رضي الله عنه قدم العباس مستسقياً لهم، تعظيماً للنبي ﷺ، ولأهل بيته، ومتوسلاً بعم رسول الله ﷺ بحق قرابته منه، فكان العباس وسيلة في الدعاء، أقامه عمر مقام رسول الله ﷺ مبالغة في تعظيم رسول الله ﷺ فقدّمه، وإليه أشار عمر رضي الله عنه بقوله: «اللَّهُمَّ إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا» فدل على أن تقديم عمر للعباس إلى المصلى ليصلي بهم ويدعو لهم، ليكون في مقام النبي ﷺ رغبة في القبول واستجابة الدعاء، ولذلك فإن العباس توسل برسول الله ﷺ حيث قال: «وقد تقرب القوم بي لمكاني من نبيك ـ أي لقرابتي منه ـ فاحفظ اللَّهُمَّ نبيك في عمه» يعني اقبل دعائي لأجل نبيك.

وهنا إشارة إلى أن العباس صلى بهم صلاة الاستسقاء التي كان النبي ﷺ يصليها بالناس، وأن العباس توسل بالنبي عليه الصلاة السلام في استجابة الدعاء بحق قرابته من النبي ﷺ. وهنا يجب أن نلاحظ أمرين: أمر التوسل، وأمر الاستسقاء.

فتقديم العباس في الاستسقاء هو التوسل، إذ قدم عمر ذات العباس وسيلة ودعا الله بقوله: «اللَّهُمَّ إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا .. إلخ» ودعاء العباس هو الاستسقاء.

رابعها: أن عمر رضي الله عنه أراد بفعله أن يبين جواز التوسل بغير النبي صلىّ الله عليه وآله وسلم من أهل الصلاح والخير ممن ترجى بركتهم.

قال ابن حجر في شرحه: «ويستفاد من قصة العباس استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح، وأهل بيت النبوة»[1].

خامسها: يُستنتج أنّ في فعل عمر رضي الله عنه إرشاداً وتوجيهاً للمسلمين لتبيين جواز التوسل بالمفضول مع وجود الأفضل.

فالخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه اختار العباس مع وجود عدد كبير من آل البيت والصحابة، منهم: علي كرم الله وجهه، والحسن والحسين عليهما السلام، و المبشرون بالجنة وغيرهم، فتقديم العباس فيه الدلالة الواضحة على جواز ذلك.

ولم يتقوّل أحد من علماء المسلمين أن عمر أراد إثبات ذلك (أي: التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل) ولكن استنتجوا ذلك استنتاجاً، ولا بأس بذلك، ولكن في الحقيقة التي لا ريب فيها أن عمر رضي الله عنه استجمع أنواع التوسل التي في العباس بدعائه، وبذات العباس، ثم بتوسل العباس بقرابته ومكانته من رسول الله ﷺ، مع ما سبق من التوسل بالنبي ﷺ الذي وقع من بلال بن

---

(١) فتح الباري (٢/٤٩٧).

الحارث والأعمى، لأدل دليل على ما عنيناه من استجماع أنواع الرجاء والتخشع والتذلل بالتوسلات والتجوهات رجاء الإجابة. وهذا أليق بالرجاء من العبد لسيده عز وجل وهو موافق للفطرة التي فطر الناس عليها وقد فسرت لنا أحداث الحياة في طلب الغوث والنجدة أن العبد يلجأ لكل شيء مما من شأنه أن يغيثه.

سادسها: إن المرء ليعجب من قول من يقول: إن التوسل بالعباس كان توسلاً بدعائه، وهذا يحتاج إلى إيضاح وتعقيب:

فالصحابة رضوان الله عليهم فهموا أن التوسل كان بشخص العباس بحق قرابته بالنبي ﷺ، وفي ذلك يقول الصحابي الجليل عباس بن عتبة بن أبي لهب:

بعمي سقى الله الحجاز وأهله عشية يستسقي بشيبته عمر

توجه بالعباس في الجدب راغباً إليه فما إن رام حتى أتى المطر

ومنا رسول الله فينا تراثه فهل فوق هذا للمفاخر مفتخر

وفي حديث العباس رضي الله عنه نص على جواز توسل الصحابة بالصحابة، واختصاص بإنشاء التوسل بشخصه.

سابعها: قد يكون في الحضور ضعيف إيمان، فإن توسل عمر بالنبي ﷺ ولم يستجب الدعاء شك الحضور في قدره ﷺ، فعدل عمر إلى العباس خوفاً على مقام النبوة. ولو توسل بالنبي ﷺ لقال

المخالف: يجوز التوسل بالنبي خاصة، وهذا التحجير كما قلنا مبني على أصل فاسد هو أن الترك يدل على حرمة الفعل، وهذا قول شاذ لا تقوم به حجة.

وارجع إلى كلام العلامة الشيخ محمد متولي الشعراوي حول التوسل بسيدنا العباس رضي الله عنه في هذا الكتاب، فقد جاء بشيء مفيد[1].

الدليل الثاني: توسل النبي ﷺ بالأنبياء كما ثبت ذلك في قصة فاطمة بنت أسد أم علي كرم الله وجهه إذ قال: «**بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي**»، والحديث صحيح صححه الحافظان الحاكم وابن حبان رحمهما الله تعالى[2] ونصه: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إن فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ لما توفيت نزل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قبرها قبيل الدفن واضطجع فيه وقال: «الله الذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنّها حجتها، ووسّع عليها مدخلها، **بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي**، فإنك أرحم الراحمين».

---

(١) انظر (ص٢٩٢) من هذا الكتاب

(٢) انظر تخريجه في (ص٢١٤-٢١٥) من هذا الكتاب.

وفي رواية أخرى: «أنه أمر بحفر قبرها، فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده الشريفة وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاضطجع فيه»[1].

وبذلك نستطيع القول بجواز التوسل بذوات الصلحاء، وأنه ليس مختصاً ومقيداً بالأعمال الصالحة فحسب، والتوسل بالعباس رضي الله عنه قد وقع بمحضر من الصحابة ولم ينكره أحد، فكان ذلك إجماعاً سكوتياً، وأن التوسل بالعباس توسلٌ به صلى الله عليه وآله وسلم، ويؤكد ذلك ما قاله الإمام ابن عبد البر[2] في ترجمة العباس: «وروينا من وجوه عن عمر، أنه خرج معه بالعباس فقال: **اللَّهُمَّ إنا نتقرب إليك بعم نبيك صلى الله عليه وآله وسلم ونستشفع به**، فاحفظ فيه نبيك صلى الله عليه وآله وسلم كما حفظت الغلامين لصلاح أبيهما، وأتيناك مستغفرين ومستشفعين، ثم أقبل على الناس فقال: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**﴾[3].

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (١/٦٧ - ٦٨)، وفي الكبير (٢٤/٣٥١)، ورواه أبو نعيم في الحلية (٣/١٢١)، ومن طريقه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/٢٧٠).

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/٨١٥ - ٨١٦).

(٣) من سورة نوح الآيات (١٠، ١٢).

ثم قام العباس وعيناه تنضحان ... فنشأت طريرة من سحاب، فقال الناس: ترون ترون، ثم تلاءمت واستتمت ومشت فيها ريح، ثم هرّت ودرّت، فوالله ما برحوا حتى اعتلوا الجدار، وقلصوا المآزر، وطفق الناس بالعباس يمسحون أركانه، ويقولون: هنيئاً لك ساقي الحرمين».

الدليل الثالث: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: **اللَّهُمَّ إني أسألك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق ممشاي هذا**، فإني لم أخرج أشراً، ولا بَطَراً، ولارياء، ولا سمعة، وخرجت اتقاء سخطك، وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تعيذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، أقبل الله عليه بوجهه، واستغفر له ألف ملك»(١).

فأنت ترى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد توسل بحق السائلين على الله، والسائلون تشمل الأنبياء وغيرهم، فهذا دليل على جواز وصحة التوسل بالأولياء والصالحين.

الدليل الرابع: ما رواه البخاري عن مصعب بن سعد قال: رأى سعد رضي الله عنه أن له فضلاً على من دونه، فقال النبي ﷺ: «**هل تنصرون إلا بضعفائكم**»(٢).

---

(١) انظر تخريجه في (ص٢١٥).

(٢) انظر تخريجه في (ص٢٣٢) من هذا الكتاب.

الدليل الخامس: عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ابغوني «اطلبوني» الضعفاء، **فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم**»[1].

الدليل السادس: عن أبي أمية بن عبد الله بن خالد قال: «**كان رسول الله ﷺ يستفتح بصعاليك المهاجرين**»[2].

وفي رواية «كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم **يستفتح ويستنصر بصعاليك المسلمين**». فهذا كله دال على صحة التوسل بالذوات الصالحة.

الدليل السابع: ما رواه البزار وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: «تمثلت في أبي:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبي: **ذاك رسول الله ﷺ**»[3].

الدليل الثامن: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ليأتين على الناس زمان يخرج الجيش، فيطلب الرجل من

---

(١) انظر تخريجه في (ص٢٣٢) من هذا الكتاب.

(٢) انظرتخريجه في (ص٢٣٣) من هذا الكتاب.

(٣) رواه البزار في مسنده (١ /١٢٨ و ١٨٥)، وقال: إسناده إسناد حسن. والإمام أحمد في مسنده (١ /٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥ /٢٧٩)، وذكره الإمام الذهبي في ميزان الاعتدال (٥ /١٥٨). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦ /٢٧٢: رواه أحمد والبزار ورجاله ثقات.

أصحابي، فيقال: **فيكم رجل من أصحاب محمد؟ فيقولون: نعم، فيستفتحون به، فيفتح عليهم**، ثم يأتي على الناس زمان، فيخرج الجيش، فيقال: هل فيكم رجل من أصحاب محمد؟ فيطلبونه فلا يجدونه، فلو كان رجل من أصحابي وراء البحر لأتوه»[١].

وجاء في المعجم الكبير للطبراني[٢]: حدثنا معاذ بن المثنى ثنا علي بن المديني ثنا سفيان بن عيينة عن مجالد عن الشعبي عن عبدالله بن جعفر قال: لما كنت أسأل علياً رضي الله عنه الشيء فيأبى عليّ فأقول: **بحق جعفر، إذا قلت: بحق جعفر أعطاني**[٣].

الدليل التاسع: ما رواه الطبراني وأبو يعلى وغيرهما، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد: يا عباد الله احبسوا عليَّ، يا عباد الله احبسوا علي، فإن لله في الأرض حاضراً سيحبسه»[٤].

---

(١) انظر تخريجه في (ص٢٣٣) من هذا الكتاب.

(٢) (٢/١٠٩).

(٣) الإصابة (١/٤٨٦)، والاستيعاب لابن عبدالبر (١/٢٤٤)، سير أعلام النبلاء (١/٢٠٧)، فضائل الصحابة لابن حنبل (٢/٩٠٣).

(٤) رواه أبو يعلى في مسنده (٩/١٧٧) رقم (٥٢٦٩)، والطبراني في المعجم الكبير (١٠/٢١٧) رقم (١٠٥١٨). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١٣٢): رواه أبو يعلى والطبراني وزاد «سيحبسه عليكم» وفيه معروف بن حسان وهو ضعيف. وله شاهد عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه عن نبي الله ﷺ قال: «إذا ضل أحدكم شيئاً وأراد =

وجاء في كتاب الجامع لشعب الإيمان للبيهقي[1]: أخبرنا أبو عبدالله الحافظ[2]، أخبرنا أحمد بن سلمان الفقيه[3] ببغداد، حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل[4]، قال سمعت أبي يقول: حججت خمس حجج منها اثنتان راكب وثلاثة ماشٍ أو ثلاثة راكب واثنتان ماشٍ فضللت الطريق في حجة، وكنت ماشياً فجعلت أقول: **يا عباد الله دُلُّوني على الطريق**، قال: فلم أزل أقول حتى وقفت على الطريق أو كما قال أبي. إسناده حسن.

الدليل العاشر: ما رواه أهل السير والتاريخ، أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه استسقى بيزيد بن الأسود فسقاهم الله، قال الإمام الذهبي في «السير»: «روى صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر قال: خرج معاوية يستسقي، فلما قعد على المنبر قال: أين

= أحدكم عوناً وهو بأرض ليس بها أنيس فليقل: يا عباد الله أغيثوني: يا عباد الله أغيثوني، فإن لله عباداً لا نراهم». وقد جرب ذلك. رواه الطبراني في الكبير (١٧/ ١١٧-١١٨ رقم ٢٩٠) وقال الحافظ الهيثمي (١٠/ ١٣٢): ورجاله وثقوا على ضعف في بعضهمْ إلا أن زيد بن علي لم يدرك عتبة. وبهذا الشاهد يرتقي الحديث إلى الحسن لغيره.

(١) (٦/ ١٢٨) ورواه ابن السني في عمل اليوم والليلة برقم (٥٠٩)، والبزار في مسنده (٤/ ٣٤)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٣٩٠) برقم (٩٧٧٠).

(٢) أبو عبدالله الحافظ ثقة.

(٣) أحمد بن سلمان الفقيه صدوق تاريخ بغداد (٤/ ١٩٠).

(٤) عبدالله بن أحمد بن حنبل قال الخطيب: كان ثقة ثبتاً فهماً (٩/ ٣٧٥).

يزيد بن الأسود؟ فناداه الناس، فأقبل يتخطاهم، فأمزه معاوية فصعد المنبر، قال معاوية: **اللَّهُمَّ إنا نستشفع إليك بخيرنا وأفضلنا، يزيد ابن الأسود، يا يزيد! ارفع يديك إلى الله، فرفع يديه، ورفع الناس**، فما كان بأوشك من أن ثارت سحابة كالترس، وهبت ريح فسقينا، حتى كاد الناس أن لا يبلغوا منازلهم»[1].

فهذا دليل على جواز التوسل بالصالحين، إذ إن معاوية توسل بيزيد بن الأسود رضي الله عنه في محضر من الصحابة، ولم ينكر عليه أحد منهم. فكان هذا إجماعاً منهم على صحة التوسل بالصالحين.

وقد تكررت هذه الحادثة مع يزيد بن الأسود، لما روى الإمام أبو بكر ابن أبي عاصم الشيباني في «الآحاد والمثاني» عن ابن أبي حملة قال: «أصاب الناس قحط بدمشق، وعلى الناس الضحاك بن قيس، فخرج يستسقي، فقال: أين يزيد بن الأسود الجرشي؟ فلم يجبه، فقال: أين يزيد بن الأسود؟ فلم يجبه، فقال: أين يزيد بن الأسود الجرشي؟ فقال: عزمت عليه إن كان يسمع صوتي إلا قام، فقام يزيد

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤ / ١٣٧)، وقال ابن حجر في الإصابة: أخرجه أبو زرعة الدمشقي، ويعقوب بن سفيان في تاريخيهما بسند صحيح عن سليم بن عامر. وذكره أبو الفرج بن الجوزي في المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٦ / ٣٤)، وابن كثير في البداية والنهاية (٨ / ٣٢٤)، ورواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٧ / ٤٤٤).

ابن الأسود، فثنى جانبي البرنس على عاتقه، ثم قال: اللَّهُمَّ إن عبادك قد تقربوا بي إليك، فاسقهم، قال: فما انصرفوا إلا وهم يخوضون الأودية، ثم قال: اللَّهُمَّ إنه قد شهرني، فأرحني، قال: فما أتى عليه جمعة حتى مات، أو قتل»(١).

الدليل الحادي عشر: ثبوت التبرك والتوسُّل إلى الله بقوله: «**يا مولى الزبير اقضِ دَيْني**» المروي عن الزبير بن العوام رضي الله عنه لقضاء الدين ونحوه، وهو فعل ابنه عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما.

فقد اخرج البخاري في صحيحه في كتاب فرض الخمس، باب بَرَكة الغازي في مَالهِ حيًّا وميِّتاً مع النبي ﷺ وولاةِ الأمر (فتح الباري ٦/ ٢٢٧ حديث رقم ٣١٢٩): عن عبد الله بن الزُّبير قال: «لمَّا وقف الزبيرُ يومَ الجَمَل دعاني فقمتُ إلى جنبه فقال: يا بُنيَّ لا يُقْتَلُ اليومَ إلا ظالمٌ أو مظلوم، وإني لأراني إلا سأقتلُ اليومَ مظلوماً، وإنَّ مِن أكبر هَمِّي لَدَيني، أفترى يُبقي دَيْنُنَا مِن مالنا شيئاً... قال عبد الله (ابن الزبير): فجَعَلَ يُوصيني بِدَيْنه ويقول: **يا بُنيَّ إن عجزتَ عَن**

---

(١) ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ١٣٧). قال: حدثنا أبو عمير، حدثنا ضمرة عن ابن أبي حملة قال: (ثم ذكرها) ورواها يعقوب بن سفيان في تاريخه (٢/ ٣٨١) قال: حدثنا ضمرة عن علي بن أبي حملة، به. وضمرة هو ابن ربيعة والإسناد صحيح.

شيءٍ منه فاسْتعنْ عليه مولايَ. قال: فوالله ما دَرَيتُ ما أراد حتى قلتُ: يا أبتي مَن مولاك؟ قال: الله. قال: فوالله ما وقَعْتُ في كُرْبَةٍ من دَيْنه إلا قلتُ: **يا مولى الزبير اقْضِ عنه دَيْنَهُ، فيقضيه...**».

قلت: رحم الله الإمام البخاري حين بَوَّب لهذا الحديث الجليل بقوله: «**باب بركة الغازي...**» بدل «تركة الغازي» وعن هذا قال بدر الدين العيني في «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» (١٥/ ٤٧) ما نصه: «أي هذا باب في بيان بَرَكة الغازي... إلى آخره، البركة بالباء الموحَّدة مأخوذة في الأصل من بَرك البعير إذا ناخ في موضعٍ فلزمه، ويطلق أيضاً علي الزيادة، وفي ديوان الأدب: البركة الزيادة والنمو، وتَبَرَّكَ به أي تَيَمَّن.

وقيل: صَحَّفَها بعضهم فقال: تركة الغازي بالتاء المثناة من فوق. قال عياض: وهو وإن كان مُتَّجهاً باعتبار أنَّ في القصة ذكر ما خلفه الزبير رضي الله تعالى عنه، لكن قوله: حيًّا وميِّتاً مع النبي ﷺ وولاة الأمر يدلُّ على أنَّ الصَّواب ما وقَعَ عند الجمهور بالباء الموحدة». وانظر نحو هذا فتح الباري (٦/ ٢٢٨).

قلتُ: فهذا يدلُّ على مكانة ومنزلة الغازي عند ربِّه، والزبير من الذِّين غزوا وجاهدوا في سبيل الله مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومع خلفائه من بعده، وقول ابنه: «يا مولى الزبير» دليلٌ واضحٌ على التوسُّل إلى الله تعالى ببركة الزبير لقضاء الدَّين، ولو كان هذا

غير جائز عنده لوجب عليه أن يبين ذلك لابنه، والقاعدة المشهورة تقول: تأخير البيان عن وقت الحاجة أو الفعل لا يجوز(١)، لكن هذا لم يحصل، بل أمره بقوله ذلك.

ويعضد ما سبق ذكره أنَّ ابن الزبير استفسر من والده: من مولاك؟ فقال الزبير: «الله»، فلم يقل الزبير: يا مولاي، أو يا الله، أو يا مولى فلان من الناس وذكره باسمه، بل قال: «يا مولى الزبير»، وهي دلالة واضحة على أنَّ ابن الزبير فهم عن أبيه أنَّ للغازي منزلة وبركة يُتَقَرَّبُ بها إلى الله تعالى لرفع البلاء ودرء الشقاء ومن أبرزها قضاء الدَّين.

فيستنبط من هذا أنَّ مَن عليه دَيْن، يُشْرَع له أن يقول: «يا مولى الزبير اقضِ دَيْني» كما جاء به النصُّ، ويُفْهَم من تبويب الإمام البخاري عموم التوسل والتبرُّك بكلِّ غازي في سبيل قضاء الدين، والذي ترجَّح لديَّ الخصوص في الزبير لورود النصَّ به دون غيره، ولأنَّ الغزاة في سبيل الله تعالى في وقت الزبير رضي الله عنه فيهم من هو أفضل من الزبير، إلا أنه أكدَّ على التبرك والتوسُّل إلى الله تعالى بربِّ الزبير، وهذا هو ما عمل به ابنه عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما.

* * *

(١) انظر: البحر المحيط للزركشي (٣/٤٩٣) طبعة وزارة الأوقاف بالكويت.

المطلب الثاني

التوسل بأرواح وآثار الأنبياء والصالحين

وهنا أحب أن أذكر بعض الآثار التي توسل بها الناس بالأئمة والعلماء والصالحين أو بأرواحهم، وقد أوردتها استئناساً بها لا استدلالاً أو احتجاجاً.

الدعاء أمام مقام الأنبياء تبركاً وتشفعاً إلى الله بهم

روى الفاكهي في كتاب «أخبار مكة» بسنده عن عبيد الله ابن أبي يزيد قال: إن عبدالرحمن بن طارق بن علقمة أخبره، عن أمه: «أن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم كان إذا جاء مكاناً من دار يعلى - نسيه عبيد الله - **استقبل البيت فدعا**، وكنت أنا أنصرف وعبيد الله ابن كثير، حتى إذا جئنا ذلك المكان استقبل البيت ودعا، وقال: **بلغني: في هذا المقام نبي**»[1].

---

(١) رواه الفاكهي في أخبار مكة (٣/٢٩٧) رقم (٢١٢٤) واللفظ له، قال: حدثنا ميمون ابن الحكم قال: حدثنا محمد جعشم، عن ابن جريج قال: أخبرني عبيد الله بن أبي يزيد، به. ورواه عبدالرزاق في مصنفه (٥/٧٧) رقم (٩٠٥٥) عن ابن جريج قال: أخبرنا عبدالله بن أبي يزيد، به، ولفظه:: «قال ابن جريج: وكنت أنا أطوف وعبدالله بن كثير الداري، حتى إذا جئنا ذلك المكان استقبل البيت ثم دعا، وقال: بلغني في هذا المكان شيء». هكذا وقع في المصنف ولا شك أنه تحريف حين اتضح الصواب في أخبار مكة للفاكهي وصوابها: «نبيٌّ» وعندئذ فقد تابع عبدالرزاق محمد بن جُعشم.
هذا والحديث رواه أبو نعيم بسند صحيح في معرفة الصحابة (٦/٣٥٣٢) والبغوي في معجم الصحابة من طريقين عن أبي عاصم «الضحاك بن مخلد» عن ابن جريج، بهذا =

ويدلُ هذا الحديث على توسل النبي صَلّى الله عليه وآله وسَلَّم إلى الله ببركة الأنبياء المدفونين بالحجر.

= السند، ولفظه: أن النبي ﷺ كان يأتي مكاناً في دار يعلى فيستقبل البيت ويدعو، ويخرجن معه، يدعون ونحن مسلمات.

كما وقد أخرجه أحمد في المسند (٦/٤٣٦) ومن طريقه المزي في تهذيب الكمال (١٧/١٩١)، وأبو داود (٢٠٠٧) والنسائي في المجتبى (٥/٢١٣) والبخاري في التاريخ الكبير (٥/٢٩٨) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٦/٨٧) من طرق عن ابن جريج قال: حدثني عبيد الله بن أبي يزيد، به ولفظه: «كان إذا جاء مكاناً في دار يعلى استقبل القبلة ودعا».

قال ابن أبي عاصم: دار يعلى بن أمية.

فالحديث مروي من طرق متعددة وبألفاظ متغايرة، بمعنى واحد، فمن زاد ما لم يزده الآخر قبلت الزيادة كما هو الحال في رواية أبي نعيم التي إسنادها صحيح. وكما هو الحال في رواية الفاكهي وعبدالرزاق التي هي صحيحة بالمتابعة، كل واحدة على حدة حسنة لذاتها.

فإن قيل: ميمون بن الحكم شيخ الفاكهي لا توجد له ترجمة، فالجواب:

فليس كل راو لم نجد له ترجمة صار حديثه ضعيفاً، ومثلاً بعض شيوخ الطبراني وهم كثر لا توجد لهم تراجم في كتب الحديث فهل يعني ذلك أن جميع أحاديث الطبراني ضعيفة ولا يحتج بها؟ فهذا لا يقول به من له أدنى معرفة بهذا الفن! فقد عالج علماء الفن هذه القضية وسبروا غورها وقرروا المسألة وبينوا أن المستور إما أن يكون مجهول عين أو مجهول حال أو يكون الاثنين معاً كما هو الحال في ميمون بن الحكم فيصدق عليه كما يصدق على بعض شيوخ الطبراني لما قرره أهل العلم فقد ذكر الإمام الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٨) هذه المسألة وبينها أيما بيان.

قال العلامة التهانوي في كتابه قواعد في علوم الحديث (ص٢٢٧) عن الحافظ ابن حجر أنه قال ما معناه: «كل راوٍ لا يوجد في اللسان، ولا في تهذيب التهذيب له فهو إما ثقة أو مستور» أهـ. وانظر آخر لسان الميزان (٩/٥٧١).

وعلق التهانوي في (ص٢٢٥) قائلاً: قلت: وبناؤه في ظني على ما ذكره الذهبي في ديباجة الميزان: ولم أر من الرأي أن يُتعقب علي، لا أني ذكرته لضعف فيه عندي. اهـ. وإلا فلم نجد في الميزان ما يدل على خصوصية شيوخ الطبراني الذين لم يذكروا فيه بالتوثيق، =

وعن ابن عباس قال: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، ما سألوه إلا ثلاث عشرة مسألة حتى قبض، كلهن في القرآن... **وأن ما بين الحجر إلى الركن اليماني لقبور من قبور الأنبياء**، كان النبي إذا آذاه قومه خرج من بين أظهرهم يعبد الله فيها حتى يموت(١).

* * *

توسل الإمام الشافعي بالإمام أبي حنيفة عند قبره

ومما ورد في التوسل بالصالحين والعلماء العاملين ما أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخه» بسنده: أخبرنا القاضي أبو عبدالله الحسين بن علي بن محمد الصيمري، قال: أنبأنا عمر ابن إبراهيم

= فالظاهر أن الهيثمي إنما حكم بتوثيقهم أخذاً من عموم هذا القول، وعلى هذا فيجوز لنا الحكم بتوثيق كل راو لم يضعف في الميزان بهذا الأصل، سواء كان من شيوخ الطبراني أم لا».

وقال التهانوي أيضاً في (ص٢٠٥-٢٠٦): «وفي فتح المغيث للسخاوي نقلاً عن الحافظ ابن حجر ما نصه: وإذا لم يكن في الراوي المجهول الحال جرح ولا تعديل، وكان كلٌّ من شيخه والراوي عنه ثقة، ولم يأت بحديث منكر فهو ثقة عنده (أي: ابن حبان). وفي كتاب الثقات كثير ممن هذا حاله، ولأجل ذلك ربما اعترض عليه في جعلهم ثقات من لم يعرف اصطلاحه، ولا اعتراض عليه فإنه لا يُشاحُّ في ذلك. اهـ. وذكر مثله في تدريب الراوي». انتهى.

(١) رواه الطبراني في الكبير (١١/ ٤٥٤) برقم (١٢٢٨٨)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٥٩)، وقال: فيه عطاء بن السائب، وهو ثقة ولكنه اختلط، وبقية رجاله ثقات.

المقري، قال: أنبأنا مُكرم بن أحمد، قال: أنبأنا عمر بن إسحاق بن إبراهيم، قال: أنبأنا علي بن ميمون ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال: سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول: «**إني لأتبرك بأبي حنيفة، وأجيء إلى قبره في كل يوم ـ يعني زائراً ـ فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين، وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده، فما يبعد عني حتى تقضى**»[1].

---

(١) تاريخ بغداد (١/١٢٣).

وهذا الحديث رجاله ثقات عدا عمر بن إسحاق بن إبراهيم وهو مستور حيث لم أجد له ترجمة في الكتب المعتمدة، ويقع بين ثقتين وقد نص الإمام اللكنوي في الرفع والتكميل نقلاً عن أهل العلم كما تقدم في التعليق على الحديث الذي قبله أن المستور إذا وقع بين ثقتين فهو ثقة. فالرواية صحيحة لا مراء فيها.

والقاضي أبو عبدالله الحسين بن علي بن محمد الصيمري: صدوق. سير أعلام النبلاء (١٧/٦١٦). وعمر بن إبراهيم المقري: ثقة. تاريخ بغداد (١١/٢٦٩). ومُكَرم بن أحمد: ثقة. سير أعلام النبلاء (١٥/٥١٧). وعلي بن ميمون: ثقة. التقريب ٤٧٣ . اهـ.

وقد أنكر ابن تيمية في الصراط المستقيم ٢/٦٨٥ هذه القصة واستدل بأدلة أوهى من بيت العنكبوت نذكرها ليعجب منها الناظر فيها: ١ ـ لما قدم الشافعي بغداد لم يكن فيها قبر ينتاب إليه. ٢ ـ لم يكن هذا معروفاً على عهد الشافعي. ٣ ـ رأى الشافعي بالحجاز واليمن والشام ومصر من قبور الأنبياء والصحابة والتابعين ولم يتوخ الدعاء عندهم. ٤ ـ أصحاب أبي حنيفة لم يكونوا يتحرون الدعاء لا عند قبر أبي حنيفة ولا غيره. ٥ ـ كراهة الشافعي تعظيم قبور المخلوقين خشية الفتنة. ٦ ـ وضع هذه الحكاية من قل دينه، أو مجهول لا يعرف.

وهذا الكلام من أفسد ما يكون، ورده يطول، نوجزه فيما يلي:

حجته الأولى باطلة لأن جمعاً من الأئمة في عصر الشافعي وبعده كانوا ينتابون قبور الصالحين، وقد نقلنا في هذا الكتاب ما فيه كفاية. وحجته الثانية فاسدة فإن هذا كان معروفاً لدى الأئمة الأجلاء وكتب التراجم طافحة في ذلك، ونقلنا أيضاً ما فيه الكفاية. وحجته الثالثة أوهى من بيت العنكبوت فهذا الإمام الحافظ ابن خزيمة كان في عصره كثير من قبور =

توسل الإمام الخلاّل شيخ الحنابلة بقبر الإمام موسى الكاظم

وأخرج الخطيب عن أحمد بن جعفر القطيعي قال: سمعت الحسن بن إبراهيم أبا علي الخلال ـ وهو شيخ الحنابلة في وقته ـ يقول: **ما همني أمرٌ فقصدتُ قبر موسى بن جعفر - يعني الكاظم عليه السلام - فتوسلت به إلا سهَّل الله لي ما أحب**(١).

= الأنبياء والصحابة والصالحين فلماذا لم يلجأ إلى قبورهم؟! وإنما لجأ إلى قبر علي بن موسى الرضا. وهكذا الحال في كثير من الأئمة، نقلنا شيئاً منها.

وحجته الرابعة مردودة فإن عدم فعل بعض أصحاب أبي حنيفة ذلك لا يدل على حرمته، ومتى كان الترك دليلاً؟!.

وحجته الخامسة في كراهة الشافعي تعظيم القبور فهي حجة في غير محلها، فإن الشافعي توسل بأبي حنيفة، وتوسله لا يعني أنه عظم قبره بالمفهوم المعكوس، هذا شيء، والشيء الثاني هو أن الشافعي كره أن تتخذ القبور مساجد كما في الأم للشافعي (١ / ٢٧٨) خشية الفتنة فإذا عدمت الفتنة في حق الراسخين فلا بأس؛ وكره الشافعي ذلك أيضاً لأن المكان المدفون فيه الميت ليس بانظف مما لم يدفن فيه (انظر الأم ١ / ٢٧٨) فلا يَرِدُ ما نقله ابن تيمية عن الشافعي.

وحجته السادسة: أن هذه الحكاية وضعها من قلَّ دينه أو جهل حاله فهي حجة لا أصل لها، وما هو الدليل على وضعها؟! ومن هو الكذاب الذي وضعها؟ وما تقولون في القصص المروية بالأسانيد الصحيحة التي ذكرنا شيئاً منها؟ و ماذا تقولون في قول الإمام المحاملي - وهو حجة مجمع على إمامته عندنا وعند المعترضين -: «أعرف قبر معروف الكرخي منذ سبعين سنة، وما قصده مهموم إلا فرج الله همه». سنده صحيح كما تقدم، فلِمَ لم يقل المحاملي الحافظ الثقة الولي - ذلك في حق قبور الأنبياء والصحابة؟ وماذا تقولون في قول وفعل جماعة ممن أجمعت الأمة على ثقتهم وعدالتهم فيما يتعلق بالتوسل والتبرك بقبور السادة الصالحين نفعنا الله بها؟.

(١) تاريخ بغداد (١ / ١٢٠).

توسل الإمام أحمد بن حنبل والحافظ أبي حاتم الرازي رحمهما الله

وغيرهما من الأئمة: بسلسلة آل البيت عليهم السلام.

ونص السلسلة المتفق على ثقة أصحابها وجلالتهم وإمامتهم وصلاحهم:

علي بن موسى الرضا عن أبيه موسى بن جعفر، عن أبيه الصادق جعفر بن محمد، عن أبيه أبي جعفر الباقر محمد بن علي، عن أبيه السجاد علي بن الحسين زين العابدين عن أبيه الحسين ابن علي عن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

قال أحمد بن علي الأنصاري أبو علي الأصبهاني: **قال لي أحمد بن حنبل: إن قرأت هذا الإسناد على مجنون برئ من جنونه**[1].

وقال الحافظ أبو نعيم الأصفهاني: **وكان بعض سلفنا من المحدثين إذا روى هذا الإسناد قال: «لو قرئ هذا الإسناد على مجنون لأفاق»**[2].

---

(١) تاريخ أصبهان لأبي نعيم (١/١٣٨). وأحمد بن علي الأنصاري قال فيه الذهبي في الميزان (١/١٢٠): واهٍ. ووهّاهُ الحاكم كما في لسان الميزان (١/٣٣٥)، ولكن هذا القول سمعه أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو حاتم الرازي، ولم ينكروا ذلك، وسيأتي نصه عنهم وعن غيرهم لاحقاً. مما يؤصل ثبوت هذه القصة. ولا يتشدد في القصص كما يتشدد في الحديث.

(٢) حلية الأولياء (٣/١٩١).

فقول الحافظ أبي نعيم: «وكان بعض سلفنا من المحدثين...» أفاد وقوع التوسل بهذه السلسلة من جماعة، منهم: أحمد بن حنبل، وأبو حاتم الرازي. وفُعل التوسل بحضرة إسحاق بن راهويه وغيره من السادة الثقات بدون نكير.

وقال محمد بن عبدالله بن طاهر أبو العباس الخزاعي: كنت واقفاً على رأس أبي وعنده أحمد بن محمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو الصلت الهروي، فقال أبي: ليحدثني كل رجل منكم بحديث. فقال أبو الصلت: حدثني علي بن موسى الرضا، وكان والله رضاً كما سُمي... (ثم ذكر السلسلة المتقدمة). فقال بعضهم: ما هذا الإسناد؟! **فقال له أبي: هذا سعوط المجانين، إذا سعط به المجنون برأ**[1].

(١) أخرجه الحاكم في تاريخ نيسابور (كما في طبقات الشافعية للسبكي ١/١١٩-١٢٠). ومن طريقه الخطيب في تاريخ بغداد (٥/٤١٨-٤١٩) قال: حدثني علي بن محمد المذكر حدثنا محمد بن علي بن حسين الفقيه الرازي حدثنا محمد بن معقل القرميسيني عن محمد بن عبدالله بن طاهر به.

هكذا وقع في مطبوع طبقات الشافعية وتاريخ بغداد [علي بن محمد] فلعله غير الذي وجدناه في تهذيب الكمال (١/٣٠٤) خلال ترجمة أحمد بن الخليل البغدادي: محمد ابن علي بن عمر المذكر النيسابوري أحد الضعفاء الكذابين المعروفين بسرقة الأحاديث. اهـ وطعن به تلميذه الحاكم انظر لسان الميزان لابن حجر (٥/٢٩٢).

وقال عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي: **كنت مع أبي بالشام فرأيت رجلاً مصروعاً فذكرت هذا الإسناد، فقلت: أجرب بهذا، فقرأت عليه هذا الإسناد فقام الرجل فنفض ثيابه ومر**[1].

و قال أبو عبدالله محمد بن عبيد الله بن رشيد الكاتب[2] - وقد سئل عن هذا الإسناد -: سعوط الشَّيْلَشَا الذي إذا سعط به المجنون برأ وصح. رواه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي[3]: أخبرنا هلال بن عبدالله بن محمد الطيبي[4] - مؤدبي - حدثنا إسماعيل بن محمد بن زنجي الكاتب[5].

---

(١) رواه الرافعي في التدوين في أخبار قزوين (٣/٤٨٢) من طريق علي بن محمد بن مهرويه (وهو صدوق، ثم حول الرافعي السند بدون أداة التحويل فقال: قال أبو حاتم محمد بن إدريس الرازي قال: أبو الصلت عبدالسلام بن صالح الهروي: «لو قرئ هذا الإسناد على المجنون لأفاق». وعن عبدالرحمن ابن أبي حاتم الرازي: كنت مع أبي بالشام فرأيت رجلاً مصروعاً فذكرت هذا الإسناد، فقلت: أجرب بهذا فقرأت عليه هذا الإسناد فقام الرجل فنفض ثيابه ومر. وهذا التحويل وقع من وسط السند، وهو مستعمل لدى المحدثين، وقد ثبت سماع ابن مهرويه من أبي حاتم الرازي، كما في التدوين للرافعي (٣/٤١٧).

(٢) ثقة. تاريخ بغداد (٢/٣٣١).

(٣) في تاريخ بغداد (١٠/ ٣٤٤).

(٤) سماعه صحيح. (تاريخ بغداد ٤/٧٥).

(٥) قال الأزهري: لا يساوي شيئاً (لسان الميزان ١/٤٣٤)، يعني في الحديث، وأما في القصص والأدب فالظاهر أنه حجة، يجد ذلك الناظر في تاريخ الخطيب وموضّح أوهام الجمع والتفريق، ورواه غير ابن زنجي فقد قال الخطيب عقبه: قلت: روى غير ابن زنجي هذا الخبر عن ابن رُشيد فذكره في آخره عن أبي أحمد بن طاهر أن إسحاق بن راهوية سأل أبا الصلت عن إسناد الحديث. وذاك أشبه ويحتمل أن يكون ابن راهويه الذي ذكر ابن رشيد كونه فيْ مجلس ابن الفرات: محمد بن إسحاق بن راهويه.

قال عبدالسلام بن صالح أبو الصلت الهروي[1]: «لو قرئ هذا

---

(١) عبدالسلام بن صالح أبو الصلت الهروي قال فيه يحيى بن معين: ثقة صدوق إلا أنه يتشيع، وقال الحاكم أبو عبدالله: وثقه إمام أهل الحديث يحيى بن معين. وقال أبو سعيد الهروي: ثقة.
وأكثر المحدثين ضعفوه، وبعضهم كذبه، وآخرون اتهموه. (انظر تهذيب الكمال ١٨/٧٣)، وتهذيب التهذيب (٢٨٥١٦)، ولخص القول فيه الحافظ في التقريب (٤٠٧٠) فقال: صدوق، له مناكير وكان يتشيع. وأفرط العقيلي فقال: كذاب.
وحقق حال عبد السلام بن صالح الهروي من أهل الحديث في زماننا سيدي الحافظ العلامة الشريف أحمد بن الصديق الغماري في فتح الملك العلي (ص٧) وجاء بالقول الفصل في المسألة فقال: هو عدل ثقة صدوق مرضي معروف بطلب الحديث والاعتناء به، رحل في طلبه إلى البصرة والكوفة والحجاز واليمن والعراق ودخل بغداد فحدث بها، روى عنه أحمد بن منصور الرمادي، وقال الذهبي في الميزان عبدالسلام بن صالح بن الصلت الهروي الرجل الصالح إلا أنه شيعي جلد. اهـ.
ووثقه عبدالله بن أحمد بن حنبل بروايته عنه وذلك يدل على أنه ثقة عند أبيه أيضاً، فإن عبدالله كان لا يروي إلا عمن يأمره أبوه بالرواية عنه ممن هو عنده ثقة. كما ذكره الحافظ في غير موضع من كتابه تعجيل المنفعة، فقال في ترجمة إبراهيم بن الحسن الباهلي: كان عبدالله بن أحمد لا يكتب إلا عمن أذن له أبوه في الكتابة عنه، وكان لا يأذن له أن يكتب إلا عن أهل السنة، حتى كان يمنعه أن يكتب عمن أجاب في المحنة، ولذلك فاته علي بن الجعد ونظراؤه من المسند. اهـ. وقال في ترجمة إبراهيم بن عبدالله بن بشار الواسطي: كان عبدالله لا يكتب إلا عن ثقة عند أبيه. وقال في ترجمة عبدالله بن صندل عقب قول الحسيني: إنه مجهول: كيف يكون مجهولاً من روى عنه جماعة ويأذن أحمد لابنه في الكتابة عنه؟! فإن عبدالله كان لا يأخذ إلا عمن يأذن له أبوه في الأخذ عنه. وقال في ترجمة عبدالرحمن بن المعلم، عقب قول الحسيني: لا يدرى من هو: قلت: ما كان عبدالله يكتب إلا عمن يأذن له أبوه في الكتابة عنه، فهذا القدر يكفي في التعريف به. وقال في ترجمة الليث بن خالد البلخي: كان عبدالله بن أحمد لا يكتب إلا عمن أذن له أبوه في الكتابة عنه ولهذا كان معظم شيوخه ثقات. وقال في ترجمة محمد بن تميم النهشلي: حُكْم شيوخ عبدالله القبول إلا أن يثبت فيه جرح مفسر. لأنه كان لا يكتب إلا عمن أذن له أبوه فيه. ونص على ذلك أيضاً في ترجمة محمد بن عبدالله بن جعفر، وفي ترجمة محمد بن يعقوب الزبالي. انتهى كلام السيد أحمد.

الإسناد على مجنون لبرأ »[١] . وفي لفظ : « لأفاق » .

ولما دخل علي بن موسى الرضا نيسابور على بغلة شهباء خرج علماء البلد في طلبه : يحيى بن يحيى وإسحاق بن راهويه وأحمد بن حرب وأحمد بن رافع تعلق بلجامه، **فقال له إسحق : بحق آبائك الطاهرين حدثنا بحديث سمعته من أبيك**، فقال : حدثنا العبد الصالح أبي موسى بن جعفر . . .[٢] .

ثم ذكر السند، فهذا نص صريح من ابن راهويه بتوسله بسلسلة آل البيت .

قلت : وبعد هذا تبين أن توسل الإمام أحمد وابن أبي حاتم وإسحاق بن راهويه وابن رشيد وأبي نعيم، وغيرهم من أهل العلم الثقات : بسلسلة آل البيت : ثابت لا مرية فيه، فقد تعامل معه أئمة عدول معاملة عملية كأبي حاتم الرازي وابنه، فرأوه حقاً وصدقاً قولاً وعملاً فهو في أعلى درجات القبول، لا يماري فيه إلا جاهل لا يعي ما يقول .

* * *

---

(١) نقله عن أبي الصلت جماعة من الثقات انظر سنن ابن ماجه (١ / ٢٦ برقم٦٥) وسمعه الحافظ أبو حاتم الرازي من أبي الصلت ولم ينكر عليه . انظر : تاريخ قزوين للرافعي (٣ / ٤٨٢) .

(٢) عزاه إلى الديلمي في مسند الفردوس : الحافظُ السخاوي في المقاصد الحسنة، ص١٤٠، والحافظ السيوطي في التعقبات . ورواه أبو نعيم في أخبار أصبهان (١ / ١٧٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٨ / ٣٦٦) .

استشفاء الحافظ عبدالغني المقدسي الدمشقي الحنبلي وتوسله بقبر الإمام أحمد بن حنبل

وقال الحافظ عبد الغني المقدسي الدمشقي الحنبلي: «خرج في عضدي شيء يشبه الدّمل، وكان يبرأ ثم يعود، ودام بذلك زماناً طويلاً، فسافرت إلى أصبهان، وعدت إلى بغداد، وهو بهذه الصفة، **فمضيت إلى قبر الإمام أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ ومسحت به القبر، فبرأ ولم يعد**»[١].

* * *

توسل أئمة أهل السنة بروح الولي الصالح معروف الكرخي

وأخرج أبو عبدالرحمن السلمي[٢]، أن الإمام إبراهيم بن الجزري قال: «قبر معروف– يعني الكرخي– **الترياق المجرب**».

---

(١) سمع هذه القصة من الحافظ عبدالغني الحافظ الحجةُ الثقةُ ضياء الدين المقدسي الدمشقي الحنبلي، ذكر ذلك في كتابه «الحكايات المنثورة»، (وهو من مخطوطات الظاهرية، بخط الحافظ الضياء، برقم ٣٨٣٤ الورقة ١١٢ اللوحة اليمنى السطر (١٠) الجزء الخامس. ذكر ذلك أديب الكمداني في تحقيقه لكتاب تهذيب النفس للعلم وبالعلم للعلامة المحدث يوسف بن عبدالهادي المقدسي الدمشقي، (ص٨٣).

(٢) طبقات الصوفية (ص٨٥) ـ ومن طريقه الخطيب في التاريخ (١ / ١٢٢) ـ قال السلمي: سمعتُ أبا الحسن بن مقسم المقرئ ببغداد يقول: سمعت أبا علي الصفار، يقول: سمعتُ إبراهيم بن الجزري. ووقع في مطبوع تاريخ بغداد: إبراهيم الحربي، وهو تحريف. وأبو الحسن بن مقسم قال الخطيب في التاريخ (٤ / ٤٢٩): لم يكن في الحديث بثقة، وقال الأزهري: كان كذاباً. (وانظر لسان الميزان ١ / ٣٩٤). ولكن قوله هذا حق وصدق وثابت عن الأئمة كما سيأتي عن الإمام الحافظ الحجة أبي عبدالله المحاملي.

وأخرج الخطيب أن الحافظ أبا عبد الله المحاملي - أحد أئمة الحديث أيضاً - قال: «أعرف قبر معروف الكرخي منذ سبعين سنة، **وما قصده مهموم إلاّ فرجّ الله همه**»[1].

وأخرج أيضاً أن الإمام عبيد الله بن عبد الرحمن بن محمد الزهري قال: سمعت أبي يقول: قبر معروف الكرخي مجرب لقضاء الحوائج.

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١/١٢٣) عن شيخه محمد بن علي بن عبدالله الصوري، قال عنه الحافظ الذهبي في السير (١٧/٦٢٧): الإمام الحافظ البارع الأوحد الحجة. اهـ. وأثنى عليه الخطيب ثناء عجيباً لقوة حفظه وضبطه (تاريخ بغداد ٣/١٠٣). ورواه الصوري عن محمد بن أحمد بن جميع، قال فيه الذهبي في السير (١٧/١٥٢): الشيخ العالم الصالح المسند المحدث الرحال. ثم نقل عن الصوري قال: وكان شيخاً صالحاً ثقة متقناً، ووثقه الخطيب وغيره. اهـ. والمحاملي قائل هذا الكلام هو الحسين بن إسماعيل قال عنه الذهبي في السير (١٥/٢٥٨): القاضي الإمام العلامة المحدث الثقة مسند الوقت، ثم نقل عن محمد ابن الإسكاف قال: رأيت في النوم كأن قائلاً يقول: إن الله ليدفع عن أهل بغداد البلاء بالمحاملي. اهـ.

وقد روى رؤية الإسكاف الخطيب في التاريخ (٨/٢٢)، ولفظه: «كنت ببغداد محتاراً في أمر أبي عبدالله المحاملي وعبدالرحمن بن أبي حاتم، فكنت أنا أفضل ابن أبي حاتم على المحاملي فرأيت تلك الليلة فيما يرى النائم كأن قائلاً يقول لي: استغفر في أمر المحاملي فإن الله ليدفع البلاء عن أهل بغداد به، فلا تستصغر أمره .اهـ. وابن أبي حاتم كان من الأبدال كما في السير للذهبي، إذاً كيف يكون مقام المحاملي؟؟؟. اللّهُمَّ انفعنا بالصالحين.

ويقال: إن من قرأ عنده مائة مرة «قل هو الله أحد» وسأل الله تعالى ما يريد قضى الله له حاجته (١).

وأخرج الخطيب البغدادي، وابن عساكر (٢) أن أحمد بن العباس قال: «خرجت من بغداد، فاستقبلني رجل عليه أثر العبادة، فقال لي: من أين خرجت؟ قلت: من بغداد، هربت منها لما رأيت فيها من الفساد، خفت أن يخسف بأهلها، قال: ارجع ولا تخف، **فإن فيها قبور أربعة من أولياء الله، هم حصن لهم من جميع البلايا،**

---

(١) رواه الخطيب في التاريخ (١/١٢٢ - ١٢٣)، عن شيخه أبي إسحق البرمكي، قال عنه في التاريخ (٦/١٣٩): إبراهيم بن عمر البرمكي كتبنا عنه وكان صدوقاً ديِّناً فقيهاً على مذهب أحمد بن حنبل، وله حلقة في الفتوى في جامع المنصور. اهـ. وقال الذهبي في السير (١٧/٦٠٥): الشيخ الإمام المفتي بقية المسندين... برع في المذهب (الحنبلي) وكان ذا زهد وصلاح ومعرفة تامة بالفرائض، ورواه البرمكي عن أبي الفضل عبيد الله بن عبدالرحمن بن محمد الزهري، قال المحدث الثقة عبدالعزيز بن علي الأزجي: شيخ رضي مجاب الدعوة. وقال الأزهري والبرقاني والدارقطني والخطيب وغيرهم: ثقة. وقال الذهبي: الشيخ العالم الثقة العابد مسند العراق. (تاريخ بغداد ١٠/٣٦٨-٣٦٩) والسير (١٦/٣٩٢-٣٩٣). وأبوه عبدالرحمن بن محمد بن عبيد الله بن سعد الزهري قال فيه الخطيب في التاريخ (١٠/٢٨٩): كان ثقة. ثم نقل عن أبي بكر بن مجاهد أن عبدالرحمن الزهري دخل عليه وخلفه أولاده فقال: أنا أشبه أبا محمد ببعض الصحابة وخلفه أتباعه .اهـ. فهذا السند صحيح مسلسل بالأئمة الثقات.

(٢) الخطيب في التاريخ (١/١٢١) وابن عساكر في التاريخ (٦٠/٣٤٤) من طريق أبي عبدالرحمن السلمي قال: سمعت أبا بكر الرازي يقول: سمعت عبدالله بن موسى الطلحي: سمعت أحمد بن العباس، ثم ذكره. وأبو بكر الرازي هو محمد بن عبدالله بن عبدالعزيز، قال فيه ابن حجر في اللسان (٥/٢٣٠): متهم طعن فيه الحاكم.

قلت: من هم؟ قال: أحمد بن حنبل، ومعروف الكرخي، وبشر الحافي، ومنصور بن عمار، فرجعت وزرت القبور، ولم أخرج تلك السنة».

وقال ابن العماد في «شذرات الذهب»: «وأهل بغداد يستسقون بقبره (أي بقبر معروف الكرخي)، ويسمونه ترياقاً مجرباً. قال مرةً لتلميذه السريّ السقطي: إذا كانت لك إلى الله حاجةٌ فأقْسِم عليه بي»[1]. أي يقسم فيقول: اللَّهُمَّ إني أقسم عليك بمعروف الكرخي، أو بحق معروف، أو بجاه معروف، أو بمكانة ومقام معروف.

* * *

سقيا الله تعالى لمن استسقى بالإمام البخاري وقصد قبره متوسلاً به

وقال الإمام الحافظ أبو علي الغَسَّاني: أخبرنا أبو الفتح نصر ابن الحسن السكتي، السمرقندي ـ قدِم علينا بَلَنْسِيةَ عامَ أربعةٍ وستين وأربع مئة ـ قال: قَحَط المطرُ عندنا بِسَمَرْقَنْد في بعض الأعوام، فاستسقى الناسُ مراراً، فلم يُسقَوا، فأتى رجلٌ صالح معروفٌ بالصلاح إلى قاضي سَمَرْقَند، فقال له: إني رأيتُ رأياً أعرِضُه عليك،

(١) شذرات الذهب لابن العماد (١/ ٣٦٠).

قال: أرى أن تخرجَ ويخرج الناس معك إلى قبرِ الإمامِ محمدِ بن إسماعيل البخاري، وقبرُه بِخَرْتَنْك، ونستسقي عنده، فعسى اللهُ أن يَسقينا.

قال: فقال القاضي: نِعْمَ ما رأيتَ، فخرج القاضي والناسُ معه، واستسقى القاضي بالناس، وبكى الناس عند القبرِ، وتشفَّعوا بصاحبِه، فأرسل اللهُ تعالى السماء بماءٍ عظيم غزير، أقام الناسُ من أجله بِخَرْتَنْك سبعة أيام أو نحوها، لا يستطيع أحدٌ الوصول إلى سَمَرْقَنْد من كثرةِ المطر وغزارته، وبين خَرْتَنْك وسمرْقند نحو ثلاثة أميال[1].

* * *

تعظيم المجاورين للإمام البخاري والتوسل بهم تعظيماً له

وقال محمد بن أحمد بن الفضل البلخي ورّاقُ البخاري: سمعت أبا سعيد الأشجَّ، وخرج إلينا في غداةٍ باردةٍ، وهو يرتعدُ من

---

(١) القصة في كتاب: «تقييد المهمل» لأبي عليّ الغساني (مخطوط ورقة ٣٤)، ونقلها عنه الحافظ الذهبي في السير (١٢/٤٦٩)، والعلامة السبكي في طبقات الشافعية (٢/٢٣٤) وقال بعدها: «قلت: وأما الجامع الصحيح وكونه ملجأ للمعضلات ومجرباً لقضاء الحوائج فأمر مشهور، ولو اندفعنا في ذكر تفصيل ذلك وما اتفق فيه لطال الشرح». وشيخ الغساني: نصرُ بن الحسن التُنْكُتي محدِّث ثقة ورع (مترجم في السير ١٩/٩٠-٩١). وقد شهد نصر هذه القصة وعاينها، فسندها ذهبي مشرق.

البَرْدِ، فقال: أيكونُ عندكم مثلُ ذا البَرْدِ؟ فقلتُ: مثل ذا يكون في الخريف والربيعِ، وربما نُمسي والنهرُ جارٍ، فنصبح ونحتاجُ إلى الفأسِ في نَقْب الجَمَدِ، فقال لي: من أي خراسان أنتَ؟ قلتُ: من بخارى، فقال له ابنه: **هو من وطنِ محمد بن إسماعيل، فقال له: إذا قدمَ عليك من يُتوسَّل به فاعرف له حقَّه، فإنّه إمامٌ**[1].

تضرع الإمامين ابن خزيمة وابن حبان أمام قبر الإمام الرضا عليه السلام

ونقل الإمام ابن حجر العسقلاني، عن الإمام الحاكم في «تاريخ نيسابور»، قال: «وسمعت أبا بكر محمد بن المؤمل بن الحسن بن عيسى يقول: **خرجنا مع إمام أهل الحديث أبي بكر ابن خزيمة، وعديله أبي علي الثقفي، مع جماعة من مشايخنا، وهم إذ ذاك متوافرون، إلى زيارة قبر علي بن موسى الرضا بطوس، قال: فرأيت من تعظيمه - يعني ابن خزيمة - لتلك البقعة وتواضعه لها**

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٣٠). وقد نقلها الذهبي عن ورّاق البخاري الذي رواها في كتابه «شمائل البخاري»، ومن طريق هذا الكتاب يروي الحافظ الذهبي بسنده كما صرح في السير بذلك (١٢ / ٣٩٢)، فالقصة إذاً مسندة والذهبي رواها من طريق محمد بن أحمد أبي حاتم البلخي البخاري قال: سمعت أبا سعيد الأشج وهو ثقة روى له الجماعة كان إمام أهل زمانه.

وتضرعه عندها ما تحيرنا»[1] ولما سئل قال: دعوني لما أجد في نفسي لعلي الرضا.

قال الإمام ابن حبّان: «وقبر علي الرضا عليه السلام بسناباذ خارج النوقان مشهور يزار بجنب قبر الرشيد، **قد زرته مراراً كثيرة، وما حلّت بي شدةٌ في وقت مقامي بطوس، فزرت قبر علي بن موسى الرضا صلوات الله على جده وعليه ودعوت الله إزالتها عني إلا استجيب لي وزالت عني تلك الشدة. وهذا شيء جربته**

---

(١) تهذيب التهذيب (٧/٣٣٩ في ترجمة علي بن موسى بن جعفر الرضا). وشيخ الحاكم محمد بن المؤمل بن الحسن قال عنه الحافظ الذهبي في السير (١٦/٢٣): الإمام رئيس نيسابور... أحد البلغاء والفصحاء.. وبنى داراً للمحدثين، وأدرّ عليهم الأرزاق وكان أبو علي الحافظ يقرأ عليه تاريخ أحمد بن حنبل. روى عنه السلمي، والحاكم وسعيد بن محمد بن عبدان. اهـ. وقال في تاريخ الإسلام (٢٥/٤٥٢ وفيات ٣٥٠): هو أحد رؤساء خراسان وأفصحهم وأحسنهم بياناً. قال الحاكم: كانوا يتعجبون من فصاحته. وأما عديل الحافظ ابن خزيمة الذي كان مع ابن خزيمة في الزيارة وهو أبو علي الثقفي فقد ترجمه الحافظ الذهبي في السير (١٥/٢٨٠) فقال: الإمام المحدث الفقيه العلامة الزاهد العابد شيخ خراسان أبو علي محمد بن عبدالوهاب ... الثقفي النيسابوري الشافعي الواعظ.
قال الحاكم: شهدتُ جنازته فلا أذكر أني رأيت في نيسابور مثل ذلك الجمع وحضرت مجلس وعظه وأنا صغير فسمعته يقول في دعائه: إنك أنت الوهاب الوهاب الوهاب. وقال الحاكم: سمعت أبا العباس الزاهد يقول: كان أبو علي في عصره حجة الله على خلقه .اهـ.
فانظروا إلى حجة الله على خلقه كيف يزور قبر علي بن موسى الرضا مع جماعة من المحدثين ويرون ابن خزيمة يعظم تلك البقعة ويتواضع لها ويتضرع عندها، مع أن ابن خزيمة أعلم بما هو خارم للعقيدة ولو كان ذلك يطعن في العقيدة والله ما فعله.

مراراً فوجدته كذلك، أماتنا الله على محبة المصطفى وأهل بيته صلى الله عليه وعليهم أجمعين»[1].

* * *

استسقاء أهل الشام بالصحابية أم حرام الأنصارية رضي الله عنها

وروى ابن عساكر عن أبي نعيم الحافظ قال: «أم حرام بنت ملحان الأنصارية خالة أنس بن مالك، كانت تحت عبادة بن الصامت، وخرجت معه في بعض غزوات البحر وماتت بالشام وقبرت بقبرس، وقَصَتْها بغلتها فماتت، **وأهل الشام يستسقون بها يقولون: قبر المرأة الصالحة**»[2].

* * *

الاستغاثة بدعاء أبي بكر البلاطنسي

وقال ابن العماد في شذرات الذهب: «قال الشيخ يونس العيثاوي: وهو [أي: تقي الدين أبو بكر بن محمد البلاطنسي] من

---

(١) الثقات لابن حبان (٨/٤٥٧).

(٢) تاريخ دمشق (٧٠/٢١٧)، وأخرج الطبري من طريق الواقدي أن معاوية صالحهم بعد فتحها على سبعة آلاف دينار في كل سنة، فلما أرادوا الخروج منها قربت لأم حرام دابة لتركبها فسقطت فماتت، فقبرها هناك يستسقون به، ويقولون قبر المرأة الصالحة. (فتح الباري ١١/٧٦).

بيت صلاح وعلم، سمعت مدحه بذلك من السيد كمال الدين بن حمزة، ودخل دمشق في طلب العلم وأخذ عن علمائها المشار إليهم، ثم استوطنها ولم يتناول من أوقافها شيئاً، وكان يجلس في البادرائية، وأرسل إليه بأموال ووظائف فلم يقبل، وكان عالما عاملا ورعا كاملا، له مهابة في قلوب الفقهاء والحكام، يرجع إليه في المشكلات، لا يتردد إلى أحد لغناه، وله همة مع الطلبة ونصيحة واعتناء بالعلم، أمَّاراً بالمعروف نهّاءً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، لا يداهن في الحق، له حالة مع الله تعالى، **يستغاث بدعائه ويتبرك بلحظه**، قائماً بنصرة الشريعة حاملاً لواء الإسلام، مجداً في العبادة مجانباً للرياء، لا يحب أن يمدحه أحد»[١].

* * *

توسل عبدالملك بن مروان بحق الطائفين حول البيت

وروى الفاكهي في «أخبار مكة» عن الشعبي قال: «لقد رأيت عجباً؛ كنا بفناء الكعبة أنا وعبد الله بن عمر وعبدالله بن الزبير ومصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان، فقال القوم بعد أن فرغوا من حديثهم: ليقم رجل رجل فليأخذ بالركن اليماني فليسأل الله تعالى حاجته فإنه يعطي من سعته، قم يا عبد الله بن الزبير فإنك أول

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٤/٢١٣).

مولود ولد في الهجرة، فقام فأخذ بالركن اليماني ثم قال: **اللَّهُمَّ إنك عظيم ترجى لكل عظيم، أسألك بحرمة وجهك وحرمة عرشك وحرمة بيتك** أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني الحجاز ويسلم علي بالخلافة، وجاء حتى جلس، فقالوا: قم يا مصعب بن الزبير فقام حتى أخذ بالركن اليماني فقال: اللَّهُمَّ رب كل شيء وإليك كل شيء أسألك بقدرتك على كل شيء أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني العراق وتزوجني سكينة بنت الحسين، وجاء حتى جلس، فقالوا: قم يا عبد الملك بن مروان، فقام فأخذ بالركن اليماني فقال: اللَّهُمَّ رب السموات السبع ورب الأرض ذات النبت بعد القفر، أسألك بما سألك عبادك المطيعون لأمرك، وأسألك بحرمة وجهك وأسألك بحقك على جميع خلقك **وبحق الطائفين حول بيتك** أن لا تميتني حتى توليني شرق الأرض وغربها، ولا ينازعني أحد إلا أتيت برأسه، ثم جاء حتى جلس، فقالوا: قم يا عبد الله بن عمر، فقام حتى أخذ بالركن اليماني ثم قال: اللَّهُمَّ يا رحمن يا رحيم أسألك برحمتك التي سبقت غضبك، وأسألك بقدرتك على جميع خلقك أن لا تميتني من الدنيا حتى توجب لي الجنة، قال الشعبي: فما ذهبت عيناي من الدنيا حتى رأيت كل رجل منهم

قد أعطي ما سأل، وبشر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بالجنة ورئيت له»[1].

* * *

الاستسقاء بروح عبدالرحمن بن ربيعة

وقال ياقوت الحموي في «معجم البلدان» عند كلامه على مدينة «بَلَنْجَر» وكيف تم فتحها على يد عبد الرحمن بن ربيعة وأخيه قال: «حتى استشهد عبد الرحمن بن ربيعة، وأخذ الراية أخوه، ولم يزل يقاتل حتى أمكنه دفن أخيه بنواحي بلنجر، ورجع ببقية المسلمين على طريق جيلان، فقال عبدالرحمن بن جمانة الباهلي:

وإن لنا قبرين قبر بلنجر وقبراً بصين استان يا لك من قبر
فهذا الذي بالصين عمت فتوحه وهذا الذي يسقى به سبل القطر

يريد أن الترك لما قتلوا عبد الرحمن بن ربيعة، وقيل: سلمان بن ربيعة، وأصحابه، كانوا ينظرون في كل ليلة نوراً على مصارعهم،

---

(١) أخبار مكة للفاكهي (١/ ١٤٠). ورواه ابن بشكوال في كتاب المستغيثين بالله تعالى (٥٤-٥٥).

فأخذوا سلمان بن ربيعة وجعلوه في تابوت، فهم يستسقون به إذا قحطوا، وأما الذي بالصين فهو قتيبة بن مسلم الباهلي »[1].

ما شوهد بروح عبدالله بن غالب من البركة

قال عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي المتوفى سنة (٥٨١هـ) في كتابه « العاقبة في ذكر الموت » : « قال حماد بن زيد : حدثني سعيد بن زيد قال : أدخلت يدي في قبر عبد الله ابن غالب إلى المرفق، فأخرجت منه تراباً فإذا ريحه ريح مسك، وقصة هذا القبر صحيحة مشهورة، ولما خيف على الناس منه الفتنة سوِّي »[2].

* * *

ما رؤي من قبر أبي أيوب الأنصاري من البركة.

قال أبو بكر الدينوري : حدثنا أحمد[3]، حدثنا أحمد بن علي

---

(١) معجم البلدان (١ / ٤٩٠). ورواها ابن عساكر في تاريخه (٢١ /٤٧٣-٤٧٤)، وذكر البيت الثاني هكذا:

فهذا الذي بالصين عمت فتوحه   وهذا الذي بالترك يسقى به القطر

وقال ابن حجر في الإصابة (٤ / ٣٠٤) في ترجمته : قالوا : ودفن عبدالرحمن في بلاد الترك، فهم يستسقون به إلى الآن . وأخرجه الدينوري في المجالسة برقم (١٢٥٨) بسنده وفي سنده أبو بكر بن أبي سبرة ضعفه ابن المديني ويحيى بن معين والبخاري وفيه الواقدي وهو مقبول في السير وعند أئمة الأحناف كابن الهمام، ثقة. والرواية التي بين أيدينا من باب السير، وبناء على ذلك تكون الرواية مقبولة، والله أعلم.

(٢) العاقبة في ذكر الموت (ص٢١٩).

(٣) أحمد بن مروان الدينوري المالكي قال عنه ابن حجر في لسان الميزان (١ /٤٦٩) : قال مسلمة في الصلة كان ـ أي أحمد بن مروان ـ من أروى الناس عن ابن قتيبة وكان ثقة كثير الحديث، واعتمد توثيقه ابنُ الهمام في فتح القدير (٢ /٥٠٦) وكذلك الإمام =

المقرئ[1]، حدثنا الأصمعي[2]، عن أبيه[3]، عن جدّه[4]: «أن أبا أيوب الأنصاري وهو خالد بن زيد غزا بلاد الروم، فمات

= المقدسي كما في المختارة انظر (٧/٢٤٨)ب، وانظر توثيقه في مقدمة تحقيق كتابه المجالسة لمشهور ابن حسن سلمان.

(١) أحمد بن علي المقرئ: وثقه الدارقطني وغيره. انظر تاريخ بغداد (٤/٣٠٣) وسير أعلام النبلاء (١٣/٤١٨)، وسؤالات الحاكم للدارقطني (رقم١٣)، وطبقات القراء لابن الجزري (١/٨٦-٨٧).

(٢) الأصمعي: اسمه عبدالملك بن قريب بن عبدالملك. قال الحافظ ابن حجر في التقريب صدوق سني (رقم ٤٢٠٥) وقال أبو بكر بن أبي خيثمة عن يحيى بن معين: الأصمعي ثقة (تهذيب الكمال ١٨/٣٨٧).

(٣) أبيه: هو قريب بن عبدالملك بن علي بن أصمع: ذكره البخاري في التاريخ الكبير ٧/٢٠٥، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٧/١٤٩) ترجمة (٨٣١)، ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً، وقد روى عنه ابنه عبدالملك وعمر بن عاصم الكلابي وهما ثقتان.
وأما قول الأزدي أنه منكر الحديث كما في لسان الميزان (٤/٤٧٣) ففيه نظر من وجوه: الوجه الأول: أن الأزدي نفسه متكلَّمٌ فيه. والوجه الثاني: أن هذا الجرح مبهم. والوجه الثالث: أن الذهبي لم يذكر قريب بن عبدالملك في الضعفاء مما يدل على أنه لم يعتبر تضعيف الأزدي له، فإذا تقرر هذا الكلام فقريب أقل ما يقال فيه مقارَب الحديث (قريب من الحسن من قسم المقبول) لأنه لم يرد فيه جرحٌ معتبر وروى عنه ثقتان، وعليه فشيخه عبدالملك بن علي بن أصمع مقبول الحديث. وإلا فما سكت عنه ابن أبي حاتم فعند جماعة من المحدثين كالمحب الطبري وابن سعد ثقة. وإذا تقرر ذلك فلا يضر حال عبدالملك بن علي ابن أصمع لأنه مستور الحال والعين وقد روى عنه ثقة فلا تضر جهالته في مثل هذه الآثار التي هي في باب السير. وهو من الطبقة العليا، وهذه الطبقة كما تقدم عن الهيثمي والتهانوي يغتفر عن معرفة حالهم لأنها طبقة مأمونة عن الكذب. والله أعلم.

(٤) جده: هو عبدالملك بن علي بن أصمع. وللرواية شاهدٌ من رواية ابن عبدالبر عن مجاهد مثله، وبذا ترتقي هذه الرواية إلى درجة الحسن لغيره. وأما في باب السير فهي في أعلى درجات القبول. وليس كما قال محقق كتاب المجالسة بأن في هذه الرواية انقطاعاً لأن عبدالملك بن قريب بن عبدالملك الأصمعي لم يرو عن أبيه، والصواب أنه قد روى عن أبيه كما نص على ذلك ابن حجر في لسان الميزان (٥/٥٢٥)، وصاحب الإكمال (٧/١٠٩).

بالقُسطنطينية، فَقُبر مع سور المدينة وبني عليه، فلما أصبحوا أشرف عليهم الروم، فقالوا: يا معشر العرب! قد كان لكم الليلة شأن. فقالوا: مات رجلٌ من أكابر أصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، ووالله لئن نُبِشَ لا ضُرِبَ بناقوسٍ في بلاد العرب. قال: **وكان الروم إذا أمحلوا كشفوا عن قبره فأمطروا**»[1].

وروي هذا المعنى أيضاً عن مجاهد، قال مجاهد: «**كانوا إذا أمحلوا كشفوا عن قبره فمطروا**». قال شعبة: سألت الحكم أشَهِدَ أبو أيوب صفين قال: لا، ولكنه شهد النهروان. وغيره يقول: شهد صفين مع عليّ.

وقال ابن القاسم، عن مالك: «**بلغني عن قبر أبي أيوب أن الروم يستصحُّون به ويستسقون**»[2].

* * *

رائحة المسك تفوح من قبر أحد الصالحين

قال عبدالحق الإشبيلي: «حدثنا أبو الوليد إسماعيل بن أحمد المعروف بابن أفرند ـ وكان هو وأبوه صالحَين معروفَين ـ قال: قال أبو

---

(١) المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري (٤/ ٨٨).

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبدالبر (٤/ ١٦٠٦). والطبقات لابن سعد (٣/ ٤٨٤)، وابن عساكر في تاريخه (١٦/ ٦١). وبغية الطلب في تاريخ حلب لابن أبي جرادة (٧/ ٣٠٣٨) وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٧٩٩).

الوليد: مات أبي رحمه الله، فحدثني بعض إخوانه ممن يوثق به وبحديثه، نسيت أنا اسمه، قال لي: **زرت قبر أبيك، فقرأت عليه**[1] **حزباً من القرآن، ثم قلت له: يا فلان هذا أهديته لك، فماذا لي؟ قال: فهبَّت علي نفحة مسك غشيتني، وأقامت معي ساعة، ثم انصرفت وهي معي**، فما فارقتني إلا وقد مشيت نصف الطريق»[2].

* * *

كرامة لزائر قبر الصحابي الجليل الزبير بن العوام

وروى أبو محمد عبد الله الكبري، ويعرف بالمغاور، وكان من الصالحين ـ والله أعلم ـ مشهوراً بالصدق والخير، قال: **زرت قبر الزبير بن العوام، صاحب النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم وقرابته، وهو أحد العشرة، وقبره بأرض البصرة، قال: فبينما أنا على قبره، إذ رأيتُني قد صُبَّ علي ماء ورد من الجو، فبلَّني حتى بَلَّ مرقّعتي**، رأيت ذلك وأنا حاضر الذهن مفتوح العين. وغير بعيد أن يخلق الله على رأسه ماء ورد يبله، بل يبل الأرض كلها إذا شاء كرامة لصاحب نبيه صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، وبشرى لهذا

---

(١) وفيه دليل على جواز قراءة القرآن على قبور الأموات.

(٢) العاقبة في ذكر الموت (ص٢١٩). والتذكرة في أمور الآخرة للقرطبي (٨٠).

بزيارته إياه، ولا يلزم أن يكون هذا لكل زائر، ولا عند كل مزور، بل قد يكون الزائر أفضل من هذا، والمزور أفضل من ذلك، ولا يكون شيء من هذا، وللكلام على هذا موضع آخر[1].

* * *

رؤية النور على قبر النجاشي رضي الله عنه

وذكر ابن إسحاق قال: حدثني يزيد بن رومان، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «**لما مات النجاشي، كنا نتحدث أنه لا يزال يُرى على قبره نور**»[2].

* * *

مغارة الدم في جبل قاسيون بدمشق

مظنة استجابة الدعاء

أخرج ابن عساكر في تاريخه: قال هشام: سمعت الوليد ابن مسلم يقول: **سمعت سعيد بن عبد العزيز يقول: صعدنا في خلافة هشام بن عبد الملك إلى موضع دم ابن آدم نسأل الله تعالى سقيا فسقانا**، فأتانا مطر، فأقمنا في الغار ستة أيام.

---

(١) العاقبة في ذكر الموت (ص٢١٩).

(٢) راجع (ص ١٧٩) من هذا الكتاب.

وقال ابن مكحول: **صعدت مع عمر بن عبد العزيز إلى موضع الدم يسألون الله تعالى سقيا فسقاهم.**

وقال: إن معاوية خرج إلى موضع الدم يستسقون الله تعالى سقيا فسقاهم، فلم يبرحوا حتى جرت الأودية.

وروي عن أحمد بن كثير قال: صعدت إلى موضع دم ابن آدم عليه السلام في جبل قاسيون بدمشق نسأل الله تبارك وتعالى الحج فحججت، وسألته الجهاد فجاهدت، وسألته الزيارة والصلاة في بيت المقدس وعسقلان وعكا والرباط في جميع السواحل فرزقت ذلك كله، وسألته يغنيني عن الأسواق والبيع فرزقت ذلك، ولقد رأيت النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما وهابيل بن آدم فقلت له: أسألك بحق الواحد الصمد وبحق أبيك آدم النبي عليه الصلاة والسلام هذا دمك؟ فقال: إي والواحد الصمد هذا دمي، جعله الله تعالى آية للناس، وإني دعوت الله عز وجل فقلت: اللَّهُمَّ رب أبي آدم وأمي حواء وهذا النبي المصطفى الأمي اجعل دمي مستغاثاً لكل نبي وصديق، ومن دعا فيه فتجيبه وسألك فتعطيه فاستجاب الله تبارك وتعالى دعائي وجعله طاهراً آمناً، وجعل معه من الملائكة بعدد نجوم السماء يحفظون من أتاه لا يريد إلا الصلاة فيه، فقال رسول الله: قد فعل وزاد كرماً وإحساناً، وإني آتيه

كل خميس وصاحباي وهابيل نصلي فيه، فقلت: يا رسول الله ادع الله تعالى أن أكون مستجاب الدعوة، وعلمني دعاء لكل ملمة وحاجة، فقال لي: افتح فاك ففتحته فتفل فيه فقال لي: رزقت فالزم رزقت فالزم[1].

وروى ابن عساكر عن الوليد بن مسلم قال: سمعت ابن عباس يقول: كان أهل دمشق إذا احتبس القطر أو غلا السعر أو جار عليهم سلطان أو كانت لأحدهم حاجة صعدوا موضع دم ابن آدم المقتول، فيسألون الله تبارك وتعالى فيعطيهم ما سألوا.

قال هشام: صعدت مع أبي وجماعة من أهل دمشق نسأل الله تعالى سقيا، فأرسل الله تبارك وتعالى مطراً غزيراً حتى أقمنا في الغار الذي تحت الدم ثلاثة أيام، ثم دعونا أن يرفع عنا وقد رويت الأرض.

قال هشام: سمعت الوليد بن مسلم يقول: سمعت سعيد ابن عبد العزيز يقول: صعدت في خلافة هشام بن عبد الملك إلى موضع دم ابن آدم عليه السلام نسأل الله تعالى سقيا، فأتانا فأقمنا في الغار ستة أيام، قال الوليد: قال سعيد: أخبرني مكحول قال: وسمعت من يذكر أن معاوية خرج بالمسلمين إلى موضع الدم يسألون الله تبارك وتعالى أن يسقيهم، فلم يبرحوا حتى جرت الأودية.

---

(١) تاريخ ابن عساكر (٥/ ١٧٨).

قال مكحول: وسمعت كعب الأحبار يقول: إنه موضع الحاجات والمواهب من الله تبارك وتعالى، وأنه لا يرد سائلاً في ذلك الموضع.

قال هشام بن عمار: وسمعت من يذكر عن كعب أنه قال: إن إلياس اختبأ من ملك قومه في الغار الذي تحت الدم عشر سنين، حتى أهلك الله تعالى الملك ووليهم غيره، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام فأسلم، وأسلم من قومه خلق عظيم غير عشرة آلاف منهم، فأمر بهم فقتلهم عن آخرهم.

قال هشام: وسمعت من يرجع الحديث إلى وهب بن منبه أنه قال: سمعت ابن عباس يقول: سمعت رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم يقول: اجتمع الكفار يتشاورون في أمري فقال النبي: يا ليتني بالغوطة بمدينة يقال لها: دمشق، حتى آتي الموضع مستغاث الأنبياء حيث قتل ابن آدم أخاه فأسأل الله تعالى أن يهلك قومي إنهم ظالمون، فأتاه جبريل فقال: يا محمد ائت بعض جبال مكة فأو إلى بعض غاراتها فإنها معقلك من قومك، قال: فخرج النبي وأبو بكر حتى أتيا الجبل فوجدا غارا كثير الدواب فذكره.

وعن مكحول عن ابن عباس قال: موضع الدم في جبل قاسيون موضع شريف، كان يحيى بن زكريا وأمه فيه أربعين عاماً، وصلى فيه عيسى ابن مريم والحواريون[١].

---

(١) تاريخ دمشق (٢/٣٣٤ - ٣٣٦).

وروي عن الزهري أنه قال: لو يعلم الناس ما في مغارة الدم من الفضل لما هنَّأهم طعام ولا شراب إلا فيها[1].

أنشد بعض الصالحين لبعض المتأخرين في مدح جبل قاسيون[2]:

يا صَاحِ كم في قاسيون وسفحه	منْ مَشْهدٍ يستوجبُ التعظيما
فالربوةُ العلياءُ يفضلها الذي	أضحى بتفسير الكتاب عليما
والنيرب المشهُور يُعْرف فضله	مَنْ زاره أو ذاق فيه نعيما
ومغارة الدّم فضلُها متواترٌ	ما زلتُ أسمعه هُديتَ عظيما
ولِكهفِ جبريل الأمين فضيلةٌ	مذكورةٌ وقَعت إليّ قديما
ومغارة الجُوع الشريفة تحته	كم عَابدٍ فيها أبنّ مقيما
ومقام بَرْزَة ليس يُنكر فضلُه	أعني مقام أبيك إبراهيما
ولكم مكان فيه ليس بمسجدٍ	أضحى على المتعبدين كريمًا
رئي النبي مُصلياً في سَفحه	صَلّوا عليه وسَلِّموا تسليما
وبه قبور الأنبياء فمن مضى	ليزورهم فقد ابتغى التكريما
فأدِم زيارته وواظب قصدَه	لتنال أجراً في الجنان جسيما

* * *

(١) تاريخ دمشق (٢/٣٣٧).

(٢) تاريخ دمشق (٢/٣٣٨-٣٣٩)، وفي طبعة المجمع العلمي بدمشق (٢/١١٢).

التبرك بالدفن قرب الصالحين

ويستحب لك ـ رحمك الله ـ أن تقصد بميتك قبور الصالحين، ومدافن أهل الخير، فتدفنه معهم، وتنزله بإزائهم، وتسكنه في جوارهم، تبركاً بهم، وتوسلاً إلى الله تعالى بقربهم، وأن تجتنب به قبور من سواهم، ممن يخاف التأذي بمجاورته، والتألم بمشاهدته، فقد رويَ عن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم أنه قال: «**إن الميت يتأذى بالجار السوء، كما يتأذى به الحي**»[1].

وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى في «صفة الصفوة»: «قال أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء: سمعت أبي يقول: كنت عند معروف في مجلسه، فدخل عليه رجل فقال: يا أبا محفوظ، رأيت في هذه الليلة عجباً، قال: وما رأيت؟ رحمك الله، قال: اشتهى عليَّ أهلي سمكاً فذهبت إلى السوق، فاشتريت لهم سمكة وحملتها مع حمال، فمشى معي، فلما سمعنا أذان الظهر، قال الحمال: يا عم هل لك أن نصلي؟ فكأنه أيقظني من غفلةٍ فقلت له: نعم نصلي، فوضع الطبق، والسمكةُ عليه على مستراح، ودخل المسجد، فقلت في نفسي: الغلام قد جاد بالطبق، أجودُ أنا أيضاً بالسمكة، فلم يزل يركع حتى أقيمت الصلاة، فصلينا جماعة، وركع بعد الصلاة،

---

(١) العاقبة في ذكر الموت (١/ ٢١٩، ٢٢٠). والحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٥٤) عن أبي هريرة، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٨/ ٣٧٨) عن ابن مسعود.

وخرجنا، فإذا الطبق على حاله موضوع، فجئت إلى البيت، وحدثت أهلي بهذا، فقالوا لي: قل له يأكل معنا من هذا السمك، فقلت له: تأكل معنا من هذا السمك؟ فقال: أنا صائم، فقلت له: فأفطر عندنا، قال: نعم، أروني طريق المسجد، فأريته، فدخل المسجد، وجلس إلى أن صلينا المغرب، فجئت إليه وقلت له: تقوم رحمك الله؟ فقال: أَوَ نصلي عشاء الآخرة؟ فقلت في نفسي: هذه ثانية، يريد أن فيه خيراً، فلما صلينا جئت به إلى منزلي، ولنا ثلاثة أبيات، بيت فيه أنا وأهلي، وبيت فيه صبية مقعدة، ولدت كذلك، لها فوق العشرين سنة، وبيت كان فيه ضيفنا، فبينا أنا مع أهلي، إذ دق داق الباب في آخر الليل، فقلت: من يدق الباب؟ فقالت: أنا فلانة، فقلت: فلانة قطعة لحم مطروحة في البيت، كيف يستوي لها أن تمشي؟ فقالت: أنا هي، افتحوا لي، ففتحنا لها، فإذا هي، فقلت: أي شيء الخبر؟ فقالت: سمعتكم تذكرون ضيفنا هذا بخير، فوقع في نفسي أن أتوسل إلى الله عز وجل به، فقلت: اللَّهُمَّ بحق ضيفنا هذا، وبجاهه عندك، إلا أطلقت أسري، فاستويتُ وقمتُ، وأنا في عافية كما تروني، فقمت إليه أطلبه في البيت، فإذا البيت خال ليس فيه أحد، فجئت إلى الباب فوجدته مغلقاً بحاله، فقال معروف: نعم فيهم صغار وكبار. يعني الأولياء»[1].

* * *

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٥٠٠، ٥٠١).

قصة الجارود بن عبدالله
وقس بن ساعدة

روى البيهقي في «دلائل النبوة» عن عبدالله بن عباس، قال: قدم الجارود بن عبدالله ـ وكان سيداً في قومه، مُطاعاً عظيماً في عشيرته، مطاع الأمر رفيع القدر، عظيم الخطر، ظاهر الأدب، شامخ الحسب، بديع الجمال، حسن الفعال، ذا منعة ومال ـ في وفد عبدالقيس من ذوي الأخطار والأقدار، والفضل والإحسان، والفصاحة والبرهان، كلُّ رجل منهم كالنخلة السَّحوق، على ناقة كالفحل الفنيق، قد جَنَبُوا الجياد، وأعدوا للجِلاد، مُجدِّين في سيرهم، حازمين في أمرهم، يسيرون ذميلاً، ويقطعون ميلاً فميلاً، حتى أناخوا عند مسجد النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، فأقبل الجارود على قومه والمشائخ من بني عمه، فقال: يا قوم، هذا محمد الأغرّ، سيد العرب، وخير ولد عبدالمطلب، فإذا دخلتم عليه، ووقفتم بين يديه، فأحسنوا عليه السّلام، وأقلوا عنده الكلام. فقالوا بأجمعهم: أيها الملك الهُمَام والأسد الضِّرغام، لن نتكلم إذا حضرت، ولن نجاوز إذا أمرت، فقل ما شئت، فإنا سامعون، واعمل ما شئت، فإنا تابعون. فنهض الجارود في كل كَميٍّ صنديد، قد دَوَّمُوا العمائم، وتردوا بالصَّمائم، يجرُّون أسيافهم ويسحبون أذيالهم، يتناشدون الأشعار، ويتذاكرون مناقب الأخيار، لا يتكلمون طويلاً، ولا يسكتون عيَّاً، إن أمرهم ائتمروا، وإن زجرهم ازدجروا، كأنهم أُسْد غِيل يقدمها ذو

لبؤة مهول، حتى مثلُوا بين يدي النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم.
فلما دخل القوم المسجد، وأبصرهم أهل المشهد، دلف الجارود أمام النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، وحسر لثامه وأحسن سلامه، ثم أنشأ يقول:

يا نبي الهدى أتتك رجالٌ قطعت فدْفداً وآلاً فآلاً

وطوت نحوك الصَّحاصِح طُراً لا تخال الكَلاَل فيك كلاَلاً

كلّ دهماء يقصُر الطَّرفُ عنها أرقَلَتْهَا قِلاصُنَا إرقالاً

وطوتها الجيادُ تجمحُ فيها بِكُمَاةٍ كأنجُمٍ تتلالا

تبتغي دفع بأس يوم عبوسٍ أوجل القلب ذكرُهُ ثم هالا

فلما سمع رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم ذلك فرح فرحاً شديداً، وقرّبه وأدناه، ورفع مجلسه وحباه، وأكرمه، وقال: يا جارود، لقد تأخر بك وبقومك الموعد، وطال بكم الأمد. قال: والله يا رسول الله، لقد أخطأ من أخطأك قصده، وعدم رشده، وتلك وايمُ الله أكبر خيبة، وأعظم حوبة، والرائد لا يكذب أهلهُ، ولا يغش نفسه. لقد جئت بالحق، ونطقت بالصدق، والذي بعثك بالحق نبياً واختارك للمؤمنين وليّاً، لقد وجدت وصفك في الإنجيل، ولقد بشّر بك ابن البتول، وطول التحية لك والشكر لمن أكرمك وأرسلك، لا أثر بعد عين، ولا شك بعد يقين، مُدَّ يدك، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك محمد رسول الله.

قال: فآمن الجارود، وآمن من قومه كلّ سيد، وسرّ النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم بهم سروراً، وابتهج حُبُوراً، وقال: يا جارود، هل في جماعة وفد عبدالقيس من يعرف لنا قُسّاً؟ قال: كلُّنا نعرفه يا رسول الله، وأنا من بين قومي كنت أقفو أثره وأطلب خبره: كان قس سبطاً من أسباط العرب، صحيح النسب، فصيحاً إذا خطب، ذا شيبة حسنة. عمّر سبعمائة سنة، يتقفَّرُ القفار، لا تكنُّه دار، ولا يقرّه قرار، يتحسَّى في تقفره بيض النعام، ويأنس بالوحوش والهوام، يلبس المُسوح ويتبع السُّيَّاح على منهاج المسيح، لا يفتر من الرّهبانية، مقرّ لله بالوحدانية، تُضْرَبُ بحكمته الأمثال، وتُكشف به الأهوال، وتتبعه الأبدال. أدرك رأس الحواريين سمعان! فهو أول من تألَّه من العرب، وأعبدُ من تعبد في الحُقُب، وأيقن بالبعث والحساب، وحذر سوءَ المنقلب والمآب، ووعظ بذكر الموت، وأمر بالعمل قبل الفوت. الحسنُ الألفاظ، الخاطب بسوق عكاظ، العالم بشرق وغربٍ، ويابسٍ ورطبٍ، وأُجَاج وعذب. كأني أنظر إليه والعرب بين يديه، يقسم بالرّب الذي هو له لَيَبْلُغَنَّ الكتاب أجَلهُ، ولَيُوَفَّيَنَّ كلُّ عاملٍ عمله.

ثم ذكر الحديث بطوله وفيه:

قال: فدنوت منه فسلمت عليه فردّ السلام، وإذا بعين خَرَّارة، في أرض خَوَّارة، ومسجد بين قبرين، وأسدين عظيمين يَلُوذان به،

ويتمسحان بأثوابه، وإذا أحدهما يسبق صاحبه إلى الماء فتبعه الآخر وطلب الماء، فضربه بالقضيب الذي في يده، وقال: ارجع ثكلتك أمك، حتى يشرب الذي وَرَد قبلك. فرجع ثم ورد بعده، **فقلت له: ما هذان القبران؟ فقال: هذان قبرا أخوين لي كانا يعبدان الله تعالى معي في هذا المكان، لا يشركان بالله شيئاً، فأدركهما الموت فقبرتهما، وها أنا بين قبريهما، حتى ألحق بهما**، ثم نظر إليهما، فتغرغرت عيناه بالدموع، فانكب عليهما وجعل يقول:

خليليّ هُبّا طالما قد رقدتما … أجدّكُما لا تقضيان كَرَاكُما

ألم تريا أني بسمعان مُفردٌ … وما لي فيها من خليل سواكما

مقيم على قبريكما لست بارحاً … طوال الليالي أو يجيب صداكُما

أبكيكما طول الحياة وما الذي … يردُّ على ذي عولة إن بكاكما

أمن طول نوم لا تجيبان داعياً … كأن الذي يسقي العُقار سقاكما

كأنكما والموتُ أقربُ غاية … بروحي في قبريكما قد أتاكما

فلو جُعلَت نَفْسٌ لنفسٍ وقايةً … لجُدْتُ بنفسي أن تكون فداكما

فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم: «**رحم الله قساً، إني لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده**»[1].

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٢/١٠٥ - ١٣١).

ثم قال البيهقي في دلائل النبوة، بعد رواية هذه القصة[1]: وقد روي من وجه آخر عن الحسن البصري منقطعاً، وروي مختصراً من حديث سعد بن أبي وقاص وأبي هريرة. وإذا روي حديث من أوجه وإن كان بعضها ضعيفاً دلَّ على أن للحديث أصلاً، والله أعلم. اهـ.

قال الحافظ عماد الدين ابن كثير: هذه الطرق على ضعفها كالمتعاضدة على إثبات أصل القصة[2]، وذكر السيوطي رحمه الله في تدريب الراوي[3] عند قوله: وأما الضعيف لفسق الراوي أو كذبه، فلا يؤثر فيه موافقة غيره إذا كان الآخر مثله لقوة الضعف وتقاعد هذا الجابر... إلى أن قال رحمه الله: نعم، يرتقي بمجموع طرقه عن كونه منكراً أو لا أصل له. صرح به شيخ الإسلام، قال: بل ربما كثُرت الطرق حتى أوصلته إلى درجة المستور أو سيئ الحِفظ، بحيث إذا وجد له طريق آخر فيه ضعف قريب محتمل ارتقى بمجموع ذلك إلى درجة الحُسن. اهـ.

قلت: فلا معنى لإدراج ابن الجوزي لهذا الحديث في الموضوعات؛ إذ معلوم تشدد ابن الجوزي في كتابه المعني وانتقاد أهل العلم له.

ثم إن هذه القصة من الأخبار لا يُتشدد في الحكم عليها كما قرر جمهور أهل العلم، فبعد ذلك التقرير تكون رواية هذا الأثر

(١) البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١١٣).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٦).
(٣) تدريب الراوي للسيوطي (١/ ١٩٤).

بدرجة الحسن لغيره، إذ من المعلوم عن أهل العلم أنه لا يعتبر السيوطي في التصحيح والتحسين لتساهله كما لا يعتبر ابن الجوزي في الحكم بالتضعيف والوضع لتشدده.

وقس بن ساعدة ممن كان قبل الإسلام ولو كان في فعله نقيصة لما امتدحه رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، بل ذكره في معرض المدح مما دل على حسن سيرته ونقاء عقيدته.

* * *

توسل الإمام المحدث أبو علي الحسين بن علي الدقاق بالإمام ابن فورك

ذكر الإمام السبكي رحمه الله في كتاب طبقات الشافعية عند ترجمة الإمام الدقاق ما نصه «أن الإمام أبا صالح المؤذن، وهو من هو قال بأن الأستاذ أوحد وقته، أبو علي الحسين بن علي الدقاق، يعقد مجلسه، ويدعو للحاضرين والغائبين من أعيان البلد وأئمتهم، فقيل له يومًا قد نسيت بن فورك أبا بكر، ولم تدع له، فقال كيف أدعو له، وكنت أقسم على الله البارحة بإيمانه أن يشفي علتي، وكان به وجع البطن تلك الليلة» أ هـ[1].

* * *

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٤/ ١٢٨ ط الأولى مطبعة الحلبي.

المطلب الثالث

التوسل ببركة الأماكن والبقاع

لقد تضافرت الأدلة بالتوسل إلى الله بالأماكن والبقاع في الكتاب والسنة والآثار لما في ذلك من نيل المنفعة واستدرار الرحمة دون أن يزيغ الموحد فيتخذها آلهة من دون الله لما مَنَّ الله به عليه من الحفظ بإطاعة أوامره سبحانه، والحديث في هذا الباب طويل الذيل، وسأفرده بكتاب خاص به إن شاء الله تعالى، إلا أنه لما كان تعلق موضوع التبرك بالتوسل تعلقاً بليغاً صار من اللازم بمكان أن أورد طرفاً من ذلك لما تستند عليه العلاقة بين التبرك والتوسل إذ أن التبرك ما هو إلا تقرب وتوسل إلى الله سبحانه، وسأقتصر على بعض الأدلة من الكتاب والسنة والأخبار بما يفي بالغرض، وقبل سرد الأدلة أطرح بين يدي القارئ الكريم ما قاله أحد علماء الإسلام الفحول العلامة الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي المالكي في كتابه «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» لتكون تقدمة لهذا الباب فقال رحمه الله ما نصه: «حديث: «**كان النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً**».رواه البخاري** واللفظ له، ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم.

* قوله رضي الله تعالى عنه: (كان النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم يأتي مسجد قُباء) بضم القاف ممدوداً، وقد يقصر ويذكر على أنه اسم موضع فيصرف، وعلى أنه اسم بقعة يؤنث ولا يصرف، والأشهر مده وصرفه وتذكيره، وقباء من عوالي المدينة المنورة، ردّنا الله تعالى لها، وأماتنا على الإيمان بها بجاه من تنورت بأنواره صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، وشرفت على سائر البقاع حتى على مكة كما هو المشهور عن إمامنا مالك وأكثر أصحابه، وعليه جرى خليل في مختصره بقوله: والمدينة أفضل، ثم مكة، ويدل له ما رواه الدارقطني والطبراني من رواية رافع بن خديج: (المدينة خير من مكة)[1]. فهو صريح في تفضيل المدينة على مكة شرفهما الله تعالى، ثم يلي مكة في الفضل بيت المقدس، فمسجده أفضل المساجد بعد مسجدي بيت المقدس ومكة. حتى قيل: إن المسجد الأقصى أفضل من المساجد المنسوبة لرسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم كمسجد قباء، ومسجد الفتح، ومسجد العيد، ومسجد ذي الحليفة، ومسجد قباء بينه وبين المدينة المنورة ثلاثة أميال أو ميلان: وهو أول مسجد بناه رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم وكان يحمل الحجارة بنفسه

---

(١) ولعل الشيخ اعتمد على حديث الصحيحين: «اللَّهُمَّ اجعل بالمدينة ضِعْفَي ما بمكة من البركة». رواه البخاري رقم (١٨٨٥)، ومسلم (١٣٦٩).

الشريفة إعانة للعمال على بنائه[1]، وقال جماعة من السلف منهم ابن عباس[2]: إنه المسجد المؤسس على التقوى، وهو مسجد بني عمرو بن عوف وقد سمي باسم بئر هناك، وفي وسطه مبرك ناقة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وفي صحنه مما يلي القبلة شبه محراب هو أول موضع ركع فيه رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم هناك (كل سبت) أي: كل يوم سبت حالة كونه صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم (ماشياً) تارة (وراكباً) تارة أخرى، وقد أطلق في غير هذه الرواية إتيانه عليه الصلاة والسلام مسجد قباء من غير تقييد بيوم، وقيد في هذه الرواية بيوم السبت فيحمل المطلق على المقيد، وقد خص السبت بالذكر لأجل مواصلته عليه الصلاة والسلام لأهل قباء، وتفقده حال من تأخر منهم عن حضور الجمعة معه في مسجده الشريف بالمدينة المنورة، أعادنا الله تعالى له على حالة جميلة، ورزقنا التمتع بعبادته تعالى فيه مع إخلاص وخشوع واطمئنان حتى يختم لنا عنده بأكمل الإيمان (وكان عبدالله بن عمر) رضي الله تعالى عنهما (يفعله) أي: يفعل إتيان مسجد قباء يوم السبت ماشياً تارة وراكباً أخرى حرصاً على متابعة النبي صَلَّى الله عليه وآله

---

(١) الآحاد والمثاني لأبي بكر الشيباني ٦/ ٢٥٨ رقم ٣٤٨٨، والطبراني في المعجم الكبير ٢٤/ ٣١٧ رقم ٨٠١.

(٢) تفسير القرطبي ٨/ ٢٥٩.

وسَلَّم في الأعمال الصالحة كما هو معروف من عادته الشريفة رضي الله تعالى عنه، وقولي واللفظ له أي: للبخاري: وأما مسلم فلفظه في أقرب رواياته للفظ البخاري. كان رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم يأتي قباء يعني كل سبت، كان يأتيه راكباً وماشياً، وكان ابن عمر يفعله.

وفي هذا الحديث: فضل مسجد قباء وفضل الصلاة فيه اقتداء بالنبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم وكذلك فيه استحباب أن يكون ذلك في يوم السبت. وفيه دليل على جواز تخصيص بعض الأيام بنوع من القرب، وهو كذلك إلا في الأوقات المنهي عنها، كالنهي عن تخصيص ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي، وتخصيص يوم الجمعة بصيام من بين الأيام، وقال صاحب المفهم: وأصل مذهب مالك كراهة تخصيص شيء من الأوقات بشيء من القرب إلا ما ثبت به توقيف. وفي هذا الحديث حجة على من كره تخصيص زيارة قباء يوم السبت كمحمد بن مسلمة من المالكية مخافة أن يظن ذلك سنة في ذلك اليوم. قال عياض: ولعله لم يبلغه هذا الحديث. وقد احتج ابن حبيب من المالكية بزيارته صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم مسجد قباء راكباً وماشياً، على أن المدني إذا نذر الصلاة في مسجد قباء لزمه ذلك، وحكاه عن ابن عباس، ولا يخفى أن المسجد الأقصى ومسجد

قباء أفضل من سائر المساجد غير المسجد الحرام ومسجد المدينة المنورة. ومما ورد في فضل الصلاة في مسجد قباء ما أخرجه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح، عن سعد بن أبي وقاص قال: لأن أصلي في مسجد قباء ركعتين أحب إلي من أن آتي بيت المقدس مرتين، لو يعلمون ما في قباء لضربوا إليه أكباد الإبل. وروى النسائي حديث سهل بن حنيف مرفوعاً: من خرج حتى يأتي مسجد قباء فيصلي فيه كان له عدل عمرة، وعند الترمذي من حديث أسيد بن حضير رضي الله تعالى عنه رفعه: «الصلاة في مسجد قباء كعمرة»، لكنه لم يثبت فيه تضعيف كالمساجد الثلاثة، وهذا الحديث كما أخرجه الشيخان أخرجه أبو داود أيضاً بنحوه (وأما راوي الحديث) فهو عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما . . . .

** أخرجه البخاري في أبواب التطوع في باب مسجد قباء، وفي باب من أتى مسجد قباء كل سبت، وفي باب إتيان مسجد قباء ماشياً وراكباً، ومسلم في آخر كتاب الحج في باب فضل مسجد قباء وفضل الصلاة فيه وزيارته . . . إلخ.

حديث: عن عائشة رضي الله تعالى عنها: «كان النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم يؤتى بالصبيان فيدعو لهم، فأتي بصبي فبال على ثوبه فدعا بماء فأتبعه إياه ولم يغسله». رواه البخاري** واللفظ له ومسلم.

وفي هذا الحديث استحباب حمل الأطفال إلى أهل الفضل للتبرك بهم وطلب دعائهم وتحنيكهم، وسواء في هذا الاستحباب المولود حال ولادته أو بعدها بمدة طويلة. وفيه حسن معاشرة النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم لأصحابه ومحبته لأبنائهم الصغار. وفيه التواضع والرفق بالصغار.

وفي هذا الحديث أيضاً إقرار رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم لأصحابه على دوام التبرك به سواء في ذلك صغارهم وكبارهم. ولنذكر من أفراد ذلك جملة نافعة إن شاء الله تعالى يرتدع بها من لا يرى التبرك به عليه الصلاة والسلام مشروعاً أحرى بغيره من صلحاء أمته وعلمائها العاملين، نسأل الله تعالى أن لا يجعلنا كمن جهل هذا التبرك من سنة رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم، بل يجعلنا مع من تبرك به وبسنته المطهرة وسيرته النافعة للقلوب بإذن بارئنا تعالى علام الغيوب.

وقد تقدم لنا من ذلك قدر نافع في حرف الراء عند حديث: رد البشرى فأقبلا أنتما إلخ، وأقول:

قد وردت أحاديث كثيرة صحيحة في تبرك الصحابة به مع علمه صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم بذلك وإقراره عليه.

من ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه أثناء كتاب الوضوء في باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان بإسناده إلى ابن سيرين قال:

قلت لعبيدة: عندنا من شعر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أصبناه من قبل أنس أو من قبل أهل أنس فقال: لأن تكون عندي شعرة منه أحب إلي من الدنيا وما فيها كذا في لفظ البخاري، وأخرجه الإسماعيلي وفي روايته: أحب إلي من كل صفراء وبيضاء.

ومما هو معلوم في السنة من **تبرك أصحابه بشعره الشريف وبجميع ما خالط جسده الشريف** ما كان قد ثبت من جعل خالد بن الوليد بعض شعره عليه الصلاة والسلام في قلنسوته، فكان يدخل بها في الحرب ويستنصر ببركته عليه الصلاة والسلام، ولما سقطت عنه قلنسوته يوم اليمامة شد عليها حتى أخذها، فأنكر عليه بعض الصحابة ذلك قبل علمهم بما فيها من شعر رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، لظنهم أنه خاطر بنفسه على قلنسوة لا قيمة لها، فقال خالد: إني لم أفعل ذلك لقيمة القلنسوة، لكن كرهت أن تقع بأيدي المشركين وفيها من شعر النبي عليه الصلاة والسلام فرضوا عنه وأثنوا عليه.

ومن ذلك **أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا إذا حلق رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم شعره الشريف أخذوا شعره وفرقوه عليهم للتبرك به**، فقد أخرج البخاري في الباب المذكور عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول اللهصَلَّى الله عليه وآله

وسَلَّم لما حلق رأسه كان أبو طلحة أول من أخذ من شعره. وأخرجه أبو عوانة في صحيحه ولفظه: إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمر الحلاق فحلق رأسه ودفع إلى أبي طلحة الشق الأيمن ثم حلق الشق الآخر فأمره أن يقسمه بين الناس. ورواه مسلم من طريق ابن عيينة عن هشام بن حسان عن ابن سيرين بلفظ: لما رمى الجمرة ونحر نسكه ناول الحلاق شقه الأيمن فحلقه ثم دعا أبا طلحة فأعطاه إياه، ثم ناوله الشق الأيسر فحلقه فأعطاه أبا طلحة فقال: اقسمه بين الناس. وله من رواية حفص بن غياث أنه قسم الأيمن فيمن يليه. وفي لفظ: فوزعه بين الناس الشعرة والشعرتين وأعطى الأيسر أم سليم. وفي لفظ: وأعطى الأيسر أبا طلحة.

فإن قيل: في هذه الروايات شبه تناقض؟.

فالجواب: أنه لا تناقض إذ يجمع بينهما بأنه ناول أبا طلحة كلاً من الشقين، فأما الأيمن فوزعه أبو طلحة بأمره بين الناس، وأما الأيسر فأعطاه لأم سليم زوجته بأمر رسول الله عليه الصلاة والسلام أيضاً، زاد أحمد في رواية له: لتجعله في طيبها. فأمره عليه الصلاة والسلام بتفريق شعره بين أصحابه للتبرك به. وحرصهم على ذلك وازدحامهم عليه حتى ينال منه أحدهم الشعرة والشعرتين لهو أقوى دليل لكون التبرك به صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم كان أمراً مطرداً شائعاً

بين أصحابه وبين التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وحينئذ فلا ينكره إلا من لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه.

ومن ذلك ما أخرجه البخاري في باب خاتم النبوة بإسناده إلى الجعيد بن عبدالرحمن قال: سمعت السائب بن يزيد قال: ذهبت بي خالتي إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم فقالت: يا رسول الله إن ابن أختي وقع فمسح رأسي ودعا لي بالبركة وتوضأ فشربت من وضوئه. إلخ.

ومحل الاستدلال منه قول الصحابي: فشربت من وضوئه أي: من الماء المتقاطر من أعضائه المقدسة، وهذا هو الوضوء بفتح الواو.

ومن ذلك ما أخرجه البخاري في باب صفة النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم عن أبي جحيفة قال: وقام الناس فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بهما وجوههم قال: فأخذت بيده فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج وأطيب رائحة من المسك. وأخرج البخاري في باب صفة النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم أيضاً بإسناده إلى أبي جحيفة المذكور قال: دفعت إلى النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم وهو بالأبطح في قبة كان بالهاجرة. فخرج بلال فنادى بالصلاة، ثم دخل فأخرج فضل وضوء رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم فوقع الناس عليه يأخذون منه... الحديث.

والوَضوء بفتح الواو: هو الماء الذي توضأ به ومس جسده الشريف، يجمعونه في إناء للتبرك به لكونه مس جسده الشريف. وهذا الحديث أخرجه البخاري أيضاً في كتاب الوضوء في باب استعمال فضل وضوء الناس. وفي كتاب الأشربة في أول باب الشرب من قدح النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم وآنيته: إن عبدالله بن سلام الصحابي الذي هو ممن أوتي أجره مرتين قال لأبي بردة: ألا أسقيك في قدح شرب النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم فيه.

وقد أخرج البخاري في هذا الباب بإسناده إلى سهل بن سعد الساعدي رضي الله تعالى عنه: فأقبل النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم حتى جلس في سقيفة بني ساعدة هو وأصحابه ثم قال: اسقنا يا سهل. فخرجت لهم بهذا القدح فأسقيتهم فيه. قال أبو حازم: فأخرج لنا سهل ذلك القدح فشربنا منه تبركاً برسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم قال: ثم استوهبه عمر بن عبدالعزيز بعد ذلك من سهل فوهبه له. وهذا الحديث أخرجه مسلم أيضاً في الأشربة، وأخرج البخاري في هذا الباب بإسناده إلى عاصم الأحول قال: رأيت قدح النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم عند أنس بن مالك ثم قال: قال أنس: لقد سقيت رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم في هذا القدح أكثر من كذا وكذا.

وفي رواية مسلم: لقد سقيت رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم بقدحي هذا الشراب كله.

وفي مختصر البخاري للقرطبي: إن في بعض نسخ البخاري القديمة ما نصه: قال أبو عبدالله البخاري: رأيت هذا القدح بالبصرة وشربت فيه، وكان اشتري من ميراث النضر بن أنس بثمانمائة ألف، فقد كان هذا القدح محفوظاً عند الصحابة والتابعين بالشراب فيه، ولم يسمع عن أحد من الصحابة ولا من أئمة التابعين إنكار ذلك ولا الاستخفاف به، فكيف يتوهم جاهل بالسنة أن هذا التبرك وشبهه منهي عنه أو خلاف الأفضل؟ أحريٌّ أن يوصف فاعله بالشرك أعاذنا الله تعالى منه.

وأخرج البخاري في الباب الذي بعد هذا وهو باب شرب البركة والماء المبارك بإسناده إلى جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: قد رأيتني مع النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم وقد حضرت العصر وليس معنا ماء غير فضلة، فجعلت في إناء، فأتي النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم به فأدخل يده فيه وفرج أصابعه ثم قال: حي على الوضوء، البركة من الله، فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه فتوضأ الناس وشربوا، فجعلت لا آلو ما جعلت في بطني منه، فعلمت أنه بركة، قال سالم بن أبي الجعد: قلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: ألف وأربعمائة.

فقول جابر: فعلمت أنه بركة، وإكثاره منه لأجل ذلك صريح في أن ما عليه سلف الأمة وخَلَفُهَا من التبرك بآثار النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم وبكل ما لامسه أو نبع من بين أصابعه هو السنة التي يجب اتباعها والذب عنها والاحتماء لثبوتها، وإن خلاف ذلك هو الضلال والإضلال، فنسأل الله تعالى أن يميتنا على التمسك بسنة رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم التي أقر عليها أصحابه وأمر بها، ويختم لنا بالإيمان بجواره صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم.

وأخرج البخاري أيضاً في كتاب اللباس من صحيحه في باب القبة الحمراء من أدم بإسناده إلى أبي جحيفة وهب بن عبد الله السوائي قال: أتيت النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم وهو في قبة حمراء من أدم، ورأيت بلالاً أخذ وضوء النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم والناس يبتدرون الوضوء، فمن أصاب منه شيئاً تمسح به، ومن لم يصب منه شيئاً أخذ من بلل يد صاحبه، وهو بمعنى حديث أبي جحيفة السابق. وقد أخرجه البخاري أيضاً في كتاب الصلاة في باب الصلاة إلى العنزة، وباب السيرة بمكة، وأخرج في كتاب اللباس أيضاً في باب ما يذكر في الشيب بإسناده إلى إسرائيل عن عثمان بن عبدالله بن موهب مولى آل طلحة أنه قال: أرسلني أهلي إلى أم سلمة زوج النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم بقدح من ماء، وقبض إسرائيل

ثلاث أصابع من قصة فيه شعر من شعر النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، وكان إذا أصاب الإنسان عين أو شيء بعث إليها مخضبة، فاطلعت في الجلجل فرأيت شعرات حمراً، قوله: وقبض إسرائيل ثلاث أصابع إشارة إلى إرسال عثمان المذكور إلى أم سلمة.

وقوله: من قُصَّة بضم القاف ثم صاد مهملة بيان للقدح بأن جعلت القصة وهي الخصلة من الشعر قدحاً مضفراً بحيث يحمل الماء. وقوله: فاطلعت في الجلجل هو بضم الجيمين وهو شيء يشبه الجرس يتخذ من ذهب أو فضة أو نحاس. وهذا الحديث أخرجه ابن ماجه في اللباس من سننه أيضاً. والحاصل من معنى هذا الحديث أن أم سلمة كان عندها شعرات من شعر النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم حمر محفوظة للتبرك في شيء مثل الجلجل، وكان الناس عند مرضهم يتبركون بها ويستشفون من بركتها، فتارة يجعلونها في قدح من الماء فيشربون ماءه، وتارة في إجانة ملآى من الماء يجلسون في الماء الذي فيه تلك الشعرات التي هي من شعره الشريف، هكذا كان دأب الصحابة وتابعيهم رضوان الله عليهم أجمعين.

وأخرج البخاري أيضاً في كتاب الأدب في باب حسن الخلق والسخاء إلخ بإسناده إلى سهل بن سعد رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم ببردة فقال سهل للقوم: أتدرون ما البردة؟ فقال القوم: هي شملة، فقال سهل هي شملة

منسوجة فيها حاشيتها، فقالت المرأة: يا رسول الله أكسوك هذه، فأخذها النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم محتاجاً إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة، فقال: يا رسول الله ما أحسن هذه، فاكسنيها فقال: نعم، فلما قام النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم لامه أصحابه فقالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم أخذها محتاجاً إليها ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يُسأل شيئاً فيمنعه فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم لعلي أكفن فيها.

وقد أخرج البخاري هذا الحديث في الجنائز أيضاً في باب من استعد الكفن. والصحابي الذي سأل البردة ليكفن فيها تبركاً بها هو عبدالرحمن بن عوف كما أفاده ابن حجر في المقدمة قائلاً: رواه الطبراني، وقيل: هو سعد بن أبي وقاص، وكل منهما من العشرة المبشرين بالجنة السابقين للإسلام المتمسكين بسنة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام. وأخرج مسلم في كتاب الفضائل من صحيحه في باب قرب النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم من الناس وتبركهم به عن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيه، فربما جاؤوا في الغداة الباردة فيغمس يده فيها. وقد تقدم في حرف الراء عند حديث «رد البشرى» ما أخرجه مسلم من

أنه عليه الصلاة والسلام نام في بيت أبي طلحة، فاستيقظ على أم سليم وهي تجعل عرقه في قواريرها فقال: ما تصنعين به. يا أم سليم؟ فقالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا فقال: أصبت.

وأخرج مسلم أيضاً في كتاب الآداب من صحيحه في باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه إلخ، بإسناده إلى أنس بن مالك قال: ذهبت بعبد الله بن أبي طلحة الأنصاري إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم حين ولد، ورسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم في عباءة يهنأ بعيراً له فقال: هل معك تمر؟ فقلت: نعم، فناولته تمرات فألقاهن في فيه فلاكهن ثم فَغَرَ فا الصبي فمجه في فيه، فجعل الصبي يتلمظه، فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم: حب الأنصار التمر، وسماه عبدالله .اهـ. قوله: حب الأنصار التمر، أي: انظروا حب الأنصار... إلخ كما رويناه عن المشايخ.

وقد روى أبو نعيم في حليته في ترجمة الإمام مالك أن هارون الرشيد استشار مالكاً في أن ينقض منبر النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم ويجعله في جوهر وذهب وفضة، فقال له مالك: لا أرى أن تحرم الناس أثر النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم ففيه أن مالكاً من السنة عنده التبرك بمحل جلوس رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، مع أن مذهبه مبني على سد الذرائع، فلو كان في التبرك بهذا وشبهه

ذريعة شرك لسدها الإمام مالك كعادته في سد ذرائع المحرمات وجميع المنهيات.

وقد أخرج إمامنا مالك رحمه الله في الموطأ في باب الجمع بين الصلاتين في الحضر والسفر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم بجنده على عين تبوك، ووجدها تبض بشيء من ماء، غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء ثم غسل رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم فيه وجهه ويديه، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس. الحديث. ومحل الاستدلال منه غسله عليه الصلاة والسلام وجهه ويديه فيه، ثم إعادته لذلك الماء الذي غسل فيه وجهه ويديه لتعود بركته على جميع من في الغزوة بجريان الماء الكثير ليشربوا منه ويتبركوا به، وقد وقع ذلك كله إلى غير ما سقناه هنا من أفراد الأحاديث الصحيحة الصريحة في تبرك الصحابة به وبما خالطه وتبرك التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين بذلك. نسأله تعالى أن يلحقنا بهم ويقينا جميع المهالك. وقوله: تبض بالضاد المعجمة أي: تقطر وتسيل قليلاً.

وأخرج مالك أيضاً في باب ما جاء في الدعاء من مُوَّطئِهِ أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما جاء لقرية لبني معاوية وهي قرية من قرى الأنصار فقال: هل تدرون أين صلى رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم من مسجدكم هذا؟ فقال له عبدالله بن عبدالله بن جابر

ابن عتيك: نعم، وأشار له إلى ناحية منه، الحديث. وفيه تبرك أصحابه بمواضع صلاته عليه الصلاة والسلام. وقد كان ذلك مشهوراً بينهم لا ينكره أحد من المسلمين، ثم تبعهم التابعون عليه، ثم من بعدهم إلى زماننا هذا الذي غلب فيه الكفر والإلحاد فاحتيج إلى إثبات أدلة ذلك من الكتاب والسنة.

ولما استقر أن سنة النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم الثابتة بالأحاديث الصحيحة التبرك به صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم، وبما مسه وبآثاره ومواضع قدمية الشريفتين وأمكنة صلاته ونحو ذلك، وكنت ممن أنعم الله عليه بزيارة بعض تلك الأماكن الشريفة، وزرت أول مكان نزل فيه القرآن على رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم وهو غار حراء، ووفقني الله تعالى للمبيت فيه ليلتين أو ثلاثاً، وقرأت فيه لأصحابي تفسير سورة العلق التي أنزلت به، وحدثتهم فيه بحديث بدء الوحي، وكنت بعد أن أصلي فيه ما شاء الله ليلاً أتكئ به وأمرغ به خدي تبركاً بتلك الحصباء التي تشرفت ببدن رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم وصلاته، ألهمني الله تعالى إنشاء أبيات وأنا في ذلك المكان وهي:

أمرغ في حراء أديم خدي ... دواماً بالغداة وبالعشي

لعلي أن أمس بحر وجهي ... تراباً مسه قدم النبي

صلاة الله دائمة عليه ... تعم الآل بالعرف الذكي

وهذا عندي أنسب إن شاء الله من قول الإمام التقي السبكي لما ولي تدريس دار الحديث بدمشق الشام بعد الإمام النووي وتبرك بمحل تدريسه وآثاره:

وفي دار الحديث لطيف معنى أصلي في جوانبها وآوي
لعلي أن أمس بحَرٍّ وجهي تراباً مسَّه قدم النواوي

وقد تقدم ذكر أبياتي هذه مع بيتَي التقي السبكي عند حديث: «جاورت بحراء» في أول حرف الجيم، ولما وفقني الله تعالى لزيارة غار جبل ثور المذكور في القرآن، الذي استتر فيه رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم وصاحبه أبو بكر الصديق ثلاث ليال، وبت فيه وقرأت فيه لأصحابي تفسير قوله تعالى: ﴿**ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ**﴾[1] الآية. ودرست فيه لأصحابي حديث الهجرة بطوله، وكنت أصلي الفرض خارجه لقصره عن قدر القامة والنفل بداخله جالساً وأنام فيه، قلت:

وفي الغار الشريف وضعت ليلا
عظامي واتكأت به بطولي
لعلي أن أمس لفرط حبي
مكاناً مسه بدن الرسول
صلاة الله دائمة لطه
إمام الأنبياء أبي البتول

---

(١) سورة التوبة، الآية (٤٠).

ولما من الله تعالى علي بحج بيته المحرم، وقبلت الحجر الأسود مراراً، وكنت في بعض أحياني ألاحظ حين تقبيله أن رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم قبله بشفتيه الشريفة قلت في ذلك:

لدى الحجر المقبل في طواف   ببيت الله نلت لدى دخولي
من التقبيل ما أرجو لنفسي   به أمناً يدوم مع الوصول
لتقبيل الرسول له فأعظم   بشيء مسه بدن الرسول
صلاة الله دائمة عليه   بها أعطى الفلاح مع القبول

ولما زرت المكان المتفق على أنه هو مكان مولده الشريف صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم وكان محاطاً ببناء نفيس، وكان معداً لتبرك المسلمين وموضعاً لصلاة المؤمنين، سجدت به شكراً لله تعالى على إبرازه لرسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم وأنواره الساطعة في هذا المكان، وقلت في ذلك:

وميلاد الرسول به وضعنا   جباهاً ثم شكراً للعلي
لأن الله أبرز فيه نوراً   به عم البرية بالرقي
فذو الإيمان فاز به ومن لا   ففي الدنيا تنعم بالنبي
صلاة الله يتبعها سلام   عليه بالغداة وبالعشي

وإني أتوسل به صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم وبكتاب الله الذي أنزل عليه وبآله الطاهرين وأصحابه الأكرمين وتابعيهم من أئمة الدين

والأولياء الكمل العارفين أن يبدل سيآتنا حسنات، وأن يختم لنا بأتم الإيمان بجواره صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم نحن ومن نحبه، وأن يشفينا من جميع الأمراض، ويصلح لنا سائر الأغراض ويكمل هذا التأليف وشرحه على المراد ويجعله خالصاً لوجهه تعالى، هو وسائر مؤلفاتنا وينفعنا بها دنيا وأخرى.

وهذا الحديث أي حديث المتن كما أخرجه الشيخان، أخرجه النسائي في الطهارة من سننه (وأما راوي الحديث هنا) فهو عائشة رضي الله تعالى عنها، وقد تقدمت ترجمتها في حرف الهاء عند حديث: هو لها صدقة ولنا هدية. وتقدمت الإحالة عليه مراراً. وبالله تعالى التوفيق. وهو الهادي إلى سواء الطريق.

❊❊أخرجه البخاري في كتاب الطهارة مختصراً في باب بول الصبيان، وفي كتاب الدعوات في باب الدعاء للصبيان بالبركة ومسح رؤوسهم، ومسلم في كتاب الطهارة في باب حكم بول الطفل الرضيع وكيفية غسله، وفي كتاب الآداب في باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه». انتهى من زاد المسلم[١].

سرد أدلة التوسل ببركة الأماكن والبقاع:

وإليك أخي القارئ بعد هذه التقدمة الكريمة سرد أدلة التوسل ببركة الأماكن والبقاع ونحوها كما وعدناك آنفاً:

---

(١) زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم (٥ / ٣-١٤).

أولاً : الدليل من الكتاب :

قال الله تعالى : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[1]، قال الإمام المفسر الآلوسي رحمه الله : و(هنا) ظرف مكان، واللام للبعد، والكاف للخطاب أي في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب، وهي ظرف ملازم للظرفية وقد تجر بمن وإلى، وجوز أن يراد بها الزمان مجازاً فإن (هنا) و(ثم) و(حيث) كثيراً ما تستعار له وهي متعلقة ـ بدعا ـ وتقديم الظرف للإيذان بأنه أقبل على الدعاء من غير تأخير، وقال الزجاج : « إن (هنا) هنا مستعارة للجهة والحال ـ أي من تلك الحال دعا زكريا ـ كما تقول : من ههنا قلت كذا، ومن هنالك قلت كذا، أي من ذلك الوجه وتلك الجهة[2] .

قلت : وبناء على ذلك تتضح إشارة الحق سبحانه وتعالى لعباده بقداسة المكان والزمان بإجابة الدعاء، فهما إذاً قربة ووسيلة لنيل المراد واستدرار الثواب ذلك المحراب الذي أحيي بالأنوار القدسية المنسكبة من رحمة الله على قلب مريم فاستمدت تلك البقعة قداسة فصارت مقدسة جديرة بأن تكون وسيلةً لإجابة الدعاء، وهذا الأمر ليس بمستغرب فإن الحق سبحانه وتعالى أمر بأن يتخذ مقام إبراهيم مصلىً

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٣٨) .

(٢) تفسير روح المعاني للآلوسي ٣ / ١٤٤ .

بقوله سبحانه: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[1]. وقال سبحانه أيضاً: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾[2].

وقد ذكرنا الحديث عن الكعبة بأنها وسيلة لصحة الصلاة مما يغني عن الإعادة هنا وكذلك اختيار الوقوف بعرفة، والحج عرفة كما ثبت في الصحيح وقد ثبت فضل مكة والمدينة بأن الصلاة في مكة بمئة ألف صلاة وفي المدينة بألف صلاة وفي المسجد الأقصى بخمسمائة صلاة وقد جاء النص القرآني بفضل الأقصى وبركة ما حوله بقوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[3].

وورد عنه صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم: «اللَّهُمَّ اجعل بالمدينة ضعفي ما بمكة من البركة»[4].

وورد أيضاً: «من أراد أن يتخذ في المدينة غيضة فليتخذ فمن توفي في المدينة كنت له شافعاً وشهيداً يوم القيامة».

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٢٥).

(٢) سورة آل عمران، الآية (٩٦).

(٣) سورة الإسراء، الآية (١).

(٤) أخرجه البخاري ٢/٦٦ برقم ١٨٨٥، ومسلم ٢/٩٩٤ برقم ١٣٦٩، والطبراني في المعجم الأوسط ٦/٣٢، وأحمد في المسند ٣/١٤٢ رقم ١٢٤٧٥، وأبو يعلى ٦/٢٧٣.

وورد عنه صَلَّى الله عليــه وآله وسَلَّم عن تفــضــيل وادي وج بالطائف فقال: إن آخر وطأة وطأها رب العالمين بوج[1].

وكـذلك الوادي الأيمن الذي كلم الله فيه موسى تكليماً فقال سبحانه: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى**﴾[2].

وقال أيضًا: ﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾[3].

وقال أيضاً: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[4].

فقد جمع الله كليمه المبارك بالبقعة المباركة عند الشجرة المباركة بالوادي المبارك حتى يسمع موسى خطاب ربه فقد هيأ الحق الزمان والإنسان والمكان وأسبغ عليهم بعظيم المكانة والقداسة في استقبال شرف المنزلة من شهود سماع كلام رب العزة والجلال لعبده موسى عليه السلام فلم يحصل التنزل قبل التكمل من المخلوقات بالتواضع

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤ / ١٧٢) والطبراني في المعجم الكبير (٢٢ / ٢٧٥) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٤٦١).

(٢) سورة النازعات، الآية (١٥-١٦).

(٣) سورة القصص، الآية (٣٠).

(٤) سورة النمل، الآية (٨).

والتذلل لله وحده،لما للتكمل من قوة التحمل والتبجل وهي فطرة الله في كمال المنازلة وعظيم المواصلة فلا يطيب الثمر إلا بطيب الأثر قال تعالى: ﴿ **بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ** ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ** ﴾[2].

فهذا مما يؤكد شرف الذات وأنها أصل لشريف الصفات ومن قصر التوسل على الدعاء فقد نازع شرع الله وخالف فطرة الله وناقض كتاب الله وهدي رسول الله، وكما أكدنا في أكثر من موطن في كتابنا هذا على ضرورة شرف المبنى لشرف المعنى وقصر الناس على المعاني دون المباني وكذلك قصر الناس على المباني مجردة عن المعاني.

فها هو المصحف مكون من أوراق وأحرف، ولم تكن للأوراق ولا للأحرف قداسة إلا بعد أن ألفت الأحرف تلك الكلمات التي حملت كلام الحق سبحانه وتعالى، ثم رقمت على الأوراق،

---

(١) سورة سبأ، الآية (١٥).

(٢) سورة إبراهيم، الآية (٢٤-٢٦).

فاكتسبت هذه الأوراق أو ما نقشت عليه هذه الكلمات قداسة كلمات الله سبحانه وتعالى، فالأوراق والأحرف والكلمات ذوات جامدة ما كان لها شرف ولا فضل لولا ما حملته من كلام الحق سبحانه وتعالى، فاقتضى أن يسميه المولى سبحانه بالكتاب المكنون في قوله سبحانه: ﴿**فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ**﴾[1] فإذا كان ذلك في الجوامد غير الناطقة، فكيف بالجسد الإنسي المكرم ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾[2] كيف به حين يحمل الهداية والقرآن الكريم، ألا ينتفع ويشرف بما حمل وهو المكرم كما انتفعت الجوامد بما حوت، وحملت؟!! هل ينكر ذلك من له مسكة عقل؟!.

ومن هنا يعلم أن ذات المؤمن مقدسة يجوز التوسل بها، ومن باب أولى جسد النبي المصطفى صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم لما ناله من كريم المواصلة وشريف المنازلة وصلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

الدليل الثاني: قال الله تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ**﴾[3].

فهذه الآية تحمل شرف المكان والزمان والعنصر فالله سبحانه أنزل الماء على الأرض الطيبة فعنصر الماء طيب مبارك والبقعة التي هطل

---

(١) سورة الواقعة، الآيات (٧٨-٧٩).

(٢) سورة الإسراء، الآية (٧٠).

(٣) سورة ق، الآية (٩).

عليها الغيث طيبة مباركة وأوضح الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية تضمين إحيائه للأرض في المطر الذي هو سبب جليّ في إحياء الأرض تلك فطرة الله سبحانه فيما خلق ذلك ما يقتضيه عالم الشهادة فببركة الماء المبارك على الأرض الطيبة المباركة التي اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج مناط ذلك السبب فسبحان ربي في التقدير والتدبير يفعل ما يشاء وهو الحكيم الخبير.

ثانياً: الدليل من السنة:

فقد طفحت السنة بالأدلة على مشروعية التبرك بالأماكن والبقاع المباركة وآثار الأنبياء والصالحين ونحو ذلك، فنذكر منها:

الدليل الأول: قوله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**»[1].

والبقعة التي فيها رسول الله أفضل بقعة في الوجود فقد ذكر ابن قيم الجوزية في كتاب بدائع الفوائد ما نصه: «قال ابن عقيل الحنبلي: سألني سائل أيما أفضل حجرة النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم أم الكعبة؟ فقلت: إن أردت مجرد الحجرة فالكعبة أفضل، وإن

(١) أخرجه البخاري ١/ ٣٩٩ في باب فضل ما بين القبر والمنبر رقم ١١٣٧، وفي رقم ١١٣٨، من رواية أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ومنبري على حوضي»، وأخرجه مسلم (٢/ ١٠١٠) في باب ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة رقم (١٣٩٠).

أردت وهو فيها فلا والله ولا العرش وحملته ولا جنة عدن ولا الأفلاك الدائرة، لأن بالحجرة جسداً لو وزن بالكونين لرجح»[1].

ويدعمه ما ورد في السنة من أن حرمة المؤمن أعظم عند الله من الكعبة، فكيف برسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم؟.

الدليل الثاني: عن عتبان بن مالك وهو من أصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم ممن شهد بدراً من الأنصار أنه أتى رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم فقال: يا رسول الله قد أنكرت بصري وأنا أصلي لقومي فإذا كانت الأمطار سال الوادي الذي بيني وبينهم لم أستطع أن آتي مسجدهم فأصلي بهم، **وودت يا رسول الله أنك تأتيني فتصلي في بيتي فأتخذه مصلى، قال: فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم: سأفعل إن شاء الله**، قال عتبان: فغدا رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم وأبو بكر حين ارتفع النهار فاستأذن رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم فأذنت له فلم يجلس حتى دخل البيت ثم قال: أين تحب أن أصلي من بيتك؟ قال: فأشرت له إلى ناحية من البيت فقام رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم فكبر فقمنا فصففنا فصلى ركعتين ثم سلم قال: وحبسناه على خزيرة صنعناها له قال: فثاب في البيت رجال من أهل الدار

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (٣/ ٦٥٥).

ذوو عدد فاجتمعوا فقال قائل منهم: أين مالك بن الدخيشن أو ابن الدخشن؟ فقال بعضهم: ذلك منافق لا يحب الله ورسوله، فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم: لا تقل ذلك ألا تراه قد قال: لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله؟ قال: الله ورسوله أعلم قال: فإنا نرى وجهه ونصيحته إلى المنافقين، قال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم: فإن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله؟ قال ابن شهاب: ثم سألت الحصين بن محمد الأنصاري وهو أحد بني سالم وهو من سراتهم عن حديث محمود بن الربيع فصدقه بذلك[١].

الدليل الثالث: عن عبدالله بن عمير السدوسي أنه جاء بإداوة من عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد **غسل النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم وجهه ومضمض فيه وبزق في الماء ثم غسل يديه ثم ملأ الإداوة وقال: لا تردن ماء إلا ملأت الإداوة على ما بقي فيها، فإن أتيت بلادك فرش به تلك البقعة واتخذه مسجداً قال: فاتخذوه مسجداً قال عمر: وقد صليت أنا فيه**[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٦٤) رقم (٤٢٥)، ومسلم (١/ ٤٥٥) رقم (٣٣).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٢/ ٥٧٠) برقم (١٩٧٨)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ١٢)، وقال: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وعمر بن شقيق ذكره هو وأبوه ابن أبي حاتم، ولم يذكر فيهما جرحاً ولا غيره».

الدليل الرابع: صلاة رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم في الموضع الذي ولد فيه عيسى: «عن أنس بن مالك أن رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم قال: أتيت بدابة فوق الحمار ودون البغل خطوها عند منتهى طرفها فركبت ومعي جبريل عليه السلام فسرت فقال: انزل فصل ففعلت فقال: **أتدري أين صليت؟ صليت بطيبة وإليها المهاجر ثم قال: انزل فصل فصليت فقال: أتدري أين صليت؟ صليت بطور سيناء حيث كلم الله عز وجل موسى عليه السلام ... ثم قال: انزل فصل فنزلت فصليت فقال: أتدري أين صليت؟ صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى عليه السلام**، ثم دخلت بيت المقدس فجمع لي الأنبياء عليهم السلام فقدمني جبريل حتى أممتهم ثم صعد بي إلى السماء الدنيا... الحديث[1].

الدليل الخامس: تبرك أم سلمة بشعر رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم واستشفاء الناس به توسلاً واستشفاعاً واستغاثة.

حدثنا إسرائيل، عن عُثمان بن عبدالله بن موهب قال: أرسلني أهلي إلى أم سلمة بقدح من ماء ـ وقبض إسرائيل ثلاث أصابع ـ من فضة، **فيه شعر من شعر النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم**، وكان **إذا أصاب الإنسان عين أو شيء بعث إليها مخضبة، فاطلعت في الجُلْجل، فرأيت شعرات حُمْراً**[2].

---

(١) رواه النسائي (١/٢٢١-٢٢٣)، والطبراني في مسند الشاميين (١/١٩٤- ١٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥/٢٢١٠) رقم (٥٥٥٧).

وهذا الحديث الصحيح **من أقوى الدلائل في إثبات التوسل والاستغاثة والتشفع بطلب الشفاء بأثر رسول الله في الحياة وبعد الممات وفي كل زمان ومكان** مما يدل أن هذا الأمر انغرس في الصحابة رجالاً ونساءً.

الدليل السادس: عن محمد بن عبدالملك بن أبي محذورة عن أبيه عن جده قال: قلت: يا رسول الله علمني سنة الأذان قال: **فمسح مقدم رأسي** وقال: تقول: الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر ترفع بها صوتك ثم تقول: أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله تخفض بها صوتك ثم ترفع صوتك بالشهادة أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمد رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله حي على الصلاة حي على الصلاة حي على الفلاح حي على الفلاح فإن كان صلاة الصبح قلت: الصلاة خير من النوم الصلاة خير من النوم الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله(١).

زاد أبو داود في الرواية التي تليها: «قال: فكان أبو محذورة لا يجز ناصيته ولا يفرقها، لأن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم مسح عليها»(٢).

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الصلاة - باب كيف الأذان (١/ ١٣٦) حديث رقم (٥٠٠).

(٢) المصدر السابق (١/ ١٣٦) حديث رقم (٥٠١).

يدل هذا الحديث الشريف على تشريع النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم التبرك بالذوات لأن أبا محذورة حين سأله أن يعلمه ألفاظ الأذان وضع النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم يده الشريفة على مقدم رأس أبي محذورة، ولم يطلب ابن أبي محذورة من النبي ذلك، وهي إشارة من النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم إلى أهمية التقرب بالذوات الصالحة، لذا وضع صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم يده الشريفة على جبهة أبي محذورة، أي: على ناصيته، فما كان من أبي محذورة إلا أن حافظ على ذلك طوال عمره فكان لا يجز ناصيته ولا يفرقها لأن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم مسح عليها ثم علمه النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم الأذان وما ذلك إلا لثقة النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم بأهمية سريان البركة من يده المباركة إلى قلب أبي محذورة وعقله ولسانه فيستمد من تلك اللمسة المباركة نور الأذان وحقيقته، فأسس صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم علمه على قرار مبارك، وأوثقه عبداً مباركاً حقيقاً بتلك الأمانة وجديراً بتلك المكانة، بدليل صيانة أبي محذورة وحفاظه على أثر النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم طوال حياته فلم يجز ناصيته ولم يفرقها.

وفيه دلالة للسادة الصوفية من تلقين المريد الذكر، وقد أفردت رسالة في ذلك.

الدليل السابع: استعمال فضل وضوء الناس: روى الطبراني في المعجم الأوسط عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: «وكان النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم يبعث إلى المطاهر، فيؤتى بالماء فيشربه، **يرجو بركة أيدي المسلمين**»[1].

وقد ثبت تبرك الصحابة بعضهم ببعض بآثار عديدة سنفردها بمؤلف خاص، ولكن نذكر شاهدين لذلك:

أحدهما: حديث جرير في صحيح البخاري: باب استعمال فضل وضوء الناس قال الحافظ: قوله: (وأمر جرير بن عبدالله) هذا الأثر وصله ابن أبي شيبة والدارقطني وغيرهما من طريق قيس بن أبي حازم عنه، وفي بعض طرقه «كان جرير يستاك ويغمس رأس سواكه في الماء ثم يقول لأهله: توضؤوا بفضله، لا يرى به بأساً» وهذه الرواية مبينة للمراد، وظن ابن التين وغيره أن المراد بفضل سواكه الماء الذي ينتقع فيه العود من الأراك وغيره ليلين فقالوا: يحمل على أنه لم يغير الماء، وإنما أراد البخاري أن صنيعه ذلك لا يغير الماء، وكذا مجرد الاستعمال لا يغير الماء فلا يمتنع التطهر به[2].

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (١/٢٤٣)، وأبو نعيم في الحلية (٨/٢٠٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٣١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٢١٤): أخرجه الطبراني في الأوسط ورجاله موثقون، وعبد العزيز بن أبي داود ثقة.

(٢) فتح الباري (١/٢٩٥).

والثاني: حديث تبيين بركة يد حنظلة بن حذيم رضي الله عنه بدعاء النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم فيه بالبركة:

خرّج البيهقي من حديث أبي القاسم البغوي، قال: حدثنا هارون بن عبدالله أبو موسى حدثنا محمد بن سهل بن مروان، حدثنا الذيال بن عسكر بن حنظلة بن حذيم بن حنيفة قال: سمعت جدي حنظلة يحدث أبي وأعمامه أن حنيفة جمع بنيه.

فذكر الحديث في وصيته، وقدموه على النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم ومعه حذيم وحنظلة، وفي آخره قال: بأبي أنت وأمي، أنا رجل ذو بنين هذا ابني حنظلة، فسمّت عليه.

فقال النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم: يا غلام وأخذ بيده، فمسح رأسه، وقال له: بورك فيك، أو قال: بارك الله فيك، ورأيت حنظلة يوماً بالشاة الوارم ضرعها، والبعير والإنسان به الورم، فيتفل في يده ويمسح بصلعته، ويقول: **بسم الله على أثر يد رسول الله، فيمسحه فيذهب عنه**[1].

وخرَّج من طريق البخاري في التاريخ الكبير[2] قال: حنظلة ابن حذيم، قال يعقوب بن إسحاق: حنظلة بن حنيفة بن حذيم، قال: قال حذيم: يا رسول الله إني رجل ذو بنين، وهذا أصغر بني، فسمت

(١) دلائل البيهقي (٦/٢١٣-٢١).

(٢) التاريخ الكبير (٢/١/٣٧).

عليه. قال: فقال: يا غلام فأخذ بيده ومسح برأسه، وقال: بارك الله فيك أو بورك فيك، فرأيت حنظلة يؤتى بالإنسان الوارم، فيمسح بيده ويقول: بسم الله، فيذهب الورم.

وخرَّجه الإمام أحمد في المسند[1] من حديث أبي سعيد مولى بني هاشم، حدثنا ذيال ابن عتيك فذكره بطوله إلى أن قال: فدنا أبي إلى النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، فقال: إن لي بنين ذوي لحى، ودون ذلك، وإن ذا أصغرهم فادع الله له، فمسح رأسه، وقال: بارك الله فيك أو بورك فيك. قال ذيال: فلقد رأيت حنظلة يؤتى بالإنسان الوارم وجهه أو بالبهيمة الوارمة الضرع، فيتفل على يده، ويقول: بسم الله ويضع يده ويقول على موضع كف رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم فيمسحه عليه، فيذهب الورم.

وقال أبو عمر بن عبدالبر في الاستيعاب[2]: حنظلة بن حذيم ابن حنيفة أبو عتيبة الحنفي من بني حنيفة، ويقال: حنظلة بن حنيفة بن حذيم التميمي السعدي. هكذا قال العقيلي.

وقال البخاري في التاريخ الكبير[3]: حنظلة بن حذيم، ولم ينسبه، قال: وقال يعقوب بن إسحاق: عن حنظلة بن حنيفة بن

---

(١) المسند (٦/ ٦٢، برقم ٢٠١٤٢) ورواه الطبراني في الكبير (٤/ ١٣) والأوسط (٣/ ١٩١) برقم (٢٨٩٦)، وابن قانع في معجم الصحابة (١/ ٢٠٣).

(٢) الاستيعاب (٢/ ٣٨٢).

(٣) التاريخ الكبير (٢/ ١/ ٧٣).

حـذيم، قـال: قـال حـذيم: يا رسـول الله إن حنظلة أصـغـر بني . . . الحديث، هكذا ذكره البخاري ولم يجوده.

الدليل الثامن: عن محـمـد بن عـمـران الأنصاري، عن أبيـه أنه قال: عَـدَل إليَّ عبدُ الله بنُ عُـمَـرَ، وأنَا نَازِلٌ تحتَ سَرْحَةٍ بطريقِ مَكَّةَ، فَقَـالَ: ما أَنزلَكَ تحتَ هذهِ السَّرْحَةِ[1]، فقلتُ: أَرَدْتُ ظِلَّها، فَقَالَ: هَلْ غيرُ ذلكَ؟ فقلتُ: لا، مَا أَنْزَلَني إلا ذلكَ، فَقَالَ عبدُ الله بنُ عُمَرَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**إِذَا كُنْتَ بينَ الأَخْشَبَين[2] مِنْ مِنى، ونَفخَ بيدِهِ نَحْوَ المَشرِقِ، فَإنَّ هُنَاكَ وادِياً يُقالُ لهُ السُّرَرُ[3] بهِ شَجَرَةٌ سُرَّ تَحتَهَا[4] سَبعُونَ نَبياً**»[5].

---

(١) السَّرْحة: بفتح السين وسكون الراء وبالحاء المهملة: الشجرة العظيمة التي لها شعب .

(٢) الأخْشَبين: جبلا مكة المطيفان بها، قال ابن الأثير: وهما أبو قبيس والأحمر وهو جبل مشرف وجهه على قعيقعان .

(٣) السُّرَر: بضم السين المهملة وفتح الراء، وادي على أربعة أميال من مكة عن يمين الجبل .

(٤) سُرَّ تحتها: فيه قولان :أحدهما أنهم بشروا تحتها بما سرهم واحداً بعد واحد أو مجتمعين أو نبئوا تحتها فسروا من السُّرور، والقول الآخر أنها قطعت تحتها سررهم يعني ولدوا تحتها، قال مالك: سُر يعني قطعت سررهم حين ولدوا (انظر موطأ مالك رواية ابن القاسم وتلخيص القابسي ص ١٥٢)، وهذا القول انتهى إليه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه غريب الحديث ٤ / ٢٥٧، ومعمر كما في المصنف (١١ / ٤٥١)، وجل أهل العلم، وهو الحق الذي يصار إليه .

(٥) أخرجه مالك في الموطأ (١ / ٤٢٣)، وأحمد في المسند (١٠ / ٣٥٥)، والنسائي في المجتبى (٥/ ٢٤٨) والكبرى (٣٩٨٦)، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ١٣٧) والبيهقي في السنن (٥/ ١٣٩)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٣٦)، والفاكهي في أخبار مكة (٤/ ٣١) كلهم من طريق محمد بن عمران الأنصاري عن أبيه عن ابن عمر. =

قال الحافظ ابن عبد البر في التمهيد (١٣ / ٦٧): «**وفي هذا الحديث دليل على التبرك بمواضع الأنبياء والصالحين ومقاماتهم**

= ومحمد بن عمران الأنصاري قال ابن حجر عنه في التقريب (٦١٩٨): مجهول من السادسة، وفي تهذيب التهذيب (٣ / ٦٠٠) قال: ذكره البخاري فلم يذكر فيه جرحاً، أما الذهبي فقال عنه في الميزان (٣ / ٦٧٢): لا يدرى من هو ولا أبوه، وفي الكاشف (٣ / ٧٦) قال: محمد بن عمران الأنصاري عن أبيه وعنه محمد بن عمرو بن حلحلة، وثق، وذكره ابن حبان في الثقات: (٧ / ٤١١)،وترجمه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٨ / ٤٠)، والبخاري في التاريخ الكبير (١ / ٢٠٢) فلم يذكروا فيه جرحاً، فمن كان كذلك، فهو ممن يصحح أو يحسن حديثه الحفاظ كابن دقيق العيد، والمنذري، والهيثمي وغيرهم، وعند محب الدين الطبري وابن سعد ثقة،كيف وقد أخرج له ابن حبان في صحيحه حديثه هذا (الإحسان ١٤ رقم ٦٢٤٣).

أما والد محمد بن عمران الأنصاري، قال ابن حجر في التقريب (٥١٧٦): مقبول من الرابعة، وفي تهذيب التهذيب (٣ / ٣٢٤) قال: روى عن ابن عمر في فضل وادي السُّرر، روى عنه محمد ابنه، أخرج له النسائي هذا الحديث الواحد، قال مسلمة بن القاسم: لا بأس به، وقال عنه الذهبي في الميزان (٣ / ٢٤٥): لا يدرى من هو تفرد عنه ابنه وحديثه في الموطأ وهو منكر، وفي الكاشف (٢/ ٣٠٢):سكت عنه ولم يجرحه بشيء، وذكره المزي في تهذيب الكمال (٢٢/ ٣٦٥) فقال أنه روى له النسائي حديثاً واحداً وقد وقع لنا عنه عالياً جداً ثم ساق الحديث. . . .

قال ابن عبد البر في التمهيد (١٣ / ٦٤): «لا أعرف محمد بن عمران هذا إلا بهذا الحديث، وإن لم يكن أبوه عمران بن حبان الأنصاري، أو عمران بن سوادة، فلا أدري من هو؟ وحديثه هذا مدني، وحسبك بذكر مالك له في كتابه». ثم وجدت ابن حبان قد ذكره في الثقات (٥ / ٢٢٤) ضمن ثقات التابعين ممن روى عن الصحابة فقال: «عمران بن عبدالله الأنصاري، يروي عن ابن عمر، روى عنه ابنه محمد بن عمران». ولم يذكر المزي ولا ابن حجر ذكر ابن حبان له في الثقات، فإذا انضاف هذا إلى توثيق مسلمة وإخراج مالك والنسائي وابن حبان له، فالرجل ثقة بلا ريب .

ومن طريق آخر أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٠ / ٨٧)، والفاكهي في أخبار مكة (٤ / ٣٢)، وابن عدي في الكامل (٤ / ١٣٠) عن عبدالله بن ذكوان عن ابن عمر =

ومساكنهم، وإلى هذا قصد عبدالله بن عمر بحديثه هذا، والله أعلم . وليس في هذا الحديث حكم من الأحكام»، وذكره أيضاً في

= قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد سُرَّ في ظلِّ سَرْحَةٍ سبعونَ نبياً لا تُسْرَفُ، ولا تُجَرَّدُ، ولا تُعْبَلُ » . رجاله ثقات، و عبدالله بن ذكوان هو المعروف بأبي الزناد قال ابن أبي حاتم في المراسيل (١١١): أبو الزناد لم ير ابن عمر بينهما عبيد بن حنين، وقال مرة: لم يدرك ابن عمر . أما ابن حجر فقد ذكر في تهذيب التهذيب (٢ / ٣٢٩) أنه روى عن ابن عمر، وفي لسان الميزان (٤ / ١٢) قال: فقد ذكر خليفة بن خياط وغيره أنه لقي ابن عمر رضي الله عنهما . وعلى فرض أنه لم يلق عبدالله بن عمر فإن الواسطة التي ذكرها ابن أبي حاتم في المراسيل، هي (عبيد بن حنين) وهو مدني ثقة من الثالثة مات سنة (١٠٥) وله خمس وسبعون سنة، روى له الجميع كما في التقريب، فالانقطاع الظاهر لا يضر، والسند متصل بالثقات، ورواه ابن معين - موقوفاً على ابن عمر - في التاريخ برواية الدوري (١ / ٣٣٠ رقم ٣٦٥٩) قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي الزناد، عن ابن عمر قال: «لقد سُرَّ ظلَّ سرحة سبعون نبياً، ولم تُعبل، ولم تُجرد، ولم تسرح» . وانظره أيضاً في جزء المروزي عن ابن معين (ورقة ١٥٤ب)، وفي غريب الحديث لأبي عبيد الهروي (٤/ ٢٥٧) .

وأخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٤ / ٣٤)، من طريق ابن عجلان عن زيد بن أسلم عن رجل عن ابن عمر نحوه ولم يرفعه، وعبدالرزاق في مصنفه (١١ / ٤٥٠) عن معمر عن زيد بن أسلم قال: « كان رجل من الأنصار مستظلاً تحت سرحة، فمرَّ عمر رضي الله عنه، فسلم عليه وقال: أتدري لما يستحب ظل السُرُح؟ قال: نعم، قال: لِمَ؟ قال: لأنه بارد ظلها ولا شوك فيها، قال: ولغير ذلك! أرأيت إذا كنت بين المأزمين [المأزمين: هو موضع بمكة بين المشعر الحرام وعرفة وهو شعب بين جبلين يفضي آخره إلى بطن عُرنة وهو إلى ما أقبل على الصخرات التي يكون بها موقف الإمام إلى طريق يفضي إلى حصن وحائط بني عامر ثم عرفة وبه المسجد الذي يجمع فيه الإمام بين الصلاتين الظهر والعصر، وهو حائط نخيل وبه عين تنسب إلى عبد الله بن عامر بن كريز (معجم البلدان ٥ / ٤٠)] دون منى، فإن من هنالك إلى مطلع الشمس مكان السرر- أو قال: مسجد السُرر- سُرّ فيه سبعون نبياً، فاستظل نبي منهم تحت سرحة، دعا فاستجاب له، ودعا لها فكفى كما رأيت، لا يعتل كما يعتل السحر» .

قلت: أما الطريق الأول فقد تقدم ذكر توثيق محمد بن عمران الأنصاري، وأبيه بما يكفي،ورواة هذا الطريق أخرج لهم ابن حبان والنسائي ومالك، لذا قال أحمد شاكر في =

كتابه الاستذكار (١٣ / ٣٥٥)، وقال الإمام أبو الوليد الباجي في المنتقى شرح الموطأ (٣ / ٨٠-٨١) في شرح هذا الحديث : « وإنما

= تخريج هذا الحديث (٥ / ٨٢) (٦٢٣٣) : إسناده صحيح، ثم قال عقبه : إن مالكاً أعلم الناس بالأنصار وبرواة الحديث من أهل المدينة، وهو يتحرى الرجال والأحاديث، ثم عمران الأنصاري هذا تابعي عرف اسمه وشخصه، فهو على الثقة والستر، وإن جهل نسبه واسم أبيه .اهـ. وقد تقدم ذكر اسمه ونسبه عند ابن حبان في الثقات .

ولعل الشيخ أحمد شاكر استنبط هذا من قول ابن عبد البر في تخريج هذا الحديث من قوله : وحسبك بذكر مالك له في كتابه، حيث أن هذه العبارة إشارة واضحة على التوثيق،وأيضاً الإمام النسائي كما هو معلوم لا يخرج عن راوي متفق على تركه، وبهذا يكون الحديث صحيحاً .

أما الطريق الثاني فقد ضعفه من نقل قول ابن أبي حاتم في شأن عبدالله بن ذكوان المعروف بأبي الزناد من أنه لم يدرك ابن عمر فقد حقق الأمر فيه أمير المؤمنين في الحديث ابن حجر العسقلاني وأثبت رحمه الله كما في تهذيب التهذيب أنه روى عن ابن عمر، ونقل في لسان الميزان عن خليفة بن خياط وغيره أنه لقي ابن عمر،وعلى فرض أنه يروي بواسطة عبيد بن حنين كما ذكر ابن أبي حاتم، فهو مدني ثقة كما تقدم، فأنتفت النكارة وزال الانقطاع وبذا يكون الحديث صحيحاً .

وأما الطريق الثالث فنقول : أن ابن عجلان تابع معمر في زيد بن أسلم، ومعمر أوثق من ابن عجلان، فروايته أصح من رواية ابن عجلان، وقوله أثبت من قوله، فالصواب كان رجل، وليس عن رجل، وبهذا ينتفي الإشكال في رواية ابن عجلان، فليس ثمة إبهام، فيكون بذلك الحديث صحيحاً، ولوسلمنا جدلاً بقاء رواية ابن عجلان فإن الإبهام منفك بالروايتين المتقدمتين، فقد أوضحنا ذلك الرجل المبهم الأنصاري والذي هو (أبو عمران الأنصاري) فتكون الرواية صحيحة بالشاهدين المتقدمين، وبذا قد تحصل لنا أن الحديث في وادي السُّرر حديث صحيح أثبت من الجبال الرواسي لا يماري فيه إلا جاهل أو مكابر، وقد أبانت لنا رواية عبدالرزاق لطيفة أخرى كما نصت عليها الرواية من أن البقاع المباركة بقاع يستجاب فيها الدعاء .

وبعد بيان صحة الطرق الثلاثة لهذه الرواية اندحر زعم شعيب الأرنؤوط حول هذا الحديث من وسمه بالضعف في تعليقه على الإحسان (١٤ / ١٣٧)، ومسند أحمد (١٠ / ٣٥)، وسبقه إلى تضعيف هذا الحديث الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٧٨٢)، =

عَدَلَ إليه عبدالله بن عمر لما كان عنده من العلم ليختبر إن كان ذلك أنزله أو أنزله الظِّل، فيعلمه بما عنده في ذلك اغتناماً للأجر وحرصاً

= وفي سلسلته الضعيفة (٦ / رقم ٢٧٠١)، ومع ذلك اضطر فيها أن يقول عن إسناد أبي يعلى: «إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير الحسن بن حماد الكوفي، وهو ثقة، فالإسناد صحيح لولا أن أبا حاتم قال في ابن ذكوان: روى عن ابن عمر ولم يره». وقد تقدم الجواب عن هذه العلة بما يكفي، فيلزمه تصحيح الحديث بلا ريب، ولو سلمنا جدلاً بزعمه هذا فالحديث ورد بثلاث طرق يعضد بعضها بعضاً، فيكون الحديث حسناً لغيره، هذا على أسوء احتمال، أما وقد بان لك ما تقرر من الصحة فيكفيك بها مستنداً، وفي تضعيف شعيب الأرنؤوط لهذا الحديث مكابرة وتجاسر، لأنه يعلم في قرارة نفسه ومن لف لفه أن هذا الحديث أصل وطيد من أصول التبرك بآثار الصالحين، ودليل قوي في احتفاء الحق سبحانه بميلاد المباركين من عباده الصالحين من أنبيائه ورسله عليهم سلام الله أجمعين، وهو تقرير بالابتهاج بميلاد عباد الله الصالحين، ولا يعارض في ذلك إلا جاهل أعماه الله عن سبيل المتقين، فإذا كانت البقاع التي ولد فيها الأنبياء معظمة محترمة كما دل عليه حديث جبريل الذي أخرجه النسائي في سننه (١ / ٢٢١) وغيره عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أتيت بدابة... إلى أن قال: انزل فصلِّ فنزلت فصليت فقال: أتدري أين صليت؟ صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى عليه السلام...» الحديث، فكذلك الحال في وادي السرر والشجرة التي سر تحتها سبعون نبياً فمن باب أولى تعظيم اليوم الذي ولدوا فيه، وقد قضت فطرة الله أن ما طرح الله فيه البركة يكون مباركاً حساً ومعنى، فعرفة مباركة ويومها مبارك، ومن حلَّها تبارك، وقد قال الحق عن رسوله عيسى عليه السلام: ﴿والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا﴾ فهذا يوم عيسى عليه السلام الذي ولد فيه يوم رحمة وسكينة، لأنه يوم محتفاً به وما دام يوم محتفاً به فهو يوم من أيام الله كما قال سبحانه: ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ فالتذكير بيوم الميلاد واجب ألزم به الشارع لأن في الذكر تذكر البشرى، وتذكر البشرى تذكر النعمة لقوله سبحانه: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ لأن في ذكر نعمة الله إيمان وفي نسيانها كفران حيث أن الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين من أسمى المظاهر في شعائر الدين، وقد فطن لهذا الثقات الأثبات المحققون فهذا طريق ابن ذكوان عن ابن عمر الذي يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إذ يقرر فيه صلى الله عليه وآله =

على تعليم العلم، **ولعلَّ ابن عمر قصد مع ذلك التبرك بالوصول إليها، وذكر الله عندها** لما كان عنده من علم فضلها إن كانت السَّرحة معينة عنده أو لظنه أنها تلك لعدم مثلها في تلك الجهة أو لعله رجا أن يكون عند عمران الأنصاري علم بعينها، والله أعلم» ثم قال بعد كلام: «وإنما أعلم بذلك صلى الله عليه وسلم فيما يظهر لي والله أعلم لفضل الذكر عندها لمن مرَّ بها ورجا إجابة الدعاء وتنزل الرحمة عندها». وقال العلامة الزرقاني في شرح الموطأ (٢ / ٥٣٠): «**وفيه التبرك بمواضع النبيين**».

الدليل التاسع: عن عمر رضي الله تعالى عنه يقول سمعت النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم بوادي العقيق يقول: «أتاني الليلة آتٍ من ربي فقال صلِّ في هذا الوادي المبارك وقل عُمْرَةٌ في حَجَّةٍ»[١].

قال ابن أبي جمرة في بهجة النفوس (٢ / ١٥٧): وفيه دليل على أن المقصود منَّا في الأمكنة والأزمنة المباركة التعبد يؤخذ ذلك من قوله: «صلِّ في هذا الوادي المبارك» فمن أجل بركته أمر بالصلاة

= وسلم توقير تلك البقاع المباركة واحترامها، وكما هو نص الرواية (لقد سُرَّ في ظلِّ سَرْحَةٍ سبعونَ نبياً لا تُسْرَفُ، ولا تُجَرَّدُ، ولا تُعْبَلُ)، وبهذه العبارة فقد قرر صلى الله عليه وآله وسلم توقير المواضع المباركة أيما توقير، فلم يأمر صلى الله عليه وآله وسلم بقطع الشجرة بل أمر بإبقائها واحترامها، وقد كان ابن عمر رضي الله عنهما يتتبع الآثار النبوية للتبرك بها، قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١ / ٥٧١): «عُرف من صنيع ابن عمر استحباب تتبع آثار النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتبرك بها». فماذا سيقول هؤلاء القوم عن فعل هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه؟!.

(١) أخرجه البخاري (٢ / ٥٥٦) وابن خزيمة (٤ / ١٦٩) وأبي داود (٢ / ١٥٩) وابن ماجه (٢ / ٩٩١).

فيه كما قال تعالى في الأشهر الحرم: ﴿ **فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ** ﴾[١].

هذا وقد ذكر الحافظ ابن حجر هذه المسألة في الفتح[٢] فقال: «ومحصل ذلك أن ابن عمر كان يتبرك بتلك الأماكن وتشدده في الاتباع مشهور، ولا يعارض ذلك ما ثبت عن أبيه[٣] أنه رأى الناس في سفر يتبادرون إلى مكان فسأل عن ذلك فقالوا: قد صلى فيه النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، فقال: من عرضت له الصلاة فليصل وإلا فليمض، فإنما هلك أهل الكتاب لأنهم تتبعوا آثار أنبيائهم فاتخذوها كنائس وبيعاً، لأن ذلك من عمر محمول على أنه كره زيارتهم لمثل ذلك بغير صلاة أو خشي يشكل ذلك على من لا يعرف حقيقة الأمر فيظنه واجباً، وكلا الأمرين مأمون من ابن عمر»، ثم أشار رحمه الله إلى حديث عتبان وسؤاله النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم أن يصلي في بيته ليتخذه مصلى وإجابة النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم له، وقد تقدم معنا في الدليل الثاني، فقال عنه الحافظ رحمه الله: «**فهو حجة في التبرك بآثار الصالحين**».

قلت: ومن المؤسف أن الشيخ ابن باز علق على كلام ابن حجر هذا بتعليق ليته ما بدر منه[٤]، حيث يفهم من كلامه اتّهام

---

(١) سورة التوبة، الآية (٣٦).

(٢) فتح الباري (١/٥٦٩) كتاب الصلاة باب المساجد على طرق المدينة.

(٣) ذكر العيني في شرحه (٤/٢٦٩) أنها من رواية المعرور بن سويد.

(٤) انظر فتح الباري هامش رقم (١) (١/٥٦٩)، طبعة المكتبة السلفية.

الصحابيِ الجليل عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما– بأنه لا يعرف غوائل الشرك وما هو ذريعة إليه، وأنَّ أباه أعلم بهذا الشأن من ابنه، وذلك لأنه يتتبع آثار النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم في الطرق ونحوها ويتأسى به فيها، وهو يقترف بهذا أمراً غير مشروع، وزعم أنه ربما أفضى ذلك بمن فعله – وابن عمر –رضي الله عنه– كما تقدم قد فعله – إلى الغلو والشرك كما فعل أهل الكتاب!!.

فأقول: عامل الله ابن باز بعدله حينما يتهجم على صحابي جليل كابن عمر فلا أنا ولا هو نساوي قلامة ظفره ولا غبرة نعله عوضاً عن أن ندرك ورع وتقوى وفهم ابن عمر لأنه من فقهاء الصحابة، ومن أعلامهم في الرواية، التقي الزكي الصائم القائم، وقولة ابن باز هذه لم يقلها عالِمٌ قبله، تكاد السماوات يتفطرن منها وتخر الجبال هداً، ولكنه الهوى يسوق إلى العماية والضلال نعوذ بالله من الجراه في دين الله تعالى.

وأحب أن أضع للقارئ الكريم لفتة مهمة في أن فقه أو اجتهاد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أو غيره من الصحابة الكرام، ليس حجة على صحابي آخر وهذه قاعدة في علم الأصول كما هي معلومة في بابها، كما أن ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أجاب عنه الحافظ ابن حجر فيما تقدم بأحسن الأجوبة، فلم يبق – والحمد لله – أي إشكال في هذا الباب.

ثالثاً: الدليل من الأخبار:

١ ـ صلاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الموضع الذي صلى فيه رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم في بيت المقدس، كما رواه أحمد، ومنه قوله رضي الله عنه: «أصلِّي حيث صلَّى رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، فتقدم إلى القبلة فصلَّى ثم جاء فبسط رداءه فكنس الكناسة في ردائه، وكنس الناس»[1].

٢ ـ الاستشفاء من البرص والنصر على الظالم بالصلاة في مصلى صاحب رسول الله سيدي مازن بن غضوبة[2] رضي الله عنه

(١) رواه أحمد في مسنده (١/٣٨) قال ابن كثير في البداية والنهاية (٧/٥٨) بعد أن ذكره بإسناد أحمد: «وهذا إسناد جيد، اختاره الحافظ ضياء الدين المقدسي في كتابه المستخرج». وقال أيضاً في مسند الفاروق (١/١٦٠): «وهذا حديث حسن الإسناد، اختاره الحافظ الضياء في كتابه».

(٢) هو مازن بن الغَضوبة بن عراب، بن بشر، بن خطامة، بن سعد، بن ثعلبة، بن نصر، بن سعد، بن أسود بن نبهان، بن عمرو، بن الغوث، بن طيّ الطائي، ثم النبهاني، ثم الخطامي، أمه زينب بنتُ عبدالله... ذكره ابنُ السَّكن، وغيره في الصحابة، وقال ابنُ حبّان: يقال: إن له صحبة، وأخرج الطبراني، والفاكهي في كتاب مكة والبيهقي في الدلائل، وابن قانع، كلُّهم من طريق هشام بن الكلبي، عن أبيه، قال: حدثني عبدالله العُماني قال: قال = = مازن بن الغضوبة، فذكر حديثاً طويلاً فيه: فكسرت الأصنام، وقدمتُ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأسلمتُ، وفيه: أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا له، فأذهب الله عنه كل ما يَجدُ، قال: وحججت حججاً وحفظتُ شطر القرآن، وحصنتُ أربع حرائر، ووهب لي حبّانُ بن مازن، وفيه: أنه أنشد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

إليك رسولَ الله خبت مطيتي   تجوب الفيافي من عُمان إلى العَرج

لتشفع لي يا خير من وطئ الحصا   فيُغفر لي ذنبي وأرجعُ بالفَلْج

وذكره الرشاطيّ في الخطَميّ، في الخاء المعجمة، وله حديث آخرُ، أخرجه ابن السَّكن، ومحمد بن خَلفَ المعروف بوكيع، في نوادر الأخبار، وابن منده، وأبو نُعَيم، من طريق =

بمدينة سمائل بسلطنة عمان فقد أخرج البيهقي في دلائل

= الحسن بن كثير، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبيه: سمعتُ مازنَ بن الغَضوبة يقول: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: عليكم بالصدق، فإنه يهدي إلى الجنة، قال ابنُ مَنْدَه: غريبٌ لا يُعرف إلا بهذا الإسناد.

وفي هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه قلت هذه الأبيات:

فتاة الحي في الغبرا طروبة ... تناغي البدر نجل أبي غَضوبة
سقاها ودّه فغذت هناء ... كماء راق من صفو العُذُوبة
سمائل تغتذي من بحر فيض ... يهنّأُ من بها ألقى ذَنوبه
وجئتك والأحبة في ردائي ... ببابك حائر يلقي ذنوبه
وحاشى من ترامى في فِنَاكم ... يرى البلوى تشق له جيوبه
لعمري لن أخيب بأرض قومي ... ويعرب حافظٌ إرث العروبه
أمازنُ يا حبيب الصدق إنّي ... أتيتُك والزمان رمى خطوبه
وضاق الذرع واعتكرت شؤوني ... وشأني لم يُردْ إلاّ دروبه
فيا حب الرسول حظيت فضلاً ... وسبقاً في الهداية والعصوبه
وطيرُ جهادكم في نشر شرع ... طلائع سيركُم سبقت سروبه
وعرف شذاكم من طيب طه ... وصدق وفائكم أغرى هبوبه
شممت أريجه بشغاف روحي ... وروحي في مآثره غيوبه
مآرب عزة تحمي حماها ... وتُنبتُ مجدها أرضٌ رؤبه
فأحرزتَ الكرامة من علي ... وعالي المجد همته خطوبه
ومهجته إلى العلياء تسمو ... وتبقى في ترقيها دؤوبه
وإني والأحبة في حماكم ... وروح الصب للزلفى طلوبه
أرحنا بالإجابةِ في دعاكم ... لتصفو الروح من نفس كذُوبه
بُلينا بالنعيم وما شكرنا ... وأنفسنا من البلوى مشوبه
نناجي ربنا في رفع إصرٍ ... وربي منزل فينا العقوبه
وعصرٌ ساءت الأحوال فيه ... وأهلُ الغي قد شبّوا حروبه
وأضحى المسلمون به شتاتاً ... وأحكم دهرهم فيها لغوبه
وغابت شمس أرباب المعاني ... وعاثت في الحمى همم لعوبه

النبوة[1]: قال حدثنا مُوَادُّنا من أهل عمان عن سلفهم أن مازناً لما تنحى عن قومه أتى موضعاً فابتنى مسجداً يتعبد فيه فهو لا يأتيه مظلوم يتعبد فيه ثلاثاً[2] ثم يدعو محقاً على من ظلمه يعني إلا استجيب وفي أصل السماع فيكاد أن يعافى من البرص فالمسجد يدعى مبرصاً إلى اليوم... الخبر.

قلت: وهذا يدل دلالة واضحة على أن الأئمة الأعلام من المحدثين والفقهاء كالبيهقي وغيره يدينون الله على ذلك الاعتقاد الذي تلقيناه كابراً عن كابر كما عرفناه في أسلافنا وقد زرت منطقة سمائل وسألت أهلها ممن يجاور المسجد فأكد لي أهلها أن هذا المسجد قد صح ما قيل فيه وزيادة، فقد شيد القدماء من سلاطين عمان رحمهم الله مشفى لأمراض البرص والجذام يصلون في هذا

وزاد الغي والأخيار ترجو ... من المختار أن توقى كروبه
وأنتم باب أحمد في عُمَان ... ومثلك شأنه في أن ينوبه
ومن يرقى بحب الآل صدقاً ... ينال الفضل في أعلى ذؤوبه
وأنتم ذخرنا إن ضاق أمرٌ ... فبابك ذخر من يرجو المثوبه
ويوم الحشر أنت جوار طه ... فأنعم بالجوار وبالمؤوبه
ويوم الدين رايتكم لوفدي ... إلى الهادي ليملى الكلُّ كُوبَه
صلاة الله والتسليم يُهدى ... لطه من به نفسي طروبه
ويشمل فاطماً وجميعَ آلٍ ... وكلَّ الصحب ثم بني غضوبه

(١) دلائل النبوة (٢/٢٥٨).
(٢) أي ثلاثة أيام.

المسجدُ ثلاثة أيام، وأن المرأة العقيم إذا صلت ركعتين وسألت الله الولد رزقت من الله إياه، فكل هذا برهان قائم على شرف المكان في استجلاب النفع واستدرار الرحمة ليس إلا. وأختم حديثي بقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ﴾[3]. فهي الشجرة المباركة

وقال صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبدالله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية (٧٤).

(٢) سورة التحريم، الآية (٦).

(٣) سورة المؤمنون، الآية (٢٠).

(٤) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٣٩) رقم (٢٩٢٢)، وأحمد (١٥/ ٢٣٣) رقم (٩٣٩٨).

ومحصل الأمر في ذلك أن البركة شملت الإنسان والحيوان والنبات والجماد وكذلك الشقاوة، فكل شيء شقيٌّ أم سعيد وصدق من قال وشبه الشيء منجذب إليه.

* * *

تبرك أم سلمة بشعر رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم واستشفاء الناس به توسلاً واستشفاعاً واستغاثة

حدثنا إسرائيل، عن عُثمان بن عبدالله بن موهب قال: «أرسلني أهلي إلى أم سلمة بقدح من ماء ـ وقبض إسرائيل ثلاث أصابع ـ من فضة، **فيه شعر من شعر النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم**، وكان **إذا أصاب الإنسان عين أو شيء بعث إليها مخضبة**، فاطلعت في الجُلْجل، فرأيت شعرات حُمْراً»[1].

وهذا الحديث الصحيح من أقوى الدلائل في إثبات التوسل والاستغاثة والتشفع بطلب الشفاء بأثر رسول الله في الحياة وبعد الممات وفي كل زمان ومكان مما يدل أن هذا الأمر انغرس في الصحابة رجالاً ونساءً، وتوارثه الخلف عن السلف بلا نكير، وقد سبق تفصيل ذلك، والله تعالى وليُّ الهداية والتوفيق.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٥ / ٢٢١٠) رقم (٥٥٥٧).

التبرك بفضل وضوء الناس

بوب البخاري في صحيحه: (استعمال فضل وضوء الناس): «وأمر جرير بن عبد الله أهله أن يتوضأوا بفضل سواكه»، وبوب ابن حبان دليل البخاري في هذا الباب: «ذكر التبرك بوضوء الصالحين من أهل العلم إذا كانوا متبعين لسنن المصطفى ﷺ دون أهل البدع منهم».

وأخرج البخاري في الباب المتقدم قال: «حدثنا آدم قال: حدثنا شعبة قال: حدثنا الحكم قال: سمعت أبا جحيفة يقول: خرج علينا رسول الله ﷺ بالهاجرة، فأتي بؤضوء فتوضأ فجعل الناس يأخذون من فضل وضوئه فيتمسحون به فصلى النبي ﷺ الظهر ركعتين والعصر ركعتين وبين يديه عنزة».

وقد ذكر صاحب الفتح في شرح هذا الحديث (١ / ٥٧٤): «باب سترة الإمام سترة من خلفه» حديث رقم (٤٩٥)، قال الحافظ: «وفي الحديث من الفوائد، إلتماس البركة مما لامسه الصالحون.

قال الإمام بدر الدين العيني الحنفي راداً على ابن حجر في قوله بعدم موافقة الرواية لترجمة الباب (٣ / ٧٤): «هذا الحديث يطابق ترجمة الباب إذا كان المراد من قوله: يأخذون من فضل وضوئه ما سال من أعضاء النبي ﷺ (عمدة القاري شرح صحيح البخاري).

وقال العلامة البدر العيني في بيان استنباط الأحكام: «الأول: فيه الدلالة الظاهرة على طهارة الماء المستعمل إذا كان المراد أنهم كانوا يأخذون ما سال من أعضائه ﷺ وإن كان المراد أنهم كانوا يأخذون ما فضل من وضوئه ﷺ في الإناء فيكون المراد منه التبرك بذلك، والماء طاهر فازداد طهارة ببركة وضع النبي ﷺ يده المباركة فيه.

الثاني: فيه الدلالة على جواز التبرك بالصالحين (عمدة القاري شرح البخاري ٣ / ٤٥).

قلت: ويفهم من تبويب البخاري وتبويب ابن حبان أن البركة في أمة الإسلام إلى قيام الساعة ويؤيده ذلك قوله ﷺ: «أمتي أمة مرحومة» «الخير فيَّ وَفي أمتي إلى يوم الدين».

ولا يحق بحال قصر البركة على النبي ﷺ دون الصحابة بل سائر أمته من عباد الله الصالحين وقد أطبق علماء الأمة على ذلك قاطبةً وليعلم المعترض أن البركة هي محط نظر الله، ليس إلا، ولا يحق أن يتخرص المعترض مفهوماً على الأمة المرحومة غير هذا حين يتهمها بالشرك ويعتبر التماس البركة داعية إلى الشرك، فلو كان الأمر كذلك لمنع الشارع التماس أركان الكعبة كما في رواية ابن مسعود أو استلام الركنين كما في رواية ابن عمر، ولما قال الحق: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[١]، ولما قال: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾[٢]، ولما

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٢٥).

(٢) سورة آل عمران، الآية (٩٦).

قال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾[1]، ولما قال: ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[2].

فالبركة محط نظر الله سبحانه على ما شاء لمن شاء وقد دعا الحق السائرين إليه التماسها بحسب تقرير شريعته الغراء من استدرار رحمته عندها لأنها أقرب الأبواب لاستجابة الوهاب قال سبحانه: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾[3]، ولا شك أن البركة من فضله الذي يجد به السائر مطلبه ويحقق به بغيته.

* * *

قال الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الهروي في تفسيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٦]: «قال ابن عباس رضي الله عنهما: أراد أن الله يرحم النبي ﷺ، والملائكة يدعون له».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: «يصلون يتبركون».

وورد في الطبراني (٢٥/٤٣)، وتفسير ابن كثير (٦/٤٥٧): «يبركون».

* * *

(١) سورة ق، الآية (٩).

(٢) سورة النمل، الآية (٨).

(٣) سورة النساء، الآية (٣٢).

الفصل الثالث

موقف العلماء من التوسل

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : موقف السلف والخلف من التوسل .

المبحث الثاني : شبهات وردود .

المبحث الأول

موقف السلف والخلف من التوسل

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: في ذكر توسلات وأقسام الصحابة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خلال كتاب فتوح الشام للواقدي.

المطلب الثاني: موقف الأئمة مالك والشافعي وأحمد وغيرهم من التوسل.

المطلب الثالث: موقف جماعة من الأئمة المحدِّثين والفقهاء والأصوليين.

المطلب الأول

في ذكر توسلات وأقسام الصحابة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أثناء معاركهم في نشر الإسلام من خلال كتاب فتوح الشام للواقدي

١- توسل سيدنا ضرار بن الأزور: قال الواقدي رحمه الله (١ / ٦٠) : (... وإذا بصفوف الروم قد خرجت ورجل يقود جنيباً أمامهم، وكان ذلك غلام البطريق، فلما نظر إليه ضرار صاح في جواده، وقال له: اجلد معي ساعة وإلا شكوتك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم...) اهـ.

٢- توسل سيدتنا زوج أبان بن سعيد: قال الواقدي رحمه الله (١ / ٧٤) : (... ونظرت زوج أبان بن سعيد إلى حملة عدو الله على شرحبيل فقالت: من هذا؟ قيل: هو صهر الملك وهو قاتل بعلك أبان بن سعيد. فلما سمعت ذلك منهم حملت حملة منكرة إلى أن قاربته ورمته بنبلة، وكان الروم أرهبوها فلم تلتفت إليهم دون أن حققت نبلتها على صاحبها، وقالت: بسم الله وبركة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ثم أطلقتها...) اهـ.

٣- قسم أبي عبيدة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الواقدي رحمه الله (١ / ٨١) : (... قال فنادى أبو عبيدة

واثكلاه خفرت الله ونقض عهدي وجعل يحرق جواده ويشير إلى العرب مرة يميناً ومرة شمالاً وينادي معاشر المسلمين أقسمت عليكم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن لا تمدوا أيديكم نحو الطريق الذي جئت منه حتى نرى ما نتفق أنا وخالد عليه، فلما دعاهم بذلك سكتوا عن القتل والنهب...) اهـ.

٤- توسل عبد الله بن جعفر بن أبي طالب عليه السلام: قال الواقدي رحمه الله (١/١٠٣): (...وما منهم إلا مكلوم من المشركين فذاق لذلك ذرعه وما نزل في نفسه مثل ما نزل بالمسلمين فالجأ إلى الله تعالى أمره وفوض إلى مسخر السحاب شأنه ورفع يده إلى السماء وقال في دعائه: يا من خلق خلقه وأبلى بعضهم ببعض وجعل ذلك محنة لهم أسألك بجاه محمد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا ما جعلت لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً، ثم عاد إلى القتال وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقاتلون معه تحت رايته...) اهـ.

٥- توسل سيدنا عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما **بقبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبشيبة أبيه**: قال الواقدي رحمه الله (١/١٢٧): (... قال رافع بن عميرة الطائي: فعزم خالد ابن الوليد أن يبرز فمنعه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقال: يا أبا سليمان وحق القبر الذي ضم أعضاء رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم وحق شيبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه لا يبرز لهؤلاء القوم غيري . . .) اهـ.

٦- توسل خالد بن الوليد رضي الله عنه بالقلنسوة: قال الواقدي رحمه الله (١ / ١٣٠) :(. . .وقال: من أنت أيها الفارس الهمام والبطل الضرغام؟ فقالت: أنا زوجتك أم تميم يا أبا سليمان، وقد أتيتك بالقلنسوة المباركة التي تنصر بها على أعدائك فخذها إليك فوالله ما نسيتها إلا لهذا الأمر المقدر، ثم سلمتها إليه فلمع من ذؤابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نورٌ كالبرق الخاطف. قال الواقدي: وعيش عاش فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما وضع خالد القلنسوة على رأسه وحمل على الروم إلا قلب أوائلهم على أواخرهم وحملت المسلمون حملة عظيمة . . .) اهـ.

٧- قسم عامر بن ربيعة بعيشة رسول الله ﷺ: قال الواقدي رحمه الله (١ / ١٣٢) : (. . . ثم حمل الأمير أبو عبيدة وحمل المسلمون قال عامر بن ربيعة: وعيش عاش فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيد المرسلين ما كان بيننا وبينهم إلا جولة الجائل حتى ولوا الأدبار وطلبوا الأسوار . . .) اهـ.

٨- قسم سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه بعيشة رسول الله ﷺ: قال الواقدي رحمه الله (١ / ١٧١) : (. . .رجعوا إلى الأمير

أبي عبيدة وخالد بن الوليد رضي الله عنهم وأعلموهما بمقالة جبلة وأنه ما يريد إلا القتال فقال خالد ابن الوليد رضي الله عنه: أبعده الله تعالى، فوعيش عاش فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيد المرسلين لينظرنَّ منا جبلة ما ينظر...) اهـ.

٩- توسل العباس عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليهما السلام أمام قبر رسول الله ﷺ : قال الواقدي رحمه الله (١ / ١٨٠): (... فقال: عبد الله بن قرط ما ذكرت شيئاً إلا وأنا عارف به من فضل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولكني أردت الزيادة من دعائك ودعاء العباس عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا سيما عند قبر الرسول المعظم المكرم. قال: فرفع العباس رضي الله عنه عندئذٍ يديه وعلي رضي الله عنه كذلك وقال: اللَّهُمَّ إنا نتوسل بهذا النبي المصطفى والرسول المجتبى الذي توسل به آدم فأجبت دعوته، وغفرت خطيئته إلا سهلت على عبد الله طريقه وطويت له البعيد وأيدت أصحاب نبيك بالنصر إنك سميع الدعاء، ثم قال: سر يا عبد الله بن قرط فالله تعالى أكرم من أن يرد دعاء عمر وعباس وعلي والحسن والحسين وأزواج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد توسلوا إليه بأكرم الخلق عليه...) اهـ.

١٠- قسم خالد بن الوليد رضي الله عنه بالمنبر والروضة : قال الواقدي رحمه الله (١ / ١٩٠): (... ووصل خالد وأصحابه إلى

الأمير أبي عبيدة رضي الله عنهم أجمعين وسلموا عليه وفرح المسلمون بخلاص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحدث خالد أبا عبيدة بكل ما جرى لهم ثم قال خالد: وحق المنبر والروضة ما كان ما هانُ ليطلق لنا أصحابنا إلا فزعا من سيوفنا. . .)اهـ.

١١- توسل قيس بن هبيرة رضي الله عنه ببركة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقسم خالد لقيس بالله ورسوله: قال الواقدي رحمه الله (١ / ١٩٤-١٩٥): (. . . قال خالد: أبرز على اسم الله تعالى فإنك كفء والله تعالى يعينك عليه وخرج قيس بن هبيرة وأجرى جواده حتى لين عريكته وكسر حدته ثم سرحه نحو البطريق وهو يقول بسم الله وعلى بركة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. . . وتهرب من هذا العلج فرجع إلى العلج فصاح به خالد يا قيس سألتك بالله ورسوله إلا رجعت وتركت حدتها عليَّ فقال قيس: يا خالد لقد أقسمت عليَّ بعظيمين ولكن إن رجعت إليك أتزيد بأجلي؟ قال: لا . . .) اهـ.

١٢- قسمُ عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بالله ورسوله: قال الواقدي رحمه الله (١ / ١٩٥): (. . . ونظر العلجان إلى صاحبهما مجندلاً فحملا على عبدالرحمن وقصداه

فأراد قيس بن هبيرة أن يعاونه عليهما فقال له عبد الرحمن: سألتك برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبحق أبي بكر إلا تركت عبد الرحمن يصطلي بهما...) اهـ.

١٣- قسمُ خالد بن الوليد على عبد الرحمن رضي الله عنهما بشيبة أبيه وبيعته: قال الواقدي رحمه الله (١/ ١٩٦): (... ثم إن خالداً صاح به يا عبد الرحمن بحق شيبة أبيك وبيعته إلا رجعت إلى مكانك فرجع حين أقسم عليه...) اهـ.

١٤- نيلُ النصر من خالد رضي الله عنه ببركة شعرات النبي صلى الله عليه وآله وسلم: قال الواقدي رحمه الله (١/ ٢٢٠): (... فقال خالد إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما حلق رأسه في حجة الوداع أخذت من شعره شعرات فقال لي ما تصنع بهؤلاء يا خالد؟ فقلت: أتبرك بها يا رسول الله واستعين بها على القتال قتال أعدائي. فقال لي النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لا تزال منصوراً ما دامت معك. فجعلتها في مقدمة قلنسوتي فلم ألق جمعاً قط إلا أنهزموا ببركة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ...) اهـ.

١٥- نصرُ المسلمين على الروم برؤية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وببركته: قال الواقدي رحمه الله (٢/ ١٠): (... قال: اعلم أيها الأمير أن الروم كانوا قد تكاثروا على فرسي فقتلوه

ووقعت فاخذوني أسيراً وجعلوني في الحديد وفعلوا بأصحابي مثلي وقد أيسنا من أنفسنا، فلما جن الليل رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول لا بأس عليك يا دامس اعلم أن منزلتي عند الله عظيمة، ثم إنه أمرَّ يده الكريمة على الحديد فسقط مني وفعل ذلك مع أصحابي وقال لنا: أبشروا بنصر الله فأنا نبيكم محمد رسول الله. وقال لي أقرئ عني ميسرة السلام وقل له جزاك الله خيراً... فأخذنا سيوفهم وطوارقهم وقاتلناهم وحملنا فيهم ونصرنا الله عليهم ببركة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقتلنا منهم من قتلنا وخرجنا من بينهم سالمين وهذا حديثنا قال: فضج المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير) اهـ.

١٦- حديث خالد رضي الله عنه مع قائد الروم عن توسل آدم بالنبي ﷺ: قال الواقدي رحمه الله (٢ / ٨١): (... لما خلق الله العرش كتب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فلما وقع آدم في الزلة رأى على ساق العرش لا إله إلا الله محمد رسول الله فقال: يا رب من هذا؟ قال: ولدك يا آدم الذي لولاه ما خلقتك. قال: يا ربى فبرحمت هذا الولد أرحم هذا الوالد، فقال: يا آدم لو تشفعت إلينا بمحمد في أهل السموات والأرضين لشفعناك. ثم إن الله جعل اسمه مقروناً باسمه وذكره مع ذكره ورسمه بما وسم به نفسه... وقال في

موضع آخر: وكفى بالله شهيداً محمد رسول الله قال: فلما سمع البترك ذلك من خالد فرح وقال: لقد نجا من اتبعه وخسر من فارقه ثم جدد إسلامه على يد خالد ...) اهـ.

١٧- قسمُ ضرارٍ على فرسه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الواقدي رحمه الله (٢ / ٢٤٥): (... وإذا برأس بطارقة أهناس قد أخرج له جواداً مجللاً بالحرير ليركبه فلما نظر ضرار إلى ذلك صاح بجواده اثبت معي هذه الساعة وإلا أشكوك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذرفت عينا الجواد بالدموع وحمحم وجرى أكثر من جريه المعتاد ...) اهـ.

* * *

المطلب الثاني

موقف الأئمة مالك والشافعي وأحمد وغيرهم من التوسل

موقف الإمام مالك

نقل عن الإمام مالك رحمه الله تعالى أنه سأله الخليفة المنصور: إذا زرتُ النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم فهل أتوجه إليه، أم إلى القبلة؟ فأجابه الإمام مالك: **ولمَ تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله تعالى؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله**[1].

* * *

توسل الإمام الشافعي بآل البيت عليهم السلام

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

آل النبي ذريعتي ... وهم إليه وسيلتي

أرجو بهم أعطى غداً ... بيدي اليمين صحيفتي[2]

* * *

---

(١) روى هذه القصة القاضي عياض في الشفا (٢ / ٤٠-٤١)، قال ابن جماعة في هداية السالك إلى المذاهب الأربعة في المناسك (٣ / ١٣٨١): رواه الحافظان ابن بشكوال، ثم القاضي عياض في الشفاء، رحمهما الله تعالى، ولا يلتفت إلى قول من زعم أنه موضوع لهواه الذي أراده. اهـ.

(٢) أخرجه البيهقي في مناقب الشافعي ١ / ٦٨-٦٩. وانظر كتاب إظهار العقوق ص١٧.

توسل الإمام أحمد بن حنبل بالإمام الشافعي رحمهما الله

وقد توسل الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى بالإمام الشافعي عندما دعا الله تعالى، فتعجب منه ابنه عبد الله، فقال الإمام أحمد: إن الشافعي كالشمس للناس وكالعافية للبدن.

وذكر ابن تيمية في «التوسل والوسيلة» في الرد على الأخنائي عن الإمام أحمد بن حنبل: «وسل الله حاجتك متوسلاً إليه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم تقض من الله عز وجل». ونقل ابن تيمية في أوائل كتابه «التوسل والوسيلة» توسل جماعة من السلف بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا نجد خلافاً في ذلك بين العلماء.

ولماذا نذهب بعيداً؟ فابن تيمية نفسه كما ذكرت في الفصل السابق أقر أخيراً ـ وهذا آخر كلامه ـ بصحة التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، نقل عنه ذلك ابن كثير في ترجمته في «البداية والنهاية»[1]، كما نقل الألباني في كتابه: «التوسل أنواعه وأحكامه» عن الإمام أحمد قوله بجواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لما تكلم على حديث الضرير[2].

---

(١) انظر البداية والنهاية (١٤/٤٧).

(٢) انظر التوسل أنواعه وأحكامه (ص٧٦) - طبعة دار المعارف.

فقد سئل ابن تيمية: هل يجوز التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أم لا؟ فأجاب: «الحمد لله، أما التوسل بالإيمان به ومحبته وطاعته والصلاة والسلام عليه وبدعائه وشفاعته ونحو ذلك مما هو من أفعاله وأفعال العباد المأمور بها في حقه، فهو مشروع باتفاق المسلمين»[١].

قلت: وهذا التفصيل تنطع لا موجب له إلا نفيُ التوسل بالذوات وهي تلك الشبهة التي في عقله حيث يساوي بين التوسل بالذوات المشروعة وبين التوسل بالذوات غير المشروعة وهذا خلط فاحش كما تقدم في بابه في هذا السفر فلينظر.

وقال في موضع آخر: «وكذلك مما يشرع التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم في الدعاء كما في الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم علّم شخصاً أن يقول: اللَّهُمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك في حاجتي ليقضيها فشفعه فيّ»[٢].

وقال في موضع آخر[٣]: «وأما التوسل بالنبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم ففيه حديث في السنن رواه النسائي والترمذي وغيرهما: أن

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١/ ١٤٠).

(٢) انظر تخريجه في (ص ٢٠٩) من هذا الكتاب.

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ١٠٥).

أعرابياً أتى النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم فقال: يا رسول الله! إني أصبت في بصري فادع الله لي، فقال له النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم: «توضأ وصل ركعتين ثم قل: اللَّهُمَّ أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد يا محمد إني أتشفع بك في رد بصري، اللَّهُمَّ شفع نبيك فيَّ»، وقال: «فإن كانت لك حاجة فمثل ذلك»، فرد الله بصره»[1].

* * *

(١) انظر تخريجه في (ص٢٠٩) من هذا الكتاب.

المطلب الثالث

موقف جماعة من الأئمة المحدثين والفقهاء والأصوليين

وممن قال بجواز التوسل أيضاً: الإمام فخر الدين الرازي، والعلامة سعد الدين التفتازاني، والعلامة السيد الشريف الجرجاني، وتقي الدين السبكي، وابن قدامة، والإمام الشوكاني، وغيرهم من كبار أئمة أصول الدين الذين يفزع إليهم في حل المشكلات في أصول الديانة، قد صرحوا بجواز التوسل بالأنبياء والصالحين أحياء وأمواتاً، وأي إنسان يستطيع أن يصفهم بعبادة القبور والدعوة إلى الإشراك بالله، وإليهم تفزع الأمة في معرفة الإيمان والكفر والتوحيد والإشراك والدين الخالص وغيرها من المعضلات؟.

* * *

استشفاع الإمام ابن قدامة المقدسي بالنبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم وتوسله به عند قبره الشريف وحثه المسلمين على فعل ذلك

قال ابن قدامة الحنبلي في صفة زيارته صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم: «تأتي القبر فتولي ظهرك القبلة، وتستقبل وسطه وتقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا نبي الله وخيرته من خلقه إلى أن قال: اللَّهُمَّ اجزِ عنا نبينا أفضل ما جزيت به

أحداً من النبيين والمرسلين، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته، يغبطه به الأولون والآخرون . . . إلى أن قال:

اللَّهُمَّ قلت وقولك الحق: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾[1] وقد أتيتك يا رسول الله مستغفراً من ذنبي، مستشفعاً بك إلى ربي . . . إلى آخر كلام ابن قدامة في «المغني»[2] فانظر إلى الاستشفاع به وهو في قبره.

وكيف يستبعد استغفاره لمن جاءه بعد أن ثبت بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم؟ فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾.

فهذه الآية عامة تشمل حالتي الحياة الوفاة، لأن القاعدة المقررة في الأصول أن الفعل إذا وقع في سياق الشرط كان عاماً، لأن الفعل في معنى النكرة، لتضمنه مصدراً منكراً، والنكرة الواقعة في سياق النفي أو الشرط تكون للعموم وضعاً.

* * *

---

(١) سورة النساء، الآية (٦٤).

(٢) المغني (٣/٢٩٨).

كلام حجة الإسلام الإمام الغزالي في التبرك بزيارة قبور الأنبياء والصالحين

وقال الإمام الغزالي في كتابه «الإحياء»[1]: « كتاب آداب الحج ويدخل في جملته زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام، وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء، وكل من يتبرك بمشاهدته في حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته».

الإمام ابن الحاج يقول بجواز الدعاء أمام قبور الصالحين

وقال الإمام ابن الحاج المالكي: وكذلك يدعو عند هذه القبور (قبور الصالحين) عند نازلة نزلت به أو بالمسلمين، ويتضرع إلى الله تعالى في زوالها وكشفها عنه وعنهم. ثم يتوسل بأهل تلك المقابر أعني بالصالحين منهم في قضاءحوائجه ومغفرة ذنوبه... ويكثر التوسل بهم إلى الله تعالى لأنه سبحانه اجتباهم وشرفهم وكرمهم، فكما نفع بهم في الدنيا ففي الآخرة أرجى، فمن أراد قضاء حاجة فليذهب إليهم ويتوسل بهم، فإنهم الواسطة بين الله تعالى وخلقه مع الاعتقاد أن منجز الحاجة هو الله من خلال هذه الوسائط والله سبحانه الموفق.

وأما في زيارة سيد الأولين والآخرين صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، فمن توسل به أو استغاث أو طلب حوائجه منه فلا يرد إن شاء الله

(١) الإحياء (٢/٢٤٧).

تعالى، ولا يخيب، لما شهدت به المعاينة والآثار، وإنما يحتاج إلى الأدب الكلي في زيارته عليه الصلاة والسلام، وقد قال علماؤنا رحمة الله عليهم: إن الزائر يشعر نفسه بأنه واقف بين يديه صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم كما هو في حياته، إذ لا فرق بين موته وحياته أعني في مشاهدته لأمته ومعرفته بأحوالهم ونياتهم وعزائمهم وخواطرهم، وذلك عنده جلي لا خفاء فيه[1].

* * *

الإمام السبكي والتوسل بالنبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم

وقال الإمام تقي الدين السبكي: «اعلم أنه يجوز ويحسن التوسل والاستغاثة والتشفع بالنبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم إلى ربه سبحانه وتعالى، وجواز ذاك وحسنه من الأمور المعلومة لكل ذي دين، المعروف من فعل الأنبياء والمرسلين، وسير السلف الصالحين والعلماء...».

وقال أيضاً: «وأقول: إنّ التوسل بالنبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم جائز في كل حال، قبل خلقه وبعد خلقه، في مدة حياته في الدنيا وبعد موته في مدة البرزخ،وبعد البعث في عرصات القيامة والجنة»[2].

* * *

(١) المدخل لابن الحاج (١/٢٤٩-٢٥٢) بتصرف.

(٢) شفاء السقام في زيارة خير الأنام (ص ١٧١) طبعة دار جوامع الكلم.

أبيات للحافظ ابن حجر العسقلاني في التوسل والاستغاثة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

قال الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني صاحب «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» في ديوانه:

نبيّ الله يا خيرَ البرايا ... بِجاهِكَ أتَّقي فَصْلَ القضاءِ

وأرجو يا كريمَ العفوَ عَمّا ... جنتهُ يدايَ يا ربّ الحِبَاءِ

فكعب الجود لا يرضى فداءً ... لِنَعْلِكَ وهو رأسٌ في السخاءِ

وسَنَّ بمدحِكَ ابنُ زهيرِ كعب ... لِمِثْلي منك جائزة الثناءِ

فَقُلْ يا أحمد بن علي اذهبْ ... إلى دار النّعيم بلا شقاءِ

فإنْ أحْزَنْ فمدحُكَ لي سروري ... وإنْ أقنط فحمدُك لي رجائي[1]

* * *

الإمام الشوكاني يقول بجواز التوسل بالنبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم حياً وبعد انتقاله

وقال الإمام الشوكاني في «الدر النضيد»[2]: إن التوسل به صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم يكون في حياته وبعد موته، وفي حضرته ومغيبه، ولا يخفاك أنه قد ثبت التوسل به صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم

(١) انظر: الإغاثة بأدلة الاستغاثة للسيد حسن بن علي السقاف (ص٢١) عن ديوانه المخطوط.

(٢) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد (ص٦).

في حياته وثبت التوسل بغيره بعد موته بإجماع الصحابة، إجماعاً سكوتياً لعدم إنكار أحد منهم على عمر رضي الله عنه في التوسل بالعباس رضي الله عنه.

* * *

الإمام شمس الدين محمد بن العلامة شهاب الدين أحمد الرملي يقول بجواز الاستغاثة بالأنبياء والأولياء(١)

وسئل عما يقع من العامة من قولهم عند الشدائد: يا رسول الله، يا شيخ فلان ونحو ذلك من الاستغاثة بالأنبياء والمرسلين والأولياء والعلماء والصالحين، فهل ذلك جائز أم لا؟ وهل للرسل والأنبياء والأولياء والصالحين والمشايخ إغاثة بعد موتهم؟ وإلى ماذا يرجع ذلك؟.

فأجاب: بأن الاستغاثة بالأنبياء والمرسلين، عليهم الصلاة والسلام والأولياء والعلماء والصالحين جائزة، وللرسل والأنبياء والأولياء والصالحين إغاثة بعد موتهم، لأن معجزة الأنبياء وكرامات الأولياء لا تنقطع بعد موتهم، وأما الأنبياء فلأنهم أحياء في قبورهم يصلون ويحجون كما وردت به الأخبار، وتكون الإغاثة منهم معجزة لهم، والشهداء أيضاً أحياء شوهدوا نهاراً جهاراً يقاتلون

---

(١) حاشية الفتاوى الكبرى (٤/ ٣٨٢) للإمام الرملي.

الكفار، وأما الأولياء فهي كرامة لهم. فإن أهل الحق مجمعون على أنه يقع من الأولياء بقصد وبغير قصد أمور خارقة للعادة يُجريها الله تعالى بسببهم. والدليل على جوازها أمور ممكنة، لا يلزم من وقوعها محال وكل ما هذا شأنه فهو جائز الوقوع.

* * *

الشيخ حسن العدوي رحمه الله يجيز التوسل

وقال الشيخ حسن العدوي الحمزاوي: و ما يقع من بعض العوام من قولهم: يا سيدي فلان إن قضيت لي كذا، أو شفيت لي مريضي فلك علي كذا، فهو من الجهل بالنسبة بكيفية الطلب، ولكن لا يعد كفراً، لأنهم لا يقصدون بذلك الإيجاد من الولي، وإنما يجعلونه في نياتهم وسيلة إلى مولاهم، حيث كان التوسل به في اعتقادهم من أهل القرب والمحبة للخالق، ألا ترى أنهم يكررون في أثناء كلامهم: يا صاحب النفس الطاهر عند ربك، اطلب لي من مولاك يفعل بي كذا، فإن ذلك دليل منهم على انفراد الله بالفعل، وأنه لا شيء للولي إلا مجرد التسبب، وأنه لا يرد المتوسل به، لأن القريب المحبوب لا يرد. فهو من باب قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «رب أشعث ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره»[١]. انتهى[٢].

* * *

---

(١) أخرجه مسلم(٢٦٢٢)، وابن حبان(١٤/ ٤٠٣) رقم(٦٤٨٣)، والترمذي(٥/ ٦٩٢).
(٢) مشارق الأنوار في فوز أهل الاعتبار للشيخ حسن العدوي (ص٦٧).

الإمام السامري الحنبلي والتوسل بالنبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم

قال الإمام السامري الحنبلي في «المستوعب»: باب زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم: «ثم يأتي الزائر حائط القبر، ناحيته، ويجعل القبر تلقاء وجهه، والقبلة خلف ظهره، والمنبر عن يساره، ثم ذكر كيفيّة السلام والدعاء، وفيه: اللَّهُمَّ إنك قلت في كتابك لنبيّك صلى الله عليه وسلم: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا** ﴾ وإني قد أتيت نبيّك مستغفراً، فأسألك أن توجب لي المغفرة، كما أوجبتها لمن أتاه في حياته»[1].

الإمام السامري والتوسل بالرجل الصالح

وقال الإمام السامري أيضاً، وصاحب التلخيص - رحمهما الله تعالى: «لا بأس بالتوسل للاستسقاء بالشيوخ والعلماء المتقين». وقال في «المذهب»: يجوز أن يستشفع إلى الله برجل صالح، وقيل: يستحب»[2].

* * *

---

(١) المستوعب (٤/ ٢٧٣- ٢٧٥).

(٢) كشاف القناع (٢/ ٢٩).

الإمام النووي يحث المسلمين على التوسل بالنبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم والاستشفاع به عند قبره الشريف

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى: «واعلم أن زيارة قبر الرسول صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم من أهم القربات وأنجح المساعي ... إلى أن قال: ثم يأتي القبر الكريم فيستدبر القبلة، ويستقبل جدار القبر، ويقف في مقام الهيبة والإجلال فيقول: السلام عليك يا رسول الله ... إلى أن قال: ويتوسل به في حق نفسه ويستشفع به إلى ربه سبحانه وتعالى»[1].

* * *

الشيخ علاء الدين المرداوي الحنبلي و التوسل بالرجل الصالح

وقال الشيخ علاء الدين علي المرداوي الحنبلي - وهو من كبار علماء الحنابلة -: «يجوز التوسل بالرجل الصالح على الصحيح من المذهب، وقيل: يستحب».

وقال أيضاً: «والتوسل بالإيمان به صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، وطاعته، ومحبته، والصلاة والسلام عليه، وبدعائه، ونحوه مما هو من فعله، أو أفعال العباد المأمور بها في حقه، مشروع إجماعاً»[2].

---

(١) المجموع (٨/٢٧٢)، وانظر نحوه في الأذكار له أيضاً.

(٢) الإنصاف (٢/٤٥٦).

محمد بن عبدالوهاب يقول بجواز التوسل بالصالحين في قبورهم ويتبرأ ممن نسب إليه إنكار ذلك

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب، في رسالته الموجهة لأهل القصيم مستنكراً بشدة على من نسب إليه تكفير المتوسل بالصالحين: «إن سليمان بن سهيل افترى عليّ أموراً لم أقلها، ولم يأت أكثرها على بالي، فمنها: أنّي أكفر من توسل بالصالحين وأني أكفر البوصيري لقوله: يا أكرم الخلق، وأني أحرق دلائل الخيرات. وجوابي عن هذه المسائل أن أقول: ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾[1].

وقد سئل رحمه الله تعالى عن قولهم في الاستسقاء: [«لا بأس بالتوسل بالصالحين» وقول أحمد: «يتوسل بالنبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم خاصة» مع قولهم: «إنه لا يستغاث بمخلوق»]، فقال: الفرق ظاهر جداً، وليس الكلام مما نحن فيه، فكون بعض يرخص بالتوسل بالصالحين، وبعضهم يخصه بالنبيّ صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم وأكثر العلماء ينهى عن ذلك ويكرهه، فهذه المسألة من مسائل الفقه وإن كان الصواب عندنا قول الجمهور من أنه مكروه، فلا ننكر على من فعله ولا إنكار في مسائل الاجتهاد، ولكن إنكارنا على من دعا

---

(١) الرسالة الأولى، والحادية عشرة من رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب القسم الخامس (ص ١٢) و (ص٦٤). والآية من سورة النور رقم (١٦).

لمخلوق أعظم مما يدعو الله تعالى، ويقصد القبر يتضرع عند ضريح الشيخ عبد القادر أو غيره، يطلب فيه تفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإعطاء الرغبات، فأين هذا ممن يدعو الله مخلصاً له الدين لا يدعو مع الله أحداً، ولكن يقول في دعائه: أسألك بنبيّك أو بالمرسلين أو بعبادك الصالحين، أو يقصد قبراً معروفاً أو غيره يدعو عنده، لكن لا يدعو إلا الله مخلصاً له الدين، فأين هذا مما نحن فيه[1].

قلت: وقد ورد في السير أنه لا يوجد مُسلم يعتقد ذلك التفصيل بل إن جميع عوام المسلمين يعتقدون بأن الله هو المبدئ المعيد. ولله در العلامة الشيخ عبد الصمد أحمد الحسيني السنان القائل:

محمد من هدينا للصواب به	والآل والصحب من هم حجة الله
وفي انتصاري لأهل الحق هاأنذا	أقول مستفتحاً والعون بالله
إذا استغاث بأهل الله منكرب	فلا يقال له: أشركت بالله
وكيف يشرك عبد وهو معتقد	أن لا مؤثر في شيء سوى الله
ومن توسل يرجو كشف كربته	أو نيل محض الرضا فضلاً من الله

(١) فتاوى الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مجموعة المؤلفات القسم الثالث (ص ٦٨)، التي نشرتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

بالأنبياء الألى جلّت مراتبهم | والقوم من أخلصوا في طاعة الله
فذاك وافق طه في توسله | بذاته وبرسل الله لله
وفي توسله بالسائلين ومـ | شاه إلى كل ما فيه رضا الله
ووافق الرسل أيضاً في توسلهم | بجاهه وهو نور في حمى الله
فالاستغاثة بالمخلوق جائزة | بقول خير الورى الداعي إلى الله
إذ قد أجاز لمن فرّت مطيته | بأن يقول: احبسوا يا أعبد الله
وأن يقول: أعينوني بقوتكم | إن رام عوناً على أمر من الله
وذا بأرض فلاة ما بها أحد | تراه أعينه من خلقة الله
فكيف نمنع من أن نستغيث بمن | هم ظاهرون لنا من نخبة الله
هذا لعمرك أمر مدهش وبه | ما قال عبد له نور من الله

هكذا كان حال السلف الصالح رحمهم الله تعالى الذين اختلطت دماؤهم وأنفاسهم وتشربت قلوبهم وعقولهم بمحبة رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، لقد كانت محبتهم حقيقية صادقة،فكل كلمة أو حركة صادرة عنهم تنبئ عن محبة له صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، فأورثهم ربنا توفيقاً في معرفة نور الحقيقة، ذلك النور الذي ظهر واضحاً في علومهم التي ورثناها عنهم رحمهم الله تعالى. فبارك الحق لهم بهذا العلم شمولاً وإحاطة بنواحيه وبركة في التأثير، لأنه ناشئ عن صدق ومحبة، فجزاهم الله عنا وعن الإسلام خير الجزاء.

تنبيه : ابن تيمية يثبت التوسل :

وقال ابن تيمية في كتابه «التوسل والوسيلة» : «هذا الدعاء ـ أي الذي فيه توسل بالنبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم ـ ونحوه قد روي أنه دعا به السلف، ونُقِلَ في ذلك آثار عن السلف، وهو موجود في دعاء كثير من الناس»[1] اهـ.

وقال ابن تيمية أيضاً[2] : «هذا الدعاء ـ أي الدعاء بحديث الأعمى : اللَّهُمَّ إني أتوجه إليك بنبيك محمد ـ ونحوه دعا به السلف، ونقل عن أحمد بن حنبل في منسك المروزي التوسل بالنبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم في الدعاء».

ومن أراد التوسع والمزيد فعليه بكتاب ابن تيمية «الرد على الأخنائي»[3] وفيه ما نصه :

«وذكر الإمام أحمد بن حنبل الدعاء عند القبر الشريف فقال : وسل الله حاجتك متوسلاً إليه بنبيه صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم تُقْضَ من الله عز وجل».

وابن تيمية نفسه قائل بالتوسل فقد نقل تلميذه ابن كثير عنه في «البداية والنهاية»[4] بأنه اعترض على الاستغاثة ولكنه قال : «يتوسل به أي النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم ويتشفع به إلى الله».

---

(١) فتاوى ابن تيمية (١/ ٢٦٤)، والتوسل والوسيلة (ص ٩٨).

(٢) التوسل والوسيلة (ص ٦٥).

(٣) الرد على الأخنائي (ص ١٦٨).

(٤) (١٤/ ٤٥).

ويرى الألباني في كتابه «التوسل أنواعه وأحكامه» [1] أن من صحّ عنده أن توسل الأعمى كان بذاته صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم فلا شيء عليه، وعليه أن يقف عنده ولا يزيد عليه، أي لا يزيد على التوسل بالنبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم كما نُقل عن العز بن عبد السلام والإمام أحمد .اهـ.

وقال في شرحه العقيدة الطحاوية: «إن التوسل هو مشروع دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وجرى عليه عمل السلف الصالح، وأجمع عليه المسلمون وهو:

١ـ التوسل باسم من أسماء الله تبارك وتعالى أو صفة من صفاته.

٢ـ التوسل بعمل صالح قام به الداعي.

٣ـ التوسل بدعاء رجل صالح.

ثم نقل أقوال الأئمة المعتمدين في مسألة التوسل فقال:

فأجاز الإمام أحمد التوسل بالرسول صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم وحده، وأجاز غيره كالإمام الشوكاني التوسل به وبغيره من الأنبياءوالصالحين» [2].

وللعلامة الشوكاني رسالة خاصة اسمها« الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد» يجوّز فيها التوسل بالأنبياء والأولياء ويأتي

---

(١) التوسل للألباني (ص ٧٤).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية للشيخ محمد ناصر الألباني ص(٦٤).

في رسالته المذكورة بحجج قوية دامغة في القول بجواز التوسل ويشدد النكير على المخالفين ومن أراد التوسع في ذلك فليرجع إلى رسالة الشوكاني المذكورة، وقد أفردنا البحث المتعلق بالتوسل من الرسالة المذكورة للشوكاني وطبعناه ضمن أعداد مجلة الضياء[١] التي تصدر عن أوقاف دبي، وإتماماً للفائدة ألحقنا نص الشوكاني في آخر هذا الكتاب.

وقد قال الشوكاني رحمه الله: «التوسل به صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم يكون في حياته، وبعد موته، وفي حضرته، ولا يخفاك أنه قد ثبت التوسل به صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم في حياته، وثبت التوسل بغيره بعد موته بإجماع الصحابة إجماعاً سكوتياً، لعدم إنكار أحد منهم على عمر رضي الله عنه في توسله بالعباس رضي الله عنه، والتوسل إلى الله بأهل الفضل والعلم هو في التحقيق توسل بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة، إذ لا يكون فاضلاً إلا بأعماله».

وقال: «ويتوسل إلى الله بأنبيائه والصالحين» أقول: ومن التوسل بالأنبياء: وذكر قصة الأعمى[٢]، وأما التوسل بالصالحين: حديث استسقاء سيدنا عمر بسيدنا العباس رضي الله عنهما»[٣].

---

(١) العدد (٣٤) (ص ٣٢).

(٢) انظر (ص٣٢٥) من هذا الكتاب.

(٣) انظر (ص ١٨٩) من هذا الكتاب.

وينقل رضي الله عنه إجماع الصحابة على جواز التوسل، ثم يقول: «وأما التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بأحد من خلقه في مطلب يطلبه من ربه، فقد قال عز الدين بن عبد السلام: إنه لا يجوز التوسل إلى الله تعالى إلا بالنبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم وعندي «أي عند الشوكاني»، أنه لا وجه لتخصيص جواز التوسل بالنبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم لأمرين:

الأول: ما عرّفناك به من إجماع الصحابة رضي الله عنهم.

الثاني: أن التوسل إلى الله تعالى بأهل الفضل والعلم هو في التحقيق توسل بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة، إذ لا يكون الفاضل فاضلاً إلا بأعماله». اهـ. وهذا هو الحق.

* * *

العارف بالله الشيخ يوسف النبهاني يقول بجواز التوسل والاستغاثة

وأما العلامة العارف بالله الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله تعالى فقد قال: «ولا يخفى على أحد من المسلمين، بل وغير المسلمين ممن عنده أدنى إلمام بمعرفة هذا الدين المبين، وأحوال من اتبعه من المؤمنين، أن جمهور الأمة المحمدية من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والصوفية وغيرهم من الخواص والعوام، من جميع مذاهب الإسلام

متفقون بالقول والفعل على استحسان الاستغاثة والتوسل والتشفع بالنبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم إلى الله تعالى لقضاء الحوائج الدنيوية والأخروية، واستحباب شد الرحال، والسفر لزيارته صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم من الأقطار البعيدة والقريبة، حتى صار ذلك عندهم بمنزلة الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، بحيث لا يجهله ولا يتصور خلافه أحد، بل لا يتوهم خلافه ولا يتخيله كثير من طلبة أهل العلم فضلاً عن جمهور العامة الذين لا يخطر شيء من ذلك في بال أحد منهم، بل ولا يجوز أن يوجد مخالف من المسلمين في استحسان ذلك، وما زالت الأمة المحمدية بحمد الله تعالى كذلك يتلقاه المتأخرون عن المتقدمين، ويعتقدون كما هو الواقع أن ذلك من أفضل الطاعات وأكمل القربات»[1].

* * *

الشيخ محمد الحامد يقول بجواز التوسل بالصالحين

وأما الشيخ محمد الحامد الحموي رحمه الله تعالى، فقد قال في باب نداء الصالحين: «يجوز التوسل بهم إلى الله تعالى، والدعاء يكون لله سبحانه، والأدلة على هذا كثيرة، ومن ناداهم بقصد التوسل بهم لا يلام»[2].

---

(١) شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق (ص١٤٣).

(٢) ردود على أباطيل ص(٢٥) القسم الثاني.

وقال أيضاً في باب جواز التوسل: «يجوز التوسل إلى الله سبحانه وتعالى برسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام وعلى آلهم، وبأوليائه رضوان الله عليهم، فإنه جائز وسائغ عند أهل الحق، بل إنه مستحب، إذ هو من أسباب إجابة الدعاء وليس فيه أدنى شبه بشرك، لأن الله تعالى هو المدعو وحده ولاشريك له في الخلق والتأثير، والاستشفاع غير الدعاء، فما من ضر يلحق الداعي ولا من لوث يمس عقيدة التوحيد فيه، والناس في الآخرة يستشفعون إلى الله برسله وبسيدنا محمد صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم»[1].

وقال أيضاً في باب التوسل: «لو كان التوسل شركاً أو فيه شائبة الشرك، ما علَّمه نبي الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم للأعمى حين سأله أن يدعو الله له، فقد علَّمه التوسل به، وإجازة التوسل في حياة المتوسل به لا بعد مماته لا يعتمد شرعاً، وفعل عمر رضي الله عنه ليس فيه إلا التوسل بالحي، وفعل الشيء لا ينفي ما عداه كما هو مقرر»[2].

* * *

(١) ردود على أباطيل ص(٤٠) القسم الثاني.

(٢) ردود على أباطيل ص(٣٩-٤٠) القسم الثاني.

الإمام الشعراني والتوسل

ويقول الإمام الشعراني في العهود المحمدية (قسم المأمورات) : «أخذ علينا العهد العام من رسول اللهصَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، أن لا نسأل الله تعالى شيئاً إلا بعد أن نحمد الله تعالى، ونصلي على النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، وذلك كالهدية بين يدي الحاجة.

وقد قالت عائشة رضي الله عنها: مفتاح قضاء الحاجة الهدية بين يديها، فإذا حمدنا الله تعالى رضي عنا، وإذا صلينا على النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم شفع لنا عند الله في قضاء تلك الحاجة، وقد قال تعالى: ﴿ **وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** ﴾[1].

وتأمل بيوت الحكام تجدها لا بد لك فيها من الواسطة الذي له قرب عند الحاكم وإدلال عليه، ليمشي لك في قضاء حاجتك، ولو أنك طلبت الوصول إليه بلا واسطة لم تصل إلى ذلك. وإيضاح ذلك أن من كان قريباً من الملك فهو أعرف بالألفاظ التي يخاطب بها الملك، وأعرف بوقت قضاء الحوائج، ففي سؤالنا للوسائط سلوك للأدب معهم، وسرعة لقضاء حوائجنا، ومن أين لأمثالنا أن يعرف أدب خطاب الله عز وجل؟.

وقد سمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: إذا سألتم الله حاجة فاسألوه بمحمد صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، وقولوا: اللَّهُمَّ إنا

---

(١) سورة المائدة، الآية (٣٥).

نسألك بحق محمد أن تفعل لنا كذا وكذا، فإن لله ملكاً يبلغ ذلك لرسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، ويقول له: إن فلاناً سأل الله تعالى بحقك في حاجة كذا وكذا، فيسأل النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم ربه في قضاء تلك الحاجة فيجاب، لأن دعاءه صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم لا يرد، قال: وكذلك القول في سؤالكم الله تعالى بأوليائه، فإن المَلَك يبلغهم، فيشفعون له في قضاء تلك الحاجة ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾»[1].

تنبيه: ابن القيم يثبت الواسطة بين الله وخلقه:

قال ابن قيم الجوزية في كتابه« طريق الهجرتين »: « ويكفي في فضلهم (أي: الأنبياء) وشرفهم أن الله سبحانه وتعالى اختصهم بوحيه، وجعلهم أمناء على رسالته، وواسطة بينه وبين عباده، وخصهم بأنواع كراماته، فمنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم من كلَّمه تكليماً، ومنهم من رفعه مكاناً عليّاً على سائرهم درجات، ولم يجعل لعباده وصولاً إليه إلا من طريقهم، ولا دخولاً إلى جنته إلا خلفهم، ولم يكرم أحداً منهم بكرامة إلا على أيديهم، فهم أقرب الخلق إليه وسيلة، وأرفعهم عنده درجة، وأحبهم إليه، وأكرمهم عليه، وبالجملة فخير الدنيا والآخرة إنما ناله العباد على أيديهم،

(١) لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية (ص٢٨٠-٢٨١)

وبهم عرف الله، وبهم عبد وأطيع، وبهم حصلت محابه تعالى في الأرض»[1].

وقال في كتابه «مدارج السالكين»: «العلم يطلب من العبد العمل للرغبة، والرهبة، والثواب، وخوف العقاب، فتهذيب القصد، تصفيته من ملاحظة ذلك وتجريده، أن يكون قصده وعبوديته محبة لله بلا علة، وأن لا يحب الله لما يعطيه ويحميه منه، فتكون محبته لله محبة الوسائل، ومحبته بالقصد الأول لما يناله من الثواب المخلوق، فهو المحبوب له بالذات، بحيث إذا حصل له محبوبه تسلى به عن محبة من أعطاه إياه، فإن من أحبك لأمر والاك عند حصوله، ومَلَّكَ عند انقضائه، والمحب الصادق يخاف أن تكون محبته لغرض من الأغراض، فتنقضي محبته عند انقضاء ذلك الغرض، وإنما مراده أن محبته تدوم لا تنقضي أبداً، وأن لا يجعل محبوبه وسيلة له إلى غيره، بل يجعل ما سواه وسيلة له إلى محبوبه[2].

قلت: إن مما نجعله ــ مما سوى الله ــ وسيلةً له رسولَ الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، ومحبته عليه الصلاة والسلام هي أعظم الطاعات والقربات والعبادات، فإذا صح التوسل بالأعمال الصالحة والطاعات ــ وهذا مما أجمع عليه ــ فنحن نتوسل بمحبة النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم إلى الله تعالى.

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم (١/٥١٥،٥١٦).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (١/١٠٣).

وقال في كتابه «حادي الأرواح»: «والقرآن كلام الله الذي تكلم به، وليس بمخلوق ... إلى أن قال: بل حب أصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم سنة، والدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم بها فضيلة» اهـ. بتصرف يسير[1].

وقال في «مفتاح دا رالسعادة»: «لم يعط نبي ما أعطيه، فرفع الله له ذكره، وقرن اسمه باسمه، وجعله سيد الناس كلهم، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهاً، وأسمعهم عنده شفاعةً، وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته، وهي مما زاده الله بها شرفاً وفضلاً، وساقه بها إلى أعلا المقامات، وهذا حال ورثته من بعده الأمثل فالأمثل، كل له نصيب من المحنة، يسوقه الله به إلى كماله، بحسب متابعته له ومن لا نصيب له من ذلك فحظه من الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له، وجعل خلاقه ونصيبه فيها، فهو يأكل منها رغداً، ويتمتع فيها حتى يناله نصيبه من الكتاب»[2].

وذكر الإمام الغزالي في«إحياء علوم الدين»[3]: دعاء يقوله الحاج يوم عرفة فقال: «في يوم عرفة أول ما يدعو به فليقل: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير.. إلهي تجنبت

---

(١) حادي الأرواح لابن القيم (١/ ٢٩١).

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٣٠١).

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٢٥٤).

عن طاعتك عمداً، وتوجهت إلى معصيتك قصداً، فسبحانك ما أعظم حجتك علي، وأكرم عفوك عني، فبوجوب حجتك علي، وانقطاع حجتي عنك، وفقري إليك، وغناك عني، إلا غفرت لي يا خير من دعاه داع، وأفضل من رجاه راج، بحرمة الإسلام وبذمة [سيدنا] محمد صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم أتوسل إليك، فاغفر لي جميع ذنوبي، واصرفني من موقفي هذا مقضي الحوائج، وهب لي ما سألت، وحقق رجائي فيما تمنيت».

* * *

ذكر أسماء أشهر من قال بالتوسل من كبار الأئمة من الحفاظ والمحدثين والفقهاء والمفسرين وغيرهم وبعض المعاصرين

ونذكر هنا أسماء أشهر من قال بالتوسل أو نقل أدلته من كبار الأئمة وحفاظ السنة وبعض المعاصرين:

١ـ فمنهم الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه (ت ١٧٩هـ).

٢ـ ومنهم الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه (ت٢٠٤هـ).

٣ـ ومنهم الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه (ت ٢٤١).

٤ـ ومنهم الإمام أبو عبد الله الحاكم رضي الله عنه (ت٤٠٥هـ).

٥ـ ومنهم الإمام أبو بكر البيهقي رضي الله عنه (ت ٤٥٨هـ).

٦ـ ومنهم الإمام القاضي عياض رضي الله عنه (ت ٥٤٤هـ).

٧ـ ومنهم الإمام أبو الفرج ابن الجوزي رضي الله عنه (ت٥٩٧هـ).

٨ـ ومنهم العلامة المفسر أبو عبد الله القرطبي رحمه الله تعالى (ت٦٧١هـ).

٩ـ ومنهم الإمام أبو زكريا النووي رضي الله عنه (ت ٦٧٦هـ).

١٠ـ ومنهم الشيخ العلامة أحمد المرداوي رضي الله عنه (ت٧٢٨هـ).

١١ـ ومنهم الإمام ابن قيم الجوزية رضي الله عنه (ت٧٥١هـ).

١٢ـ ومنهم الإمام المحدث علي بن عبد الكافي السبكي رحمه الله تعالى (ت٧٥٦هـ).

١٣ـ ومنهم الشيخ العلامة ابن مفلح الحنبلي رحمه الله تعالى (ت٧٦٣هـ).

١٤ـ ومنهم العلامة الحافظ المفسر ابن كثير رضي الله عنه (ت٧٧٤هـ).

١٥ـ ومنهم العلامة الشيخ السامري رحمه الله تعالى (ت٦١٦هـ).

١٦ـ ومنهم العلامة الشهاب الرملي الشافعي رحمه الله تعالى (ت٨٤٤هـ).

١٧ـ ومنهم الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني رضي الله عنه (ت٨٥٢هـ).

١٨ـ ومنهم العلامة الشيخ علاء الدين علي المرداوي الحنبلي رحمه الله تعالى (ت ٨٨٥هـ).

١٩ـ ومنهم الإمام جلال الدين السيوطي رضي الله عنه (ت٩١١هـ).

٢٠ـ ومنهم الإمام الحافظ القسطلاني رضي الله عنه (ت٩٢٣هـ).

٢١ـ ومنهم الإمام العلامة ابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالى (ت٩٧٥هـ).

٢٢ـ ومنهم الشيخ الإمام نور الدين القاري المعروف بملا علي قاري رضي الله عنه (ت ١٠١٤هـ).

٢٣ـ ومنهم الإمام العلامة أحمد شهاب الدين الخفاجي رحمه الله تعالى (ت ١٠٦٩هـ).

٢٤ـ ومنهم الإمام العلامة الشيخ محمد عبد الباقي الزرقاني رحمه الله تعالى (ت ١٠٩٩هـ).

٢٥ـ ومنهم العلامة محمد بن علي الشوكاني رحمه الله تعالى (ت١٢٥٥هـ).

٢٦ـ ومنهم الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله تعالى.

٢٧ـ ومنهم الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى.

وآخرون غيرهم [١].

ثم وجدت السيد الدكتور محمود السيد صبيح قد بذل جهداً في جمع أسماء أشهر الحفاظ والمحدثين والفقهاء والمفسرين وغيرهم ممَّن لهم نص صريح في التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والصالحين، ورتبهم حسب الترتيب الأبجدي، في كتابه «أخطاء ابن تيمية في حق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته» فقال ما ملخصه:

ذكر أسماء بعض الحفاظ والمحدثين المتوسلين بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم والصالحين على الترتيب الأبجدي

١ ـ الحافظ إبراهيم الحربي: توسل بقوله: «قبر معروف الكرخي هو الترياق المجرب» تاريخ بغداد (١ / ١٢٢).

٢ ـ الحافظ أبو الربيع بن سالم: نقل توسل أهل سبتة بقبر الإمام محمد بن عبيدالله الحَجْرى لما وضعوا جنازته على شفير قبره فسُقُوا من تلك الليلة مطراً وابلاً بعد قحط أضر بأهلها، التكملة لكتاب الصلة (٢ / ٢٨١) سير أعلام النبلاء (٢١ / ٢٥٢).

(١) الموسوعة اليوسفية / التوسل (ص ١٦٨ – ١٧٠).

٣ - الحافظ أبو الشيخ الأصبهاني: توسل بقوله «والشكوى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجوع». سير أعلام النبلاء (١٦/ ٤٠٠).

٤ - الحافظ أبو الطيب المكي الفاسي: توسل بقوله «بمحمد سيد المرسلين». ذيل التقييد (١ / ٦٩).

٥ - الحافظ أبو المحاسن بن حمزة الحسيني الدمشقي: توسل بقوله «بجاه المصطفى». ذيل تذكرة الحفاظ (١/ ٣١٥).

٦ - الحافظ أبو زرعة الرازي: كان يقول لعلي الرضا «حدثنا بحق آبائك».

٧ - الحافظ أبو عبد الله الصفار الإسفرائيني: أخذ عنه الحاكم توسل كثير من الصالحين.

٨ - المحدث أبو علي الخلال: قال «فقصدت قبر موسى ابن جعفر فتوسلت به». تاريخ بغداد (١ / ١٢٠).

٩ - الحافظ أبو زرعة العراقي: أتى النبي أمام قبره وقال «أنا جائع». المنتظم لابن الجوزي (٩ / ٧٤، ٧٥).

١٠ - الحافظ ابن أبي الدنيا: توسل بقوله «بحق النبي» قرى الضيف (٥ / ٢٢٥).

١١ - الحافظ ابن أسلم الطوسي: كان يقول لعلي الرضا «حدثنا بحق آبائك».

١٢ - الحافظ ابن الأبار: توسل بقوله «يا شافع البربة أن تشفع فيها لبارئ النسم». الحلة السيراء (٢ / ٢٨٤).

١٣ - الحافظ ابن الجزري: قال بالتوسل في كتابه (عدة الحصن الحصين باب فضل آداب الدعاء).

١٤ - الحافظ ابن الجوزي: توسل بقوله «بحق محمد صلى الله عليه وسلم». زاد المسير (٤ / ٢٥٣).

١٥ - الحافظ ابن القيسراني: «توسلوا به إلى الله» تذكرة الحفاظ (٤ / ١٣٧١).

١٦ - الحافظ ابن المقرئ الأصبهاني: التوسل عند القبر والشكوى إلى الرسول من الجوع - مروية في سير أعلام النبلاء (١٦/ ٤٠٠).

١٧ - الحافظ ابن حبان: كان إذا أهمه أمر قصد قبر الإمام علي بن موسى الرضا فينكشف همه، قال: «وهذا شيء جربته مراراً». الثقات (٨ /٤٥٧- ٤٥٦).

١٨ - الحافظ ابن حجر العسقلاني: وله كلام كثير فى فتح الباري وغيره، انظر: فتح الباري (٢ /٤٧).

١٩ - الحافظ ابن طولون: استشهد بكلام الحافظ العلائي شيخ الحافظ العراقي في المسائل التي شذ بها ابن تيمية فى الأصول

والفروع ومنها التوسل (ذخائر القصر مخطوط بالخزانة التيمورية بالقاهرة) .

٢٠ - الحافظ ابن عساكر: كتب في أربعينياته حديث: « يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي » وكتبه عامرة بالتوسل، وذكره مناقب جعفر الصادق بقوله فيه. « وبالنبى متوسلاً »، وذكر عن أحد الصالحين أن قبره يتبرك به. تاريخ دمشق (٦ / ٤٤٣).

٢١ - الحافظ ابن فهد : سأل الحافظ العراقي ما شذ به ابن تيمية فى التوسل والزيارة، انظر كتاب الأجوبة المرضية عن الأسئلة المكية.

٢٢ - الحافظ ابن كثير: توسل بقوله « بمحمد وآله » - البداية والنهاية (١٣ / ١٩٢) . ونقل أحاديث التوسل وصححها وأقرها. انظر: البداية والنهاية (٧ / ٩٠ وما بعدها).

٢٣ - الإمام أحمد : قال في منسكه الذي كتبه للمروذي: إنه يتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم في دعائه، حتى ابن تيمية نقله.

٢٤ - الحافظ البيهقي : روى عنه ابن الجوزى فى المنتظم (١١ / ٢١١) من مناقب أحمد بن حرب « استجابة الدعاء إذا توسل الداعي بقبره ».

٢٥ - الحافظ الحاكم : من روى تعظيم ابن خزيمة لقبر علي الرضا وتوسل شيوخه بقبر يحيى بن يحيى وقد سبق ذكره. وانظر: تهذيب التهذيب (٧ / ٣٨٨) و (١١ / ٢٩٩).

٢٦ – الحافظ الخطيب البغدادي : توسل بقوله : « بحق محمد » . الجامع لأخلاق الراوى والسامع (٢ / ٢٦١) .

٢٧ – الحافظ الدارمي : راجع باب ما أكرم الله به نبيه في سنن الدارمي .

٢٨ – الحافظ السخاوي : توسل بقوله « ووسيلتنا وسندنا » فتح المغيث شرح ألفية الحديث للعراقى (٤ / ٤١٠) .

٢٩ – الحافظ السِّلَفي : له توسل في معجم السفر .

٣٠ – الحافظ السيوطي : توسل بقوله « بمحمد وآله » الإتقان (٢/٥٠٢) وكتبه طافحة بالتوسل .

٣١ – الحافظ الطبراني : التوسل عند القبر والشكوى إلى الرسول من الجوع – مروية فى سير أعلام النبلاء (١٦ / ٤٠٠) – كما أنه صحح حديث التوسل بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم .

٣٢ – المحدِّث العلجوني : توسل بقوله « وبخير خلقك لم أزل متوسلاً » . كشف الخفاء (٢ / ٥٥) .

٣٣ – الحافظ العلائي : ألف كتابًا في الرد على ابن تيمية في موضوع التوسل والزيارة

٣٤ – الحافظ بن الأبار القضاعي : نقل التوسل عن بعضهم وأقره وفيه قوله في ترجمة الإمام عبد الله الحَجْري : « توسلوا به إلى الله » التكملة لكتاب الصلة (٢ / ٢٨١) .

٣٥ - المحدث الكلاباذي: توسل بقوله: «وبنبيه أتوسل». التعرف لمذهب أهل التصوف (١ / ٢١).

٣٦ - الحافظ الكلاعي: صاحب كتاب مصباح الظلام فى المستغيثين بخير الأنام في اليقظة والمنام. كشف الظنون (٢/١٧٠٦).

٣٧ - المحدث اللكنوي أبو الحسنات: توسل بقوله «متوسلاً بنبيه». الرفع والتكميل في الجرح والتعديل (ص: ٢٧).

٣٨ - الحافظ اللالكائي: ذكر حمزة الهاشمي «أنا من ذلك االذي استسقى بشيبته عمر» وما زال يردد ويتوسل بهذه الوسيلة.

٣٩ - الحافظ المحاملي: يأتي قبر معروف الكرخي ويتوسل به - مروية في تاريخ بغداد (١ / ١٢٣).

٤٠ - الحافظ المروذي: وهو صاحب أحمد الذي سبق ذكره في التوسل بالنبي في منسك أحمد بن حنبل.

٤١ - المحدث المناوي: ذكر أن ابن تيمية أصبح بين أهل الإسلام مثلة لإنكاره التوسل والاستغاثة.

٤٢ - الحافظ المنذري: له رسالة تسمى «زوال الظمأ في ذكر من استغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم من الشدة والعمى». ذكرها صاحب هدية العارفين (٥ / ٥٨٦).

٤٣ - الحافظ الهيثمي: توسل بقوله «بمحمد وآله». مجمع الزوائد (٩ / ٤٢٠).

٤٤ - المحدث محمد عابد السندى: له رسالة في جواز التوسل والاستغاثة وفيها رد على ابن تيمية. انظر مقدمة كتابه «حصر الشارد في أسانيد محمد عابد» (١ / ٥٩).

٤٥ - الحافظ عبد الحق الأشبيلي: فى كتابه العاقبة في علم التذكير «ويسكن في جوارهم - قبور الصالحين - تبركاً وتوسلاً». فيض القدير للمناوي (١ / ٢٣٠).

٤٦ - الحافظ عبد الغني المقدسي: وقد ذكرنا ذكر الضياء المقدسي له حينما كان يتمسح بقبر الإمام أحمد لما خرج دمل في جسده لم يجد له دواء، وله توسل آخر.

٤٧ - التابعي الجليل الحافظ محمد بن المنكدر: كان يضع خده على قبر النبى صلى الله عليه وسلم قال: «استعين بقبر النبى» رواه ابن عساكر، وعده الذهبي في السير من مناقبه.

٤٨ - الحافظ محمد بن موسى التلمساني: صاحب كتاب مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام، انظر كشف الظنون (٢ / ١٧٠٦).

٤٩ ـ المحدث أحمد عبد اللطيف الزبيدي: توسل بقوله «بجاه سيدنا محمد وآله». التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح (ص: ٩).

٥٠ ـ الحافظ ابن ماكولا: قال عن قبر أحد الصالحين: «قبره يتبرك به قد زرته». الإكمال (١ / ٢٦٧).

٥١ ـ الحافظ ابن نقطة: ذكر أحد الصالحين وقال: «قبره بالقرافة يتبرك به». التقييد (١ / ٣٧٠).

٥٢ ـ الحافظ الذهبي: ذكر أحد الصالحين وقال: «وكان ورعاً تقياً محتشماً يُتبرك بقبره» سير أعلام النبلاء (١٨ / ١٠١).

* * *

الأئمة الأربعة الأعلام

١ـ الإمام أبو حنيفة:

لا أحفظ عنه نصًا في التوسل، ولكن له كلام في كراهة أن يقول الرجل: «وأسألك بمعاقد العز من عرشك» لكنه قال في نصيحة لأبي يوسف: «وأكثر من زيارة القبور والمشايخ والمواضع المباركة واقبل من العامة ما يقصون عليك من رؤياهم للنبي صلى الله عليه وسلم في المساجد والمقابر» ـ الطبقات السنية في تراجم الحنفية.

٢ـ الإمام مالك بن أنس:

قال في قصة المناظرة بينه وبين أبي جعفر المنصور: «ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك وسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى». كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم (٢ / ٤١).

٣ـ الإمام الشافعي:

قال: «إني لأتبرك بأبي حنيفة، وإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده فما تبعد عني حتى تقضى». تاريخ بغداد (١ / ١٢٣).

٤ـ الإمام أحمد بن حنبل:

ورد بما لا مطعن فيه - وابن تيمية مقر بصحته - أن الإمام أحمد بن حنبل قال في منسكه الذي كتبه للمروذي «أن في الاستسقاء يتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم». وكافة علماء الحنابلة يذكرون كلام أحمد بن حنبل في باب الاستسقاء.

* * *

أسماء بعض المتوسلين من مشهوري الفقهاء ممن لهم نص صريح في التوسل نذكره على الإجمال

١ـ من الحنفية:

أبو إسحاق الخجندي، الكازروني، و أبو منصور الكرماني الحنفي، والكمال بن الهمام، وابن أبي الوفاء القرشي الحنفي، وابن

عابدين، وأبو الإخلاص الشرنبلالي، وملا علي القارى، وعبد الغني الدهلوي، والطحطاوي، ومحمد عميم الإحسان المجددي البركتي، وغيرهم.

٢ـ ومن المالكية:

القاضي عياض، وابن أبي جمرة، وابن عطاء الله السكندري، وابن الحاج، والعلامة خليل، وابن الخطيب، وأبو الحسن المالكي، وابن جزي، وابن عاشر المالكي، وابن ميارة المالكي، وغيرهم.

٣ـ ومن الشافعية:

القاضى الماوردي، والقاضي أبو الطيب، وأبو حامد الغزالي، والعز بن عبد السلام، وتقي الدين بن دقيق العيد، والمحب الطبري، وابن الرفعة، والرافعي، والقزويني، والقونوي، وابن الزملكاني، وتقي الدين السبكي، والبارزي، وابن الملقن، وابن قاضي شهبه، والعز بن جماعة، والجلال القزويني، وتقي الدين الحصني، والتفتازاني، والشريف الجرجاني، وزكريا الأنصاري، وابن حجر الهيتمي، وغيرهم.

٤ـ ومن الحنابلة:

ابن عقيل، وعبد القادر الجيلاني، وابن قدامة المقدسي، الحنبلي، وأبو عبد الله السامري الحنبلي، وابن مفلح الحنبلي، والبهوتي، وغيرهم.

بيان أسماء بعض الفقهاء المتوسلين بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم على الترتيب الأبجدي

١- أبو إسحاق الخجندي الكازروني (حنفي) : كان من شعره : « خافت النار إلهاً فانتحت تتشفع لائذة بالرسول » . التحفة اللطيفة (١ / ٨٣) .

٢- أبو الإخلاص الشرنبلالي (حنفي) : توسل بقوله : « جئنا كما نتوسل بكما إلى سيدنا رسول الله » . نور الإيضاح(١ /١٥٦) .

٣- أبو الحسن المالكى : توسل بقوله : « بمحمد وآله وصحبه » . كفاية الطالب (٢ / ٦٧٨) .

٤- أبو حامد الغزالي (شافعي) : توسل بقوله : « وقصدنا نبيك مستشفعين به وحقه عليك » . إحياء علوم الدين (١ / ٢٦٠) .

٥- أبو عبد الله السامري الحنبلي : ذُكر فيمن يقول بأن الزائر يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي » (شفاء السقام ...) .

٦- أبو منصور الكرماني الحنفي : قال في أدب الزيارة : « أن يخاطب الإنسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول : إن فلانًا وفلانًا يستشفع بك يا رسول الله » . المكتوبات (ص٣) .

٧- ابن أبي الوفاء القرشي الحنفي : توسل بقوله : « بجاه رسول الله » . طبقات الحنفية (١ / ٣٥٣) .

٨- ابن أبي جمرة: ذكر زيارة الأنبياء... ثم التوسل إلى الله تعالى بهم في قضاء مآربه ومغفرة ذنوبه شرح مختصر البخارى.

٩- ابن الحاج (مالكي): قال بالتوسل. الشواهد (ص:٨٥).

١٠- ابن الخطيب: توسل بقوله: « ومن توسل إليه بمحمد نجاه ونفعه». وسيلة الإسلام (١ / ٣١).

١١- ابن الرفعة (شافعي): له رد على ابن تيمية وكان هو الذي يناظره في التوسل والزيارة.

١٢- ابن الزملكاني (شافعى): توسل بقوله: « يا صاحب الجاه». وهذا أيضاً أحد العلماء الذين ناظروا ابن تيمية. شواهد الحق (صفحة ٣٨٣).

١٣- ابن الملقن (شافعي): توسل بقوله « بمحمد وآله ». خلاصة ألبدر المنير (١ / ٥).

١٤- ابن جزي: بلفظ « يتشفع به ».القوانين الفقهية(١ / ٩٥).

١٥- ابن حجر الهيتمي (شافعي): قال بالتوسل - في حاشيته على الإيضاح، وفي كتابه الجوهر المنظم في زيارة القبر الشريف النبوي المكرم.

١٦- ابن عابدين (حنفي): توسل بقوله: « بجاه سيد الأنبياء والمرسلين». حاشية ابن عابدين (٨ / ٥١١).

١٧- ابن عاشر المالكي: توسل بقوله: «بجاه سيد الأنام» المرشد المعين على الضروري من علوم الدين (٢ / ٣٠٠).

١٨- ابن عجيبة الحسني: توسل بقوله: «بجاه نبينا المصطفى». إيقاظ الهمم شرح الحكم (صفحة ٤).

١٩- ابن عطاء الله السكندري: توسل بقوله: «بجاه محمد». لطائف المنن (صفحة ١١، ١٢).

٢٠- ابن عقيل (حنبلي): وكان يقول في زيارة النبي صلى الله عليه وسلم: «يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي». (التذكرة ٨٧) المكتبة الظاهرية بدمشق.

٢١- ابن علان: توسل بقوله: «بجاه نبيك سيد المرسلين». شرح الأذكار المسمَّى الفتوحات الربانية (٢ / ٢٩).

٢٢- ابن قاضي شهبه (شافعي): في ترجمة أحمد بن علي الهمداني قال: «والدعاء عند قبره مستجاب». طبقات الشافعية (٢/ ١٥٥).

٢٣- ابن قدامة المقدسي الحنبلي: قال: «ويستحب زيارة قبر الرسول ﷺ» ثم ذكر قصة العتبي وما فيها من توسل بالنبي ﷺ. المغني (٣ / ٢٩٨).

٢٤- ابن مفلح الحنبلى: ذكر قصة العتبي وأقرها. المبدع (٣/ ٢٥٩).

٢٥- ابن ميارة المالكي: توسل بقوله: «نتوسل إليك بجاه أحب الخلق». الدر الثمين والمورد المعين (٢ / ٣٠٢).

٢٦- الإمام القشيري صاحب الرسالة القشيرية الشهيرة.

٢٧- البارزي: له كتاب توثيق عرى الإيمان: (الباب الثالث إغاثته صلى الله عليه وسلم لمن استغاث به).

٢٨- البجيرمي (شافعي): «مع أنه أعظم وسيلة حياً وميتاً». حاشية البُجيرمي.

٢٩- البهوتي (حنبلي): ذكر قصة العتبي وأقرها. كشف القناع (٢ / ٥١٦).

٣٠- الجاوي محمد نووي: توسل بقوله: «بجاه النبي المختار». نهاية الزين (١ / ٧٧).

٣١- الجرجاني: قال بالتوسل. في أوائل حاشيته على المطالع.

٣٢- الرافعي القزويني (شافعي): توسل بقوله: «متوسلاً بشفاعة من عنده يوم الجزاء». التدوين في أخبار قزوين (٢ / ٧٦).

٣٣- الحطاب: قال: «وأمرنا بسؤال الوسيلة». مواهب الجليل (٢ / ٥٤٥).

٣٤- الخرشي: أجاز التوسل وخص الإقسام على الله بالنبي صلى الله عليه وسلم الشرح الكبير على متن خليل (الجزء الثالث).

٣٥- الرملي (شافعي) : توسل بقوله : « وبنبيه أتوسل » - شرح زبد بن رسلان .

٣٦- الزرقاني : توسل بقوله : « بجاه أفضل الأنام » . شرح الزرقاني (٢ / ٢٩٧) .

٣٧- الزيني المراغي : رد على ابن تيمية وبّدعه .

٣٨- السمهودي : « التوسل والتشفع به صلى الله عليه وسلم وبجاهه وببركته » . خلاصة الوفا (٢ / ٤١٩) .

٣٩- السيد البكري (شافعي) : توسل بقوله : « بجاه سيدنا محمد » . إعانة الطالبين (٤ / ٣٤٤) .

٤٠- الشربيني (شافعي) : قال : « ويتوسل به فى حق نفسه » . الإقناع للشربيني (١ / ٢٥٨) .

٤١- الشرواني (شافعي) : توسل بقوله : « بجاه محمد سيد الأنام » . حواشي الشرواني (٦ / ٣٨١) .

٤٢- الشهاب الخفاجي : باب الزيارة وفضل النبي صلى الله عليه وسلم . نسيم الرياض شرح شفا القاضي عياض .

٤٣- الشوكاني : توسل بقوله : « بجاه المصطفى » . البدر الطالع (١ / ٤٢٢) .

٤٤- الطحطاوي (حنفي) : توسل بقوله : « بجاه سيدنا محمد » . حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح (١ / ٣٥٧) .

٤٥- العز بن جماعة (شافعي) .

٤٦- العز بن عبد السلام : أجاز الإقسام بالنبي إن صح الحديث والحديث صحيح باعتراف ابن تيمية . تحفة الأحوذي (١٠ / ٢٥) .

٤٧- العلامة خليل (مالكي) : توسل بقوله : « وليتوسل به صلى الله عليه وسلم »- ذكره الزرقاني في شرحه على المواهب اللدنية .

٤٨- الغزي (شافعي) : توسل بقوله : « بجاه سيد المرسلين » . فتح القريب المجيب في شرح ألفاظ التقريب (صفحة ٧١) .

٤٩- القاضى أبو الطيب (شافعي) : ذكر قصة العتبي وأقرها . المجموع شرح المهذب (٨ / ٢٥٦) .

٥٠- القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز (شافعي) : ممن ردًّا على ابن تيمية .

٥١- القاضي عياض (مالكي) : ذكر قصة مالك مع أبي جعفر المنصور وأقرها . الشفا في تعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم .

٥٢- القسطلاني (الشافعي) : قال : « ويسأل الله تعالى بجاهه » . المواهب اللدنية (٨ / ٣٠٨) .

٥٣- القونوي : كان من أسباب استمرار سجن ابن تيمية لما قاله فى التوسل . الدرر الكامنة .

٥٤- الكمال بن الهمام (حنفي) : توسل بقوله : « بحضرة نبيك » . شرح فتح القدير (٣ / ١٨١) .

٥٥- الماوردي (شافعي) : ذكر قصة العتبي وأقرها كما أقرها أبو الطيب . المجموع شرح المهذب (٨ / ٢٥٦) .

٥٦- المحب الطبري : توسل بقوله : « بمحمد وآله وصحبه » . ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربى (١ / ٢٦١) .

٥٧- اليافعي : توسل بقوله : « وبرسوله » . مرآة الجنان (٤ / ٣٦٢) .

٥٨- تقي الدين أبو الفتح : توسل بقوله : « وارغب إليه بالنبي المصطفى » . طبقات الشافعية الكبرى (٩ / ١٨١) .

٥٩- تقي الدين الحصنى (شافعي) : له كتاب دفع شُبَه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلى أحمد مطبوع وهو في تبديع ابن تيمية في موضوع التوسل والزيارة .

٦٠- تقي الدين السبكي (شافعي) : له كتاب مشهور في الرد على ابن تيمية في مسألة التوسل والزيارة بعنوان : (شفاء السقام فى زيارة خير الأنام)، مطبوع .

٦١- تقي الدين بن دقيق العيد (شافعي) : توسل بقوله : « أعدُّ لها جاه الشفيع المشفع » . طبقات الشافعية الكبرى (٩ / ٢٢١) .

٦٢- زكريا الأنصاري (شافعي) : قال : « ويتوسل به في حق نفسه ويستشفع به إلى ربه » . فتح الوهاب (١ / ٢٥٧) .

٦٣- سعد الدين التفتازاني : قال : « ولهذا ينتفع بزيارة القبور والاستعانة بنفوس الأخيار من الأموات » . شرح المقاصد (٢ / ٣٣) .

٦٤- صديق حسن خان : توسل بقوله : « بجاه خير البرية » . أبجد العلوم (٣ / ٢٨٠) .

٦٥- صفي الدين بن أبي منصور .

٦٦- عبد الغني الدهلوي : له رد على ابن تيمية في التوسل .

٦٧- عبد القادر الجيلاني (حنبلي) : فى كتابه الغنية يتوسل بقوله « يا رسول الله إني أتوجه بك إلى ربي ليغفر لي » مروية في شواهد الحق للنبهاني (ص : ٩٨) .

٦٨- عبد الوهاب السبكي (شافعي) : ذهب ووافق والده التقي السبكي فيما ذهب إليه من استحباب التوسل وأقره عليه انظر ترجمة والده في (طبقات الشافعية الكبرى) وغيرها .

٦٩- عماد الدين بن العطار- تلميذ النووي رحمهما الله - (شافعي) : قال « وأمرنا بسؤال الوسيلة والسؤال بجاهه » . مواهب الجليل (٢ / ٥٤٤، ٥٤٥) .

٧٠- محمد عميم الإحسان المجددي البركتي : توسل بقوله : « بحرمة سيدنا محمد » . قواعد الفقه (١ / ٢٥٦) .

٧١- ملا علي القاري (حنفي) : قال : « وكان يستشفع به صلى الله عليه وسلم عند الجدب » . مرقاة المفاتيح (٣ / ١٦٧٦) وبدَّع ابن تيمية بسبب موضوع التوسل .

٧٢- أبو منصور الصباغ : قال بالتوسل واستشهد بقصة العتبي . في كتابه الشامل .

٧٣- القرافي : قال بالتوسل وأقر قصة العتبي في الذخيرة (٣/٣٧٥، ٣٧٦) .

٧٤- السهيلي : قال : « أن عمر أقسم على الله بالعباس وبالنبي صلى الله عليه وسلم » . الروض الآنف (١ / ٢٠٨) .

٧٥- ابن نجيم الحنفي : رخص في زيارة قبور الصالحين للترحم والتبرك . البحر الرائق شرح كنز الحقائق .

٧٦- البيضاوي : رخص باتخاذ مسجد في جوار قبور الصالحين بقصد التبرك . فتح الباري (١ / ٦٢٦) .

٧٧- ابن عماد الحنبلي : قال في ترجمة السيد أحمد النجاري الشريف : « وقبره يزار ويتبرك به » . شذرات الذهب (١٠ / ١٥٢) ونقل جملاً كثيرة في التوسل .

٧٨- الفخر التبريزي : كان إذا أشكلت عليه المسائل ذهب إلى قبر شيخه التاج التبريزي ويفكر فيها فتنجلي سريعاً . فيض القدير للمناوي (٥ / ٤٨٧) .

٧٩- أحمد الدردير: قال بالتوسل، وفي خاتمة الكتاب أيضاً. أقرب المسالك (٦ / ٥٥٩).

٨٠- إبراهيم اللقاني (صاحب جوهرة التوحيد): قال: « ليس للشدائد مثل التوسل به صلى الله عليه وسلم ». خلاصة الأثر للمحبي (١ / ٨).

٨١- أحمد زروق (المالكي): له رد على ابن تيمية فيما أنكر من مسائل التوسل والاستغاثة ومذكور فى مقدمة شرحه على حزب البحر. شواهد الحق (صفحة ٤٥٢).

* * *

ذكر عدد من أعيان المفسرين المتوسلين بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمقرين له

١- الثعالبي: توسل بقوله: « بجاه عين الرحمة ». تفسير الثعالبي (٤ / ٤٥٨).

٢- القرطبي: توسل بقوله: « بحق محمد وآله ». تفسير القرطبي (٨ / ٢٤٠).

٣- النسفي: أثبت التوسل بقصة العتبي في تفسير الآية.

٤- الألوسي: توسل بقوله: « بحرمة سيد الثقلين ». روح المعانى (١ / ٨٢).

٥- الرازي: أقر زيارة القبور وفسر فائدتها، فقال في المطالب العالية عن سر زيارة القبور: «وكلما حصل فى نفس الميت من العلوم المشرقة ينعكس منها نور إلى روح ذلك الزائر الحى». فيض القدير للمناوي (٥ / ٤٨٧).

* * *

ذكر عدد من أعيان أصحاب المعاجم واللغة المتوسلين بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم

١- ابن منظور: صاحب كتاب لسان العرب (١١ / ٧٨) - توسل بقوله: «بمحمد وآله».

٢- الفيروزابادي: صاحب كتاب القاموس المحيط قال بالتوسل في كتابه الصلات والبشر في الصلاة على خير البشر.

٣- الفيومي: صاحب كتاب المصباح المنير (ص: ٧١٢) - توسل بقوله: «بمحمد وآله».

٤- الهوريني: صاحب كتاب اصطلاحات القاموس على كتاب ترتيب القاموس المحيط (ص: ٢٧) - توسل بقوله: «بجاه النبي».

٥- الأصفهاني: صاحب كتاب الأغاني (١٠ / ٣٧٥) - توسل بقوله: «نسألك بحق الله وبحق رسوله».

٦- الأبشيهي: صاحب كتاب المستطرف في كل فن مستظرف (٢ / ٥٠٨) - توسل بقوله «سألتك بحق محمد».

٧- ابن حجة الحموي: صاحب كتاب خزانة الأدب (١/ ٢٧٧) - توسل بقوله: «بمحمد وآله».

٨- القلقشندي: صاحب كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (١١/ ٣٠٢) - توسل بقوله: «بمحمد وآله».

٩- النابغة الجعدي: روى عنه ابن عبد البر شعراً بالاستغاثة بقبر النبي صلى الله عليه وسلم.

١٠- المقري التلمساني: صاحب كتاب نفح الطيب (١/ ٣٢) - توسل بقوله: «بجاه نبينا».

١١- البوصيري شرف الدين صاحب البردة الشريفة.

١٢- الصرصري: له أبيات شعر في التوسل والاستغاثة مذكورة في كتاب شواهد الحق للنبهاني (ص٣٦٠) مثل:

وسل الله عنده وتوسل فبذاك الضريح تمحى الذنوب

* * *

ذكر عدد من علماء التاريخ المتوسلين بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمقرّين له

١- ابن خلكان: توسل بقوله: «بمحمد النبي وصحبه وذويه». وفيات الأعيان (٦/ ١٣٢).

٢ـ ابن الأثير: توسل بقوله: «بمحمد وآله». الكامل (١ / ٤٣٣).

٣ـ طاشكبرى زاده: توسل بقوله: «بحرمة نبيك». الشقائق النعمانية (١ / ٢٣٣)

٤ـ ياقوت الحموي: توسل بقوله: «وبحق محمد وآله» – معجم البلدان (٥ / ٨٧).

٥ـ ابن تغري بردي: توسل بقوله: «بمحمد وآله». النجوم الزاهرة (١١ / ١٠٣).

٦ـ العيدروس: توسل بقوله: «إني أتوسل بالمصطفى» النور السافر (١ / ١٥).

٧ـ ابن العديم: توسل بقوله: «ببركة سيد المرسلين وأهل بيته». بغية الطلب في تاريخ حلب (٧ / ٣٢٤٢).

٨ـ البصروي: توسل بقوله: «بمحمد وصحبه» تاريخ البصروي (١ / ١٥٧).

٩ـ ابن جبير: توسل بقوله: «بحرمة الكريم وبلده الكريم». رحلة ابن جبير (١ / ٩٨).

١٠ـ ناصر خسرو: توسل بقوله: «بحق محمد وآله الطاهرين». سفر نامه (١ / ٦٠).

١١ـ نظام الملك الطوسي : توسل بقوله : « بحق محمد وآله » سيات نامه (١ / ٤٤).

١٢ـ البريهي : توسل بقوله : « بمحمد وآله آمين ». طبقات صلحاء اليمن (١ / ٢٤٨) .

١٣ـ الجبرتي : توسل بقوله : « ويتوسل إليه فى ذلك بمحمد صلى الله عليه وسلم ». عجائب الآثار (١ / ٣٤٤).

١٤ـ الواقدي : توسل بقوله : « فأدع الله وأتوسل إليه بمحمد ». فتوح الشام (٢ / ٩١) .

١٥ـ أبو العباس الناصري : توسل بقوله : « بجاه جده الرسول ﷺ ». كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٣ / ٢٩) .

١٦ـ عبد الرحمن بن خلدون : صاحب التاريخ المشهور، قال في شعره « فبفضل جاهك ».

١٧ـ الصالحي الشامي : جمع أبواب التوسل به صلى الله عليه وسلم – في كتابه سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد.

١٨ـ حاجى خليفة : توسل بقوله : « بحرمة أمين وحيه ». كشف الظنون (٢ / ٢٠٥٦).

١٩ـ المرادي : توسل بقوله : « فنتوجه اللّهُمَّ إليك به صلى الله عليه وسلم إذ هو الوسيلة العظمى ». سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (١ / ٢) .

ونختم هذا المبحث بما قاله الأبشيهي فى المستطرف في كل فن مستظرف (١ / ٤٩١ - ٤٩٣).

قال: «ولما حججت وزرته تطفلت على جنابه المعظم وامتدحته بأبيات مطولة وأنشدتها بين يديه بالحجرة الشريفة تجاه الصندوق الشريف وأنا مكشوف الرأس وأبكي، من جُملتها:

يا سيد السادات جئتك قاصداً ... أرجو رضاك وأحتمي بحماكا

والله يا خير الخلائق إن لي ... قلباً مشوقًا لا يروم سواكا

وبحق جاهك إنني بك مغرمٌ ... والله يعلم أنني أهواكا

أنت الذي لولاك ما خُلق امرؤ ... كلا ولا خُلق الورى لولاكا

أنت الذي من نورك البدر اكتسى ... والشمس مشرقة بنور بهاكا

أنت الذي لما رُفعت إلى السما ... بك قد سمت وتزينت لسراكا

أنت الذي ناداك ربك مرحباً ... ولقد دعاك لقربه وحباكا

أنت الذي فينا سألتَ شفاعةً ... ناداك ربُك: لم تكن لسواكا

أنت الذي لما توسل آدم ... من ذنبه بك فاز وهو أباكا

وبك الخليل دعا فعادت ناره ... برداً وقد خمدت بنور سناكا

ودعاك أيوب لضرٍّ مسَّه ... فأُزيل عنه الضر حين دعاكا

وبك المسيح أتى بشيراً مخبراً ... بصفات حسنك مادحًا لعلاكا

وكــذاك مــوسى لـم يزل مــتــوسـلاً بك في القــيــامــة مــرتج لنداكــا

والأنبـــيـــاء وكـل خَلق في الورى والرسل والأمـــلاك تحت لـواكـــا

لك مـعـجـزات أعـجـزت كل الورى وفــضــائل جلَّت فليس تُحـاكَى

نطق الذراع بسُــمِّــه لك مــعلنًا والضبُّ قــد لبَّــاك حين أتاكــا

والذئب جــاءك والغــزالة قــد أتت بك تـسـتـجـيـر وتحـتـمي بحـمـاكـا

وكــذا الـوحـوش أتت إليك وسلمت وشكـا البــعــيــر إليك حين رآكـا

ودعــوت أشــجــارًا أتتك مطيـعـة وســعت إليك مـجـيـبـة لنداكـا

والماء فــاض براحــتـيك وسـبـحت صم الحـصى بالفــضل في يمناكـا

وعليك ظللت الغـمـامـة في الورى والجـــذع حن إلى كـــريم لقـــاكــا

وكــذاك لا أثر لمشــيك في الثـرى والصـخـر قـد غـاصت به قـدمـاكـا

وشَـفـيـتَ ذا العـاهات من أمـراضه ومــلأت كل الأرض من جــدواكــا

ورددت عين قــتــادة بعــد العـمى وابن الحُـصَين شـفـيـتـه بشـفـاكـا

وكـذا حـبـيبٌ وابن عَـفْـرا عندمـا جـرحـا شـفـيـتـهـمـا بلمس يداكـا

وعليٌّ مِن رَمَـــــدٍ به داويتَـــــهُ في خـيـبـر فـشُـفي بطيب لماكـا

وسـألتَ ربك في ابن جـابر بعـدمـا قــد مــات أحــيــاهُ وقــد أرضــاكــا

ومـسـسـت شـاة لأم مـعـبـد بعـدمـا نشـفت فـدرَّت من شَـفـا رقـيـاكـا

ودعـوت عـام المَـحْـل ربك مـعلناً فـانهل قَطْرُ السُّـحب عند دعـاكـا

ودعـــوت كل الخلق فـــانقـــادوا إلى دعـــواك طوعـــاً ســامــعين نداكـــا

وخفضتْ دين الكفر يا علم الهدى ورفعت دينك فاستقام هُناكا

أعداك عادوا في القليب بجهلهم صرعى وقد حرموا الرضا بجفاكا

في يوم بدرٍ قد أتتك ملائك من عند ربك قاتلت أعداكا

والفتح جاءك يوم فتحك مكة والنصر في الأحزاب قد وافاكا

هودٌ ويونس من بهاك تجمَّلا وجمالُ يوسف من ضياء سناكا

قد فقت يا طه جميع الأنبياء نوراً فسبحان الذي سواكا

والله يا ياسين مثلك لم يكن في العالمين وحق من نَبَّاكا

عن وصفك الشعراء يا مدثر عجزوا وكَلُّوا عن صفات علاكا

إنجيل عيسى قد أتي بك مخبراً وأتى الكتاب لنا بمدح حُلاكا

ماذا يقول المادحون وما عسى أن يجمع الكتاب من معناكا

والله لو أن البحار مدادهم والعُشب أقلامٌ جُعلن لذاكا

لم تقدر الثقلان تجمع ذرةً أبداً وما استطاعوا له إدراكا

لي فيك قلب مغرم يا سيدي وحشاشة محشوة بهواكا

فإذا سكتُّ ففيك صمتي كله وإذا نطقتُ فمادحٌ علياكا

وإذا سمعتُ فعنك قولاً طيباً وإذا نظرتُ فلا أرى إلاّكا

يا مالكي كُنْ شافعي مِن فاقتي إني فقيرٌ في الورى لغناكا

يا أكرم الثقلين يا كنز الورى جُد لي بجودك وارضني برضاكا

أنا طامع في الجود منك ولم يكن لابن الخطيب من الأنام سواكا

فعساك تشفعُ فيه عند حسابه فلقد غدا مستمسكاً بعراكا

ولأنت أكرمُ شافع ومشفع ومن التجا لحماك نال وفاكا

فاجعل قرايَ شفاعةً لي في غد فعسى أُرى في الحشر تحت لواكا

صلى عليك الله يا خير الورى ما حن مشتاقٌ إلى مثواكا

وعلى صحابتك الكرام جميعهم التابعين وكل من والاكا[١]

* * *

تحرير جيد للعلامة الشوكاني في جواز التوسل وردّه على المخالفين

وعدنا فيما مضى أن ننقل كلام الإمام الشوكاني في التوسل فقد سئل الإمام الشوكاني عن التوسل بالأموات المشهورين بالفضل، وكذلك الأحياء، فأجاب برسالة سماها «الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد» بيّن فيها معنى الاستغاثة والتشفع والتوسل، وذكر أن الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه جائزة، وفيما لا يقدر عليه

---

(١) انظر كتاب أخطاء ابن تيمية في حق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته، للسيد الدكتور محمود صبيح (ص٣٥٣-٣٧١)، مع بعض الاختصار والترتيب والزيادات اليسيرة، والعمدة عليه في عزو تلك النقول، وبعضها يحتاج لعزو، والقصد من ذكرها هو إثبات صدور التوسل عن هؤلاء الأئمة في الجملة. وقد اقتصر المؤلف على ذكر أسماء هؤلاء اختصاراً، ولم يقصد الاستيعاب، فإنه يصعب حصر واستيعاب أسماء القائلين بمشروعية التوسل من العلماء أو من فعله منهم رحمهم الله تعالى.

ممنوعة بلا خلاف، ومثلها التوسل جوازاً ومنعاً، وأن التشفع ثابت لنبينا صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم بالتواتر، ثم قال ما نصه:

«وأما التوسل إلى الله سبحانه بأحد من خلقه في مطلب يطلبه العبد من ربه، فقد قال الشيخ عزُّ الدين بن عبدالسلام[1]: إنه لا يجوز التوسل إلى الله إلا بالنبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، إذ صح الحديث فيه، ولعله يشير إلى الحديث الذي رواه النسائي في سننه والترمذي وصححه وابن ماجه وغيرهم، أن أعمى أتى إلى النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم فقال: يا رسول الله إني أصبت في بصري، فادع الله لي، فقال له النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم: «توضأ وصل ركعتين، ثم قل: اللَّهُمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد، يا محمد إني أستشفع بك في رد بصري، اللَّهُمَّ شفعه فيّ».

وقال: «فإن كان لك حاجة فمثل ذلك، فرد الله بصره»[2]، وللناس في معنى هذا قولان:

أحدهما: أن التوسل هو الذي ذكره عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما قال: كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل

---

(١) العز بن عبد السلام لم يتشدد، والعذر للشوكاني أنه لم يقف على كلامه إلا بواسطة ابن تيمية الذي لم ينقل عبارته بنصها، وإنما تشدد أصحاب الأهواء والأدعياء المفرقون بين الأمة بغير حق، والذين جعلوا التسلُّف والتفريق والتكفير حرفة ينتفعون بها بدنياهم.

(٢) انظر تخريج الحديث في (ص١٩٩) من هذا الكتاب.

إليك بعم نبينا[1]، وهو في صحيح البخاري وغيره، فقد ذكر رضي الله عنه أنهم كانوا يتوسلون بالنبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم في حياته في الاستسقاء، ثم توسل بعمه العباس بعد موته، وتوسلهم هو استسقاؤهم بحيث يدعون معه، فيكون هو وسيلتهم إلى الله تعالى، والنبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم كان في مثل هذا شافعاً وداعياً لهم.

والقول الثاني: أن التوسل به صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم يكون في حياته وبعد موته وفي حضرته ومغيبه، **ولا يخفاك أنه قد ثبت التوسل به صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم في حياته، وثبت التوسل بغيره بعد موته، بإجماع الصحابة إجماعاً سكوتياً لعدم إنكار أحد منهم على عمر رضي الله عنهم في التوسل بالعباس رضي الله عنه، وعندي أنه لا وجه لتخصيص جواز التوسل بالنبي صَلَّى الله** عليه وآله وسَلَّم كما زعمه الشيخ عز الدين ابن عبد السلام لأمرين:

الأول: ما عرّفناك به من إجماع الصحابة رضي الله عنهم.

والثاني: أن التوسل إلى الله بأهل الفضل والعلم هو في الحقيقة توسل بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة، إذ لا يكون الفاضل فاضلاً إلا بأعماله، فإذا قال القائل: اللَّهُمَّ إني أتوسل إليك بالعالم

---

(١) انظر تخريج الحديث في (ص٣٤٣) من هذا الكتاب.

الفلاني، فهو باعتبار ما قام به من العلم، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم حكى عن الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، أن كل واحد منهم توسل إلى الله بأعظم عمل عمله، فارتفعت الصخرة، فلو كان التوسل بالأعمال الفاضلة غير جائز، أو كان شركاً كما يزعم المتشددون في هذا الباب كابن عبد السلام ومن قال بقوله، لما تحصل الإجابة من الله لهم، ولا سكت النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم عن إنكار ما فعلوه بعد حكايته عنهم، وبهذا تعلم أن ما يورده المانعون من التوسل إلى الله بالأنبياء والصلحاء من نحو قوله تعالى: ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ** ﴾[1]، ونحو قوله تعالى: ﴿ **فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ **لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ** ﴾[3]، هو إيراد ليس بمحله بل هو من الاستدلال على محل النزاع بما هو أجنبي عنه، فإن قولهم: ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ** ﴾، مصرح بأنهم عبدوهم لذلك، والمتوسل بالعالم مثلاً لم يعبد ذلك العالم ولكن تقرب به لبيان فقره واضطراره إلى بارئه سبحانه وكذلك قوله تعالى: ﴿ **فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴾، فإنه نهى

---

(١) من سورة الزمر الآية (٣).

(٢) من سورة الجن الآية (١٨).

(٣) من سورة الرعد الآية (١٤).

عن أن يدعو مع الله غيره كأن يقول: يا الله ويا فلان، والمتوسل بالعالم مثلاً لم يدع إلا الله، وإنما وقع منه التوسل إليه بعمل صالح عمله بعض عباده، كما توسل الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة بصالح أعمالهم، وكذلك قوله: ﴿ **وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ** ﴾، فإن هؤلاء دعوا من لا يستجيب لهم، والمتوسل بالعالم مثلا لم يدع إلا الله، ولم يدع غيره دونه، ولا دعا غيره معه، فإذا عرفت هذا لم يخفَ عليك دفع ما يورده المانعون للتوسل من الأدلة الخارجة عن محل النزاع خروجاً زائداً على ما ذكرنا، كاستدلالهم بقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ** ﴾[1]، فإن هذه الآية الشريفة ليس فيها نفي التوسل لأنها تورد حق الأمر المطلق الذي هو لله وحده في يوم الدين، وأنه ليس لأحد سواه، والمتوسل بنبي أو وليّ لا يعتقد أن لمن توسل به مشاركة لله جل جلاله في أمر يوم الدين، ومن اعتقد هذا لعبد من العباد سواء أكان نبياً أو غير نبي فهو في ضلال مبين، وهكذا الاستدلال على منع التوسل بقوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ** ﴾[2] ﴿ **قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا** ﴾[3]، فإن هاتين

(١) من سورة الانفطار الآيات (١٧ – ١٩).

(٢) من سورة آل عمران الآية (١٢٨).

(٣) من سورة الأعراف الآية (١٨٨).

الآيتين مصرحتان بأنه ليس لرسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم من أمر الله شيء، وأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فكيف يملك لغيره؟ وليس فيهما منع التوسل به أو بغيره من الأنبياء أو الأولياء أو العلماء، وقد جعل الله لرسوله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم المقام المحمود، مقام الشفاعة العظمى، وأرشد الخلق إلى أن يسألوه ذلك، ويطلبوه منه، وقال له: «سل تعط واشفع تشفع» وقيَّدَ ذلك في كتابه العزيز بأن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه، ولا تكون إلا لمن ارتضى، وهكذا الاستدلال على منع التوسل بقوله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[1]: «يا فلان ابن فلان لا أملك لك من الله شيئاً، يا فلانة بنت فلان لا أملك لك من الله شيئاً» فإن هذا ليس فيه إلا التصريح بأنه صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم لا يستطيع نفع من أراد الله تعالى ضره، ولا ضر من أراد الله تعالى نفعه، وأنه لايملك لأحد من قرابته فضلاً عن غيرهم شيئاً من الله، وهذا معلوم لكل مسلم، وليس المنع من التوسل به إلى الله، فإن ذلك هو طلب الأمر ممن له الأمر والنهي، وإنما أراد سبباً للإجابة ممن هو المنفرد بالعطاء والمنع وهو مالك يوم الدين». اهـ.

* * *

(١) من سورة الشعراء الآية (٢١٤).

إيقاظ

وفي نهاية هذا المبحث، أحببتُ أن أختمه بنقل مهم للسيد العلامة المحدِّث محمد بن جعفر الكتاني - رحمه الله تعالى - ذكره في كتابه «العلم النبوي» (مخطوط)[1] تحدَّث فيه بإسهاب عن حقيقة الوسائط وبيان حالاتها، وفيه الإجابة الشافية عما قد يشكل على بعض الأفهام في هذا الباب، فقال رحمه الله تعالى ما ملخصه:

«أما وساطته صلى الله عليه وآله وسلم في نفس الأمر وحقيقته في كل شيء فلا قائل بنفيها لا من أهل الباطن، ولا ممن يعتد به من أهل الظاهر، ونافيها ممكور به، ويخشى عليه من زوال الإيمان وإن لم يزل عنه في الحال، نسأل الله العافية، كما أن قطع النظر عنه جملة وصرفه بالكلية يؤدي إلى الكفر بل نقول: هو الكفر بعينه.

وأما ملاحظته وتشخيصه في الأعمال كلها وفي كل شيء يعد الاهتداء بأنواره والمتابعة له في أحواله وأطواره، واستحضار أنه الواسطة الكبرى، والمعول عليه دنيا وأخرى، فإن كانت لا مع الوقوف معه دون الله بل على أنه وسيلة إليه، ورابطة موجبة للاتصال به والتعويل عليه فلا بأس بها بل هو عند المحققين من أهل الله تعالى، المحمديين من عباده أعلى، ومشربها أعذب وأرفح وأنفس وأغلى، وفيها التشريع والتحقيق، والجمع بين مقامي الإيمان والعلم الرقيق،

---

(١) قد طُبع بعد طبع الكتاب.

وهذا محل ما سبق من النصوص العديدة، والأنقال الفريدة الحميدة، وإن كانت مع الوقوف معه من حيث الجملة، وحصول ضعف في الالتفات إلى الله والنفوذ إلى جنابه تعالى وعزته وعلاه كأنه صلى الله عليه وآله وسلم هو المقصود بالطريق المؤسس المعهود، فهذا مذموم شريعة وحقيقة وصاحبه ملبس عليه جاهل بالحقيقة، ويمكن أن يحمل عليه هذا الذي نقل عن الخواص وما ينقل من نحوه عن جماعة من الخواص إلا أن أهل الله في هذا الباب على حالتين:

الحالة الأولى: حالة قطع النظر عن الوسائط وهي حالة المستغرقين في شهود المنعم الذي يشهدون عجز الواسطة عن كل شيء وأنها لا فعل لها أصلاً، لأنَّها مقهورة مسخرة بتسخير الله تعالى، ولو أرادت ترك الإمداد بهذه النعمة مثلاً لم تقدر لقوة الباعث وجزم الإرادة، والله هو خالق البواعث والإرادات، ومحرك الذوات، وملهمها ومنهضها، فلا حاجة إلى شكر غيره أو حمده والثناء عليه، بل حمده وشكره والحالة هذه التفات لغير الله تعالى ورؤية لصدور النعم من غيره.

وعلى هذه الحالة قول لقمان لابنه على ما في الإحياء أو سيدنا علي في وصيته على ما في القوت: «لا تجعل بينك وبين الله منعماً وأعدد نعمة غيره عليك مغرماً».

وفي حديث أخرجه البيهقي: أنه وصل لحدير وهو فيما قيل رجل من الصحابة وقيل من التابعين من أبي الدرداء أشياء فقال: «اللَّهُمَّ إنك لم تنس حديراً فأجعل حديراً لا ينساك» فقصر التفاته إلى الله لكونه رأى أنه المعطي لا سواه، وأخرج أحمد والحاكم والبيهقي والضياء والطبراني من حديث الأسود بن سريع قال: جيء بأسير إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له عليه السلام: «تب فقال اللَّهُمَّ إني أتوب إليك، ولا أتوب إلى محمد فقال عليه السلام: عرف الحق لأهله خلوا سبيله» وفيه محمد بن مصعب وثقه أحمد وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح.

ولما نزلت براءة - عائشة رضي الله عنها - في قصة الإفك المشهورة قال لها أبواها قومي فقبلي رأس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: «أحمد الله لا إياكما» أخرجه أبو داود، والبخاري تعليقاً: فقال لي أبواي قومي إليه فقلت: «والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما ولكن أحمد الله». وله ولمسلم فقالت لي أمي: قومي إليه فقلت: «والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله». وللطبراني من حديث ابن عمر فقال أبو بكر: «قومي فاحتضني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: «لا والله لا أدنو منه» وفي رواية أخرى من حديث ابن عباس: أنها قالت: «بحمد الله لا

بحمدك، ولا بحمد صاحبك ولم ينكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك عليها، بل أمر أباها بالكف عنها مع أن الوحي في شأنها وصل إليها على لسانه صلى الله عليه وآله وسلم وبواسطته، قال في الإحياء: ومن لم يصف باطنه عن رؤية الوسائط إلا من حيث إنهم وسائط فكأنه لم ينفك عن الشرك الخفي في سره فليتق الله في تصفية توحيده عن كدورات الشرك وشوائبه اهـ.

الحالة الثانية: حالة النظر للوسائط، والملاحظة لها، والدعاء إليها، وشكرها والثناء عليها من حيث أنها واسطة للبر وسبب للخير وطريق وصول نعمة الله إليه، وللطريق حق من حيث جعله الله طريقاً وواسطة، وهذه الحالة أكمل وأولى وأكثر ثواباً عند الله وأنفس وأعلى لقوله تعالى ﴿**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ**﴾ وقوله عليه السلام: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» أخرجه أحمد والترمذي وحسنه، والضياء المقدسي في المختاره وابن جرير في تهذيبه، والحارث بن أبي أسامة في مسنده كلهم من حديث أبي سعيد مرفوعاً، ولأحمد وأبي داود والترمذي وقال: حسن صحيح، وابن حبان نحوه من حديث أبي هريرة.

وفي كلام غير واحد تبعاً للشيخ محيي الدين في فتوحاته في الباب الثالث والسبعين في الجواب عن السؤال الثاني عشر من أسئلة

الحكيم الترمذي: أن السائرين إلى الله تعالى في سيرهم إليه تعالى بعزائم الأمور المشروعة من حيث ما هي مشروعة على قسمين:

طائفة منهم - وهم الذين غلب عليهم شهود الحق تعالى من أهل مقام الإيمان الذي لا يدل إلا على الله - قد ربطت همتها على أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إنما جاء منبهاً ومعلماً بالطريق الموصلة إلى الله فإذا نبه على ذلك وأوصل العلم به وحصل المقصود زال من الطريق وخلى بينهم وبين الله تعالى، و هؤلاء إذا سارعوا أو سابقوا إلي الخيرات أو فيها لم يروا أمامهم قدم أحمد من المخلوقين، لأنهم قد زالوا من نفوسهم وانفردوا إلى الحق، وهذه كما قال الشيخ الأكبر حالة الشيخ عبدالقادر وأبي السعود بن الشبل ورابعة العدوية، ومن جرى مجراهم، فهم إذا حصلوا في مجالس القرب والحديث مع الله خاطبهم الحق تعالى بالكلام الإلهي من غير واسطة لسان معين على حسب ما في نفوسهم من ترك ملاحظة الواسطة.

والطائفة الثانية: وهم الذين غلب عليهم شهود الواسطة من أهل مقام العلم الذي لا يدل إلا على الوسائط، وترتيب الحكمة المعتادة في العالم أو مقام الجمع بين الإيمان والعلم جعلوا في نفوسهم أنه لا سبيل إليه تعالي إلا بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأنه هو الحاجب فلا يشهدون منه تعالى أمر إلا ويرون في سيرهم قدم الرسول بين أيديهم وكهذا لا يخاطبهم الحق تعالى إلا بلسانه ولغته،

كمحمد بن قائد الأواني أحد الأفراد من أصحاب الشيخ عبد القادر فإنه قال تركت الكل ورائي وجئت إليه فرأيت قدماً فغرت وقلت: لمن هذا؟ اعتماداً مني أنه ما سبقني أحد، وأني من أهل الرعيل الأول، فقيل لي: هذه قدم نبيك، فسكن روعي حينئذ.

ولا يخفى أن الثانية أجل وأكمل وأعلى وأفضل لأنها طريقة الشيخ عبد السلام بن مشيش كما يدل على ذلك كلامه في صلاته والشيخ أبي الحسن الشاذلي، وأبي العباس المرسي، وجميع الشاذلية وكل من نحا نحوهم من الأكابر والأقطاب العلية بل هي طريقة الشيخ عبد القادر على ما نقله عنه سيدي عبد الوهاب الشعراني في كتاب المنن والأخلاق، ونص كلامه: ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليَّ جعلي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واسطة بيني وبين الله تبارك وتعالى في كل حاجة طلبتها لأنه صلى الله عليه وآله وسلم كبير الحضرة الإلهية فسؤالنا ربنا بلا واسطة سوء أدب معه صلى الله عليه وآله وسلم فافهم ذلك.

وفي كلام سيدي عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه: إياك أن تحذف واسطة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتكلم الله عز وجل بلا واسطة فإنك تكون إذ ذا مبتدعاً لا متبعاً، والكامل لا يطأ مكاناً لا يرى قدم الاتباع لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم اهـ، فأفهم ذلك، واعمل على التخلق به، والله تبارك وتعالى يتولى هداك والحمد لله رب العالمين.

وبالجملة فالمحذور الذي يتعين الاحتراز عنه هو الوقوف مع الواسطة وقطع النظر عما عداها حتى تصير كأنها مقصد، فإن هذا والعياذ بالله تعالى نسيان للرب جل وعلا الذي هو الخالق المالك المتصرف حقيقة، وربما أدى والعياذ بالله إلى الكفر المحض باعتقاد أن هذه الواسطة متصفة بشيء من أوصاف الربوبية، وهذا هو الذي خافه النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أمته وحذرهم منه بقوله في حديث البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»، وقوله في حديث مالك في الموطأ عن عطاء بن يسار مرسلاً، والبزار عنه عن أبي سعيد الخدري «اللَّهُمَّ لا تجعل قبري وثناً»، ولهذا قال في بردة المديح:

دع ما ادعته النصارى في نبيهمُ

واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف

وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

فإن فضل رسول الله ليس له

حد فيعرب عنه ناطق بفم

وفي حديث هناد والطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك عن علي بن الحسين عن أبيه مرفوعاً: «لا ترفعوني فوق حقي فإن الله قد اتخذني عبداً قبل أن يتخذني رسولاً». وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن حبان في صحيحه وسمويه والبيهقي في الشعب والضياء عن أنس مرفوعاً: «يا أيها الناس عليكم بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبدالله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله».

وأما اعتقاد أنه صلى الله عليه وآله وسلم واسطة بين الله تعالى وبين خلقه لا ينالهم منه تعالى شيء ولو قل، إلا بواسطته، وأن الله تعالى جعل على يديه كلاً من نعمتي الإيجاد والإمداد، وأنه لولا تعريف الله تعالى لنا به صلى الله عليه وآله وسلم ما عرفناه كما في الحديث «اللَّهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا»، وكما في الآية الشريفة: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[1] فلا محذور فيه، بل هو من الاعتقادات الصحيحة التي لا يسع مسلماً جهلها، ومن اعتقد أنه أو غيره من جميع المخلوقات خارج عن وساطته صلى الله عليه وآله وسلم فهو جاهل من أعظم الجاهلين، ضال باعتقاده هذا، بل من أكبر الضالين، نسأل الله العافية». انتهى ملخصاً.

* * *

(١) سورة الأعراف، الآية (٤٣).

المبحث الثاني

شبهات وردود

وفيه تمهيد، ومطلبان:

المطلب الأول: في ذكر آيات استدل بها المعارضون على نفي التوسل والجواب عنها.

المطلب الثاني: ردود على كتاب «الواسطة بين الحق والخلق» لابن تيمية، مراجعة محمد جميل زينو.

المبحث الثاني

شبهات وردود

تمهيد

إن المعارضين لموضوع التوسل هم المعارضون لموضوع التبرك والاستغاثة بالنبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم وعباد الله الصالحين ولم يدركوا أنهم وقعوا في محذور عظيم، إذ أن التوسل بالذوات أمر مشروع يتطلبه عالم الشهادة كما تطلّب التبرك بالذوات، كما هو مقرر في بابه وكما هو معلوم في معنى التبرك أنه لا يتحقق إلا من خلال الذوات، وهذا أمر طفح به الكتاب وفاضت به السنة، كما هو في تابوت بني إسرائيل وقميص يوسف عليه السلام وآثار الأنبياء والمرسلين وآثار النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم من شعر وأظافر ودم وعرق وجبة وقميص ونعل وغير ذلك.

فمن أنكر التوسل بالذوات محجوج بأن ينكر التبرك بالذوات، وإنكار التبرك بالذوات اصطدام مع النص الصريح من الكتاب والسنة، من أنكره فقد أنكر النص المتواتر فيهما فهو كافر بالاتفاق، ومن رفض ذلك القياس فقد تناقض في مفهومه وضل ضلالاً بعيداً ولبّس على المسلمين أمور دينهم وأصبح يضرب ضرب عشواء، ولذا عقدتُ مقارنة بين تلك المصطلحات الواردة أعلاه، فلم أجد بينهما خلافاً إلا في اللفظ والتوجيه.

فالتوسل: ما هو إلا التجوه والترجي والتوجه إلى الله بنعمة من نعم الله لاستدرار رحمة الله، فهو إذن بمثابة الفعل المشروع لإظهار التخشع والخضوع لله وحده فهو الدين الخالص.

والوسيلة أو الواسطة: هي الأداة المباركة المدخول ببركتها في حضرة الله، والحقيقة المقبولة في حضرة المولى سبحانه للمناجاة له وحده جل في علاه، يلجأ إليها العبد إما للتعرض إلى رحمة الله، أو شعوراً بقداستها عند التقرب والانكسار والمناجاة، يفزعُ إليها ويستغاث بها إلى الله لاستدرار نعمة أو رفع نقمة من صدق الإقبال في الطلب وحسن المعاملة مع الله سبحانه وتعالى.

فنخلص من هذا إلى أن التوسل: هو الاستغاثة والتجوه والتوجه والتبرك، والوسيلة: هي الأداة أو النعمة الواسطة الصالحة المباركة المشروعة المتوسل والمتبرك والمتقرب بها إلى الله سبحانه ذاتاً صالحة مباركة كانت أو عملاً صالحاً مباركاً، أو زمناً صالحاً مباركاً، فهي إذاً رحاب الصدق في موطن الصدق لنيل الصدق من واهب الصدق سبحانه، أو هي رحاب الحق في موطن الحق لنيل الحق من الحق سبحانه وتعالى، والله أعلم بمراده في عطائه وهباته إنه ولي ذلك ومليكه.

وقد قرر ذلك أئمة الدين كشيخ الإسلام الإمام السبكي رحمه الله تعالى والإمام النووي وابن حجر الهيتمي، فقال: في

الجوهر المنظم (ص١٧٥-١٧٨): «ولا فرق بين ذكر التوسل والاستغاثة والتشفع والتوجه به ـ صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم ـ أو بغيره من الأنبياء وكذا الأولياء وفاقاً للسبكي، وإن منعه ابن عبدالسلام ـ بل الذي نقله بعضهم عنه أنه منعه بغير نبينا، وذلك لأنه ورد جواز التوسل بالأعمال، كما في حديث الغار ـ الصحيح مع كونها أعراضاً، فالذوات الفاضلة أولى.

ولأن عمر بن الخطاب توسل بالعباس ـ رضي الله عنهما ـ في الاستسقاء دونما نكير

وكأن حكمة توسله به دون النبي صلى الله عليه وسلم وقبره إظهار غاية التواضع لنفسه، والرفعة لقرابته، ففي توسله به توسل بالنبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم وزيادة....

إلى أن قال رحمه الله: لا يقال: لفظ التوجه والاستغاثة يوهم أن المتوجِّه والمستغاث به أعلى من المتوجَّهِ والمستغاث عليه لأن التوجه من الجاه ـ وهو علو المنزلة ـ وقد يُتوسل بذي الجاه إلى من هو أعلى جاهاً منه .

والاستغاثة: طلب الغوث، والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره وإن كان أعلى منه، فالتوجه والاستغاثة به صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم وبغيره ليس لهما معنى في

عقول المسلمين غير ذلك، ولا يقصد بهما أحد منهم سواه، فمن لم ينشرح صدره لذلك فليبك على نفسه نسأل الله العافية.

والمستغاث به في الحقيقة هو الله والنبي ـ صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم ـ واسطة بينه وبين المستغيث، فهو سبحانه مستغاث به، والغوث منه خلقاً وإيجاداً. والنبي ـ صلى الله عليه وآله سلم ـ مستغاث، والغوث منه سبباً وكسباً ومستغاثاً.

ولا يعارض ذلك خبر أبي بكر رضي الله عنه: «قوموا نستغيث برسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم من هذا المنافق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه لا يستغاث بي إنما يستغاث بالله عز وجل».

لأن في الخبر ابن لهيعة والكلام فيه مشهور، وبفرض صحته فهو على حد قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[1] «وما أنا حملتكم ولكن الله حملكم»، أي أنا وإن استغيث بي فالمستغاث به في الحقيقة هو الله وكثيراً ما تجيء السنة بنحو هذا أي من بيان حقيقة الأمر، ويجيء القرآن بإضافة الفعل لمكتسبه كأن يقول صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله»، مع قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]، وبالجملة

---

(١) سورة الأنفال، الآية (١٧).

(٢) سورة النحل، الآية (٣٢).

فإطلاق لفظ الاستغاثة لمن يحصل منه غوث ولو سبباً وكسباً أمر معلوم لا شك فيه لغة ولا شرعاً، فلا فرق بينه وبين السؤال، وحينئذ تعين تأويل الحديث المذكور، لا سيما مع ما نقل أن في حديث البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ في الشفاعة يوم القيامة: «فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمد صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم».

وقد يكون معنى التوسل به صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم طلب الدعاء منه إذ هو حي يعلم سؤال من يسأله . . . .

إلى أن قال رحمه الله: وأنه صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم يتوسل به في كل خير قبل بروزه بهذا العالم ، وبعده في حياته، وبعد وفاته، وكذا في عرصات القيامة، فيشفع إلى ربه، وهذا مما قام الإجماع عليه وتواترت به الأخبار. انتهى.

وملاك القول: أن الاستغاثة والتشفع والتجوه والتبرك فعل، والواسطة والوسيلة هما الوُصلة المتقرب بها، فهما بمعنى واحد أي: أن بينهما خصوصاً وعموماً فهما يتفقان في المضمون وهي القربة، ويفترقان في النوعية، فالواسطة حقيقتها ذاتية، فالقرب يتم بها عن طريق الذوات وتكون بالحوائج الدنيوية والأخروية، ويدخل بها البر والفاجر، أما الوسيلة فحقيقتها معنوية وتتم للصادقين بالصادقين وللفاجرين بالفاجرين.

فالمنكر لها جاهل غمر ضال مضل والآخذ بها عاقل والجامع بينها وبين الباطل مخلط وزائغ، فلو أدرك بالفطنة لأدرك أنه واقع في الوسيلة من أول وهلة دون ريب، فقد شهد بأن الله لا إله غيره، بما ذا يا تُرى؟ بمحمد رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، فجعل الله سبحانه وتعالى معرفة وحدانيته عن طريق الشهادة بعبودية سيدنا محمد صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم وواسطته بين الخلق وخالقهم، وسرى ذلك الجلال في الشريعة على ذلك المنوال في كافة العبادات والقربات فمن خلط بينها وبين القربات الباطلة فهو ظالم لنفسه، لأنه خلط بين الحسنة والسيئة، والله يرد عليه بقوله سبحانه: ﴿ **مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً** ﴾ أي مشروعة ﴿ **يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا** ﴾ أي حظ من الأجر والثواب والفرج ﴿ **وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا** ﴾[1] أي نصيب من الهم والإثم والرجس والضيق والثقل كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ** ﴾[2] وصدق الله حيث قال: ﴿ **فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى** ﴾[3]. قال العلامة محمد المصطفى

---

(١) سورة النساء، الآية (٨٥).

(٢) سورة الأنعام، الآية (١٢٥).

(٣) سورة البقرة، الآية (٢٥٦).

دده[1]: «اعلم أن العروة الوثقى اسم من أسماء نبينا صلى الله عليه وسلم، ورد بذلك القرآن في قول بعض المحبين والفقهاء المتصوفين كما ذكر في تذكرة المحبين في أسماء سيد المرسلين وحكى عبدالرحمن السلمي عن بعضهم أن العروة الوثقى هو محمد صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم أي: فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بمحمد حبيب الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم. انتهى.

فالتمسك برسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم في جميع الأحوال والمعول عليه في كل مآل نتائجه بلوغ درجة اليقين بالله رب العالمين فرسوخ الإيمان بالجنان متوقف على التشبث بواسطة مقام سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم السلام.

* * *

(١) المدحة الكبرى ص٢٣ .

المطلب الأول

في ذكر آيات استدل بها المعارضون على نفي التوسل والجواب عنها

وهنا أحب أن أورد آيتين يدعي بعضهم نفي التوسل من خلالهما:

الآية الأولى: قول الله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾[1]. قد اعترض المعترض بأن هذه الآية دليل على منع التوسل بالنبي بعد انتقاله، وتثبت التوسل به في حياته، ويؤيد ذلك ما أخرجه الترمذي[2] في قوله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم: «أنزل الله أمانين لأمتي، وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون، فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة». أي: لا يتوسل بالنبي بعد وفاته!!!.

أقول وبالله التوفيق: إن هذه الشبهة أوهى من بيت العنكبوت، إذا ما عرفنا سبب نزول هذه الآية واستعرضنا آراء أهل العلم، فقد أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره، عن سعيد بن جبير في قوله

---

(١) من سورة الأنفال الآية (٣٣).

(٢) الترمذي (٥ / ٢٧٠)

سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ ﴾[1] الآية. قال: نزلت في النضر بن الحارث، وروى البخاري عن أنس قال: قال أبو جهل بن هشام: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فأنزلت: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ ... الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: غفرانك فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن ابن أبزى: كان الرسول بمكة فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[2].

كان أولئك البقية من المسلمين الذين بقوا فيها يستغفرون فلما خرجوا أنزل الله: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾[3]، الآية. فأذن في فتح مكة، فهو العذاب الذي وعدهم.

قال ابن جرير[4]: وأولى هذه الأقوال عندي في ذلك بالصواب قول من قال: تأويله ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ يا محمد وبين أظهرهم مقيم حتى أخرجك من بين أظهرهم، لأني لا أهلك قرية وفيها نبيها .اهـ

---

(١) من سورة الأنفال الآية (٣٢).

(٢) من سورة الأنفال الآية (٣٣).

(٣) من سورة الأنفال الآية (٣٤).

(٤) تفسير ابن جرير الطبري (٩ / ٢٣٨).

قال البيضاوي[1] : «الآية بيان لما كان الموجب لإمهالهم والتوقف في إجابة دعائهم، واللام لتأكيد النفي، والدلالة على أن تعذيبهم عذاب استئصال لهم والنبي بين أظهرهم خارج عن عادته غير مستقيم في فضائله، والمراد باستغفارهم إما استغفار من بقي فيهم من المؤمنين أو قولهم اللهم غفرانك» اهـ.

وبعد هذا العرض تبين لك أخي القارئ انفضاح تلك الشبهة، وإن دلت على شيء فقد دلت على ضعف مستوى قائلها العلمي وسوء طويته في حضرة المصطفى صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، الذي جعله الله أمانا للبَرّ والفاجر جسدا وروحا، وأن مدده صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم لا ينقطع عن المسلمين ما داموا متمسكين بشرعه متبعين لهديه متطبعين بسنته، وقد ذكر البغوي عن مجاهد وعكرمة وغيرهما من أهل العلم ممن فسر الاستغفار بالإسلام، ولا حجة للمعترض بالحديث المتقدم الذي أورده الترمذي، حيث إن الحديث ضعيف كما قال الترمذي: حديث غريب، وإسماعيل بن مهاجر يضعف في الحديث ... ومع تقوية ابن كثير لهذا الحديث فليس فيه حجة للمعترض بنفي التوسل بالنبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم بعد نقلته، إذ لو كان المفهوم كذلك لصرح أهل العلم به ولبينه ابن كثير بعد تصحيحه لهذا الأثر، وفي الواقع أن هذا الأثر يفسره هديه

---

(١) تفسير البيضاوي (٥/١٠٥).

صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم في قوله: «النجوم أمان للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمان لأصحابي فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمان لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما توعد»[1].

فهذا الحديث الجليل يبين عظيم ذات النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، فقد شرّفت ذاته الوجودات أجمع ومن أعظم من حظي بذلك الفضل أصحابه، رضوان الله عليهم حيث نُسبوا إليه وارتقوا بصحبته ونظره، مما جعلهم أفضل خلق الله بعد النبيين والمرسلين، وكذلك من رأى أصحابه، حاز فضلا لا يعدله فضل بعد أصحابه، وقد بين ذلك صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم بقوله: «طوبى لمن رآني أو رأى من رآني» فكيف يسوغ لعاقل بعد هذا التقرير النبوي عن فضل الذات له ولمن رآه، بأن يسول لنفسه أن يمنع التوسل بما عظم الله، وعظم رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم،وعظم أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم؟!.

وقد أشار النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم بقوله: «أنا أمان لأصحابي،...، وأصحابي أمان لأمتي ...» الحديث، إلى أهمية

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١ / ٥٣) وقال عنه الهيثمي في المجمع (١ / ٣١٣). رجاله موثقون وكما أخرجه الطبراني أيضاً في الأوسط (٧ / ٢٦٨) والصغير (٢/١٦٦) ونحوه عند أحمد في المسند (٤/٣٩٩)، وعند مسلم في صحيحه برقم (٢٥٣١)، وأخرجه الحاكم في مستدركه (٢ / ٤٨٦) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وزاد: «وأهل بيتي أمان لأمتي فإذا ذهب أهل بيتي أتاهم ما يوعدون».

اللجوء إليه عند نقلته، وبأهمية اللجوء إلى آل بيته وأصحابه عند نقلتهم، ولا يعني النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم أنه إذا انتقل ذهب أمانه لأمته، وإذا ذهب آله انتقل أمانهم عن أمته، وإذا ذهب أصحابه انتقل أمانهم عن أمته، فهذا فهم لا يخطر على بال أبسط مخلوق على وجه البسيطة، فكيف بالصادق المصدوق صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم، ولكن الذي عناه النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم التحذير من ترك التعلق به وبآله، أو ترك التعلق بأصحابه الذي يمثله الاستغفار المعبر عن عميق الاتباع لهذا النبي، والتشبث بمحبته واتباعه صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم بعد نقلته ونقلتهم، وأن هذا الدين حبل موصول به وبآله وأصحابه، وكل ما في الأمر أن الشارع صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم أراد أن يواسي هذه الأمة بأن أمانها باق به صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم وبآله وبأصحابه شريطة الاتباع، لذا قال: «يا فاطمة بنت محمد اعملي، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً». فلا تنفع وسيلة دون عمل صادق، ولا جرم أن النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم والصحابة قبل النقلة إلى الدار الآخرة كانوا يتحملون عن الأمة استغفارها، ولو لم تستغفر، وبعد نقلتهم بقي الأمان على ما كان عليه شريطة الاستغفار لما يتطلبه عالم البرزخ وقد وضح النبي ذلك في كثير من هديه، ويكفينا دليلاً قوله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم: «تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي، كتاب الله، وعترتي أهل بيتي...» الحديث. وقوله سبحانه: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ**

ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾[1] الآية. وهي عامة في حياته وبعد نقلته، كما قال ابن كثير وغيره. وقوله صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم في الحديث الصحيح الذي أخرجه البزار: «حياتي خير لكم ووفاتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم»[2]. كما تقدم عند شرح هذه الآية.

والآية الثانية التي ينفي المشككون من خلالها جواز التوسل هي قول الله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾[3].

يقولون: الواسطة منفية في الدعاء، حيث جرت العادة أن يكون الجواب في مثل هذا النسق بـ «قل» كقول الله تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ**﴾[4]، وقوله: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**﴾[5]، وقوله: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى**﴾[6]، إلا آية الدعاء فقد كان الجواب فيها بدون «قل» فهذا دليل على نفي الواسطة في الدعاء.

وقد رد فضيلة الشيخ الدكتور محمد سليمان فرج بأن السؤال عن ذلك في كتاب الله كثير، فأحياناً يرد بـ «قل»، وأحياناً بدونها،

---

(١) من سورة النساء الآية (٦٤).

(٢) انظر تخريجه في (ص٣١٥-٣١٦) من هذا الكتاب.

(٣) من سورة البقرة الآية (١٨٦).

(٤) من سورة البقرة الآية (٢١٩).

(٥) من سورة البقرة الآية (١٨٩).

(٦) من سورة البقرة الآية (٢٢٢).

على حسب مقتضى الأسلوب، وليس في ذلك حجة لمنع التوسل، فقد سئل النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم عن الساعة في قوله تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا** ﴾[1]، فلم يأت الجواب بـ«قل»، علماً بأن الساعة من المغيبات .اهـ.

قلت: هذا ولو صدر الآية بـ«قل» لامتنع عود الضمير على لفظ الجلالة، ولعاد على الرسول صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم، وسيكون المعنى حينئذ أن النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم هو القريب، وهذا متعذر، إذ المقصود في الآية عود الضمير على لفظ الجلالة.

وحذف «قل» يقتضيه المقام لشدة قرب مقام الرسول صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم من استجابة الدعاء، لأن مقتضى سياق الآية سؤال النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم، ولو كانت الواسطة منفية لما أحيل السائل إلى سؤال النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم عن الله، ولاكتفى بمعرفة قرب خالقه فطرةً، ولكن الإحالة هي مجلى الرسالة.

* * *

(١) من سورة النازعات الآيات (٤٢-٤٤).

المطلب الثاني

ردود على كتاب «الواسطة بين الحق والخلق» لابن تيمية

مراجعة: محمد جميل زينو

توطئة:

الوسيلة: هي طريق الوصول إلى المأمول، والوسيلة في الشريعة: قنطرة موضوعة لمعانٍ مشروعة، أو هي ظواهر ملموسة لمعان نفيسة محسوسة، أو هي سبل مشروعة لمطالب مخصوصة.

والتوسل في الشريعة: تجاهل تقي لأعماله المبذولة، والتماس رجائها من أعمال مقبولة لذوات موصولة.

الرد:

قال ابن تيمية في الواسطة (ص٢٠) تحت عنوان: الرسل لا يجلبون النفع، ما نصه:

«وإن أراد بالواسطة أنه لا بد من واسطة في جلب المنافع ودفع المضار، مثل أن يكون واسطة في رزق العباد ونصرهم وهداهم، يسألونه ذلك ويرجعون إليه فيه، فهذا من أعظم الشرك الذي كفّر الله به المشركين، حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء، يجتلبون بهم المنافع، ويجتنبون المضار، لكن الشفاعة لمن يأذن الله له فيها». انتهى.

أقول: قد تناقض الشيخ في هذا التقرير، حينما ذكر أن ذلك بإذن الله، وفي هذا النص خلط على الأمة لا يخفى، فكان على الشيخ أن يوضح الفرق بين السبب والمسبب، وأن يفرق بين النفع والضر المطلق، وبين النفع والضر المقيد، وأن يفرق بين الوسائط المشروعة المأذون بها، وبين الوسائط غير المأذون بها، ولكن مع الأسف قد خلط بين ما أذن الله به، وبين ما لم يأذن الله به من الوسائط، وكان عليه أن يُوَضِّحَ عقيدة المؤمن، وطريقة تعامله مع السبب المطلق والسبب المقيد مع الواسطة وخالق الواسطة.

وأعجب ممن يقول: إن القوة مودعة في الأشياء، وأهل الحق يبرأون من ذلك، حيث إنهم حينما يتوسلون بالملائكة والأنبياء والصالحين، لا يقولون بالقوة المودعة فيهم من التأثير المطلق، ولكن ببركة صدقهم يرجون من الله أن يحقق لهم ما يرجون من أمور الخير في الدنيا والآخرة، بعد صدقهم مع الله له وتقواهم، وليس على وجه البسيطة عاقل من الموحدين يعتقد أن الوسائط تنفع وتضر استقلالاً، ولكن بإذن الله.

وما الوسائل والوسائط المشروعة إلا دلائل الحق للخلق في إبلاغ رسالته، وإنزال رحمته وإسعاده، ومظهر من مظاهر ابتلائه لعبده في صدق اتباعه، فقد اختبر الله الملائكة حينما أمرهم بالسجود لآدم،

علماً بأن السجود لسواه شرك، فلم يأب أمر الله إلا إبليس، ولم يكن السجود لآدم مجرد دعاء، ولكنه سجود محسوس، فهو مظهر من مظاهر الابتلاء، تحول من ذلك المشهد إلى مشاهد أخرى، نجدها في حياتنا حتى نلقاه، فقد عظم الكعبة وأمرنا بالسجود إليها، علماً بأن السجود في الحقيقة له، فهل يحق لنا أن نعتقد أن من سجد للكعبة سجد لغير الله؟.

لماذا أمرنا الله بالسجود لجهة الكعبة؟

لعدة أمور:

أولاً: لأن الله تعالى منزه عن الجهة وليس له صورة ولا شكل.

ثانياً: ولأن السجود لله أقصى درجات الذل، وأذلُ شيء من مخلوقات الله الجمادات، ولذا أمرنا أن نسجد على الأرض، ونتجه إلى حجارة من الأرض مباركة مُشرفة، حيث إن هذه الحجارة تشرفت بأقصى درجات الخضوع لله حين تجلى عليها الحق بقوله: **﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾**[1].

فهو مكان شريف نطقت حجارته بالإجابة لرب العالمين، لأن منها اختيرت شبحية سيد المرسلين «طينته»، فهو النبي عبدُ الله

---

(١) من سورة فصلت الآية (١١).

المتواضع صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، فكما أن الكعبة قبلة المصلين للأجساد الظاهرة، فكذلك روح محمد قبلةُ الأرواح والقلوب المنيبة الصادقة. ولذلك إذا كان أحد يصلي وناداه النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم وجب عليه إجابته وقطع صلاته واتجاهه إلى الكعبة، ومعلوم أن المصلي لا يقطع صلاته إلا إلى ما هو أهم منها فعلم أنه صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم هو قبلة المخلوقات طُرّاً، بل وجعل تعظيم شعائره من تقواه، فقد قال جل من قائل: ﴿ **وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴾[1].

فأمرنا بتعظيم الرسول الخاتم صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، وتعظيم آله، وتعظيم أصحابه السابقين بإحسان، وتعظيم كل مؤمن صادق....

«أذكركم الله في أهل بيتي،أذكركم الله في أهل بيتي»[2] «الله الله في أصحابي...»[3]، «ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...»[4] فهل هذا التعظيم فيه غائلة شرك، لأن الله هو العظيم؟؟ فمن لا يخلط بين هذا وذاك، ألزم بأن لا يخلط بين نفع السبب، ونفع

(١) من سورة الحج الآية (٣٢).

(٢) رواه مسلم (٢٤٠٨)، وأحمد (٤/٣٦٦).

(٣) رواه الترمذي (٣٨٦٢)، وأحمد (٥/٥٤).

(٤) رواه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٣).

المسبب، وضر السبب، وضر المسبب. أما أن يعتبر ابن تيمية أن من يعتقد مجرد النفع والضر للملائكة والنبيين يعتبر مشركاً، فهذا اتهام في غير موضعه، وحز في غير مفصله.

ثالثاً: ولأنّ أول بقعة استجابة هي البقعة التي بنيت عليها الكعبة المشرفة، فجعل الله هذه البقعة قبلة المسلمين، تتم استجابة دعائهم بطريق السريان التجاذبي للأجسام كما هو معلوم في علم الهيئة.

ولما خلق الله الإنسان من صفات متضادة، خصلة خير وخصلة شر، وكل خصلة تحدو بها المشاعر الخاصة بها للحوق بالإجابة، وخصلة الخير استجابتها إلى الخضوع والتواضع، وخصلة الشر استجابتها إلى الكبر والاستعلاء، ولذا كان الامتحان للملائكة وإبليس بالسجود لآدم، فسجدت الملائكة كلهم طاعة لأمر ربهم لذلك المخلوق المتواضع الخاضع لربه، وأبى إبليس لكبريائه أن يسجد لمخلوق أدنى منه في نظره، لذلك كانت الكعبة ذات البقعة الخاضعة لله تعالى قبلة الموحدين، حتى يندحر الشيطان ويخزى، فتتم لهم الاستجابة عن طريق ذواتهم المكرمة الناطقة إلى تلك البقعة الخرساء المتواضعة، فيرتدع بذلك نشاط خصلة السوء التي تحدو بصاحبها إلى تجسيد الأقوى والأعظم، وتبقى القبلة الروحية، وهي اتصال

قلب المؤمن بقلب سيدنا محمد صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم، لأنه عليه الصلاة والسلام قبلة الأرواح، والكعبة قبلة الأشباح، لأن انطراح الأشباح في باب التواضع يسمو بالروح إلى أعلى المراتب، من قوله: «من تواضع لله رفعه»(١)، ومفهوم هذا الحديث: من تعالى على الله أخضعه وأذلّه.

* * *

يقول ابن تيمية في (ص٢٢)، ما نصه: «فبيّنَ سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر، فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار، مثل أن يسألهم غفران الذنب، وهداية القلوب، وتفريج الكروب، وسد الفاقات، فهو كافر بإجماع المسلمين...». انتهى.

الـــرد:

أقول: وفي هذا النص المتقدم إيهام على كل قارئ، فلم يقل أحد من المسلمين: إن من يفعل ذلك يعتبر كافراً ناهيك عن الإجماع، اللَّهُمَّ إلا إن اعتقد نفعهم وضرهم استقلالاً، فهذا أمر لا

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٧٦)، وابن حبان في صحيحه (٥٦٧٨)، بلفظ «من تواضع لله درجة يرفعه الله درجة، حتى يجعله في أعلى علّيين، ومن يتكبر على الله درجة، يضعه الله درجة، حتى يجعله في أسفل السافلين...» الحديث.

شك فيه، ولا يجوز أن يعتقد في الأمة المرحومة ذلك الباطل الذي ضلت به اليهود والنصارى، فإن أمة الإسلام أمة مرحومة، ومحفوظة من تلك الغوائل، بما حفظ به كتابها ونبيها، فمحبة النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم محبة الله، واتباع النبي اتباع الله، فلا يكون من غوائل الشرك، لأن هذه الأمة قد عصمت من عبادة نبيها، حينما أمرها الله بالصلاة على عبده، وصرح سبحانه بعبوديته بقوله: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ**﴾[1]، علماً بأن الآية التي استدل بها الشيخ لا تدل على ما ذهب إليه، فإن الحق سبحانه وتعالى يبرئ أنبياءه من أن يقولوا للناس: كونوا عباداً لي، ولكن كونوا ربانيين. والربانيّ هو الذي تربى في الشريعة، بصدق وإخلاص حتى عرف الحقيقة بذلك الصدق فعمل بما علم، فأورثه الله علم ما لا يعلم.

ابتلاكم سبحانه بالوسائط، وحضكم على توقيرها واحترامها، ولم يوقفكم عند ذلك، بل حضكم على أن تعرفوا للواسطة قدرها وتعطوها حقها، وتمضوا لمن خلقها وحركها، وطوى كونكم وكونها، حتى لا تروا قوة فعالة إلا لله سبحانه وتعالى، فليس ثمة رب للمخلوق إلا الخالق، وكل الوسائط دلائل تنال بها المطالب، ولا يجوز الخلط في ذلك بين حقوق الموسوط وحقوق الموسط، فقد

(١) من سورة الإسراء الآية (١).

يتشارك الموسط مع الموسوط في أمور، ويفترقان في أمور، فالموسط نفعه مطلق وضرره مطلق، كذلك وهو الغفار، وهو الرحمن، والموسوط نفعه وضرره مقيد، ولا تطلب منه المغفرة والرحمة استقلالاً ولكن عن طريق التوجه إلى الله، كأن يقول: يا رسول الله سل الله لي الرحمة، سل الله لي المغفرة، لقوله سبحانه: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا** ﴾[1]. وقد ورد أن ابن عمر رضي الله عنهما لما خدرت رجله، قال له عبدالرحمن بن سعد: ادعُ أحب الناس إليك، فقال: يا محمد، فكأنما نشط من عقال. وورد أيضاً أن شعار المسلمين في معركة اليمامة كان «وامحمداه».

يقول ابن تيمية في (ص٢٥): «ومن أثبتَهُم وسائطَ بين الله وبين خلقه كالحُجَّاب الذين بين الملك ورعيته، بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه، فالله إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم، فالخلق يسألونهم وهم يسألون الله، كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس لقربهم منهم، والناس يسألونهم أدباً منهم أن يباشروا سؤال الملك، أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك، لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب

(١) من سورة النساء الآية (٦٤).

للحوائج، فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك يجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، وهؤلاء مشبهون لله، شبهوا المخلوق بالخالق، وجعلوا لله أنداداً». انتهى.

الـــرد:

ولا يخفى عليك ـ أيها القارئ الكريم ـ ما في تلك العبارة من الزيغ والضلال ـ ففرق بين من يقيس الخالق بالمخلوق، فهو كافر لا محالة، وبين من لا يقيس، بل لديه مجرد التشابه في الظاهر دون الحقيقة، فما الضير في من يقصد الأنبياء والصلحاء في قضاء الحوائج، وقد جاءت النصوص صحيحة في جواز ذلك، ولو كان مجرد القصد يقاس بقصد ملوك الأرض، وأن الشبه في ذلك كثيرة ـ لما أمرنا الله بالسجود للكعبة، ولما أمرنا الله عند بيعته ببيعة رسوله، ولما أمرنا الله عند اتباعه باتباع رسوله، ولما أمر الله عند محبته، بمحبة رسوله، ولما أمر الله ملك الموت بقبض الأرواح، ولما أمر الله الملائكة الكاتبين بأن يكتبوا على المكلف ما يبدر منه من خير أو شر، ولما أمر الله ملائكة يحفظون العبد من أمر الله، ولما صح أن يأمر الله يوم القيامة حينما يكون أقرب ما يكون إليهم أن يستشفعوا بآدم، ثم من بعده حتى يبلغوا محمداً، فهل هذا عجز من الله والعياذ بالله؟؟ فيلزم على ابن تيمية أن يثبت عجزاً لله، أو يتنصل عما ألزم به المسلمين في ذلك المثال الذي سطره في الأسطر المتقدمة.

وقال ابن تيمية عند أنواع الوسائط المردودة في القرآن الكريم ـ كما يزعم: « **الوجه الأول**: ومن قال: إن الله لا يعلم أحوال عباده حتى يخبره بذلك بعض الملائكة أو الأنبياء أو غيرهم فهو كافر...».

هذا حق، فأين المسلم الذي يعتقد ذلك في جميع الفرق الإسلامية؟ بل إن عبدة الأوثان لم يعتقدوا ذلك !!!.

وقال أيضاً: « **الوجه الثاني**: أن يكون الملك عاجزاً عن تدبير رعيته ودفع أعدائه إلا بأعوان يعينونه، فلا بد له من أنصار وأعوان لذله وعجزه، والله سبحانه ليس له ظهير ولا ولي من الذل...»،اهـ.

لم يقل أحد من المسلمين ذلك إلا ابن تيمية وأعوانه، فقد قال ابن تيمية في الفتاوى في الجزء الخامس (ص٥٠٧): « وأعوانه من الملائكة».

وقال ابن تيمية أيضاً: « **الوجه الثالث**: أن يكون الملك ليس مريداً لنفع رعيته والإحسان إليهم ورحمتهم إلا بمحرك يحركه من خارج...، والله تعالى هو رب كل شيء ومليكه، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وتلك الأشياء إنما تكون بمشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو إذا أجرى نفع العباد بعضهم على بعض، فجعل هذا يُحسن لهذا ويدعو له ويشفع فيه ونحو ذلك، فهو الذي

خلق ذلك كله، وهو الذي خلق في قلب هذا المحسن الداعي الشافع إرادة الإحسان والدعاء والشفاعة، ولا يجوز أن يكون في الوجود من يكرهه على خلاف مراده، أو يعلمه ما لم يكن يعلم، أو من يرجوه الرب ويخافه، والشفعاء الذين يشفعون عنده لا يشفعون إلا بإذنه، فبين أن كل من دُعي من دونه ليس له ملك ولا شرك في الملك، ولا هو ظهير، وأن شفاعتهم لا تنفع إلا لمن أذن له، وهذا بخلاف الملوك فإن الشافع عندهم قد يكون له ملك، وقد يكون شريكاً لهم في الملك، وقد يكون مظاهراً لهم معاوناً لهم على ملكهم.

وشفاعة العباد بعضهم لبعض، كلها من هذا الجنس، فلا يقبل أحد شفاعة أحد إلا لرغبة أو رهبة، والله تعالى لا يرجو أحداً ولا يخافه، ولا يحتاج إلى أحد، بل هو الغني، والمشركون يتخذون شفعاء من جنس ما يعبدونه من الشفعاء. اهـ.

الرد:

هذا الوهم جاء من المقاييس الباطلة في مخيلة ابن تيمية، فقد تنزه الباري أن يقاس بالمخلوق العاري عن الاقتدار المطلق، فقبول الحق الشفاعة من العبد لا يلزم منها ما يلزم المخلوق، فحينما نص الحق: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾[1] انتقض كل ما زعم، فهم شفعاء

---

(١) من سورة الأنبياء الآية (٢٨).

أقرهم الحق وأذن لهم، فلا يلزم من إذنه لهم إلزامه بما لزم في المخلوق، فكما ألزم ابن تيمية من يتوسط بالأنبياء والصلحاء أن يلزموا الحق بالرغبة والرهبة، نقول له: أنت أولى بهذا الإلزام بعدما أثبت الشفاعة للأنبياء، فإن أهل الحق لم يخطر على بالهم ذلك الإلزام، فإنهم يعرفون حق الخالق وحق المخلوق.

وها هو في (ص٣١) يفسر الشفاعة بالدعاء فيقول: «والشفاعة هي الدعاء، ولا ريب أن دعاء الخلق بعضهم لبعض نافع، والله قد أمر بذلك... » إلى أن قال في (ص٣٣): «وكل داع شافع، دعا الله سبحانه وتعالى وشفع، فلا يكون دعاؤه وشفاعته إلا بقضاء الله وقدره ومشيئته، وهو الذي يجيب الدعاء ويقبل الشفاعة، فهو الذي خلق السبب والمسبب، والدعاء من جملة الأسباب التي قدرها الله سبحانه وتعالى» .اهـ.

الرد:

لا يختلف اثنان في أن الشفاعة هي الدعاء المقرون بالشفيع، وليست مجرد الدعاء، لأن الدعاء لا وجود له دون الشفيع فالشفيع أصل، والشفاعة فرع، فالفصل بينهما حماقة وجهل لا ريب فيه، لأنهما متلازمان لا ينفكان، فحينما يتوسل العبد بالنبي أو بالولي، إنما يتوسل بمنزلته ومكانته التي استلزمت قبول الدعاء، ولكن من هو الشفيع؟ ولمَ اختص الحق بالشفاعة بعض المخلوقين؟.

لا شك أن الحق اختص المقربين من الملائكة والنبيين والصديقين بالشفاعة، بل واختص خاتم المرسلين صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم بالشفاعة العظمى، فلمَ اختصه دونهم؟ ولِمَ اختصهم دون الخلق؟ .

لا شك أن الإجابة واضحة، حيث إن اختصاص النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم دونهم لمنزلته وقربه من ربه، التي تفوق منزلتهم، فلولا تلك المنزلة والقربة لما كان سيد الشفعاء، ولما جازت شفاعته، وكذلك الحال في النبيين والصديقين، لولا منازلهم ودرجاتهم العالية عند ربهم لما خصهم بالشفاعة.

وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ أفادت هذه الآية أن شفاعة الشفعاء مقضي بقبولها، وأن الإذن المعني هنا إذن نفاذ، أعلمها الشفعاء بحسب قدرته ومشيئته سبحانه.

أما عن قوله: «إن دعاء الخلق بعضهم لبعض نافع، والله قد أمر بذلك» .اهـ.

الرد:

فأقول: إن دعاء الخلق بجاه النبي ومنزلته نافع أيضاً، لأن الله أمر به في كتابه وفي سنة نبيه، وقد تقدم ذلك في هذا الكتاب في موضعه .

أما قوله: «ولا ريب أن دعاء الخلق بعضهم لبعض نافع والله قد أمر بذلك...» باطل لم يقله الله ولا رسوله، لأن الخلق فيهم البر والفاجر، والمسلم والكافر، وهذه زلة لا تغتفر، فإن الذي يقبل دعاؤه هو دعاء المسلم لأخيه المسلم في ظهر الغيب، ولم يقل الحق سبحانه بأن دعاء الكافرين بعضهم لبعض نافع، وإلا لما أصبح لدين الإسلام سمة ولا صبغة، فهل يصلح دعاء فرعون لهامان أو دعاء هامان لفرعون؟؟.

ولا أعتقد أن ابن تيمية يقول بمثل ذلك، ولكنها زلة «زينو» المدلس الذي دخل إلى سدة العلم بالجهل والحماقة والافتراء على السلف بما لم يقولوا، مقابل دريهمات ولم ينزه لسانه عن الكذب حتى على أحمد بن تيمية الحراني، فإنه يأخذ من العبارة ما راق له، وما لم يرق له حذفه، ويحمل النصوص ما لا تحتمل.

وقد ذكر بعد النص المتقدم «لكن الداعي الشافع ليس له أن يدعو أو أن يشفع إلا بإذنه في ذلك، فلا يشفع شفاعة نُهي عنها، كالشفاعة للمشركين والدعاء لهم بالمغفرة».

فإن هذا النص فاضحٌ نفسه بأن هذه الرسالة قد حرفها «زينو»، فبالرجوع إلى فتاوى ابن تيمية، وجدنا أن هناك تحريفاً في العبارة مشيناً وخطيراً.

فابن تيمية يعرف كيف يصوغ العبارة، ولغته لا تجعله يخطئ خطأ المبتدئين وأريد أن أسأل «زينو»... على ماذا يعود الضمير في جملة (إلا بإذنه)؟ هل يعود على الله أم على الشفيع؟ فقد بعد الفاعل هنا، بل ليس له وجود، والضمير يعود على الشافع.. فهل الشفاعة بإذن الله، أم بإذن الشافع؟ وأريد أن أنبه «زينو» قبل أن يتكلم في العقيدة عليه أن يتعلم لغة العرب.

ثم يزيد الطين بلة بأن يتهم الشفعاء المعصومين كالأنبياء والمرسلين أن يدعو للمشركين... ولعله يعني في ذلك شفاعة النبي صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم في أمه وأبيه، لأنه يعتبرهما مشركين...وأهل الحق يعتبرونهما من أهل الفترة الناجين بإذن الله.

وقد عوّل في ذلك على ظاهر حديث مسلم: «إن أبي وأباك في النار»[1]، وما علم الجاهل أن هذه الرواية فيها تصحيف من الرواة، كما نص على ذلك الحفاظ، منهم الحافظ السيوطي وغيره. والرواية الصحيحة التي وردت: «إذا مررت بقبر مشرك فبشره بالنار»[2]،

---

(١) رواه مسلم (٢٠٣)، وأبو داود (٤٧١٨)، وأحمد (٣/ ١١٩).

(٢) رواه ابن ماجه (١٥٧٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه البزار والطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح. ورواه معمر بن راشد في جامعه (١٠/ ٤٥٤) رقم (١٩٦٨٦). والبزار في مسنده(٣/ ٢٩٩) رقم (١٠٨٩)، والطبراني في الكبير (١/ ١٤٥) رقم (٣٢٦)، والمقدسي في الأحاديث المختارة (٣/ ٢٠٤)، رقم (١٠٠٥)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٩٠) رقم (١٣٨٥٦).

ولقد ورد أيضاً: «خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي»[1]، وورد أيضاً في الكتاب نجاتهما كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[2] وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾[3] وقوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾[4] وغير ذلك مما يرد ذلك الزعم.

وقد روى أحمد وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال زار ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال رسول الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، وأستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي؛ فزوروا القبور فإنَّها تُذَكِّر الموتَ»[5]. قال الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا في شرحه لهذا الحديث: «قال القاضي عياش: بكاؤه ﷺ ليس لتعذيبها، وإنما هو أسف على ما فاتها من إدراك أيامه والإيمان به أ هـ قلت (أي الشيخ

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/٣٠٣)، رقم (٣١٦٤١)، وعبد الرزاق في المصنف (٧/٣٠٣) رقم (١٣٢٧٣)، والطبراني في الأوسط (٥/٨٠) رقم (٤٧٢٨). قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن جعفر بن محمد بن علي، صحح له الحاكم في المستدرك وقد تُكُلِمَ فيه، وبقية رجاله ثقات.

(٢) من سورة الإسراء: الآية (١٥).

(٣) من سورة الضحى: الآية (٥).

(٤) من سورة البلد: الآيات (١ - ٣).

(٥) رواه أحمد (الفتح الرباني ٨/١٩٥) وأصله في صحيح مسلم.

أحمد البنا) ويؤيده ما رواه البيهقي من حديث بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال: انتهى النبي ﷺ إلي رسم قبر فجلس وجلس الناس حوله فجعل يحرك رأسه كالمخاطب ثم بكى فاستقبله عمر، فقال ما يبكيك يا رسول الله؟ قال هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربي في أن أزور قبرها فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فأبى عليّ، وأدركتني رقتها فبكيت، قال فما رؤي ساعة أكثر باكيا من تلك الساعة قيل ولعله لم يؤذن للنبي ﷺ في الاستغفار لأمه، لأنه فرع المؤاخذة علي الذنب، ومن لم تبلغه الدعوة لا يؤاخذ على ذنبه فلا حاجة إلى الاستغفار لها، ولأن عدم الإذن بالاستغفار لا يستلزم أن تكون كافرة لجواز أن يكون الله تعالى منعه من الاستغفار لها لمعنى آخر كما كان ﷺ ممنوعًا في أول الإسلام من الصلاة على من عليه دين لم يترك له وفاء، ومن الاستغفار له مع أنه من المسلمين، وعلل ذلك بأن استغفاره ﷺ مجاب على الفور فمن استغفر له وصل ثواب دعائه إلى منزله في الجنة وانتفع به فوراً، والمدين محبوس عن مقامه الكريم حتى يقضى دينه، فقول من قال إن عدم الإذن في الاستغفار لكفرها والاستغفار للكافر لا يجوز غير سديد »[1].

---

(١) مختصر بلوغ الأماني شرح الفتح الرباني للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا (٨ / ١٥٩).

وقد ألّف غير واحد من الأئمة رسائل مفردة في نجاة والدي المصطفى ﷺ منهم: الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي، والإمام الزبيدي، والإمام البرزنجي، وغيرهم، فليراجعها من أراد الاستزادة[1].

وعلى فرض صحة الرواية فالأب يطلق على العم في لغة العرب بالاتفاق وبإجماع أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ﴾[2] فهو يقصد إبراهيم وإسماعيل عمه، ولكن خوطب في النص بلفظ الأب وكذلك الحال ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾[3].

* * *

(١) انظر أسماء هذه المؤلفات في معجم الموضوعات المطروقة في التأليف الإسلامي وبيان ما أُلّف فيها للسيد البحاثة عبد الله بن محمد الحبشي باعلوي (٢/ ١٢٦٠-١٢٦٢)، ط٢، المجمع الثقافي بأبو ظبي.

(٢) من سورة البقرة: الآية (١٣٣).

(٣) من سورة يوسف: الآية (١٠٠).

الخاتمة

ختم قراءة الكتاب على مؤلفه في صبيحة الأربعاء السابع من شهر ربيع الأنوار بحضور هاشم الحامد وعمر الباشا أدخلنا الله جميعاً في وسيلة أحمد، وتوج رؤوسنا بنوره الأشهب، وجمع قلوبنا عليه وبه حتى نرد عليه الحوض، ونكون تحت لوائه نحن وأهلونا ومشايخنا ومحبونا، والحمد لله رب العالمين. اللَّهُمَّ إن هذا فضلك، وهاقد وفينا بالأمانة كما أردت وقررت وأمر نبيك صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم. اللَّهُمَّ فاشهد أني قد امتثلت إشارة حبيبك صلى الله عليه وآله وسلم التي أشار بها علي في الرؤية المتقدمة بقطع ألسنة المبتدعة بالدفاع عن سُننه والذبِّ عنها مما أثير حولها من شبه لا طائل وراءها إلا الفُرقة. اللَّهُمَّ فاجمع الأمة على هذا الكتاب وسامحني إن عثر القلم فيه بكلمة لا ترضيك ولا ترضي حبيبك، وقد حرصت كل الحرص وتوخيت في العمل جمع أكبر قدر من النصوص التي توضح المعنى، وتبين الدلالة، وتكشف المعمّى، فإن رأى القارئ في هذا الكتاب كمالاً فهو من فضله سبحانه، وإن رأى نقصاً فمن ذنبي وتقصيري، وكما قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

فما قرأت كتاباً وصححته إلا وجدت خطأً فأصلحته، وأختم هذا السفر بقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ**

فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾(١) الآية، إلى قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(٢)،

وقد استغرق هذا البحث مني خمس سنوات وقرئ مرتين، وقد عرض العنوان الأول على سيدي المحدث الشيخ عبدالعزيز بن الصديق الغماري فأقره ودعا لنا بالثواب والبركة، فأسأل الله أن يجعل هذا الكتاب في صحيفة أعماله، وهدية مني لصدِّيقة الوجود الحنون الودود سيدتي فاطمة الزهراء عليها السلام، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) سورة الأنعام: من الآية (٦٨).

(٢) نفس السورة السابقة: آخر الآية (٧٢).

ثبت المراجع

(أ)

١ – إتحاف الأذكياء بجواز التوسل بالأنبياء والأولياء، للغماري، الطبعة الثانية ١٩٨٤م، عالم الكتب، بيروت

٢ – الأجوبة المرضية عن الأسئلة المكية، للحافظ ولي الدين أحمد بن عبدالرحيم بن الحسيني العراقي، تحقيق محمد تامر الطبعة الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩١م،مكتبة التوعية الإسلامية لإحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

٣ – الآحاد والمثاني لأبي بكر الشيباني تحقيق د.باسم فيصل أحمد الجوابرة دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

٤ – الأحاديث المختارة للمقدسي تحقيق عبد الملك بن عبد الله دهيش مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

٥ – إحياء علوم الدين للغزالي، دار المعرفة، بيروت.

٦– أخبار أصبهان لأبي نعيم الأصبهاني، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٠هـ–١٩٩٠م.

٧ – أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه لأبي العباس الفاكهي المكي، تحقيق د.عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

٨ – الاختيار لتعليل المختار دار المعرفة مع تعليقات للشيخ محمود أبو دقيقة، دار المعرفة.

٩- أخطاء ابن تيمية في حق رسول الله ﷺ وأهل بيته للدكتور السيد محمود السيد صبيح، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م، مصر (من منشورات المؤلف).

١٠- الأدب المفرد للبخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

١١ - الأذكار النبوية للإمام النووي تعليق الشيخ إبراهيم رمضان دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

١٢ - الإرشاد للخليل بن عبد الله بن أحمد الخليلي ، تحقيق د. محمد، سعيد عمر إدريس مكتبة الرشد، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٩م.

١٣ - الاستيعاب لابن عبد البر، تحقيق علي محمد البخاري، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

١٤ - الإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا، تحقيق د. نجم عبدالرحمن خلف، مكتبة الرشيد، الرياض الطبعة الأولى ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.

١٥ - الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، تحقيق طه محمد الزيني، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م.

١٦- الإغاثة بأدلة الاستغاثة، للسيد حسن بن علي السقاف، دار الإمام النووي، عَمّان، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

١٧ - الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء لسليمان بن موسى الكلامي، تحقيق د. محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

١٨- الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق محمد حامد الفقي ، دار إحياء التراث العربي بيروت .

(ب)

١٩ - البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية مصوراً عن طبعة السلطان عبد الحفيظ سلطان المغرب .

٢٠- البحر المحيط في أصول الفقه لبدر الدين محمد بهادر الزركشي، تحقيق الدكتور عمر الأشقر، الطبعة الثانية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

٢١- البداية والنهاية لابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت.

٢٢- بغية الطلب في تاريخ حلب لابن أبي جرادة تحقيق د. سهيل زكار دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

(ت)

٢٣ - تاج العروس للزبيدي المطبعة الخيرية بمصر .

٢٤ - التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة لمحمد بن أحمد القرطبي، تحقيق أحمد حجازي السقا، دار الجيل، بيروت ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٢٥ - تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٢٦ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت .

٢٧ - تاريخ جرجان لأبي القاسم الجرجاني تحقيق د.محمد عبد المعيد خان عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

٢٨ - تاريخ دمشق لابن عساكر تحقيق محي الدين عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت.

٢٩ - تفسير البيضاوي، تحقيق عبد القادر عرفات العشاحونة، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٣٠ - تفسير الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٣١ - تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.

٣٢ - تفسير القرطبي لمحمد بن أحمد القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٣٣ - التمهيد لابن عبد البر، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري.

٣٤ - نشر وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية في المغرب، ١٣٨٧هـ.

٣٥ - تهذيب الكمال للحافظ المزي تحقيق د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٣٦- تهذيب التهذيب، دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م

٣٧ - التوسل لمحمد عبد القيوم القادري، المكتبة القادرية بالجامعة النظامية الرضوية، لاهور باكستان، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م - ١٤٠٧م.

(ح)

٣٨ - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم، دار الكتب العلمية بيروت.

٣٩ – حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي، المكتبة الإسلامية، تركيا دار صادر، بيروت.

٤٠ – حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٥هـ الطبعة الرابعة .

(خ)

٤١ – الخصائص الكبرى للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

(د)

٤٢ – الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي،دار الفكر، بيروت ١٩٩٣م.

٤٣ – الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد للشوكاني، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ١٣٥١هـ.

٤٤ – الدعوات الكبير للبيهقي، تحقيق بدر بن عبد الله البدر، منشورات مركز المخطوطات والتراث، الكويت، الطبعة الأولى ١٩٨٩م.

٤٥ – دلائل النبوة للأصفهاني، تحقيق محمد محمود الحداد، دار طيبة، الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٩م.

٤٦ – دلائل النبوة، للبيهقي، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

(ر)

٤٧ – الرد المحكم المتين للعلامة الجليل الشريف عبدالله بن الصِّدِّيق الغُماري الحسني، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م. الناشر: مكتبة القاهرة.

٤٨ – الرد على الأخنائي لابن تيمية «تحقيق المعلمي اليماني». طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الرياض.

٤٩ – ردود على أباطيل للشيخ محمد الحامد، تحقيق عبد الله إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية بيروت.

٥٠ – الرسالة الرملية في فصل الخلاف بين أهالي الرمل ودعاة الوهابية، لمحمد تاج الدين المدرس بمشيخة علماء الإسكندرية، مطبعة النصر الوطنية، مصر.

٥١ – رسالة سعادة أهل الإسلام بالمصافحة عقب الصلاة والسلام.

٥٢ – رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة، الشيخ محمود سعيد ممدوح، دار الإمام النووي، الأردن، عمان الطبعة الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.

٥٣ – الروح، لابن قيم الجوزية، تحقيق محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ – ١٩٩١م.

٥٤ – روح البيان: التفسير الكبير للرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الثالثة.

٥٥ – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم السبع المثاني، للإمام محمود الآلوسي أبو الفضل، دار الفكر، بيروت ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

٥٦ – الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، تأليف الإمام عبدالرحمن بن عبد الله السهيلي، تحقيق مجدي منصور الشوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ – ١٩٩٧.

٥٧ - الرياضة وأدب النفس للحكيم الترمذي تحقيق د.ا.ج آربري ود. علي حسن عبد القادر، طبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.

(ز)

٥٨ - زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم، لمحمد حبيب الله الشنقيطي، دار الفكر، ١٩٧٩م.

٥٩ - زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ.

٦٠- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم، تحقيق شعيب الأرنؤوط، عبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية بيروت، الكويت، الطبعة الرابعة عشر ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.

(س)

٦١- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي، تحقيق، الشيخ أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

٦٢- السنة لابن أبي عاصم الشيباني، تحقيق محمد ناصر الألباني، المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

٦٣ - سنن ابن ماجه تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

٦٤- سنن أبي داود، تحقيق محمد عوامة، مؤسسة الريان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٦٥ – سنن البيهقي الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

٦٦– سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر، دار إحياءالتراث العربي بيروت.

٦٧– سنن الدارمي تحقيق فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٦٨ – سنن النسائي، ترقيم الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

٦٩– سهام الموحدين في حناجر المارقين لأبي بكر عبد الرحمن مخيون، مطبعة الصدق الخيرية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧٢هـ.

٧٠ – سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة التاسعة ١٤١٣هـ.

٧١ – السيرة النبوية لابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت ١٣٩٣هـ – ١٩٧٦م.

٧٢ – السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٧٣ – السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل لتقي الدين السبكي، ومعه تكملة الرد على نونية ابن القيم للشيخ الكوثري، تقديم لجنة من علماء الأزهر، مكتبة زهران القاهرة.

(ش)

٧٤ – شذرات الذهب لابن العماد، دار الكتب العلمية بيروت.

٧٥ - شرح السنة للبغوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، المكتب الإسلامي، بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٧٦ - شرح السيوطي على سنن النسائي، دار البشائر الإسلامية، بيروت الطبعة الرابعة ١٩٩٤م.

٧٧ - شرح صحيح مسلم للإمام النووي، دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.

٧٨ - شرح الكرماني على صحيح البخاري، دار إحياءالتراث العربي بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٣م، الطبعة الثانية ١٩٨١م.

٧٩- الشرح الكبير لابن قدامة، دار الكتاب العربي بيروت ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

٨٠ - شعب الإيمان للبيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

٨١ - شفاء السقام في زيارة خير الأنام لتقي الدين السبكي الطبعة الثانية ١٩٧٨م، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، وطبعة مكتبة دار جوامع الكلم، القاهرة سنة ١٩٨٤م.

٨٢ - شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق للنبهاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

(ص)

٨٣ - الصحاح للجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ - ١٩٧٩م.

٨٤ – صحيح ابن حبان، تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الثانية ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

٨٥ – صحيح البخاري ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

٨٦ – صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت.

٨٧ – صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري، د. محمد رواس قلعه جي دار، المعرفة بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

(ط)

٨٨ – طرح التثريب في شرح التقريب للحافظ العراقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٨٩ – الطبقات الكبرى لابن سعد، دار صادر، بيروت.

٩٠ – طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم، تحقيق عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

(ع)

٩١ – العاقبة في ذكر الموت لعبد الحق الإشبيلي، تحقيق خضر محمد خضر مكتبة دار الأقصى، الكويت الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

٩٢– العلل المتناهية لابن الجوزي، تحقيق الشيخ خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤٠٣هـ.

٩٣– العلم النبوي: للسيد العلامة محمد بن جعفر الكتاني – مخطوط –.

٩٤- عمل اليوم والليلة لابن السني، تحقيق عبد الرحمن كوثر البرني، دار القبلة، الثقافة الإسلامية جدة مؤسسة علوم القرآن، بيروت.

٩٥- عمل اليوم والليلة للنسائي، تحقيق د. فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة بيروت، ط ثانية ١٤٠٦هـ.

(ف)

٩٦- فتاوى الشيخ محمد بن عبد الوهاب، نشر جامعة محمد بن سعود الإسلامية.

٩٧ - الفتاوى الهندية، دار الفكر مصورة عن بولاق مصر سنة ١٣١٠هـ.

٩٨- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة بيروت ١٣٧٩هـ.

٩٩ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني، دار الفكر، بيروت .

١٠٠- الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية لابن علان، دار إحياء التراث العربي بيروت.

١٠١ - فتوح الشام للواقدي، دار الجيل بيروت.

١٠٢ - فيض الباري شرح صحيح البخاري للشيخ محمد أنور الكشميري، دار المعرفة، بيروت.

١٠٣ - فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، طبعة المكتبة التجارية الكبرى مصر، الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ.

(ك)

١٠٤- الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي ، تحقيق يحيى مختار غزاوي، دار الفكر ، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م.

١٠٥- كشاف القناع تحقيق هلال مصيلحي مصطفى هلال، دار الفكر، بيروت ١٤٠٢هـ.

١٠٦- الكشاف للزمخشري تحقيق محمد الصادق قمحاوي طبعة البابي الحلبي، مصر الطبعة الأخيرة ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.

١٠٧- كشف الأستار عن زوائد البزار للحافظ الهيثمي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

(ل)

١٠٨- لباب التأويل في معاني التنزيل « تفسير الخازن » دار المعرفة بيروت.

١٠٩- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت الطبعة الأولى.

(م)

١١٠- مجمع الزوائد للهيثمي، دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي، القاهرة، بيروت، ١٤٠٧هـ.

١١١- المجموع شرح المهذب للإمام النووي، دار الفكر.

١١٢- مجموع الفتاوى الكبرى لابن تيمية، تصوير الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.

١١٣- المخصص لابن سيده، دار الآفاق الجديدة بيروت.

١١٤– مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم تحقيق محمد حامد الفقي دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ– ١٩٧٣م.

١١٥– المدحة الكبرى من الكلام القديم للسيد مصطفى بن حبيب محمد ابن بير محمد ، المطبعة الكبرى الميرية، مصر ١٣٠١ .

١١٦– مراقي الفلاح بحاشية الطحطاوي، مكتبة البابي الحلبي مصر، الطبعة الثالثة ١٣١٨هـ.

١١٧– مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي القاري، المطبعة الميمنية، مصر ١٣٠٦هـ.

١١٨– مسائل الإمام أحمد تحقيق د. فضل الرحمن دين محمد، الدار العلمية، دلهي الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

١١٩– المستدرك على الصحيحين للحاكم، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٢٠– المستوعب لنصير الدين السامري الحنبلي، تحقيق مساعد بن قاسم.

١٢١– مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٩٩٣م.

١٢٢– مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة مصر.

١٢٣– مسند أبي يعلى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط الأولى ١٤٠٤هـ– ١٩٨٤م.

١٢٤– مسند البزار، تحقيق د. محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، مكتبة العلوم والحكم، بيروت المدينة، ط الأولى ١٤٠٩هـ.

١٢٥– مسند الروياني تحقيق علي أبو يماني مؤسسة، قرطبة، القاهرة الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ.

١٢٦- مسند الشهاب لمحمد بن سلامة القضاعي تحقيق حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الثانية، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.

١٢٧- مسند عبد بن حميد تحقيق صبحي بدري السامرائي ومحمود محمد خليل الصعيدي، مكتبة السنة، القاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

١٢٨- مسند علي بن الجعد، تحقيق عامر أحمد حيدر، مؤسسة نادر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

١٢٩- مشارق الأنوار في فوز أهل الاعتبار للشيخ حسن العدوي الحمزاوي المطبعة الأزهرية، المصرية، مصر، ١٣٢٨هـ.

١٣٠- مصباح الزجاجة شرح سنن ابن ماجه لأحمد بن أبي بكر الكناني، تحقيق محمد المنتقى الكشناوي، دار العربية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

١٣١- مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط الأولى ١٤٠٩هـ.

١٣٢- مصنف عبد الرزاق تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ- ١٩٧٠م.

١٣٣- معالم التنزيل للبغوي، تحقيق خالد العك، مروان سوار، دار المعرفة، بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

١٣٤- معجم البلدان لياقوت الحموي، دار الفكر بيروت.

١٣٥- المعجم الصغير للطبراني، تحقيق محمد سليم إبراهيم سماره، دار إحياء التراث العربي بيروت.

١٣٦- المعجم الأوسط للطبراني، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.

١٣٧- المعجم الكبير للطبراني، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٥م.

١٣٨- المغني لابن قدامة الحنبلي دار الفكر، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

١٣٩- مفاهيم يجب أن تصحح لمحمد بن علوي المالكي، دائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية دبي، الطبعة الخامسة ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

١٤٠- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم، دار الكتب العلمية بيروت.

١٤١- مفردات ألفاظ القرآن تحقيق صفوان عدنان، داوودي دار القلم دمشق، الدار الشامية، بيروت الطبعة الأولى ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

١٤٢- المفهم لما أشكل من كتاب صحيح مسلم تحقيق جماعة من العلماء دار ابن كثير، دار الكلم الطيب بيروت دمشق الطبعة الأولى ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

١٤٣- مقالات الكوثري، تقديم الشيخ محمد أبو زهرة وغيره، دار الأحناف، بيروت، الرياض الطبعة الأولى ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

١٤٤- ميزان الاعتدال للذهبي، تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

١٤٥- الميزان في تفسير القرآن، للسيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعظمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

١٤٦- المنامات لابن أبي الدنيا تحقيق عبد القادر أحمد العطا، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

١٤٧- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج، بن الجوزي تحقيق محمد ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

١٤٨- من نفحات الدومي لعبد الوهاب محمد الدومي، طبعة دار غريب، القاهرة.

١٤٩- الموسوعة اليوسفية، تأليف: الشيخ يوسف خطار محمد

أ- النسخة الأولى: (جزءان في مجلد واحد)، الطبعة الثانية: ١٩٩٩م، مطبعة نضر، دمشق.

ب- النسخة الثانية (جزءان في مجلدين)، طبعة دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٨م، دمشق، سوريا.

(هـ)

١٥٠- هداية المتخَبِّطِين (نقد وتعليق على رسالة الألباني: التوسل أنواعه وأحكامه)، تأليف: السيد العلامة علي بن محمد بن يحيى باعلوي الحضرمي الشافعي، الطبعة الأولى، طبعة كرجاي، سنقافوره سنة ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

فهرس الآيات القرآنية

م	الآيـــات	اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
١	﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ... ﴾	البقرة	٢١٩	٥٤٧
٢	﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ ... ﴾	البقرة	١٨٩	٥٤٧
٣	﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ... ﴾	البقرة	٢٢٢	٥٤٧
٤	﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ... ﴾	البقرة	٩٣	٢٢٩
٥	﴿ ...وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ... ﴾	البقرة	١٢٥	٤٢٢
٦	﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ ... ﴾	البقرة	١٩	٣٠٠
٧	﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ... ﴾ ...	البقرة	١٣٣	٥٦٦
٨	﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ... ﴾ ...	البقرة	١٥٤	٢٦٤
٩	﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ ... ﴾	البقرة	٢٥٦	٥٤٠
١٠	﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ... ﴾	البقرة	١٨٦	١٢٨
١١	﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ... ﴾	البقرة	١٨٥	٣٠٤
١٢	﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ... ﴾	البقرة	٢٥٥	٥٦
١٣	﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ... ﴾	البقرة	٢٥٣	١٦٠
١٤	﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ... ﴾	البقرة	٤٥	٩٩
١٥	﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم ... ﴾	البقرة	٢٥١	١٦٢
١٦	﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ... ﴾	البقرة	٨٩	٨٨
١٧	﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي ... ﴾	البقرة	٤٠	٢٥
١٨	﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا ... ﴾	البقرة	٨٩	٦٣

م	الآيـــات	اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
١٩	﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً . . .﴾	البقرة	١٢٩	٢٢٢
٢٠	﴿وبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ . . .﴾	البقرة	٢٤٨	١٨٥
٢١	﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ . . .﴾	البقرة	٢٥٥	١٨٧
٢٢	﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ . . .﴾	البقرة	١٢٣	١٨٧
٢٣	﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ . . .﴾	البقرة	٢٨٦	٢١٨
٢٤	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ . . .﴾	البقرة	٢٧٨-٢٧٩	١٦٠
٢٥	﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ . . .﴾	البقرة	٤٠	١٨٥
٢٦	﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ . . .﴾	البقرة	٤٧	١٨٤
٢٧	﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ . . .﴾	البقرة	٧٤	٤٤٦
٢٨	﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ . . .﴾	البقرة	٢٥٣	١٧٢
٢٩	﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا . . .﴾	البقرة	١٢٣	١٨٤
٣٠	﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا . . .﴾	البقرة	٨٩	٩٩
٣١	﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ . . .﴾.....	البقرة	٢٤٨	١٥٨
٣٢	﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ . . .﴾	البقرة	١٥٢	١٨٥
٣٣	﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا . . .﴾	البقرة	٣٠-٣٤	١٤٠
٣٤	﴿. . . . .لَفَسَدَتِ الأَرْضُ . . .﴾	البقرة	٢٥١	١٦٧
٣٥	﴿. . .قُلْ إِنَّ الأَمْرَ . . .﴾	آل عمران	١٥٤	١٥١
٣٦	﴿. . .وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ . . .﴾	آل عمران	١٩٨	١٩١
٣٧	﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ . . .﴾	آل عمران	١٩٣	١٩١
٣٨	﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا . . .﴾	آل عمران	١٦٩-١٧٠	٢٦٣

م	الآيـــات	اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
٣٩	﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ... ﴾	آل عمران	٣٨	٤٢١
٤٠	﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي... ﴾	آل عمران	٩٦	٢٤٧
٤١	﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ... ﴾	آل عمران	١٢٨	٥٢٣
٤٢	﴿ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا... ﴾	آل عمران	٩٦	٤٥٠
٤٣	﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا... ﴾	آل عمران	٣٧	٨٧
٤٤	﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ... ﴾	آل عمران	٨١	٧٨
٤٥	﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ... ﴾	آل عمران	١٦٤	٧٧
٤٦	﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ... ﴾	آل عمران	٤٥	٣٥
٤٧	﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي... ﴾	آل عمران	٣١-٣٢	١٢٨
٤٨	﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ ... ﴾	النساء	٦٤	١١٦
٤٩	﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ... ﴾	النساء	٧٨	١٢٩
٥٠	﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ... ﴾	النساء	٣٢	٤٥٠
٥١	﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ... ﴾	النساء	٧٩	١٣٠
٥٢	﴿ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ... ﴾	النساء	٦٩	١٥٣
٥٣	﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ... ﴾	النساء	٨٠	١٦٢
٥٤	﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ... ﴾	النساء	١٧١	٢٨٢
٥٥	﴿ مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ... ﴾	النساء	٨٥	٥٤٠
٥٦	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا... ﴾	المائدة	٣٥	٧٤
٥٧	﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ... ﴾	المائدة	٤١	٧٤
٥٨	﴿ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ... ﴾	المائدة	٤١	٧٤

م	الآيـــات	اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
٥٩	﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا . . .﴾	المائدة	١٩	٧٣
٦٠	﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا . . .﴾	المائدة	٢٤	٧٣
٦١	﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ . . .﴾	المائدة	١١٠	٦٨
٦٢	﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا . . .﴾	المائدة	٢٠	٧٣
٦٣	﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . . .﴾	المائدة	٢٣	٢٦
٦٤	﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ . . .﴾	المائدة	١٢٠	٦٩
٦٥	﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ . . .﴾	المائدة	٢٧	٧٤
٦٦	﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ . . .﴾	المائدة	١١٩	٦٩
٦٧	﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . . .﴾	المائدة	١١٢	٦٩
٦٨	﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ . . .﴾	الأنعام	١٦٥	٦٨
٦٩	﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ . . .﴾	الأنعام	٥٤	٢٥
٧٠	﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ . . .﴾	الأنعام	٩٠	١٧٢
٧١	﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ . . .﴾	الأنعام	١٢٥	٥٤٠
٧٢	﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا . . .﴾	الأنعام	٦٨	٥٦٧
٧٣	﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . . .﴾	الأنعام	٧٢	٥٦٨
٧٤	﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ . . .﴾	الأعراف	١٥٦	٩٦
٧٥	﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي . . .﴾	الأعراف	١٥٧	١٥٠
٧٦	﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ . . .﴾	الأعراف	٥٦	١٩٢
٧٧	﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا . . .﴾	الأعراف	٢٧	١٩٨
٧٨	﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ . . .﴾	الأعراف	٤٣	٥٣٢

م	الآيـــات	اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
٧٩	﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي . . . ﴾..........	الأعراف	١٥٧	١٥١
٨٠	﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا . . . ﴾.........	الأعراف	٤	٣٠٣
٨١	﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا . . . ﴾...............	الأعراف	١٨٨	٥٢٣
٨٢	﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ . . . ﴾..................	الأنفال	١٧	٢٠
٨٣	﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ . . . ﴾..............................	الأنفال	٩	٣٥
٨٤	﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا . . . ﴾..............	الأنفال	٢٩	١٥٢
٨٥	﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ . . . ﴾............	الأنفال	٣٣	٥٤٢
٨٦	﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ . . . ﴾.........	الأنفال	٣٢	٥٤٣
٨٧	﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . . . ﴾........	الأنفال	٣٣	٥٤٢
٨٨	﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ . . . ﴾......................	الأنفال	٣٣	١٦٧
٨٩	﴿ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ . . . ﴾........................	الأنفال	٣٤	٥٤٣
٩٠	﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . ﴾..................	التوبة	١٢٨	١٧٤
٩١	﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ . . . ﴾..........................	التوبة	١٢٩	١٧٥
٩٢	﴿ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ . . . ﴾...........	التوبة	٣٦	٤٤١
٩٣	﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا . . . ﴾.......	التوبة	٩٨-٩٩	١٥٤
٩٤	﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ . . . ﴾................	التوبة	٨٠	٢٤٥
٩٥	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾...	التوبة	١١٩	١٨٦
٩٦	﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا . . . ﴾....................	التوبة	١١٣	٢٣٩
٩٧	﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ . . . ﴾......................	التوبة	٤٠	٤١٨
٩٨	﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ . . . ﴾..........	التوبة	٨٤	٢٤٥

م	الآيـــات	اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
٩٩	﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ . . . ﴾	يونس	٣٩	٦٣
١٠٠	﴿ الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ . . . ﴾	يونس	١–٢	١٧٥
١٠١	﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ . . ﴾	يونس	٢	١٧٣
١٠٢	﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ . . . ﴾	يوسف	٣	٢٤٩
١٠٣	﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ . . . ﴾	يوسف	٨٢	٢٩٩
١٠٤	﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا . . . ﴾	يوسف	١٠٠	١٤٢
١٠٥	﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ . . . ﴾	الرعد	١٤	٥٢٢
١٠٦	﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ . . . ﴾	الرعد	١١	١٥٩
١٠٧	﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً . . . ﴾	إبراهيم	٢٤–٢٦	٤٢٤
١٠٨	﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ . . . ﴾	النحل	١١٤	٧٠
١٠٩	﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . . . ﴾	النحل	١٠٦	٣٨
١١٠	﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ . . . ﴾	النحل	٣٢	٢٤٣
١١١	﴿ وَمَا بِكُم مِّنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ . . . ﴾	النحل	٥٣	١٣٧
١١٢	﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ . . . ﴾	الإسراء	٥٤–٥٧	١٠٤
١١٣	﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ . . . ﴾	الإسراء	١١٠	٧٣
١١٤	﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ . . . ﴾	الإسراء	٥٧	٧
١١٥	﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ . . . ﴾	الإسراء	٥٧	٨٣
١١٦	﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ . . . ﴾	الإسراء	٥٥	١١٢
١١٧	﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا . . . ﴾	الإسراء	٦١	١٤١
١١٨	﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ . . . ﴾	الإسراء	١٣	١٥٧

م	الآيـــات	اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
١١٩	﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ... ﴾	الإسراء	١	١٦٠
١٢٠	﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ... ﴾	الإسراء	٧٠	٤٢٥
١٢١	﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾	الإسراء	١٥	٥٦٤
١٢٢	﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ... ﴾	الكهف	٧٩-٨٢	٩٠
١٢٣	﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم... ﴾	الكهف	٢٨	١٣٨
١٢٤	﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ... ﴾	الكهف	٨٢	١٦٦
١٢٥	﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً... ﴾	الكهف	١٠٣-١٠٤	١٨٧
١٢٦	﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ... ﴾ ...	مريم	٨٣	١٥٩
١٢٧	﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ... ﴾	مريم	٢١	١٧١
١٢٨	﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي... ﴾	مريم	٣١، ٣٣، ٣٤	١٧١
١٢٩	﴿ وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ... ﴾	مريم	١٥	١٧٠
١٣٠	﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا... ﴾	مريم	١٢، ١٥، ٢١	١٧٠
١٣١	﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ... ﴾	مريم	٣٤	١٧٢
١٣٢	﴿ كهيعص ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا... ﴾ ..	مريم	١، ٢	١٦٨
١٣٣	﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ... ﴾	مريم	٢٥	٨٧
١٣٤	﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا... ﴾	طه	١٣٢	١١٣
١٣٥	﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ... ﴾	الأنبياء	٢٨	٥٥٩
١٣٦	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ... ﴾	الأنبياء	١٠٧	١١٦
١٣٧	﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ... ﴾	الأنبياء	٢٩	١١٣
١٣٨	﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ... ﴾	الأنبياء	٣٠	٤٠

م	الآيـــات	اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
١٣٩	﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا ...﴾	الأنبياء	٦٩	٩٠
١٤٠	﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً...﴾	الحج	٥	٤٠
١٤١	﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ...﴾	الحج	٣٠	١٥١
١٤٢	﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى...﴾	الحج	٣٢	١٥١
١٤٣	﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ...﴾	المؤمنون	٢٠	٤٤٦
١٤٤	﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ...﴾	النور	٦١	٢٢٩
١٤٥	﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ...﴾	النور	١٦	٤٧٦
١٤٦	﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ...﴾	الفرقان	٥٩	٢١٧
١٤٧	﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ...﴾	الشعراء	٢١٤	٥٢٤
١٤٨	﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾	النمل	٦٢	٦٧
١٤٩	﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ...﴾	النمل	٨	٢٤٧
١٥٠	﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي...﴾	القصص	٣٠	٤٢٣
١٥١	﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ...﴾	القصص	٥٦	٣٩
١٥٢	﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ ...﴾	القصص	١٥	٣٦
١٥٣	﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ...﴾	العنكبوت	٦٩	١١٣
١٥٤	﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ...﴾	الروم	٣٠	٩٨
١٥٥	﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ...﴾	الروم	٥٠	٣٢١
١٥٦	﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ...﴾	لقمان	١٤	١٣٧
١٥٧	﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً ...﴾	السجدة	٢٤	٣٨
١٥٨	﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ﴾	السجدة	١٨	١٨٤

م	الآيـــات	اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
١٥٩	﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴾	الأحزاب	٦	١٧٤
١٦٠	﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ...﴾	الأحزاب	١٩	٣٠٠
١٦١	﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾	الأحزاب	٥٦	٣٣٣
١٦٢	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾	الأحزاب	٩	٧٢
١٦٣	﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾	الأحزاب	٢١	٥٤
١٦٤	﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا...﴾	الأحزاب	٦٩	٣٥
١٦٥	﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم...﴾	سبأ	٣٧	٨٣
١٦٦	﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ...﴾	سبأ	١٥	٤٢٤
١٦٧	﴿إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا...﴾	سبأ	٣٧	٨٦
١٦٨	﴿أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا...﴾	الصافات	١٠٥	٩٠
١٦٩	﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ...﴾	ص	٥٠	٦٨
١٧٠	﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ...﴾	الزمر	٩٠	١٨٠
١٧١	﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ...﴾	الزمر	٣	٨٩
١٧٢	﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ...﴾	الزمر	٨	١٧٨
١٧٣	﴿وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ...﴾	الزمر	٧، ٨، ٩	١٨٠
١٧٤	﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ...﴾	الزمر	٩	١٨٢
١٧٥	﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ...﴾	الزمر	١٤، ١٥	١٨٢
١٧٦	﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ...﴾	الزمر	١٨	١٨٢
١٧٧	﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ...﴾	الزمر	٢٢	١٨٣
١٧٨	﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾	الزمر	٢١	١٨٣

م	الآيـــات	اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
١٧٩	﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ... ﴾	الزمر	٤٩	١٨٣
١٨٠	﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ... ﴾	الزمر	٧٤	١٨٣
١٨١	﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ... ﴾	غافر	٦٠	٦٨
١٨٢	﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا ﴾	فصلت	٣٠	١٥٩
١٨٣	﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ... ﴾	فصلت	١١	٥٥١
١٨٤	﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ... ﴾	الشورى	٥٢	٣٨
١٨٥	﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ ... ﴾	الشورى	٥١	٦٥
١٨٦	﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ... ﴾	الأحقاف	١١	٦٣
١٨٧	﴿ وأُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ... ﴾	الأحقاف	١٦	١٧٧
١٨٨	﴿ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ ... ﴾	الفتح	٢٥	١٦٦
١٨٩	﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ... ﴾	الفتح	١٠	١٣٢
١٩٠	﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ ... ﴾	الفتح	٢٥	١٦٦
١٩١	﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴾	الحجرات	١٥	١٤٦
١٩٢	﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ... ﴾	الحجرات	٧	١٧٦
١٩٣	﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ... ﴾	ق	٩	٢٤٧
١٩٤	﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ... ﴾	ق	٣٧	١٥٤
١٩٥	﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ... ﴾	ق	١٦	١٩٣
١٩٦	﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ... ﴾	النجم	٣٩	١٥٧
١٩٧	﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ... ﴾	الواقعة	٨٢	٣٠٠
١٩٨	﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ ... ﴾	الواقعة	٦٣، ٦٤	٢٠

م	الآيـــات	اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
١٩٩	﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ..﴾	الواقعة	٧٨	٤٢٥
٢٠٠	﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ...﴾	الحديد	١٦، ١٧	١٤٥
٢٠١	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا...﴾	الحديد	٢٨، ٢٩	١٥٢
٢٠٢	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ...﴾	التحريم	٦	٤٤٦
٢٠٣	﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ...﴾	المعارج	١	٢١٧
٢٠٤	﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا...﴾	نوح	١١، ١٢	٢٩٨
٢٠٥	﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا...﴾	نوح	١٠، ١٢	٣٥٤
٢٠٦	﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا...﴾	الجن	١٨	٥٢٢
٢٠٧	﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ...﴾	المدثر	٤٨	٢٣٩
٢٠٨	﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا...﴾	النازعات	١، ٣	١٠٨
٢٠٩	﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ...﴾	النازعات	١٥، ١٦	٤٢٣
٢١٠	﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا...﴾	النازعات	٤١، ٤٤	٥٤٨
٢١١	﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ...﴾	التكوير	٢٩	١٩
٢١٢	﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ...﴾	الانفطار	١٧، ١٩	٥٢٣
٢١٣	﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ...﴾	الفجر	٢٢	٢٩٩
٢١٤	﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ...﴾	البلد	١، ٣	٥٦٤
٢١٥	﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ...﴾	الضحى	٥	٣٣٩
٢١٦	﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ...﴾	التين	٦	١٩٢
٢١٧	﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ...﴾	التكاثر	٥، ٦، ٧	٩٠
٢١٨	﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ..﴾	الكافرون	١، ٢	٩٧
٢١٩	﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ...﴾	الأخلاص	١	٣٣٢

فهرس الأحـاديث

م	الحـديث	رقم الصفحة
١	ابغوني الضعفاء فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم	٢٣٢
٢	أتاني الليلة آتٍ من ربي، فقال: صلّ في هذا الوادي	٤٤٠
٣	أُتيتُ بدابةٍ فوق الحمار ودون البغل	٤٢٩
٤	أحمد الله لا إياكما	٥٢٧
٥	أخبرني عن صفة رسول الله في التوراة	٣٣٨
٦	إذا انفلتت دابة أحدكم فليناد يا عباد الله احبسوا	٢٢٤
٧	إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ثم ليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك	٢٢٩
٨	إذا كان يوم القيامة شفعت لأبي وأمي وعمي أبي طالب وأخ لي	٢٤٠
٩	إذا كنت بين الأخشبين من منى، ونفخ بيده نحو المشرق......	٤٣٥
١٠	إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث	٢٧٤
١١	إذا مررت بقبر مشرك فبشره بالنار	٥٦٣
١٢	أذكركم الله في أهل بيتي	٥٥٢
١٣	أردفني رسول الله ذات يوم خلفه، فأسرَّ إليّ حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس	٢٣٦
١٤	أرسل عبد الله بن أبي إلى النبي فلما دخل عليه قال: أهلكك حب اليهود	٢٥٠

م	الحـديث	رقم الصفحة
١٥	أُرسل ملك الموت إلى موسى عليهما السلام، فلما جاءه صكه	٢٥٢
١٦	أرسلني أهلي إلى أم سلمة بقدح من ماء	٤٢٩
١٧	استسقى عمر بن الخطاب عام الرمادة بالعباس	٣٤٣
١٨	أقبل مروان يوماً فوجد رجلاً رافعاً وجهه على القبر	٣١٦
١٩	الله الله في أصحابي	٥٥٢
٢٠	اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما بمكة من البركة	٤٢٢
٢١	اللهم أمضِ لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم	٢٥٣
٢٢	اللهم لولا أنت ما اهتدينا	٥٣٢
٢٣	أمتي أمةٌ مرحومة	٤٤٩
٢٤	أنا بين خيرتين: استغفر لهم أو لا استغفر لهم	٢٤٨
٢٥	أنا عند ظن عبدي بي، فإن ظن بي خيراً فله	١٩٣
٢٦	أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة	٢٤٤
٢٧	الأنبياء أحياء في قبورهم يُصلون	٢٦٦
٢٨	انتهى النبي إلى رسم قبر فجلس	٥٦٥
٢٩	أنزل الله عليَّ أمانين لأمتي	٢٣٤
٣٠	انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غارٍ	٤٥
٣١	إن آخر وطأة وطأها رب العالمين بوج	٤٢٣
٣٢	إن أبي وأباك في النار	٥٦٣
٣٣	إن أشكر الناس لله أشكرهم للناس	٦٦

م	الحـــديث	رقم الصفحة
٣٤	إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات......	٢٧٥
٣٥	إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيت من جيرانه البلاء	١٦٣
٣٦	إن الله ليصلح بصلاح الرجل ولده، وولد ولده	١٦٣
٣٧	إن الله يدفع بالمصلي من أُمتي عمن لا يصلي	١٦٢
٣٨	أن الأنبياء لا يتركون في قبورهم بعد أربعين ليلة	٢٦٩
٣٩	أن خالد بن الوليد فقد قلنسوة يوم اليرموك فقال اطلبوها......	٣٢٢
٤٠	إن خير التابعين رجل يقال له: أويس	٤٧
٤١	إن الدعاء لا يرتفع حتي يصلى على رسول الله	١٥٧
٤٢	أن رجلاً دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر ورسول الله قائم يخطب	٤٧
٤٣	أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي فقال: أدع الله أن يُعافيني.....	١٩٩
٤٤	إن رسول الله لما حلق رأسه في حجة الوداع أخذت من شعره شعرات	٣٢٢
٤٥	أن عمر استأذن النبي أن يعتمر فأذن له	٤٧
٤٦	أن عمرو بن سالم الخزاعي ركب إلى رسول الله لما كان من أمر خزاعة	٢٥٧
٤٧	أن فاطمة بنت أسد أُم علي بن أبي طالب لما توفيت	٢١٤
٤٨	إن لأبي طالب عندي رحماً سأبلها ببلالها	٢٤٤

م	الحـــديث	رقم الصفحة
٤٩	إن مما أتخوف عليكم رجلاً قرأ القرآن حتى إذا رئيت عليه بهجته	٦١
٥٠	إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فبه خلق الجمعة	٢٧٠
٥١	إن الميت يتأذى بالجار السوء كما يتأذى به الحي	٣٩٣
٥٢	إن الميت يعرف من يحمله ويغسله	٢٦٥
٥٣	أن النبي ذكر عنده أبو طالب، فقال: لعله تنفعه شفاعتي...	٢٤١
٥٤	أن النبي قام عندها في ليلتها للصلاة فسمعته يقول: لبيك	٢٥٥
٥٥	أن النبي كان إذا جاء مكاناً من دار يعلى استقبل اليت ودعا	٣٦٣
٥٦	أن الني لم يخدع إنساناً قط	٢٥١
٥٧	إنما بعثت لأُتمم مكارم الأخلاق	٩٧
٥٨	أنه أتى النبي فقال: ادع الله لي بالشهادة	٣٢٥
٥٩	أنه أتي النبي وعليه حُلتان من حلل اليمن	٣٢٥
٦٠	أنه جاء بإداوة من عند النبي قد غسل النبي وجهه	٤٢٨
٦١	أن وفد هوازن لما أتوا رسول الله بالجعرانة وقد أسلموا، قالوا: إنا أصل وعشيرة	٢١٣
٦٢	أي رب أين أبغيك، قال: ابغيني عند المنكسرة قلوبهم	١٩٣
٦٣	بأبي أنت وأمي، أنا رجل ذو بنين	٤٣٣
٦٤	بينما كسرى بن هرمز نائم ليلة في هذا الإيوان	٢٥٤
٦٥	تخلقوا بأخلاق الله	١٩٤

م	الحـــديث	رقم الصفحة
٦٦	تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي	٥٤٦
٦٧	تعرض أعمالكم على الموتى فإن رأوا حسناً استبشروا	٢٧٦
٦٨	ثم رأيت رجلاً يصدر الناس عن رأيه، لا يقول شيئاً إلا صدروا عنه	٢٢٣
٦٩	جاء أعرابي إلى النبي فقال: يا رسول الله لقد أتيناك ومالنا بعير يقط	٢١٠
٧٠	جيئ بأسير إلى رسول الله فقال له: تب فقال: اللهم إني أتوب إليك	٥٢٧
٧١	حياتي خير لكم، تحدثون ويحدث لكم	٥٨
٧٢	خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح	٥٦٤
٧٣	خرج علينا رسول الله بالهاجرة، فأتي بوضوء	٤٤٨
٧٤	الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم الدين	٤٤٩
٧٥	رأى سعد أن له فضلاً على من دونه	٢٣٢
٧٦	ربما ذكرت قول الشاعر وأنا انظر إلى وجه النبي يستسقي.....	٢١٠
٧٧	رعت بنو عامر بالبصرة في الزروع فبعث أبو موسى الأشعري في طلبهم	٣١٨
٧٨	زار النبي قبر أمه فبكى	٥٦٤
٧٩	سبقت رحمتي غضبي	٩٦
٨٠	سل تعط، فقال: أسألك مرافقتك في الجنة	١٥٤
٨١	شكوت إلى النبي سوء حفظي للقرآن	٣٤

م	الحـــديث	رقم الصفحة
٨٢	شكونا إلى رسول الله وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة......	٢٩٥
٨٣	سمعت ابن عمر يتمثل بشعر أبي طالب :وأبيض يستسقى.	٢٠٩
٨٤	شهدت رسول الله وأتاه رجل فقال : أنت رسول الله	٢٢٣
٨٥	الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته	٣٣٨
٨٦	طوبى لمن رآني	٥٤٥
٨٧	في كل ذات كبد رطبة أجر	٣٤١
٨٨	قال أبو جهل بن هشام: إن كان هذا هو الحق	٥٤٣
٨٩	قدم الجارود بن عبد الله وكان سيداً في قومه	٣٩٥
٩٠	قوموا نستغيث برسول الله من هذا المنافق	٣٧
٩١	كان رسول الله إذا جاءه السائل أو طلبت إليه حاجة قال :......	٢١٢
٩٢	كان رسول الله يخطب يوم الجمعة إلى جنب خشبة	٣٤٠
٩٣	كان رسول الله يستفتح بصعاليك المهاجرين	٢٣٣
٩٤	كان الرسول بمكة فأنزل الله ﴿وما كان الله معذبهم . . . ﴾....	٥٤٣
٩٥	كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: غفرانك	٥٤٣
٩٦	كان النبي إذا كربه أمر قال: يا حي يا قيوم	٤٤
٩٧	كان النبي يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها	٣٢٠
٩٨	كأني أنظر إلى موسى	٢٦٨
٩٩	كسر عظم الميت ككسره حياً	٢٧٩
١٠٠	كنت أخدم رسول الله وأقوم له في حوائجه	٢٣٠
١٠١	كنا مع النبي في سفر، فمررنا بشجرة فيها فرخا حمرة	٢٣٧

م	الحـــديث	رقم الصفحة
١٠٢	لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله	٣١٦
١٠٣	لا تجعلوني كقدح الراكب	١٥٧
١٠٤	لا ترفعوني فوق حقي	٥٣٢
١٠٥	لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود	٤٤٦
١٠٦	لا يزال أربعون رجلاً من أمتي قلوبهم على قلب إبراهيم......	١٦٥
١٠٧	لأستغفرن لهم سبعين وسبعين	٢٤٧
١٠٨	لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه	٢٧٩
١٠٩	لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد	١٩٦
١١٠	لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه إلى النبي	٢٤٥
١١١	لما مات النجاشي كنا نتحدث أنه لا يزال على قبره نور	٢٧٩
١١٢	لن يدخل أحدكم الجنة بعمله	٥٣٨
١١٣	لولا عباد الله ركع وصبية رضع لصب عليكم العذاب صباً....	١٦٢
١١٤	ليأتين على الناس زمان يخرج الجيش، فيطلب الرجل من أصحابي	٢٣٣
١١٥	ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يقرؤون كتاب الله	٤٣
١١٦	ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك..........	٤٤
١١٧	ما بعث الله نبياً مرسلاً إلا أمره أن يعرض على أمته	٢١٨
١١٨	ما بين بيت ومنبري روضة من رياض الجنة	٤٢٦
١١٩	ما ترجو لأبي طالب قال: كل الخير أرجو من ربي	٢٣٩
١٢٠	ما من أحد يسلم عليّ إلا رد الله عليّ روحي	٢٦٥

م	الحـــديث	رقم الصفحة
١٢١	ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا	٢٧٦
١٢٢	ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك......	١٥٧
١٢٣	ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة	٢٣٥
١٢٤	مر النبي بحائط من حيطان المدينة فسمع صوتاً	٣٣٩
١٢٥	مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر	٢٦٦
١٢٦	من أراد أن يتخذ في المدينة غيضة فليتخذ	٤٢٢
١٢٧	من تواضع لله رفعه	٥٥٤
١٢٨	من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إني أسألك	٢١٥
١٢٩	من علم أن الله ربي وأني نبيه صادقاً عن قلبه	٢٤٢
١٣٠	من فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة	٢٧٤
١٣١	من قال لأخيه: كافر، فقد باء بها أحدهما	٦١
١٣٢	من كان له فرطان من أمتي أدخله الله بهما الجنة	٣٣٧
١٣٣	من لم يشكر الناس لم يشكر الله	٥٢٨
١٣٤	من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين	٢٨٣
١٣٥	النجوم أمان للسماء	٥٤٥
١٣٦	نعم المال الصالح للرجل الصالح	٨٦
١٣٧	هذا أول يوم انتصف العرب من العجم، وبي نصروا	٢٥٥
١٣٨	هل تنصرون إلا بضعفائكم	٢٣٢
١٣٩	والذي نفس أبي القاسم بيده لينزل عيسى بن مريم إماماً مقسطاً	٢٧١

م	الحـــديث	رقم الصفحة
١٤٠	والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله	٥٢٧
١٤١	وكان النبي يبعث إلى المطاهر فيؤتى بالماء فيشربه	٤٣٢
١٤٢	وما أدراك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر	١٧٦
١٤٣	وما أنا حملتكم ولكن حملكم الله	٥٣٨
١٤٤	يا أيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان	٢٣٢
١٤٥	يا رسول الله إني أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه، قال: ابسط رداءك فبسطته	٤٧
١٤٦	يا رسول الله علمني سنة الأذان	٤٣٠
١٤٧	يا رسول الله قد أنكرت بصري، وأنا أصلي لقومي	٤٢٧
١٤٨	يا رسول الله، متى كنت نبياً؟ قال: لما خلق الله الأرضين........	١٩٤
١٤٩	يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال: وآدم بين الروح والجسد....	١٩٥
١٥٠	يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك	٢٣٨
١٥١	يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من عدد مضر	٢٢
١٥٢	يستجاب لأحدكم ما لم يعجل	٢٠٩

فهرس الآثـــار

م	الأثر	رقم الصفحة
١	أدخلت يدي في قبر عبد الله بن غالب إلى المرفق	٣٨٤
٢	إذا زرت النبي فهل أتوجه إليه أم إلى القبلة (الخليفة المنصور مع مالك)	٤٦٣
٣	أرقبوا محمداً في أهل بيته (أبو بكر الصديق)	٢٨٨
٤	أصاب الناس قحط في زمن عمر بن الخطاب فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ (مالك الدار)	٢٨٣
٥	أن أبا أيوب الأنصاري غزا بلاد الروم (عن أبي أيوب الأنصاري)	٣٨٥
٦	أن بلالاً الحبشي رأى في منامه النبي ﷺ وهو يقول له (عن بلال الحبشي)	٣٢٨
٧	أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له (عن عثمان)	٣١٢
٨	أن عقبة بن عامر الصحابي المشهور وصل المدينة في سبعة أيام (عن عقبة بن عامر)	٣٣٤
٩	أن عمر بعث جنداً إلى مدائن كسرى وأمّر عليهم سعد (عن عمر)	٣٣٦
١٠	إنْ قرأت هذا الإسناد على مجنون برئ (أحمد بن حنبل)..	٣٦٨
١١	أن مازناً لما تنحى عن قومه أتى موضعاً فابتنى مسجداً (البيهقي)..................	٤٤٥

م	الأثر	رقم الصفحة
١٢	إني لأتبرك بأبي حنيفة وأجيء إلى قبره في كل يوم (الشافعي)	٣٦٦
١٣	أنه رأى رجلاً بمدينة النبي صلَّى الله عليه وسلَّم أذن الصبح عند قبر رسول الله ﷺ (أبو القاسم ثابت بن أحمد ابن الحسين البغدادي)	٣٣٠
١٤	بعث بي المنصور إلى جعفر بن محمد (رزام مولى خالد بن عبد الله القسري)	٣٣٢
١٥	بلغنا أنه من وقف عند قبر النبي ﷺ فتلا هذه الآية (ابن أبي فديك)	٣٣٣
١٦	بلغني عن قبر أبي أيوب أن الروم يستصحون به (مالك)	٣٨٦
١٧	خرج معاوية يستسقي فلما قعد على المنبر قال (معاوية)	٣٥٨
١٨	خرجت من بغداد فاستقبلني رجل عليه أثر العبادة (أحمد ابن العباس)	٣٧٥
١٩	خطب عمر بن الخطاب أم كلثوم بنت أبي بكر إلى عائشة (عن عمر)	٣٣٤
٢٠	دخلت المدينة فانتهيت إلى قبر النبي ﷺ فإذا أعرابي (محمد بن حرب الباهلي)	١٢٠
٢١	دخلت المدينة وأنا بفاقة فأقمت خمسة أيام لم أذق ذواقاً (أبو الخير الأقطع)	٣٣٦
٢٢	رأيت جبريل عليه السلام في المنام فقال لي (ابن عساكر)..	٣٣١

م	الأثر	رقم الصفحة
٢٣	زرت قبر الزبير بن العوام صاحب النبي ﷺ وقرابته (أبو محمد عبد الله الكبري)	٣٨٧
٢٤	صعدنا في خلافة هشام بن عبد الملك إلى موضع دم ابن آدم (سعيد بن عبد العزيز)	٣٨٨
٢٥	قحط أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا إلى عائشة (عن عائشة)	٣١١
٢٦	قحط المطر عندنا بسمرقند في بعض الأعوام فاستسقى الناس (أبو الفتح نصر بن الحسن السكتي)	٣٧٦
٢٧	لقد رأيت عجباً، كنا بفناء الكعبة أنا وعبد الله بن عمر (الشعبي)	٣٨١
٢٨	لقد رأيتني ليالي الحرة وما في المسجد أحد من خلق الله (سعيد بن المسيب)	٢٧٢
٢٩	لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد (حذيفة)....................	١٠٣
٣٠	لقيت الأسد فقلت: أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ (الصحابي سفينة)	٣٢٣
٣١	لما أصاب آدم الخطيئة عظم كربه واشتد ندمه (محمد بن علي بن الحسين)	١٩٧
٣٢	لما كنت أسأل علياً الشيء فيأبى عليّ فأقول: بحق جعفر (عبد الله بن جعفر)	٣٥٧

م	الأثر	رقم الصفحة
٣٣	لو قرئ هذا الإسناد على مجنون لبرأ (عبد السلام بن صالح أبو الصلت الهروي)	٣٧١
٣٤	وكان بعض سلفنا من المحدِّثين إذا روى هذا الإسناد قال (الحافظ أبو نعيم)	٣٦٨
٣٥	كان جرير يستاك ويغمس رأس سواكه في الماء (عن جرير)	٤٣٢
٣٦	كان عندنا رجل بالمدينة إذا رأى منكراً لا يمكنه أن يغيره (أبو إسحاق القرشي)	٣١٨
٣٧	كان محمد بن المنكدر يجلس مع أصحابه قال فكان يصيبه صمات (عن محمد بن المنكدر)	٣٢٩
٣٨	كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن (ابن مسعود)	١٠٦
٣٩	كانوا إذا أمحلوا كشفوا عن قبره فمطروا (مجاهد)	٣٨٦
٤٠	كنت أنا والطبراني وأبو الشيخ في مدينة النبي ﷺ فضاق بنا الوقت (الحافظ أبو بكر بن المقرئ)	٣٣٥
٤١	كنت عند ابن عمر فخدرت رجله فقلت (عبد الرحمن بن سعد)	٣١٨
٤٢	كنت مع أبي بالشام فرأيت رجلاً مصروعاً (عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي)	٣٧٠
٤٣	كنت واقفاً على رأس أبي وعنده أحمد بن محمد بن حنبل (أبو العباس الخزاعي)	٣٦٩
٤٤	نفر من قدر الله إلى قدر الله (عمر بن الخطاب)	٢٣

م	الأثر	رقم الصفحة
٤٥	ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ ما سألوه إلا ثلاث عشرة مسألة (ابن عباس)	٣٦٥
٤٦	ما همني أمرٌ فقصدت قبر موسى بن جعفر فتوسلت به إلا سهل الله (الخلال)	٣٦٧
٤٧	والله إني لأعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر (عمر بن الخطاب)	٩٥
٤٨	ولما دخل علي بن موسى الرضا نيسابور وهو في عمارته على بغلته (علي الرضا)	٣٧٢

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٧
خطة البحث	٩
الباب الأول : حقيقة التوسل	١٣
الفصل الأول : تعريف التوسل لغة واصطلاحاً	١٥
الفصل الثاني : مفهوم التوسل	١٩
الفصل الثالث : أنواع التوسل	٤٤
الفصل الرابع : حكم التوسل وارتباطه بالعقيدة	٥١
هل يترتب على التوسل كفر أو إيمان؟	٦٠
الفصل الخامس : الدليل العقلي على ثبوت التوسل وجوازه	٧٦
الباب الثاني : مشروعية التوسل	٧٩
الفصل الأول : الأدلة النقلية من القرآن	٨١
المبحث الأول : السبب والمسبب	٨١
المبحث الثاني : سرد الأدلة النقلية من القرآن الكريم	٩٩
الدليل الأول	٩٩
الدليل الأول	٩٩
الدليل الثالث	١٠٢
الدليل الرابع	١١٦
الدليل الخامس	١٢٨
الدليل السادس	١٢٩

الموضوع	رقم الصفحة
الدليل السابع	١٤٠
الدليل الثامن	١٤٥
الدليل التاسع	١٤٧
الدليل العاشر	١٥٠
الدليل الحادي عشر	١٥٢
الدليل الثاني عشر	١٥٤
الدليل الثالث عشر	١٥٨
الدليل الرابع عشر	١٦٠
الدليل الخامس عشر	١٦٢
الدليل السادس عشر	١٦٨
الدليل السابع عشر	١٧٣
الدليل الثامن عشر	١٧٧
الدليل التاسع عشر	١٧٨
الدليل العشرون	١٨٤
الدليل الحادي والعشرون	١٨٨
الفصل الثاني: الأدلة النقلية من الحديث والأثر	١٨٩
المبحث الأول: التوسل بالنبي ﷺ قبل ولادته	١٩١
الدليل الأول	١٩٤
الدليل الثاني	١٩٦
الدليل الثالث	١٩٦

الموضوع	رقم الصفحة
الدليل الرابع	١٩٧
المبحث الثاني: التوسل به ﷺ في حياته	١٩٩
الدليل الأول	١٩٩
الدليل الثاني	٢٠٩
الدليل الثالث	٢١٠
الدليل الرابع	٢١٢
الدليل الخامس	٢١٣
الدليل السادس	٢١٤
الدليل السابع	٢١٥
الدليل الثامن	٢١٨
الدليل التاسع	٢٢٣
الدليل العاشر	٢٣٠
الدليل الحادي عشر	٢٣٢
الدليل الثاني عشر	٢٣٦
الدليل الثالث عشر	٢٣٧
الدليل الرابع عشر	٢٣٨
الدليل الخامس عشر	٢٤٥
الدليل السادس عشر	٢٥٥
المبحث الثالث: التوسل به ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى	٢٥٩
المطلب الأول: حياة الأنبياء في قبورهم	٢٦١

الموضوع	رقم الصفحة
١ ـ الأدلة من القرآن الكريم	٢٦٣
الدليل الأول	٢٦٣
الدليل الثاني	٢٦٤
٢ ـ الأدلة من الحديث الشريف	٢٦٥
الدليل الأول	٢٦٥
الدليل الثاني	٢٦٦
الدليل الثالث	٢٧٠
الدليل الرابع	٢٧١
الدليل الخامس	٢٧١
المطلب الثاني : أدلة التوسل بالنبي ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى	٢٨١
تمهيد هام : في عدم التفرقة بين الحياة والموت بالنسبة للتوسل	٢٨١
الدليل الأول على التوسل بالنبي ﷺ بعد انتقاله	٢٨٣
الرد على ابن باز في استنكاره حديث بلال بن الحارث	٢٨٩
تقرير العلامة الشيخ محمد متولي الشعراوي	٢٩٢
الدليل الثاني	٣١١
الدليل الثالث	٣١٢
الدليل الرابع	٣١٥
الدليل الخامس	٣١٦
الدليل السادس	٣١٧

الموضوع	رقم الصفحة
الدليل السابع	٣١٧
الدليل الثامن	٣١٨
الدليل التاسع	٣١٨
الدليل العاشر : أحاديث التبرك	٣١٩
الحديث الأول	٣٢٠
الحديث الثاني	٣٢٠
الحديث الثالث	٣٢١
توزيع النبي ﷺ شعره على أصحابه في حجة الوداع	٣٢٢
الدليل الحادي عشر	٣٢٣
الدليل الثاني عشر : استغاثة الصحابي الجليل ضمرة بن ثعلبة السلمي بالنبي ﷺ في الحروب والغزوات	٣٢٥
المطلب الثالث : الاستغاثة والتوسل بقبر النبي ﷺ	٣٢٨
زيادة أدلة من السنة الشريفة	٣٣٧
الدليل الأول	٣٣٧
الدليل الثاني	٣٣٩
الدليل الثالث	٣٤٠
المبحث الرابع : التوسل بالأنبياء والصالحين	٣٤٣
المطلب الأول : التوسل بذوات الأنبياء والصالحين	٣٤٣
الدليل الأول	٣٤٣

الموضوع	رقم الصفحة
ذكر بعض الاعتراضات على حديث توسل عمر بن الخطاب بالعباس رضي الله عنهما، والجواب عليها	٣٤٨
الدليل الثاني	٣٥٣
الدليل الثالث	٣٥٥
الدليل الرابع	٣٥٥
الدليل الخامس	٣٥٦
الدليل السادس	٣٥٦
الدليل السابع	٣٥٦
الدليل الثامن	٣٥٦
الدليل التاسع	٣٥٧
الدليل العاشر	٣٥٨
الدليل الحادي عشر	٣٦٠
المطلب الثاني: التوسل بأرواح وآثار الأنبياء والصالحين	٣٦٣
الدعاء أمام مقام الأنبياء تبركاً وتشفعاً إلى الله بهم	٣٦٣
توسل الإمام الشافعي بالإمام أبي حنيفة عند قبره	٣٦٥
توسل الإمام الخلال شيخ الحنابلة بقبر الإمام موسى الكاظم	٣٦٧
توسل الأئمة بسلسلة آل البيت عليهم السلام	٣٦٨
استشفاء الحافظ المقدسي وتوسله بقبر الإمام أحمد بن حنبل	٣٧٣
توسل أئمة أهل السنة بروح معروف الكرخي	٣٧٣

الموضوع	رقم الصفحة
سقيا الله سبحانه لمن استسقى بالإمام البخاري وقصد قبره متوسلاً به	٣٧٦
تعظيم المجاورين للإمام البخاري والتوسل بهم تعظيماً لهم	٣٧٧
تضرع الإمامين ابن خزيمة وابن حبان أمام قبر الإمام علي الرضا عليه السلام	٣٧٨
استسقاء أهل الشام بالصحابية أم حرام الأنصارية	٣٨٠
الاستغاثة بدعاء أبي بكر البلاطنسي	٣٨٠
توسل عبدالملك بن مروان بحق الطائفين حول البيت	٣٨١
الاستسقاء بروح عبدالرحمن بن ربيعة	٣٨٣
ما شوهد بروح عبدالله بن غالب من البركة	٣٨٤
ما رؤي من قبر أبي أيوب الأنصاري من البركة	٣٨٤
رائحة المسك تفوح من قبر أحد الصالحين	٣٨٦
كرامة لزائر قبر الزبير بن العوام	٣٨٧
رؤية النور على قبر النجاشي	٣٨٨
مغارة الدم في جبل قاسيون بدمشق مظنة استجابة الدعاء	٣٨٨
التبرك بالدفن قرب الصالحين	٣٩٣
قصة الجارود بن عبدالله وقس بن ساعدة	٣٩٥
توسل الإمام المحدث أبو علي الحسين بن علي الدقاق بالإمام بن فورك	٤٠٠
المطلب الثالث: التوسل ببركة الأماكن والبقاع	٤٠١

رقم الصفحة	الموضوع
٤٢٠	**سرد أدلة التوسل بالبقاع والأماكن**
٤٢١	**الدليل الأول من الكتاب**
٤٢٦	**الأدلة من السنة**
٤٢٦	الدليل الأول
٤٢٧	الدليل الثاني
٤٢٨	الدليل الثالث
٤٢٩	الدليل الرابع
٤٢٩	الدليل الخامس
٤٣٠	الدليل السادس
٤٣٢	الدليل السابع
٤٣٥	الدليل الثامن
٤٤٠	الدليل التاسع
٤٤٣	**الدليل من الأخبار**
٤٤٣	الدليل الأول والثاني
٤٤٧	تبرك أم سلمة بشعر رسول ﷺ واستشفاء الناس به توسلاً واستشفاعاً واستغاثة
٤٤٨	التبرك بفضل وضوء الناس
٤٥١	**الفصل الثالث : العلماء وموقفهم من التوسل**
٤٥٣	**المبحث الأول : موقف السلف والخلف من التوسل**

الموضوع	رقم الصفحة
المطلب الأول: في ذكر توسلات وأقسام الصحابة برسول الله ﷺ أثناء معاركهم في نشر الإسلام	٤٥٥
١- توسل سيدنا ضرار بن الأزور	٤٥٥
٢- توسل سيدتنا زوج أبان بن سعيد	٤٥٥
٣- قسم أبو عبيدة برسول الله ﷺ	٤٥٥
٤- توسل عبد الله بن جعفر بن أبي طالب عليه السلام	٤٥٦
٥- توسل سيدنا عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه وشيبة أبيه	٤٥٦
٦- توسل خالد بن الوليد رضي لله عنه بالقلنسوة	٤٥٧
٧- قسم عامر بن الربيعة بعيشة رسول الله ﷺ	٤٥٧
٨- قسم سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه بعيشة رسول الله ﷺ	٤٥٧
٩- توسل العباس عم رسول الله عليه وآله وسلم أمام قبر الرسول	٤٥٨
١٠- قسم خالد بن الوليد رضي الله عنه بالمنبر والروضة	٤٥٨
١١- توسل قيس بن هبيرة رضي الله عنه ببركة النبي ﷺ وقسم خالد لقيس بالله ورسوله	٤٥٩
١٢- قسم عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بالله ورسوله ﷺ	٤٥٩
١٣- قسم خالد بن الوليد على عبد الرحمن رضي الله عنهما بشيبة أبيه وبيعته	٤٦٠
١٤- نيلُ النصر من خالد رضي الله عنه ببركة شعرات النبي ﷺ......	٤٦٠

الموضوع	رقم الصفحة
١٥- نصرُ المسلمين على الروم برؤية رسول الله ﷺ وبركته	٤٦٠
١٦- حديث خالد رضي الله عنه مع قائد الروم عن توسل آدم بالنبي ﷺ	٤٦١
١٧- قَسم ضرار على فرسه برسول الله ﷺ	٤٦٢
المطلب الثاني: موقف الإمام مالك والشافعي وأحمد وغيرهم من التوسل	٤٦٣
موقف الإمام مالك	٤٦٣
توسل الإمام الشافعي بآل البيت عليهم السلام	٤٦٣
توسل الإمام أحمد بن حنبل بالإمام الشافعي رحمهما الله	٤٦٤
المطلب الثالث: موقف جماعة من الأئمة المحدثين والفقهاء والأصوليين	٤٦٧
استشفاع الإمام ابن قدامة المقدسي بالنبي ﷺ وتوسله به عند قبره الشريف وحثه المسلمين على فعل ذلك	٤٦٧
كلام حجة الإسلام الإمام الغزالي في التبرك بزيارة قبور الأنبياء والصالحين	٤٦٩
الإمام ابن الحاج يقول بجواز الدعاء أمام قبور الصالحين	٤٦٩
قول الإمام السبكي بحسن التوسل بالنبي ﷺ	٤٧٠
أبيات للحافظ ابن حجر العسقلاني في التوسل والاستغاثة برسول الله ﷺ	٤٧١
الإمام الشوكاني يقول بجواز التوسل بالنبي ﷺ حياً وبعد انتقاله	٤٧١

الموضوع	رقم الصفحة
الإمام شمس الدين محمد بن العلامة شهاب الدين أحمد الرملي يقول بجواز الاستغاثة بالأنبياء والأولياء	٤٧٢
الشيخ حسن العدوي يجيز التوسل	٤٧٣
الإمام السامري الحنبلي والتوسل بالنبي ﷺ	٤٧٤
الإمام السامري والتوسل بالرجل الصالح	٤٧٤
الإمام النووي يحث المسلمين على التوسل بالنبي ﷺ والاستشفاع به عند قبره الشريف	٤٧٥
الإمام السامري والشيخ علاء الدين المرداوي والتوسل بالرجل الصالح	٤٧٥
محمد بن عبدالوهاب يقول بجواز التوسل بالصالحين في قبورهم ويتبرأ ممن نسب إليه إنكار ذلك	٤٧٦
تنبيه: ابن تيمية يقر بالتوسل	٤٧٩
العارف بالله الشيخ يوسف النبهاني يقول بجواز التوسل والاستغاثة	٤٨٢
الشيخ محمد الحامد يقول بجواز التوسل بالصالحين	٤٨٣
الإمام الشعراني يقول بالتوسل	٤٨٥
تنبيه: ابن القيم يثبت الواسطة بين الله وعباده	٤٨٦
ذكر أسماء أشهر من قال بالتوسل من كبار الأئمة الحفاظ والمحدثين والفقهاء والمفسرين وغيرهم وبعض المعاصرين	٤٨٩
١ـ الأئمة الأربعة الأعلام	٤٩٩

رقم الصفحة	الموضوع
٥٠٠	**٢ـ أسماء بعض المتوسلين من مشهوري الفقهاء ممن لهم نص صريح في التوسل**
٥٠٢	**٣ـ بيان أسماء بعض الفقهاء المتوسلين بالنبي ﷺ على الترتيب الأبجدي**
٥١١	١ـ ذكر عدد من أعيان المفسرين المتوسلين بالنبي ﷺ والمقرين له
٥١٢	٢ـ ذكر عدد من أعيان أصحاب المعاجم واللغة المتوسلين بالنبي ﷺ
٥١٣	٣ـ ذكر عدد من علماء التاريخ المتوسلين بالنبي ﷺ والمقرين به
٥١٩	٤ـ تحرير جيد للعلامة الشوكاني في جواز التوسل ورده على المخالفين
٥٢٥	٥ـ إيقاظ
٥٣٥	**المبحث الثاني: شبهات وردود**
٥٤٢	المطلب الأول: آيات استدل بها المعارضون على نفي التوسل
٥٤٩	**المطلب الثاني:** ردود على كتاب الواسطة بين الحق والخلق لابن تيمية
٥٦٧	**الخاتمة**
٥٦٩	**فهرس المراجع**
٥٨٥	**فهرس الآيات القرآنية**
٥٩٦	**فهرس الأحاديث**
٦٠٥	**فهرس الآثار**
٦١٠	**الفهرس العام**

